تأليف

الدكتور رمزي نعناعة

دكتوراة في التفسير والحديث من جامعة الأزهر

مدرس في كلية الشريعة بغزة

نشر وتوزيع

دار القلم و دار الضياء

بدمشق . بيروت

نال هذا البحث درجة الدكتوراة في التفسير والحديث من كلية أصول الدين
بجامعة الأزهر وحاز على تقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الثانية

تقديم

بقلم سماحة الأستاذ الشيخ عبد الحميد السائح
وزير الأوقاف والشؤون والمقدسات الاسلامية في المملكة الأردنية الهاشمية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ، ومن سار على هديه إلى يوم الدين . وبعـــد : فإن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة، والكتاب المقدس الوحيد ، الذي وصـــل إلينا بنفسه بالروايات المتواترة ، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، تنزيل من حكيم حميد ، وقد تكفل الله بحفظه وصيانته من العبث والتغيير والتبديل بقوله سبحانه : (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون) .

ولعل من إعجاز هذا القرآن أنه رغم مضي أربعة عشر قرناً على نزوله ، وانكباب فطاحل العلماء في كل عصر على تفسيره ، وبيان مجمله ، وشرح غوامضه ، فإنه لا يوجد تفسير واحد يغني قارئه عن الرجوع لما سواه ، نظراً لمـــا احتوته معظم كتب التفسير من أمور شتى ، أبعدت القارئ عن هداية القرآن ومقاصد القرآن ، ولكن أخطر تلك الأمور الاسرائيليات ، التي وضعت في ثنايا التفسير، لتوضيح بعض الآيات القرآنية ، وهي دخيلة على الاسـلام ومنافية لتعاليمه ، ومصادمة لبعض قواعده ، وسمو أهدافه .

ولا يوجد كتاب شامل ينبه المسلمين إلى ذلك الخطر ، ويضع الخطط الواضح ، الذي يكشف عن ذلك ، وقد اطلعت على النهج الذي سلكه الأستاذ رمزي محمد كمال نعناعة في رسالته « الاسرائيليات وأثرها في كتب التفسير » التي أعدها للحصول على الدكتوراة في التفسير ، ومنه يتبين أنه هـــدف إلى خدمة

كتاب الله تعالى بيان ما أحاط معظم كتب التفسير من الاسرائيليات ، التي عملت على إفساد عقائد بعض المسلمين ، وأوجدت الفرصة للمتشككين والمتصيدين ، للهجوم على الاسلام ، كأن تلك الاسرائيليات جزء من القرآن أو بعض تعاليم الاسلام؛ مع أنها مدسوسة على ذلك، ولاشك أن الجهود التي بذلها الأستاذ في رسالته جهود مضنية ، ولكنها تهون في سبيل الهدف العظيم الذي قصد إليه .

ولما كان كتاب الله تعالى هو دستور المسلمين ، ومرجعهم الأول في العقيدة والتشريع ، ولما كان خطر الاسرائيليات أمراً لا يُرتاب فيه ، فإن الجهود التي تبذل في تنقية كتب التفسير من تلك الاسرائيليات ، وتوضيح أهدافها وآثارها ، والتحذير من شرها جديرة بكل تقدير ، لذلك فإن هذه الرسالة تقدم للمكتبة الاسلامية خدمة كبيرة ، وثروة عظيمة ، يجدر بالعلماء والمتعلمين ، ورواد الحق وطلاب الحقيقة أن يحرصوا على اقتنائها ، ويعملوا على الإفادة منها حتى يكونوا على بينة من أمرهم حين يطلعون على كتب التفسير ، ويروا فيها تلك الصوارف عن هدايته ، والحواجز عن الوصول إلى مقاصده ، والتضارب في الآراء ، والانشغال بما لا طائل تحته ، من بحوث وتفاصيل ، لم يكلفنا الاسلام بها ، وليس في إضاعة الوقت بها فائدة اللهم إلا العمل على إبطالها ، وعدم التعويل عليها .

وأرجو الله سبحانه أن يجزي العاملين على خدمة كتاب الله ، وتيسير وسائل فهمه ، والاسترشاد بهدايته ، ما هم به جديرون ، والله ولي التوفيق .

* * *

خطبة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .

والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه والتابعين .

وبعد فإن الله جلت حكمته أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم معجزة كبرى وهداية عظمى ، فتلقته الأمة بكل عناية ورعاية ، وبذل العلماء أقصى جهودهم في حفظه وتفسيره ، ليسهل على المسلمين فهمه وتطبيقه .

سعد المسلمون بهذا الكتاب الكريم الذي جعل الله فيه الهدى والنور ، ومنه طب الانسانية وشفاء ما في الصدور ، وظلوا يفهمونه على حقيقته وصفائه ، ويعملون به على بينة من هديه وضيائه ، ثم جدّت أمور وحدثت أحداث ؛ دخل بسببها في التفسير دخيل كثير ، وقد جاهد العلماء في تنقية تفسير كتاب الله من الدخيل جهاد الأبطال من الوقت الذي بذرت فيه بذور الكذب والاختلاق والدس إلى اليوم ، فلم يخل عصر من علماء يذبون عن الدين ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

ولقد كان من آثار ضعف الاشتغال بالسنة وعلومها ، وتساهل بعض المفسرين والاخباريين في نقل الروايات الدخيلة على الاسلام في كتبهم ، أن راجت سوق الاسرائيليات وانتشرت في كتب العلوم : كالتفسير والوعظ والتصوف والأخلاق وغيرها ، كما انتشرت على ألسنة الناس وتلقوها بالقبول وشغلوا بها وأذاعوها ، فكانت بلاءً على الاسلام والمسلمين ، وحجاباً على فهم كتاب رب العالمين ، ومثاراً للإرجاف والتشكيك من قبل المارقين والملحدين .

فلما رأيت هذا الخلط الذي سودت به صفحات أكثر كتب التفسير ، وذلك الدس الذي قصد من ورائه تشويه وجه الاسلام ، والاساءة إلى سمعة المسلمين ، عزمت الرأي أن يكون موضوع رسالتي التي أتقدم بها للحصول على الدكتوراة في التفسير هو : (الاسرائيليات وأثرها في كتب التفسير) .

ولقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع ثلاثة عوامل :

العامل الأول : هو أنني وجدت أن المفسرين جميعاً من عهد ابن جرير الطبري إلى عهد السيد محمد رشيد رضا قد وقعوا في رواية الاسرائيليات ، ولكن على تفاوت بينهم في ذلك قلة وكثرة ، وسكوتاً عنها وتعقيباً عليها .

والعامل الثاني : هو أنني قصدت أن أخدم كتاب ربي عن طريق المساهمة في تنقية كتب التفسير من الروايات الدخيلة التي اشتملت عليها ودست فيها .

والعامل الثالث : هو أنني لم أجد من سبق إلى الكتابة في هذا الموضوع كتابة جامعة لأطرافه ، متناولة لكل ما يتصل به ، اللهم إلا نتفاً يسيرة هنا وهناك ، مبعثرة في كتب القدماء والمحدثين .

وفي سبيل الوصول إلى جمع الموضوع من أطرافه ، وإخراجه للمكتبة الاسلامية وافياً متقناً ، أجهدت نفسي بالرجوع إلى كل ما أمكنني الرجوع إليه من المصادر التي حوّمت حول هذا الموضوع المخطوط منها والمطبوع .

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن أعالجه في مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة :

أما المقدمة فتشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : في نشأة التفسير وتطوره .

والمبحث الثاني : في علاقة القرآن الكريم بالكتب السماوية ومنزلته منها .

والمبحث الثالث : في بيان ما طرأ على التوراة والانجيل من تحريف وتبديل .

وأما الباب الأول : فيشتمل على فصلين :

الفصل الأول : تعريف الاسرائيليات ، وبيان أقسامها وحكم روايتها .

الفصل الثاني : في بيان كيفية امتزاج الثقافة الاسرائيلية بالثقافة الاسلامية وكيفية تسربها إلى تفسير القرآن الكريم .

وأما الباب الثاني : فقد قسّمته إلى فصلين أيضاً .

الفصل الأول : الاسرائيليات في دور الرواية .

الفصل الثاني : الاسرائيليات في دور التدوين .

وأما الباب الثالث : — وهو أطول أبواب الرسالة وأهمها — فقد خصصته للكلام عن الاسرائيليات في كتب التفسير .

وأما الباب الرابع : فقد رتّبته على فصلين :

الفصل الأول : موازنة بين الاسرائيليات في كتب التفسير ومصادرها في أسفار أهل الكتاب .

الفصل الثاني : المستشرقون والاسرائيليات .

وأما الخاتمة : فقد اشتملت على أربع نقاط :

النقطة الأولى : آثار الاسرائيليات على الاسلام وعقائد المسلمين .

النقطة الثانية : مسؤولية المفسرين الذين رووا الاسرائيليات .

النقطة الثالثة : واجب المفسرين إزاء هذه الاسرائيليات .

النقطة الرابعة : مقترحات في بيان سبل الخلاص من الاسرائيليات وآثارها السيئة .

وأخيراً .. فإن واجب عرفان الجميل يقتضيني أن أتوجه بالشكر إلى كل من أسدى إليّ عوناً وسهل لي صعباً ، وأخص بالذكر المشرفين على هذه الرسالة الأستاذين الجليلين : فضيلة الشيخ محمد علي أبو الروس (عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر) ، وفضيلة الشيخ محمد حسين الذهبي .

كما أخص بالذكر وزارة الأوقـــاف والشؤون والمقدسات الاسلامية في الأردن ، فقد أوفدتني إلى الأزهر الشريف على نفقتها ، وأتاحت لي فرصة التفرغ لاعداد هذه الرسالة .

والله أسأل أن يوفقني دائماً لخدمة كتابه الحكيم ، وأن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم ، إنه ولي التوفيق ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

القاهرة

١٣٨٨/١١/١٦ هـ — ١٩٦٩/٢/٣ م

رمزي نعناعـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

وتشتمل على ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : في نشأة التفسير وتطوره .
- المبحث الثاني : في علاقة القرآن الكريم بالكتب السماوية الأخرى ومنزلته منها .
- المبحث الثالث : في بيان ماطرأ على التوراة والانجيل من تحريف وتبديل .

المبحث الأول

نشأة التفسير وتطوره

أولاً : التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد أصحابه :

أرسل الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. أرسله على حين فترة من الرسل ، ضل فيها الناس

الطريق إلى الله ، وكانوا بأمس الحاجة إلى من يقودهم إلى سواء السبيل ، ويأخذ بأيديهم إلى ما فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم لهذه الانسانية السادرة في غيها ، المتخبطة في ضلالها، الهادي الذي لايضل ، والمنقذ الذي سلك بها طريق النجاة والفلاح ، ووصلها بالله رب العالمين . وكان القرآن الكريم الذي أيد الله به نبيه عليه الصلاة والسلام هو النور الذي بدد ظلمات الجهالة ، والدستور الذي رسم للانسانية معالم حياة سعيدة ، بما اشتمل عليه من تشريعات سامية ، وتوجيهات حكيمة .

ولقد عرف المسلمون حق المعرفة قيمة القرآن الكريم ومبلغ ما فيه من هداية ونور ، وأيقنوا أنه حبل الله المتين ، من تمسك به سلم ، ومن عمل به غنم ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم . عرف المسلمون هذا ، فاتخذوا القرآن الكريم إمامهم ، وكانت لهم به عناية بالغة ، تظهر بوضوح وجلاء في مبلغ اهتمامهم بحفظه وعنايتهم بتفهم معانيه وأسراره ، والوقوف على حكمه وأحكامه .

وفي القرآن معان يدق فهمها على بعض الناس ، وأحكام لايدركها إلا من حباهم الله عقلاً ذكياً وقلباً واعياً .

والناس على اختلاف عصورهم متفاوتون في الفهم والإدراك ، فمن كان منهم ذا بصيرة نيّرة وذهن لمّاح ، أمكنه أن يقف على كثير من الأمور التي يعجز عن إدراكها من حرموا سعة الفهم وقوة الادراك .

وفي القرآن الكريم من المعاني والأسرار والحكم والأحكام مالا قبل لأحد بفهمه وإدراكه إلا بتوقيف من صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم .

وأمام هذا التفاوت في فهم معاني القرآن الكريم ، نستطيع أن نقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هو المرجع الأول لفهم ما غمض على أصحابه من معاني القرآن الكريم ، فقد أنزله الله عليه ، وضمن له حفظه ، وتعهد له ببيانه ،

وذلك حيث يقول جل شأنه : ﴿ إنَّ علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتَّبعْ قرآنه . ثم إنَّ علينا بيانه ﴾[1] وهو في الوقت نفسه مكلف من قبل الله عزوجل ببيان مايخفى على الناس من معانيه ، كما جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذِّكْرَ لتبين للناس ما نُزِّلَ إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتابَ والحكمةَ ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾[3] .

فالسنة إذن تبين القرآن من ناحية عمومه وخصوصه ، ومطلقه ومقيده ، وناسخه ومنسوخه ، ومنطوقه ومفهومه ، ومحكمه ومتشابهه ، وغير ذلك مما أفاض فيه علماء أصول الفقه .

ولقد أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم تفسيرات لبعض ما خفي من معاني القرآن الكريم على بعض أصحابه ، فمن ذلك مثلا ما تضمنته الروايات التالية من تفسيرات :

أخرج الامام أحمد والترمذي وغيرهما عن عدي بن حاتم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المغضوب عليهم هم اليهود ، وإن الضالين هم النصارى »[4] .

وأخرج الامام أحمد والشيخان وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم .... الآية ﴾[5] شق ذلك على الناس ، فقالوا : يارسول الله وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : « إنه ليس

---

(١) الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ من سورة القيامة .

(٢) من الآية ٤٤ من سورة النحل.

(٣) الآية ١٥١ من سورة البقرة .

(٤) الاتقان للسيوطي (٢ ـ ١٩١)

(٥) من الآية ٨٢ من سورة الأنعام .

الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : (إن الشرك لظلم عظيم) إنما هو الشرك »[1] .

وفسر صلى الله عليه وسلم الحساب اليسير بالعرض ، فقد أخرج الامام أحمد والشيخان وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نوقش الحساب عذب » قلت : أليس يقول الله (فسوف يحاسب حساباً يسيراً) قال : « ليس ذلك بالحساب ، ولكن ذلك العرض »[2] .

وروي أنه لما نزل قوله تعالى : (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود .... الآية)[3] عمد عدي بن حاتم رضي الله عنه إلى عقال أبيض وآخر أسود ، ووضعها تحت الوسادة ، وأكل وشرب حتى ميز بينهما على ضوء النهار ، وذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فبين له معنى الخيط الأبيض والخيط الأسود بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا بل هو سواد الليل وبياض النهار »[4] .

وغير هذا كثير مما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد كان الصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أقدر الناس على فهم القرآن الكريم لأنه نزل بلغتهم ، ولأنهم شاهدوا الظروف والأحوال التي نزل فيها ، ومع هذا فقد كانوا — رضوان الله عليهم — متفاوتين في العلم بمعاني

---

(١) الاتقان (٢ — ١٩٣) .

(٢) المصدر السابق (٢ — ٢٠٣) .

(٣) من الآية ١٨٧ من سورة البقرة .

(٤) ونص الحديث كما رواه البخاري في باب التفسير (٦ — ٣١) : « أخذ عدي عقالاً أبيض وعقالاً أسود ، حتى كان بعض الليل ، نظر فلم يستبينا ، فلما أصبح قال : يا رسول الله ، جعلت تحت وسادتي عقالين ، قال « إن وسادك إذاً لعريض ، إن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك » . وفي رواية أخرى عنه قال : قلت يا رسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، أهما الخيطان ؟ قال : « إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين » ثم قال : « لا بل هو سواد الليل وبياض النهار » .

القرآن [1] حتى لقد توقف بعضهم في فهم معاني بعض غريب القرآن كما وقع ذلك من عمر رضي الله عنه : فقد روي أن عمر كان على المنبر فقرأ ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ [2] ثم سأل عن معنى (التخوف) ، فقال له رجل من هذيل : التخوف عندنا التنقص ، ثم أنشده :

تخوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكًا قَرِدًا كما تَخَوَّفَ عودَ النبعةِ السَّفَنُ [3]

وأخرج أبو عبيد من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما : أنا فطرتها، يقول أنا ابتدأتها [4].

فإذا كان عمر بن الخطاب يخفى عليه معنى التخوف وابن عباس - وهو ترجمان القرآن - لا يظهر له معنى فاطر إلا بعد سماعها من غيره ، فكيف شأن غيرهما من الصحابة ؟ [5]

ولقد دقت بعض إشارات القرآن الكريم على كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلحظها إلا عبد الله بن عباس وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فقد روى البخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكان بعضهم وجد في نفسه ، وقال : لم

---

(١) روى البخاري في صحيحه في باب فضل الجهاد والسير بسنده إلى أبي جحيفة رضي الله عنه أنه قال : قلت لعلي رضي الله عنه : هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله ؟ قال : لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلا في القرآن .

(٢) من الآية ٤٧ من سورة النحل .

(٣) الموافقات للشاطبي (٢ : ٥٥) ط تونس سنة ١٣٠٢ هـ . والتامك : السنام ، والقرد : الذي تجعد شعره فكان كأنه وقاية للسنام ، والنبعة : شجر للقسي والسهام ، والسفن : كل ما ينحت به غيره .

(٤) الاتقان (١ : ١١٣) .

(٥) انظر التفسير والمفسرون (١ : ٣٥) .

تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من قد علمتم . فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم ، قال : ماتقولون في قول الله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح) فقال بعضهم : أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذلك تقول ياابن عباس ؟ فقلت : لا . قال فما تقول ؟ قلت هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له ، قال : (إذا جاء نصر الله والفتح — وذلك علامة أجلك — فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) فقال عمر : ما أعلم منها إلا ماتقول»[1].

ومن ذلك ماروي من أن الصحابة فرحوا حينما نزل قول الله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم ... الآية)[2] لظنهم أنها مجرد إخبار وبشرى بكمال الدين ، ولكن عمر بكى وقال :« ما بعد الكمال إلا النقصان » مستشعراً نعي النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كان مصيباً في ذلك إذ لم يعش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها إلا واحداً وثمانين يوماً[3].

ومما يشهد على أن الصحابة — رضوان الله عليهم — كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم معاني القرآن الكريم قول مسروق :« لقد جالست أصحاب محمد ﷺ ، فوجدتهم كالإخاذ ، فالإخاذ يروي الرجل ، والإخاذ يروي الرجلين ، والإخاذ يروي العشرة ، والإخاذ يروي المائة ، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الإخاذ »[4] .

ثانياً : التفسير في عهد التابعين :

وفي عصر التابعين وجدنا جماعة كثيرة تتصدر لتفسير كتاب الله تعالى ،

---

(١) صحيح البخاري — باب التفسير .

(٢) من الآية ٣ من سورة المائدة .

(٣) الموافقات الشاطبي (٣ : ٢٠٥)

(٤) طبقات ابن سعد (٢ : ٣٤٣) طبعة بيروت، والإخاذ : مجتمع الماء .

وتشرح لمن تتلمذوا لهم ما يخفى عليهم من معانيه ، وأشهرهم : سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٥ هـ ، ومجاهد بن جبر المتوفى سنة ١٠٣ هـ ، وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى سنة ١٠٥ هـ ، وطاووس بن كيسان اليماني المتوفى سنة ١٠٦ هـ ، وعطاء بن أبي رباح المتوفى سنة ١١٤ هـ ، وقد كان هؤلاء أعلم الناس بالتفسير لأنهم أخذوه عن ترجمان القرآن ابن عباس - رضي الله عنهما - بمكة .

ووجدنا أيضاً أصحاب ابن مسعود في الكوفة ، وأشهرهم : مسروق بن الأجدع الكوفي المتوفى سنة ٦٣ هـ ، والأسود بن يزيد المتوفى سنة ٧٥ هـ ، وعلقمة بن قيس المتوفى سنة ٦٣ هـ ، وعامر الشعبي المتوفى سنة ١٠٥ هـ ، وقتادة بن دعامة السدوسي البصري المتوفي سنة ١١٧ هـ ، وأبو سعيد الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ .

وكذلك وجدنا بالمدينة زيد بن أسلم العدوي المدني المتوفي سنة ١٣٦ هـ ، وعنه أخذ ابنه عبد الرحمن بن زيد المتوفى سنه ١٨٢ هـ ، ومالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وعبد الله بن وهب المتوفى سنة ١٩٧ هـ وغيرهم [١] .

قال ابن تيمية : وأما التفسير ، فأعلم الناس به أهل مكة ، لأنهم أصحاب ابن عباس . كمجاهد ، وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وغيرهم من أصحاب ابن عباس : كطاووس ، وأبي الشعثاء ، وسعيد بن جبير ، وأمثالهم ، وكذلك أهل الكوفة أصحاب ابن مسعود ، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم . وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير ، وأخذه عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن وعبد الله بن وهب [٢] .

وقد اعتمد المفسرون من التابعين في فهمهم لكتاب الله على ماجاء في الكتاب نفسه ، وعلى مارووه عن الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى مارووه

---

(١) أنظر تفسير المراغي (١ : ٧ - ٨) وكشف الظنون لحاجي خليفة (١ : ٤٣٠) .

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٢٣ - ٢٤ .

عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم ، وعلى ما أخذوه عن أهل الكتاب مما جاء في كتبهم ، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله .

ويمتاز التفسير في عهد التابعين بميزات تثير الطعن فيه وتوجه النقد إليه ، منها :

١ ــ خلط التفسير بالاسرائيليات ، وذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الاسلام وكان لا يزال عالقاً بأذهانهم من الأخبار مالا يتصل بالأحكام الشرعية ، كأخبار بدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، وبدء الكائنات ، وكثير من القصص ، وكانت النفوس ميالة إلى سماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية؛ فتساهل التابعون ، فزجوا في التفسير بكثير من الاسرائيليات بدون تحر ونقد .

وأكثر من روي عنه في ذلك من مسلمي أهل الكتاب كعب الأحبار ووهب بن منبه . ولا شك أن الرجوع إلى هذه الاسرائيليات أمر مأخوذ على التابعين كما هو مأخوذ على من جاء بعدهم .

٢ ــ ومنها أنه تطرق إليه الوضع ، فالعباسيون نسبوا إلى ابن عباس مالم يصح عنه ، وشيعة علي كذلك نسبوا إليه مالم يقله ... وهكذا .

٣ ــ ومنها ظهور نواة الخلاف المذهبي وكثرة الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم ، وإن كان اختلافاً قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسرين [١] .

ثالثاً : التفسير في عصور التدوين :

وتبدأ هذه المرحلة من نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني ، وفيها خطا التفسير خطوات متعددة ، لكل منها سماتها ومميزاتها :

---

(١) مناهل العرفان للزرقاني (١ : ٤٩٠) ، وانظر التفسير والمفسرون (١ : ١٤٠ ــ ١٣١) .

فأول خطوة بدأت كانت مع ابتداء التدوين لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أبواب الحديث متنوعة ، وكان التفسير باباً من هذه الأبواب ، ولم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة ، وآية آية ، بل وجد من العلماء من طوّف في الأمصار المختلفة ليجمع الحديث ، فجمع بجوار ذلك ما روي في الأمصار من تفسير منسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى الصحابة ، أو إلى التابعين .
ومن هؤلاء : يزيد بن هارون السلمي المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ ، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هـ ... وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث ، وكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبواب الحديث ، ولم يكن جمعاً للتفسير على أنه علم مستقل قائم بذاته .

ثم جاءت الخطوة الثانية ، وفيها انفصل التفسير عن الحديث وأصبح علماً قائماً بنفسه ، فوضع التفسير لكل آية من القرآن ورتب ذلك على حسب ترتيب المصحف ، وتم هذا العمل على أيدي جماعة من العلماء منهم : ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وابن أبي حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هـ .

وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وليس فيها شيء من التفسير أكثر من التفسير المأثور ، اللهم إلا تفسير ابن جرير الطبري فإنه ذكر فيه الأقوال ، ثم وجهها ، ورجح بعضها على بعض ، وزاد على ذلك الاعراب إن دعت إليه الحاجة ، واستنبط بعض الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من النص القرآني .

ثم جاءت الخطوة الثالثة ، وفيها لم يخرج التفسير عن حدود التفسير بالمأثور ، ولكنه خرج عن طابعه المألوف من قبل ، وهو تدوين المأثورات بأسانيدها ، فوجدنا من العلماء من اختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين من أسلافهم دون أن ينسدوها لقائليها ، فدخل الوضع في التفسير ، والتبس

الصحيح بالعليل ، وكان هذا مبدأ ظهور الوضع في التفسير وتطرق الروايات الاسرائيلية إليه .

ثم جاءت الخطوة الرابعة ، وهي أوسع الخطا وأفسحها .. امتدت من العصر العباسي إلى يومنا الحاضر .. فبعد أن كان التفسير مقصوراً على رواية ما نقل عن سلف هذه الأمة ، وجدناه يتجاوز بهذه الخطوة إلى تدوين تفاسير اختلط فيها الفهم العقلي بالتفسير النقلي ، وكان ذلك على تدرج ملحوظ «فقد بدأ أولاً على هيئة محاولات فهم شخصي وترجيح لبعض الأقوال على بعض ، وكان هذا أمراً مقبولاً ما دام يرجع الجانب العقلي منه إلى حدود اللغة ودلالة الكلمات القرآنية» .. ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصي تزداد وتتضخم متأثرة بالمعارف المختلفة ، والعلوم المتنوعة ، والآراء المتشعبة ، والعقائد المتباينة ، حتى وجد من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بعد عظيم .

دونت علوم اللغة ، ودون النحو والصرف ، وترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة ، وتشعبت مذاهب الخلاف الفقهي والعقدي ودون فيهما من الكتب ما شاء الله أن يدون ، وظهر التعصب المذهبي قائماً على قدمه وساقه في العصر العباسي ، وقامت الفرق الاسلامية بنشر مذاهبها والدعوة لها ، وكان من نتيجة ذلك كله أن امتزجت كل هذه العلوم وما يتعلق بها من أبحاث بالتفسير حتى طغت عليه ، وغلب الجانب العقلي على الجانب النقلي وصار أظهر شيء في هذه الكتب هو الناحية العقلية ، وإن كانت لا تخلو مع ذلك من منقول يتصل بأسباب النزول أو بغير ذلك من المأثور ، كما كان من نتيجته — أيضاً — تحكم المعتقدات المذهبية في عبارات القرآن تحكماً كثيراً ما يخرج بالنص القرآني عن معناه المراد ... وأخيراً وجدنا كل من برع في فن من الفنون يغلب على تفسيره — بصورة واضحة — فنه الذي برع فيه . فالنحوي أكبر همه الاعراب وسرد مسائل النحو وفروعه ، كأبي حيان في تفسيره (البحر المحيط) وصاحب العلوم العقلية ، جل عنايته بأقوال الحكماء والفلاسفة وذكر شبههم والرد عليها ، كالفخر

الرازي في تفسيره (مفاتيح الغيب) . والفقيه مبلغ همه واهتمامه مسائل الفقه وتفريعاتها وذكر أدلتها ، كالجصاص ، وأبي بكر بن العربي . وصاحب التاريخ يكثر من ذكر القصص وأخبار من سلف ، وكثيراً ما يخلط الصحيح منها بالأساطير والخرافات كما في تفسير الثعلبي والخازن . وأصحاب المذاهب الدينية والمواجيد الصوفية ركزوا في تفاسيرهم على ما يهمهم من تأييد المذهب أو لمحات التصوف . وهكذا فسر كل صاحب فن أو مذهب بما يتناسب مع فنه أو يشهد لمذهبه .

وقد استمرت هذه النزعة العلمية العقلية وراجت في بعض العصور رواجاً عظيماً ، كما راجت في عصرنا الحاضر تفسيرات يريد أهلها من ورائها ، أن يحملوا آيات القرآن كل العلوم ما ظهر منها وما لم يظهر ، كأن هذا — فيما يبدو — وجه من وجوه إعجاز القرآن وصلاحيته لأن يتمشى مع الزمن ، وفي الحق إن هذا غلو منهم وإسراف يخرج القرآن عن مقصده الذي نزل من أجله ويحيد به عن هدفه الذي يرمي إليه [1] .

وخلاصة القول : ما إن انقضى عصر الصحابة والتابعين حتى ابتدأت تتميز مناهج مختلفة في تناول المعنى القرآني : منها ما يرجع إلى الجانب النقلي ، ومنها ما يرجع إلى الجانب العقلي ، واتخذت هذه المناهج والاتجاهات سبيلها في تدرج ظاهر وتطور ملحوظ على مدى تاريخ التفسير للقرآن الكريم .

وندع الكلام عن هذه المناهج والاتجاهات مخافة التطويل ونقصر حديثنا فيما يلي على منهج التفسير بالمأثور وما تطرق إليه من عوامل الضعف ، وذلك لصلته بموضوع هذه الرسالة .

منهج التفسير بالمأثور :

ونعني بالتفسير بالمأثور : ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة أو

---

(١) التفسير والمفسرون (١ : ١٤٠ — ١٤٨)

التابعين بياناً لمراد الله تعالى من كتابه [1] ، ويعتبر منهج التفسير بالمأثور من أقدم المناهج التفسيرية ، ويمثله (جامع البيان) لمحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ ، فتفسيره هذا يعتبر من ناحية ذروة التفسير بالمأثور ، كما يعتبر من ناحية أخرى نقطة البدء وحجر الأساس لمنهج التفسير بالرأي ، إذ أنه يضم بين جوانحه بذور الاتجاهات التي أدت إلى التفسير الزائد على مجرد الرواية والتي فتحت الباب لإعمال الرأي وبدء المرحلة الثانية في تطور التفسير .

وبجانب تفسير الطبري وجدنا تفاسير تمثل هذا المنهج ، نذكر منها – على اختلاف عصورها – تفسير سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ هـ وقد طبع أخيراً في الهند ، وتفسير عبد الرزاق بن همام الصنعاني المتوفى سنة ٢١١ هـ ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية وهي نسخة وحيدة في العالم ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ ، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ ، وكلاهما مطبوع ومتداول بين أهل العلم .

ضعف الرواية بالمأثور وأسبابه :

علمنا أن الرواية بالمأثور تتناول ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن ، وما كان تفسيراً للقرآن بالسنة ، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو التابعين .

أما تفسير القرآن بالقرآن فلاخلاف في وجاهته وقبوله ، وأما تفسير القرآن بما يعزى إلى الصحابة أو التابعين ، فذلك ينظر فيه ، فما صح منه قبلناه ، وما لم يصح رفضناه ولا نلتفت إليه . ولقد وجدنا الكثير مما يروى في التفسير منسوباً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى بعض الصحابة أو التابعين يعتريه الضعف ويتطرق إليه الفساد من وجوه :

أولها : مادسّه أعداء الاسلام مثل زنادقة اليهود والفرس ، فقد أرادوا

---

(١) ويرى بعض العلماء أن ما كان من التفسير موقوفاً على التابعين لا يعد من قبيل التفسير بالمأثور .

علم هذا الدين المتين عن طريق الدس والوضع حينما أعيتهم الحيل في النيل منه عن طريق الحرب والقوة ، وعن طريق الدليل والحجة .

ثانيها : مالفقه أصحاب المذاهب المتطرفة ، ترويجاً لمذاهبهم كشيعة علي ابن أبي طالب المتطرفين الذين نسبوا إليه ما هو بريء منه ، وكالمتزلفين الذين حطبوا في حبل العباسيين فنسبوا إلى ابن عباس مالم تصح نسبته إليه تملقاً لهم واستدراراً لدنياهم .

ثالثها : حذف الاسناد ، فقد نقل الكثير من الأقوال في التفسير معزواً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى الصحابة والتابعين من غير إسناد ؛ مما أدى إلى اختلاط الصحيح بالعليل والتباس الحق بالباطل .

رابعها : الأخذ عن أهل الكتاب وقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نتوقف فيما يروونه وسكت عنه شرعنا ، فلا نصدقهم لاحتمال كونه كذباً ، ولا نكذبهم لاحتمال كونه صدقاً كما جاء ذلك صريحاً في قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا (آمنا بالله وما أنزل إلينا) الآية »[1].

ولكن على الرغم من هذا التحذير نجد كثيراً من المفسرين — على مدى مراحل التفسير المختلفة — ينقلون ويتقبلون عن أهل الكتاب ما حدثوا به على مافي أكثر هذه الأخبار من مناكير لا يقبلها العقل ولا يقرها النقل الصحيح ، وذلك على اختلاف بينهم في دوافع هذا النقل ، ومدى تقبلهم وتصديقهم لما ينقلون كما سنوضح ذلك فيما بعد .

---

(١) أورده البخاري في صحيحه في باب التفسير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا (آمنا بالله وما أنزل إلينا) الآية — صحيح البخاري (٦ : ٢٥) ط مطابع الشعب .

ولما كانت أهم الدوافع للرواية عن أهل الكتاب هي الرغبة في معرفة ما طواه القرآن من جزئيات الحوادث التي عرض لها ، وجاء عرضها بتفصيل أكثر في التوراة أو الانجيل . نرى أن نعرض لعلاقة القرآن الكريم بالكتب السماوية ومنزلته منها ؛ وهذا ما سنبينه في المبحث التالي .

المبحث الثاني

علاقة القرآن الكريم بالكتب السماوية الأخرى ومنزلته منها

إذا أخذنا كلمة الاسلام بمفهومها القرآني، نجدها لا تدع مجالاً لهذا السؤال: ما هي العلاقة بين الاسلام وسائر الأديان السماوية؟ فالاسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباعهم. فإنا — كما يقص علينا القرآن الكريم — نرى نوحاً عليه السلام يقول لقومه: « وأُمرتُ أنْ أكونَ منَ المسلمينَ »[1]. ويعقوب يوصي بنيه: « فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون »[2] وأبناء يعقوب يجيبون أباهم: « نعبُدُ إلهَكَ وإلهَ آبائِكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ إلهاً واحداً ونحنُ له مسلمون »[3] وموسى عليه السلام يقول لقومه: « يا قومِ إنْ كنتم آمنتم باللهِ فعليهِ توكلوا إنْ كنتم مسلمين »[4] والحواريون يقولون لعيسى عليه السلام: « آمنّا باللهِ واشْهدْ بأنّا مسلمون »[5].

بل إن فريقاً من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن قالوا: « آمنّا بهِ إنّهُ الحقُّ من ربّنا إنّا كنا من قبلهِ مسلمين »[6].

---

(١) من الآية ٧٢ من سورة يونس.

(٢) من الآية ١٣٢ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ١٣٣ من سورة البقرة.

(٤) من الآية ٨٤ من سورة يونس.

(٥) من الآية ٥٢ من سورة آل عمران.

(٦) من الآية ٥٣ من سورة القصص.

وبالجملة نرى امم الاسلام شعاراً عاماً يدور في القرآن على ألسنة الأنبيـــاء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبـوة المحمدية ، ثم نرى القرآن يجمع هذه القضايا كلها في قضية واحدة يوجهها إلى قوم محمـد صلى الله عليه وسلم ، ويبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم ديناً جديداً، وإنما هو دين الأنبياء الذين سبقوا محمداً عليه الصلاة والسلام « شَرعَ لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحَيْنـا إليكَ وما وَصَّيْنـا به إبراهيـمَ وموسى وعيسى أنْ أقيمُوا الدينَ ولا تتفرقوا فيـه »[1] .

فالقرآن على وفاق مع الكتب السماوية الأخرى في الدعوة إلى التوحيد وأصول الأخلاق والآداب وما يتعلق بصالح البشرية .

ونظراً لهذه الصلة التي بين القرآن الكريم وغيره من الكتب السماوية ، ولما طرأ على ما وصل إلينا منها – غير القرآن – من التحريف والتبديل ، نرى أن نتكلم أولاً عن علاقة القرآن الكريم بالكتب السماوية السابقة وهي على حالتها الأولى لم تبعد عن منبعها ولم يتغير فيها شيء بفعل الزمان ولا بيد الانسان ، ثم عن علاقته بها وهي على حالتها الثانية، بعد أن طال عليها الأمد، وطرأ عليها ما طرأ من تبديل وتحريف، فنقول وبالله التوفيق.

١ – علاقة القرآن بالكتب السماوية السابقة وهي على حالتها الأولى :

يخبرنا القرآن الكريم أن كل رسول أرسل وكل كتاب أنزل قد جـاء مصدّقاً ومؤكداً لما قبله : فالانجيـل مصدق ومؤيد للتوراة ، والقرآن مصدق ومؤيد للانجيل والتوراة ولكل مابين يديه من الكتب ، « وقَفَّيْنـا على آثارهم بعيسى بن مَريَم مُصَدّقاً لما بين يَدَيْهِ من التوراة وآتيناهُ الانجيل فيه هُدًى ونورٌ ومُصدّقاً لما بين يَدَيْه من التوراةِ وهُدىً وموعظةً للمتقين »[2].

---

(١) من الآية ١٣ من سورة الشورى .

(٢) الآية ٤٦ من سورة المائدة .

« وهذا كتابٌ أنزلناه مُباركٌ مُصَدِّقُ الذي بين يديه ... الآية »[1]

« والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يديه ... الآية »[2] .

« ... فإنه نزّله على قلبك بإذن الله مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يديه ... الآية »[3] .

« ... إنّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يديه ... الآية »[4] .

وقد يرد هنا سؤال يحق لسائل أن يسأله : أليست قضية هذا التصادق الكلي بين الكتب السماوية أن تكون الكتب المتأخرة إنما هي تجديد للمتقدمة وتذكير بها فلاتبدّل فيها معنىً ولاتغير حكماً ، وإلا فكيف يقال إنها تصدّق، بينما هي تبدل أو تعدل ؟

أو إذا كان من قضية التصادق الكلي بين الكتب ألا يغيّر المتأخر منها شيئاً من المتقدم ، فهل ذلك هو الواقع ؟ .

والجواب ليس ذلك هو الواقع ؛ فهناك أصول العقيدة ، وهذه تتفق عليها جميع الكتب السماوية ، وتدعو إليها – على سواء – جميع الرسالات من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم النبيين والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، مصداق هذا قول الله تعالى « شَرَعَ لكم من الدين ماوصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »[5] .

---

(١) من الآية ٩٢ من سورة الأنعام .
(٢) من الآية ٣١ من سورة فاطر .
(٣) من الآية ٩٧ من سورة البقرة .
(٤) من الآية ٣٠ من سورة الاحقاف .
(٥) من الآية ١٣ من سورة الشورى .

أما جانب الأحكام والتشريعات العملية ، فهو الجانب الذي يطرأ عليه التبديل أو التعديل ، فالانجيل مثلاً جاء بتعديل بعض أحكام التوراة ، إذ أعلن عيسى عليه السلام أنه جاء ليُحِلّ لبني إسرائيل بعض الذي حرّم عليهم « ومُصَدِّقاً لِمَا بين يَدَيَّ من التوراة ولأُحِلَّ لكم بعضَ الذي حُرِّمَ عليكم ... الآية »[1].

والقرآن – باعتباره آخر الكتب السماوية – جاء يؤكد الجانب العقدي في الكتب السابقة ، ويقرر أو يبدل أو يعدل الجانب التشريعي والعملي فيها ، يشهد لذلك قوله تعالى « وأنزَلْنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بين يدَيْه من الكتاب ومُهَيْمِناً عليه ... الآية »[2]، وقوله « .. الذين يَتَّبِعون الرسولَ النبيَّ الأُمِّيَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرُهم بالمعروفِ وينهاهم عن المنكرِ ويُحِلُّ لهم الطيباتِ ويُحرِّم عليهم الخبائثَ ويضع عنهم إصْرَهم والأغلالَ التي كانت عليهم »[3] .

هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة ، ولبنات متراكبة في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع ، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها ، أنها أكملت البنيان وملأت ما كان فيه من فراغ ، وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صوّر الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير بقوله « إن مَثَلي ومَثَل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاّوضعت هذه اللبنة . قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[4].

---

(١) من الآية ٥٠ من سورة آل عمران .
(٢) من الآية ٤٨ من سورة المائدة .
(٣) من الآية ١٥٧ من سورة الأعراف .
(٤) رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري – كتاب بدء الخلق – باب خاتم النبيين (٤ : ٢٢٥ – ٢٢٦) .

٢ - علاقة القرآن الكريم بالكتب السماوية السابقة وهي على حالتها الثانية حالة التبديل والتحريف .

عرفنا أن القرآن الكريم أعلن عن نفسه أنه جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب - يعني جنس الكتب السماوية - ثم أضاف إلى هذه الصفة صفة أخرى، إذ أعلن أنه جاء أيضاً مهيمناً على تلك الكتب بقوله « ومهيمناً عليه » أي حارساً أميناً عليها ، ومن قضية الحراسة الأمينة ألا يكتفي بتأييد ما خلده التاريخ فيها من حق وخير ، بل عليه فوق ذلك أن يحميها من الدخيل الذي عساه أن يضاف إليها ، وأن يبرز ماتمس إليه الحاجة من الحقائق التي عساها أن تكون قد أخفيت منها .

وهكذا كانت مهمة القرآن الكريم أن ينفي عنها الزوائد وأن يتحدى من يدعي وجودها في تلك الكتب « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين »[١]

كما كانت مهمته أن يبين ما ينبغي تبيانه مما كتموه منها « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب »[٢] . فهيمنة القرآن على ما سبقه من الكتب السماوية ، هيمنة عامة ، ورقابة تامة ، تشمل جانب العقيدة منها وجانب الشريعة أيضاً .

قال العلامة أبو السعود في تفسيره المسمى « إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم » ما نصه : « ومهيمناً عليه : أي رقيباً على سائر الكتب المحفوظة من التغيير ، لأنه يشهد لها بالصحة والثبات ، ويقرر أصول شرائعها وما يتأبد من فروعها ، ويعين أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاء وقت العمل بها ، ولا ريب في أن تميز أحكامها الباقية على

---

(١) من الآية ٩٣ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية ١٥ من سورة المائدة .

المشروعية أبداً عما انتهى وقت مشروعيته وخرج عنها ، من أحكام كونه مهيمناً عليه »[1].

وجملة القول : إن علاقة القرآن الكريم بالكتب السماوية السابقة في حالتها الأولى ، هي علاقة تصديق وتأييد كلي ، وإن علاقته بها في حالتها الثانية : علاقة تصديق لما بقي منها على أصله وتصحيح لما طرأ عليها من تحريف وتبديل .

وبما أن التوراة والانجيل هما الكتابان الباقيان إلى يومنا هذا ، وظاهرة التحريف والتبديل فيها واضحة جلية ، وهما في الوقت ذاته أهم المصادر التي يستقى منها القصص الاسرائيلي في تفسير القرآن الكريم ، نرى أن نعرض بشيء من التفصيل لظاهرة التحريف والتبديل فيها ، وذلك ما نعرض له في المبحث التالي.

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود (٢ : ٣٣) المطبعة المصرية .

المبحث الثالث

بيان ما طرأ على التوراة والإنجيل من تحريف وتبديل

ولنأخذ اولاً التوراة ، وهنا نتناول هذه الأمور بالبحث .

أ ـ تعريفها
ب ـ محتوياتها
ج ـ تأليفها
د ـ مصادرها
هـ ـ تحريفها .

أ ـ تعريف التوراة :

التوراة كلمة عبرانية ، ومعناها : الشريعة أو النـاموس ، وهي في عرف القرآن: ما أنزله الله تعالى من الوحي على موسى عليه الصلاة والسلام[1]، وفي عرف اليهود : مجموعة الأسفار الخمسة المنزلة على موسى عليه الصلاة والسلام .

وتطلق التوراة أحياناً على جميع أسفار العهـــد القديم ، وذلك من باب التغليب لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى عليه السلام .

وقد اعتمد اليهود تسعة" وثلاثين سِفْراً أُطلق عليها اسم العهد القديم للتفرقة بينها وبين ما اعتمـده النصارى من أسفارهم (أناجيلهم) التي أطلقوا عليها اســـم العهد الجديد .

---

(١) تفسير المنار (٣ : ١٥٥ — ١٥٦)

وجرت العادة أن يطلق على أسفار العهد القديم وأسفار العهد الجديد اسم الكتاب المقدس .

والعهد القديم يشتمل على كتب اليهود الإلهية، ويقسمونه إلى أربعة أقسام:

القسم الأول : التوراة أو « كتب موسى » أو « الأسفار الخمسة » .

القسم الثاني : الأسفار التاريخية[1].

القسم الثالث : أسفار الأناشيد[2] .

القسم الرابع : أسفار الأنبياء[3] .

---

(١) وهي اثنا عشر سفراً ، تعرض لتاريخ بني إسرائيل بعد استيلائهم على أرض الكنعانيين وبعد استقرارهم في فلسطين ، وتفسر تاريخ قضاتهم وملوكهم والحوادث البارزة في شؤونهم ، وهي أسفار يوشع ، والقضاة ، وراعوث ، وصموئيل ، والملوك ، وأخبار الأيام ، وعزرا ، ونحميا ، وأستير .

(٢) وهي عبارة عن أناشيد ومواعظ مؤلفة تأليفاً شعرياً وعددها خمسة أسفار ، وهي : سفر أيوب ، ومزامير داود ، وأمثال سليمان ، والجامع من كلام سليمان ، ونشيد الانشاد .

(٣) وعددها سبعة عشر سفراً :

يعرض كل منها لتاريخ نبي من أنبياء بني إسرائيل الذين أرسلوا إليهم بعد موسى وهارون، وهذه الأسفار هي :

أشعياء،وأرمياء، ومراثي أرمياء ، وحزقيال ، ودانيال ، وهوشع ، ويوئيل ، وعاموس ، وعوبديا ، ويونس (يونان) ، وميخا ، وناحوم ، وحبقوق ، وصفنيا ، وحجي ، وزكريا ، وملاخي .

هذا ولليهود عدا هذه الأسفار كتاب يسمونه « التلمود » ومعناها « التعاليم »وهو عبارة عن روايات شفوية تناقلها الحاخامات عن موسى عليه السلام من جيل إلى جيل وقد جمعوها في كتاب سموه (المشنا) وبعد ذلك أدخل حاخامات فلسطين وبابل عليها كثيراً من الزيادات والشروح والحواشي وسميت هذه الزيادات باسم (جمارا)=

* * *   * * *   * * *   * * *   * * *

= ومن المشنا والجمارا يتكون التلمود ، وينقسم إلى قسمين : فلسطيني وبابلي .

ويعتبر أكثر اليهود التلمود كتاباً منزلاً ، ويضعونه بمنزلة التوراة ؛ وبعضهم يضعه بمنزلة أسمى من منزلة التوراة .

ومن محتويات هذا التلمود الذي تحدثنا عنه مايلي :

أولاً - يروي التلمود أن الله ندم لما أنزله باليهود وبالهيكل فقد جاء فيه مانصه :

« تبا لي لأني صرحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي » .

وليست العصمة من صفات الله في رأي التلمود « لأنه غضب مرة على بني اسرائيل فحلف بحرمانهم من الحياة الأبدية ولكنه ندم على ذلك بعد أن هدأ غضبه ولم ينفذ قسمه، لأنه عرف أنه فعل فعلاً ضد العدالة » .

ويرى التلمود : أن النهار اثنتا عشرة ساعة، في الثلاث الأولى منها يجلس الله ويطالع الشريعة ، وفي الثلاث الثانية يحكم ، وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم ، وفي الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك .

ثانياً - تتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله ، كما أن الابن جزء من أبيه . والاسرائيلي أيا كان معتبر عند الله أفضل من الملائكة . فإذا ضرب أممي إسرائيلياً فكأنما ضرب العزة الالهية .

والفرق بين درجة الانسان والحيوان هو بقدر الفرق بين اليهود وغير اليهود ؛ ولليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب وليس له أن يطعم غير اليهود . والشعب المختار هم اليهود فقط ، أما باقي الشعوب فهم حيوانات .

ثالثاً — ومن إسرائيليات التلمود في خلق آدم وحواء : أن الله تعالى أخذ تراباً من جميع بقاع الأرض وكونه كتلة وخلقها جسماً ذا وجهين ، ثم شطره نصفين ، فصار أحدهما آدم والثاني حواء ، وكان آدم طويلاً جداً فكانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء ، وإذا نام كانت رأسه في المشرق ورجلاه في المغرب ، وصنع الله لآدم طاقة يرى منها الدنيا من أولها إلى آخرها ؛ فلما عصى آدم نقص طوله حتى صار كباقي الناس .

ومن أكاذيب التلمود أيضا :   =

ب — محتويات التوراة :

عرفنا مما تقدم أن التوراة هي كتاب موسى أو الأسفار الخمسة وهي :

١ — سفر التكوين . ٢ — سفر الخروج .

٣ — سفر التثنية . ٤ — سفر اللاويين .

٥ — سفر العدد .

أما سفر التكوين : فقد سمي بذلك لاشتماله على قصة خلق العالم ، فهو يقص تاريخ العالم من تكوين السموات والأرض إلى استقرار أولاد يعقوب عليه السلام في أرض مصر ، مع تفصيل قصص آدم وحواء ونوح ... الخ .

= أن الملك عوج بن عنق الذي ذكر اسمه في التوراة قد نجا من الغرق في زمان الطوفان لأنه سار بجانب سفينة نوح وكان هذا الملك يتغذى بألفي ثور ومثلها من الطيور ويشرب ألف صاع من الماء تقريباً .

وذكروا في التلمود :

أن أحد حاخاماتهم وجد مرة ساق ميت فسار بجوارها ثلاث ساعات ولم يلتفت إلى آخرها ، وكانت هذه عظمة ساق الملك عوج بن عنق ، ومما يحكى عن الملك عوج : أنه خلع منه ضرس فاتخذه إبراهيم سريراً ينام عليه ... الخ

رابعاً — وينص التلمود :

على أنه من العدل أن يقتل اليهودي كل أممي لأنه بذلك يقرب قرباناً إلى الله .

ويبيح التلمود لليهودي أن يستعمل الربا مع غير اليهود ، والغش والكذب والسرقة ، لأنهم يعتبرون أن الأموال كلها ملك لله وبما أن اليهود أجزاء من الله فإن اليهود يعتبرون مالكين لكل ما في الأرض من ثراء بالنيابة عن الله ... الخ — انظر الكنز المرصود في قواعد التلمود ، للدكتور روهلنج ، ترجمة الدكتور يوسف نصر الله ص ٢٩ — ٣٠ ، ٣٢ — ٣٣ ، ٣٧ ، ٤٨ — ٤٩ ، والتلمود شريعة إسرائيل ص ٤ — ٦ — ١١ وما بعدها وهمجية التعاليم الصهيونية للأستاذ بولس حنا سعد ص ١٦ ، ٢٤ ، ٢٥ ومقارنة الأديان (اليهودية) للدكتور أحمد شلبي ص ٢٤٣ — ٢٤٨ و (من التلمود) ص ٢٥ وما بعدها .

وأما سفر الخروج : فقد سمي بذلك لتناوله خروج بني إسرائيل من مصر وتاريخهم في أثناء مرحلة « التيه » التي قضوها في صحراء سيناء واستغرقت أربعين عاماً . وهي التي يشير إليها القرآن الكريم إذ يقول : « قال فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض »[1]. وبجانب هذا يشتمل سفر الخروج أيضاً على طائفة من أحكام الشريعة اليهودية في العبادات والمعاملات والعقوبات وما إلى ذلك .

وأما سفر التثنية : أو تثنية الشريعة — أي إعادتها مرة ثانية — فقدسمي بذلك لأنه يعيد ذكر التعاليم التي تلقاها موسى عن ربه وأمر بتدوينها لبني إسرائيل والتي ورد ذكرها في سفر الخروج ولكنه يعرضها عرضاً جديداً .

وأما سفر اللاويين : نسبة إلى أسرة تنتمي إلى لاوي أو ليفي أحد أبناء يعقوب عليه السلام ومنهم موسى وهارون ، ونسب هذا السفر إليهم لأنهم سدنة الهيكل وحفظة الشريعة ، ومعظمه يدور حول ما يشرفون عليه من عبادات ومعاملات كما يتناول الطقوس الدينية الخاصة بتقديم القرابين عن هارون وأبنائه .

وأما سفر العدد : فمعظمه يدور حول تقسيم بني إسرائيل وبيان تعداد أسباطهم ، وجيوشهم وأموالهم ، وذكورهم ، وإناثهم ، وبجانب هذا فيه بعض الأحكام التي تتعلق بالعبادات والمعاملات .

ج — تأليف التوراة :

يزعم اليهود أن التوراة التي بأيديهم اليوم هي التوراة الحقيقية التي أنزلها الله على موسى عليه السلام ، ويزعموا خداعاً وتمويهاً : أنها التي نوه عنها القرآن الكريم بقوله : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ... الآية »[2].

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة المائدة .

(٢) من الآية ٤٤ من سورة المائدة .

والحق أن ما بأيدي اليهود وغيرهم مما يزعمون أنه التوراة ليس هو الكتاب السماوي الذي أنزل الله على موسى ، فمن يقرأ التوراة المتداولة اليوم يجد ثلاثة أرباعها حروباً ، ومعارك دامية ، وسفك دماء ، ومجازر رهيبة من حرق وإبادة وتمثيل وقتل بالفؤوس ونشر للخصوم بالمناشير ، وهتك للأعراض وغير ذلك مما يتعرض له خصومهم الغرباء ، وكذا ما يتعرض له اليهود أنفسهم في حروب الابادة التي وقعت بينهم . أما الربع الأخير منها ، فنصفه مجون واستهتار وغزل وتحدث بالزنى والدعارة ، ووصف لجسد المرأة والرجل ، وقصص أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة عن الزنى بالمحارم ودور الأنبياء ورجالهم المقربين في ذلك ؛ مما تتنزه الكتب السماوية الصحيحة عن ذكر شيء منه وتدفع قارىء التوراة إلى الحكم عليها بالوضع والتحريف والتبديل .

والتوراة المتداولة ليس لها سند متصل إلى موسى عليه السلام[1] وتكاد

---

(١) عدم وجود سند متصل بتلك الكتب يستوي فيه اليهود والنصارى : أما بالنسبة إلى التوراة فقد صرحت كتبهم بما يدل على قطع السند إذ أن موسى عليه السلام كتب التوراة - كما يقولون - وسلمها لأحبار اليهود وأوصاهم بوضعها في صندوق الشهادة وأمرهم ألا يخرجوها إلا كل سبع سنين في يوم العيد ، فكانت الطبقة الأولى على وصيته ، ثم حدثت الانقلابات التي سبقت عهد داود والتي كانت سبباً في ضياع التوراة ؛ إذ حين فتح سليمان الصندوق لم يجد فيه سوى اللوحين اللذين كان يوجد فيها الوصايا العشرة فقط . - انظر الملوك الأول : ٨ - ٩ - ثم وقعت عدة حوادث لليهود ارتد فيها بعض ملوكهم ونهب بيت المقدس مرتين ، ثم جاءت حوادث بختنصر الذي هدم بيت المقدس وأعدم جميع كتب العهد القديم ، ثم جاء « عزرا » بعد فقدان تلك الكتب وكتب نسخة للتوراة ، وبعده جاء أحد ملوك الفرنجة المدعو « انبتوكس » واستولى على أورشليم وأمر بقتل كل من يؤدي شرائع الدين اليهودي أو يوجد عنده نسخة من كتب العهد القديم ، وقد أعدمت في تلك الحادثة جميع الكتب التي كتبها « عزرا » (انظر اظهار الحق ١ : ١٨٨ - ١٩١) وكانت تلك الحادثة قبل مجيء المسيح بمائة وإحدى وستين سنة .

وأما بالنسبة إلى أناجيل النصارى فقد سئل بعض القسس من النصارى - وكان في محفل المناظرة - عن سند متصل فاعتذر بأن سبب فقدان السند عندهم ما وقع من المصائب والفتن على المسيحيين مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة . انظر اظهار الحق (١ : ٣٣)=

تكون خالية من أي خبر يشم منه أنها هي التوراة التي أنزلت عليـــه ؛ بل على العكس من ذلك فإن فيها أدلة عديدة على أنها كتبت بعد عهد موسى بأزمان مختلفة وبأيد متعددة على غير النحو الذي أنزلت عليه من عند الله على موسى عليه السلام ومن هذه الأدلة :

أولاً : ما جاء في الآية السادسة من الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية بخصوص وفاة موسى عليه السلام : (ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم).

وما جاء في الآية العاشرة من نفس الاصحاح : (لم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى) .

ومن الواضح أن مثل هذه العبارة والتي سبقتها لا تقال إلا بعد موت موسى عليه السلام .

ثانياً : هناك كثير من التناقض بين أسفار التوراة مما يدل على أنها ليست

= فإذا أضفنا أن تلك الأناجيل لم تكتب بين يدي المسيح وإنما كتبت بعد مدة طويلة من رفعه جزمنا بفقد سند تلك الكتب .

والاسناد في أصله خصيصة فاضلة لهذه الأمة الاسلامية ، ليست لغيرهـــا من الأمم . قال الامام ابن حزم : نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم مع الاتصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل ، وأما مع الارسال والاعضال فيوجد في كثير من اليهود ولكن لا يقربون فيه من موسى عليه السلام قربنا من محمد صلى الله عليه وسلم بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصراً وإنمـــا يبلغون إلى شمعون ونحوه . وكذا الحال عند النصارى ليس عندهم إسناد متصل إلا ما قيل في تحريم الطلاق فقط .

وأما النقل بالطريق المشتملة على كذاب أو مجهول العين فكثير في نقـل اليهـود والنصارى .

قال : وأما قول الصحابة والتابعين فلا يمكن اليهود أن يبلغـــوا إلى صاحب نبي أصلا ، ولا إلى تابع له ، ولا يمكن النصارى أن يصلوا إلى أعلى من شمعون وبولس .

(من المصباح عن مقدمة ابن الصلاح ص ٢١٥ لمحمد راغب الطباخ).

من تأليف شخص واحد ، وإنما هي وليدة عصور مختلفة ، ونتاج عقول متعددة ، وقد استقيت من مصادر شتى [1] ، وإليك بعض النماذج التي تشهد بصحة ما نقول:

أ ــ الآية الثانية عشرة من الاصحاح السابع من سفر التكوين تنص على أن الطوفان دام أربعين يوماً وأربعين ليلة ، بينما تنص الآية الرابعة والعشرون من الاصحاح السابع في نفس السفر على أنه دام مائة وخمسين يوماً .

ب ــ ورد في أسفار التوراة ما يقرر أن الأبناء يؤخذون بذنب الآباء حتى الجيل الثالث والرابع بل والعاشر ، فمثلا جـــاء في سفر الخروج (٣٤ : ٧) ما نصه : (مفتقد إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث والرابع) [2] وجاء في سفر التثنية (٢٣ : ٢) ما نصه : (لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب حتى الجيل العاشر) وهـــذا يناقض ما صرح به حزقيال (١٨ : ٢٠) ونصه : (النفس التي تخطيء تموت ، الابن لا يحمـل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من

---

(١) ليس بمستغرب حدوث مثل هذا التناقض بين أسفار التوراة إذا علمنا أن العهد القديم كتب في فترة طويلة جداً قدرت بألف سنة وتطلب جمعه قروناً عديـــدة ، ولا بد أن يكون هذا الزمن الطويـل قد أخضع العهد القديم لمؤثرات أجنبية خارجية نتيجة لتكلف اليهود بتقليد غيرهم من الأمم القوية الغالبة آنذاك كالمصريين والبابليين الذين كانوا على اتصال بهم . يقول الدكتور فؤاد حسنين في كتابه (التوراة: عرض وتحليل) ص ١٦ ما نصه : (الواقع كما أن وضع العهد القديم استدعى زمناً امتد نحو ألف سنة كذلك جمعه تطلب قروناً عديدة وكانت النتيجة المحتومـة لامتداد زمن التأليف وطول عصر الجمع أن خضعت بعض الأسفار لمؤثرات عملت فيها زيادة وحذفـــا ، وإلى اليوم فالنزاع ما زال قائماً بين رجال اللاهوت حول سفري الجامعة ونشيد الأناشيد مثلا : أهما من أسفار العهد القديم أم دخيلان عليه ؟ والتفاوت العظيم بين عقليات اليهود المختلفـــة ومعتقداتهم جعل يهود مصر يبيحون لأنفسهم في ترجمتهم السبعينية إقحـام بعض الأسفار التي لم تكن قد ألفت حتى باللغة العبرية بل باليونانية في العهد القديم .

(٢) وقد وردت نصوص مماثلة في سفر الخروج (٢٠ : ٥) وفي سفر التثنية (٥ : ٩) وفي سفر العدد (١٤ : ١٨) :

إثم الابن ، وبر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون)[1] وذلك هو الحق الذي يقره القرآن الكريم ، فقد قال تعالى : (ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أُخرى ... الآية[2]) وأما كون الزاني يعذب الله أبناءه إلى الجيل العاشر فذلك لايمكن أن يكون وحياً إلهياً .

ج – وقع في الفقرة الثامنة والعشرين من الزبور في النسخة العبرانية العبارة التالية : (ولم يعصوا كلامه) وفي النسخة اليونانية جاءت هذه العبارة هكذا : (وقد عصوا كلامه) وإحداهما خطأ يقيناً ، وقد اعترف بذلك مفسرو العهد القديم من الغربيين[3] .

---

(١) وقد ورد نص بهذا المعنى في سفر التثنية (٢٤ : ١٦) .

(٢) انظر الآيات : ١٦٤ من سورة الأنعام ، ١٥ من سورة الإسراء ، ١٨ من سورة فاطر ، ٧ من سورة الزمر .

(٣) انظر كتاب (إظهار الحق) (١ : ١٢٦) ومابعدها ، وكتاب اليهودية للدكتور أحمد شلبي ص ٢٣٢ . وقد اعتذر بعض علماء أهل الكتاب عن هذا التناقض وبينوا أن من أسبابه : تعدد الترجمة للكتاب المقدس وجهل بعض المترجمين وعدم إتقانهم للغة المكتوبة بها نصوص التوراة : (انظر كتاب نظام التعليم في علم اللاهوت القديم (١ : ٨٢ – ٨٣) وكتاب في الفكر اليهودي (٧٢ – ٧٣) .

وبصدد الأخطاء الناتجة عن ترجمة التوراة تقول مجلة (لايف) الأمريكية في تحقيق لها عن تاريخ الكتاب المقدس ما نصه : (هذا الكتاب أوسع الكتب انتشاراً ولكن أغلب كاتبيه كانوا أشخاصاً لا يعرف أحد منهم ولا يمكن معرفتهم في يوم من الأيام . لقد ظل الوحي الالهي إلى الانسان – بقصد عيسى عليه السلام – ينتقل من الأب إلى الابن ألف سنة تقريباً بعد إبراهيم من غير أن يكتب ، وبعد ذلك فقط بدأ اليهود في تدوينه وكان ذلك قبل ألف سنة تقريباً من ميلاد المسيح فأخذوا يسجلون القصص والقصائد القديمة وأضافوا إليها قصصاً وقصائد أخرى جديدة . وقد استلزم الأمر أن تعاد كتابة لفائفهم عدة مرات وأن تنقل وتنسخ ، مما أوجد فرصاً عديدة لا تحصى لتغيرات كثيرة لا حد لها بعضها مقصود والبعض الآخر غير مقصود ، ولما بدأت المسيحية تنتشر بسرعة ازدادت الحاجة إلى عمل نسخ جديدة لأسفار « العهد الجديد » وأخذ كثير من المؤمنين يصنعون نسخاً لأنفسهم بأنفسهم ، أو كان أحدهم يقرأ بصوت مرتفع في (الفسحة) بينما

د ـ تختلف الأحكام اختلافاً واضحاً وصريحاً من سفر إلى آخر، فقد يقرر سفر في حادث ما حكماً ويجيء سفر آخر ويقرر في الحادث نفسه حكماً آخر، فمن ذلك مثلاً: أن سفري الخروج والتثنية يقرران أن الاسرائيلي الذي يبيع نفسه بيعاً اختيارياً في حالة عوزه وحاجته إلى المال لايدوم رقه إلا ست سنين[1]، على حين أن سفر اللاويين يقرر أن رقه لاينتهي إلا بحلول اليوبيل الاسرائيلي (وهو العيد الذي يجيء كل خمسين سنة) أياً كانت المدة التي قضاها في الرق قبل ذلك[2].

ومن أجل ماأوردناه على التوراة من مآخذ لم تسلم نسبتها إلى موسى من الشك والانكار لدى علماء اللاهوت الغربيين أنفسهم، فنشطت حركة النقد للكتاب المقدس بزعامة كثير من ربانيي اليهود. وفي أواخر القرن الخامس عشر ظهر أمثال العالم اللاهوتي (أندرياس) فألف كتابه المشهور (الأسفار الشرعية) وفي عام ١٦٧٠ كتب شبنوزا نقده المر في كتابه (أبحاث لاهوتية سياسية) وقد رد عليه عام ١٦٨٥ (ريشارد سيمون) بكتابه (تاريخ نقـــدي للعهد القديم). واستمر النقد والبحث حتى توصل النقاد إلى أن التوراة التي بأيدينا ليست من تأليف شخص واحد بعينه في عصر واحد، وإنما هي من تأليف أشخاص عديدين في عصور مختلفة، وقد استغلت في سبيل وضعها مصادر عديدة. وقد اعتمدوا في إثبات ذلك على الأدلة اللغوية والمعارضات التاريخية والتناقض في الطقوس الدينية[3].

= كان يتلقى عنه مايقرب من اثني عشر ناسخاً وهذا ما مهد الطريق لأخطاء أكثر فأكثر، لذلك فإنه لا يوجد أي نص (أصـــلي) لأي جزء مــــن (الكتاب) وربما حـــوى (العهد الجديد) تغييرات أكثر وأبلغ من (العهد القديم) مجلة الوعي الاسلامي ـ العدد الرابع عشر ـ السنة الثانية صفر ١٣٨٦ هـ ـ ٢١ مايو ١٩٦٦ م. من مقال تحت عنوان (قصة تاريخ التوراة والانجيل) ترجمة الدكتور أمير رضا.

(١) سفر الخروج: (٢١ : ٢) وسفر التثنية: (١٥ : ١٢).

(٢) سفر اللاويين: (٢٥ : ٤٠) وقارن أيضا سفر العدد اصحاح ٢٨ و ٢٩ بسفر حزقيال إصحاح ٤٥ و ٤٦.

(٣) انظر (التوراة: عرض وتحليل من ٢٣ ـــ ٣٠)

ويتحدث الدكتور علي عبد الواحد وافي عن الأزمنة التي كتبت فيها الأسفار المنسوبة إلى موسى عليه السلام فيقول : (ظهر للمحدثين من الباحثين ملاحظة اللغات والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع ، والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس فيها ، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله : أنها قد ألفت في عصور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير ، (وعصر موسى يقع على الأرجح حوالي القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد) وأن معظم سفري التكوين والخروج قد ألف حوالي القرن التاسع قبل الميلاد ، وأن سفر التثنية قد ألف في أواخر القرن السابع قبل الميلاد ، وأن سفر العدد واللاويين قد ألفا في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد أي بعد النفي البابلي ، وأنها جميعا مكتوبة بأقلام اليهود يتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل ، فهي إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التي يذكر القرآن أنها كتاب سماوي مقدس أنزله الله على موسى عليه السلام ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فيقول : (فويلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويلٌ لهم مما كتبتْ أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون [1]) .

د ـ مصادر التوراة :

يتحدث ول ديورانت عن مصادر التوراة فيقول : (وكانت **أساطير الجزيرة** [2] هي المعين الغزير الذي أخذت منه « التوراة » قصص الخلق والغواية والطوفان التي يرجع عهدها في تلك البلاد إلى ثلاثة آلاف سنة أو نحوها قبل الميلاد ، ولعل اليهود قد أخذوا بعضها من الأدب البابلي في أثناء أسرهم ، ولكن

---

(١) الآية ٧٩ من سورة البقرة ، وأنظر الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للاسلام للأستاذ علي عبد الواحد وافي (ص ١٦ — ١٧) .

(٢) هي جزيرة الفرات الواقعة بين الفرات ودجلة

أرجع من هذا أنهم أخذوها قبل ذلك العهد بزمن طويل من مصادر سامية وسومرية قديمة كانت منتشرة في جميع بلاد الشرق الأدنى [1] » .

ومن المصادر المهمة للأسفار **قرارات المحافل اليهودية** : فعلى مر التاريخ كان زعماء اليهود يدفعون بقراراتهم لتصير جزءاً من الأسفار المقدسة [2] وعندما اتخذت الأسفار المقدسة وضعها النهائي قبيل الميلاد لم يتوقف زعماء اليهود عن محاولاتهم تجاه تقديس قراراتهم ، فدفعوا بها إلى التلمود ثم بعد ذلك إلى قرارات حكماء صهيون ، وليس هذا وذاك بأقل عندهم من العهد القديم قداسة وجلالة [3] .

ويعد **الفكر المصري** أيضاً مصدراً رئيسياً لأسفار العهد القديم وقد وضع ذلك أحد العلماء الغربيين في بحث عنوانه (مصدر مصري لأمثال سليمان) ، كما لاحظ كثير من الباحثين أن المعاني التي ذكرها أخناتون في قصيدته عن الشمس تكررت كذلك في أسفار العهد القديم [4].

ومن مصادر العهد القديم الرئيسية كذلك الفكر البابلي ، وقد عثر القائمون بالحفائر الحديثة على نصوص بابلية تروي كلاً من قصتي الخليقة والطوفان ؛ ومن ثم فإن نقاد الكتاب المقدس يقولون بأن اليهود استولوا في أثناء أسرهم على هذه النصوص . ومن المصادر البابلية التي عثر عليها أيضا نصوص تعد مرجعاً هاماً لقصة (شمشون ودليلة) وسواها من قصص العهد القديم [5] .

يقول الأستاذ العقاد عن المأثورات البابلية والفارسية في الفكر اليهودي مايلي :

---

(١) قصة الحضارة : ول ديورانت الجزء الثاني من المجلد الأول (ص ٣٦٨) ترجمة محمد بدران .

(٢) انظر الصهيونية والماسونية : عبد الرحمن سامي (ص ٦١) .

(٣) انظر اليهودية : أحمد شلبي (ص ٢٢٥)

(٤) انظر محنة التوراة على أيدي اليهود : عصام الدين حفني (ص ٥٧) .

(٥) المرجع السابق ، وانظر اليهودية (ص ٢٣٦) .

« قصة الخليقة في العقائد الاسرائيلية الأولى تشابه قصة الخليقة في ألواح بابل ، وعقيـــدة (المخلص) المنتظر موجودة في الديانة الفارسية وموجودة في الديانة الاسرائيلية .... الخ »[1] .

ويذهب البعض من الباحثين إلى أن أهم مصدر عتمدت عليه أسفار العهد القديم هو تشريع حمورابي ويقولون إن القوانين الاسرائيلية مأخوذة مباشرة منه[2] .

هـ تحريف التوراة :

نستخلص مما قدمناه في تأليف التوراة حقيقة لاشك فيها ، وهي أن التوراة قد تطرق إليها التحريف والتبديل، وهذه الحقيقة قد قررها القرآن في غير موضع، وأخبرنا في جملة آيات في عدة سور بأن اليهود قد امتدت أيديهم الأثيمة إلى التوراة فحرفوها وبدلوها وأخفوا منها مالا يتفق وأهواءهم وشهواتهم ، قال الله تعالى :

« مِنَ الذين هَادوا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمَع غير مُسْمَع وراعِنا ليّاً بألسنتهم وطَعْناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمَع وانظُرنا لكان خيراً لهم وأقوَم ولكنْ لعنهم اللهُ بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً »[3] .

أي من الذين هادوا قوم يحرفون التوراة ويبدلون بالكلام عـــن مواضعه التي وضعه الله فيهـا بإزالته عنها وإثبات غيره ، أو يؤولونه على مايشتهون فيميلون عما أنزل الله منه ، وعنى بالكلم هنا (التوراة) على ما قال مجاهد ـــ رحمه الله[4] ـــ

---

(١) الله : عباس العقاد (ص ١١٧) .

(٢) انظر اليهودية (ص ٢٣٧ - ٢٣٨)

(٣) الآية ٤٦ من سورة النساء

(٤) تفسير الطبري (٨ : ٤٣٢) .

قال الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده: «التحريف يطلق على معنيين: أحدهما تأويل القول بحمله على غير معناه الذي وضع له، وهو المتبادر، لأنه هو الذي حملهم على مجاهدة النبي صلى الله عليه وسلم وإنكار نبوته وهم يعلمون، إذ أولوا ولا يزالون يؤولون البشارات به إلى اليوم، كما يؤولون ما ورد في المسيح ويحملونه على شخص آخر لا يزالون ينتظرونه، ويطلق على هذا القسم التحريف المعنوي.

ثانيهما: أخذ كلمة أو طائفة من الكلم من موضع من الكتاب ووضعها في موضع آخر. وقد حصل مثل هذا التشويش في كتب اليهود، خلطوا فيما يؤثر على موسى عليه السلام ما كتب بعده بزمن طويل، وكذلك وقع في كلام غيره من الأنبياء، وقد اعترف بهذا بعض المتأخرين من أهل الكتاب[1].

وقال تعالى أيضاً في الآية (٩١) من سورة الأنعام: «وما قدَروا اللهَ حقَّ قدْرِه إذ قالوا ما أنزلَ الله على بشر من شيء قل من أنزلَ الكتابَ الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس تجعلونه قراطيسَ تبدونَها وتخفون كثيراً».

فقد وبخهم الله تعالى على سوء جهلهم بالتوراة وذمهم على تجزئتها بإبداء بعض ما انتخبوه وكتبوه في ورقات متفرقات، وإخفاء بعض لا يشتهونه، فكان الحَبْر منهم، إذا استفتي في مسألة له هوىً في إظهار حكم الله فيها كتب ذلك الحكم في قرطاس ـ وهو ما يكتب فيه من ورق أو جلد أو غيرهما. فأظهره للمستفتي وإلا أخفاه إذا كان له هوى في إخفائه[2].

وقال تعالى: (يا أيها الرسولُ لا يحزنْكَ الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سمّاعونَ للكذب

---

(١) تفسير المنار (٥ : ١٤٠).

(٢) تفسير البيضاوي (ص ٢٦٩) ـ وانظر تفسير المنار (٧ : ٦٦٧).

سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرّفون الكلم عن مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم[1]) .

نزلت هذه الآية في اليهوديّين اللذين زنيا ، وكان اليهود قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم فحرفوه، واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة والتحميم، فقد أخرج أحمد وأبو داود ومسلم – واللفظ له – وغيرهم عن البراء بن عازب قال: مرّ على النبي صلى الله عليه وسلم بيهودي محمماً (مسوّداً وجهه) مجلوداً فدعاهم صلى الله عليه وسلم ، فقال : « هكذا تجدون حد الزنى في كتابكم »؟ قالوا : نعم ، فدعا رجلاً من علمائهم ، « فقال أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزنى في كتابكم »؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك . نجده الرجم ، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » فأمر به فرُجم ، فأنزل الله عز وجل : (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) إلى قوله إن أوتيتم هذا فخذوه[2]

وقال تعالى : (فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكّروا به ولا تزال تطّلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعفُ عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين[3]) .

قوله: يحرفون الكلم عن مواضعه : التحريف : إمالة الشيء عن موضعه إلى

---

(١) الآية ٤١ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٤١ من سورة المائدة . وانظر تفسير ابن كثير (٢ : ٥٨) .

(٣) الآية ١٣ من سورة المائدة .

أي جانب من جوانب ذلك الموضع، وتحريف الكلم عن مواضعه يصدق بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والحذف والزيادة والنقصان ، وبتحريف المعاني بحمل الألفاظ على غير ما وضعت له . والتحريف اللفظي والمعنوي كلاهما واقع في أسفار اليهود، وقد أضاع اليهود كتابهم عندما أحرق البابليون هيكلهم وخربوا عاصمتهم ، وسبوا من أبقى السيف منهم ، فلما عادت إليهم الحرية في الجملة جمعوا ما كانوا حفظوه من التوراة ووعوه بالعمل به ونسوا الباقي بسبب فقد الكتاب كما ذكرنا وعدم حفظهم له كله في الصدور .

ثم إن الذي أوتوه منه وبقي لهم ، ما كانوا يعملون به كما يجب ، ولا يقيمون مايعملون به كما ينبغي ، بل كانوا يحرفونه عن مواضعه بالنسي والتأويل ، على أنه وصل إليهم محرفاً لفظه لأنه نقل من قراطيس أو صحف لا ثقة بأهلها ولا بضبط ما فيها [1] .

وقال تعالى في الآية (١٥) من سورة المائدة (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين) .

أي يبين مابدلوه وحرفوه وأولوه وافتروا على الله فيه ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه [2] ، واليهود والنصارى في هذا سواء .

وقال أيضاً : (وإنّ منهم لفريقاً يلوُون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون [3]) .

---

(١) تفسير المنار (٦ : ٢٨٢ — ٢٨٤ – ٣٨٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢ : ٣٤) .

(٣) آية (٧٨) من سورة آل عمران .

يعني يحرفون الكلام حتى تظنوا أن الذي يحرفونه من كلامهم من كتاب الله وتنزيله [1] إلى غير ذلك من الآيات .

شواهد من التوراة على تحريفها :

وإذا كان القرآن قد قرر وأكد تحريف التوراة وتبديلها فإن التوراة نفسها تقرر وتؤكد هذه الحقيقة أيضاً ، فمن واقع التوراة المتداولة نستطيع أن نثبت ما قرره القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذلك :

أولاً : كانت الديانة اليهودية في أصلها – كما ينبئنا القرآن الكريم – ديانة توحيد تتصف فيها الذات العلية بصفات الوحدة والكمال والتجرد من جميع مظاهر النقص والمخالفة للحوادث في كل شيء كما هو الشأن في الدين الاسلامي ، ولكن من التأمل في توراتهم المزعومة نجد أن فكرة الألوهية لديهم كانت قد انتكست في عصر تدوينهم لهذه الأسفار ، فصوروا الله سبحانه وتعالى في صور مجسّمة ووصفوه بكثير من قصص هذه الأسفار . ومن ذلك مثلاً : ما يرويه سفر التكوين في قصة آدم وحواء وإخراجهما من الجنة إذ يذكر : أن الله تعالى قد نهاهما عن الأكل من الشجرة كي يبقيهما جاهلين حتى لا يشاركانه في صفة من أخص صفاته ، وبما أنهما قد أكلا من شجرة المعرفة فقد أصبحا في ذلك في مستوى الألوهية لتمييزهما بين الخير والشر ، ومن ثم فقد أصبح لزاماً أن يطرد الانسان من الجنة حتى لا تمتد يده إلى شجرة أخرى هي (شجرة الخلد) فيكفل لنفسه أرقى صفات الإله وهي البقاء [2] .

ومن ذلك أيضاً ما يرويه سفر التكوين في قصة إهلاك قوم لوط وتدمير

---

(١) تفسير الطبري (٦ : ٥٣٥) طبعة دار المعارف بمصر .

(٢) سفر التكوين ٣ : ٢٢ – ٢٣ .

قريتي سدوم وعمورة ، إذ يذكر أن ثلاثة رجال — الله وملكان معه — قد قدموا على إبراهيم وهو جالس أمام خيمته وأن إبراهيم قد عرف الله من بينهم ورجاه ومن معه أن يستريحوا عنده قليلاً من وعثاء سفرهم وقدم إليهم ماء لشربهم وغسل أرجلهم وفطائر وعجلاً حنيذا لطعامهم فانتحى ثلاثتهم تحت ظل شجرة وأخذوا يأكلون مما قدمه إليهم وإبراهيم جالس على مقربة منهم [1] ... الخ .

وقد ذكر القرآن الكريم هذه القصة على حقيقتها، فبين أن الذين وفدوا على إبراهيم كانوا ملائكة متشكلين في صورة آدميين، فقدم إليهم طعاماً، فلم تصل أيديهم إليه لأن الملائكة لا يأكلون . وفي هذا يقول القرآن الكريم : (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلامٌ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط [2]) .

ومن ذلك أيضاً ما يقرره سفر التكوين من أن الله تعالى بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام استراح في اليوم السابع وكان يوم سبت وأن الله قد بارك هذا اليوم من أجل ذلك فحرم فيه العمل [3] .

ولقد بين القرآن الكريم أن الله تعالى خلق السموات دون أن يناله نصب .. « (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب [4]) .

ويصور لنا الأستاذ العقاد عقيدة اليهود في الإله بقوله : (بدأت بتطور الاله على صورة إنسان يأكل ويشرب ويتعب ويستريح ويغار من منافسيه ويخص قبيلته وحدها بالبركة والتشريع ... وظلوا إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام

---

(١) سفر التكوين إصحاح ١٨ .

(٢) الآيات ٦٩ — ٧٠ من سورة هود .

(٣) سفر التكوين ٢ : ١ — ٣ .

(٤) الآية ٣٨ من سورة (ق) .

ينسبون إلى الإله أعمال الانسان وحركاته، فذكروا أنه كان يتمشى في الجنة وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ويخشى مركبات الجبال ، وأنه دفن موسى حينما مات في مؤاب (1)) .

ثانياً : تنسب أسفارهم لبعض الأنبياء أعمالاً قبيحة تتنافى مع وضعهم الديني والاجتماعي ، بل تتناقض مع العصمة التي منحها الله تعالى لهم ، ولا يتصور صدورها إلا من سفلة الناس .

فمن ذلك : ما جاء في سفر التكوين الاصحاح التاسع عشر من أن لوطاً عليه السلام قد زنى بابنتيه وحملتا منه وتولد لهما ابنان هما : موآب أبو المؤابيين ، وعمّي أبو العمونيين(2) .

وما جاء في الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج من أن هارون عليه السلام قد يسر لبني إسرائيل سبل الشرك ودفعهم إلى الوثنية وعبادة الأصنام ، فصنع لهم بيديه في سيناء عجلاً من ذهب يعبدونه من دون الله ، مع أن القرآن الكريم يصرح بأن الذي صنع العجل لبني إسرائيل هو السامري .

(.. قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حُمِّلنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري . فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي .(3)) .

وما جاء في الاصحاح التاسع من سفر التكوين من أن حام بن نوح عليه السلام قد رأى أباه وهو سكران مكشوف العورة ، فلما أفاق نوح من سكره وعلم ما كان من ابنه حام دعا على ذريته وهم الكنعانيون بأن يكونوا عبيداً لعبيد

---

(1) « الله » للعقاد (ص ١١٤ ، ١١٦) .

(2) سفر التكوين ١٩ : ٣٠ - ٣٨ .

(3) الآيتان ٨٧ — ٨٨ من سورة طه .

أبناء ولديه الآخرين سام ويافث [1] .

ثالثا : ما اشتملت عليه بعض الأسفار من غزل شهواني صريح ومن تعبير ماجن خليع يجعل العاقل يجزم بأن هذه الأسفار من المحال أن تكون منزلة من السماء . وفي سفر نشيد الانشاد كثير من هذا اللون الماجن من الغزل :

ففي الاصحاح الثالث منه ما نصه : « في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي .... فأمسكته ولم أتركه حتى أدخلته بيت أمي وحجرة من حبلت بي »

وقد تحدث صاحب قصة الحضارة عما يشيع في الأسفار من عبارات الجنس فقال : « وفي هذه الكتابات الغرامية العجيبة مجال واسع للحدس والتخمين ، فقد تكون مجموعة من الأغاني البابلية الأصل تشيد بذكر أشتار وتموز [2] ، وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين ، ولسنا ندري كيف غفل — أو تغافل — رجال الدين عما في هذه الأغاني من عواطف شهوانية فأجازوا وضعها بين أقوال أشعياء والحكماء » [3]

---

(١) وهذه القصة تقوم على خلاف العدل وعلى التفرقة العنصرية ومن ثم يستحيل أن تكون وحيا إليها وقد علق عليها صاحب كتاب إظهار الحق (١ : ١٦٧) بقوله والعجب أن المذنب بالنظر إلى عورة أبيه هو حام أبو كنعان والذي عوقب باللعنة ابنه كنعان وأخذ الابن بذنب الأب خلاف العدل .

وعلق عليها أيضا صاحب كتاب الاسفار المقدسة ص ٣٢ ، ٤٧ بقوله : « يقصد الذين حرفوا هذه القصة إلى هذا الوضع الغريب أن يبرروا الأوضاع الشاذة الظالمة التي كان يسير عليها بنو إسرائيل حيال الكنعانيين إذ يقتلون رجالهم ويسبون نساءهم وأطفالهم ويتخذون منهم عبيدا وإماء زاعمين أنهم بذلك يحققون دعوة نوح عليهم ويرجعونهم إلى الوضع الذي كتب عليهم من الأزل أن يكونوا عليه .

وأقول : المشهور أن ذرية حام هم سود البشرة بينما كان الكنعانيون في فلسطين بيض البشرة .

(٢) اشتار وتموز من آلهة البابليين .

(٣) قصة الحضارة ول ديورانت « جـ ٢ م ١ص ٣٨٣ » .

ثم ساق أمثلة كثيرة من هذا اللون الغزلي الماجن .

شهادات علماء المسلمين على تحريف التوراة :

وقد تناول كثير من علماء المسلمين التوراة بالنقد وبينوا مافيها من تناقض وتحريف وتبديل نذكر منهم : الامام ابن حزم في كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل »[1] والامام القرافي المالكي في كتابه « الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة »[2] والامام المحقق ابن القيم في كتابه « هداية الحيارى من اليهود والنصارى »[3] والعلامة رحمة الله الهندي في كتابه « إظهار الحق »[4] الذي ألفه إثر مناظرة بينه وبين أحد قساوسة الانكليز في الهند ، وذكر فيه شواهد عديدة من التوراة تدل على التحريف اللفظي والمعنوي ، والباحث التركي عبد الرحمن باجه جي زاده في كتابه « الفارق بين المخلوق والخالق »[5] والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار . والدكتور فؤاد حسنين علي في كتابه « التوراة : عرض وتحليل » وغيرهم .

هذا ولا خلاف بين العلماء في وقوع التحريف المعنوي وإنما الخلاف في التحريف اللفظي : فقد نقل البخاري في أواخر صحيحه[6] في باب قوله تعالى « بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ » عن ابن عباس : يحرفون يزيلون وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل ولكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله .

---

(١) انظر « جـ ١ : ١١٦ ، ١٨٦ ، ١٩٩ » .

(٢) انظر على سبيل المثال « ص ٢١٢ ، ٢١٤ » من كتاب الأجوبة الفاخرة في هامش كتاب الفارق بين المخلوق والخالق .

(٣) انظر مثلا « ص ٤٥ ، ٤٧ » .

(٤) انظر الباب الثاني في اثبات التحريف « جـ ١ : ١٢٦ » وما بعدها .

(٥) انظر « ص ٩ ، ١٠ » .

(٦) « ٩ : ١٩٥ » .

قال الحافظ ابن حجر في شرحه [1] : (قال شيخنا ابن الملقن في شرحه : هذا الذي قاله ، أحد القولين في تفسير هذه الآية ، وهو مختاره — أي البخاري — وقد صرح كثير من أصحابنا بأن اليهود والنصارى بدلوا التوراة والانجيل ، وفرعوا على ذلك جواز امتهان أوراقهما وهو يخالف ماقاله البخاري هنا) .

ثم قال ابن حجر : (قال بعض الشراح المتأخرين : اختلف في هذه المسألة على أقوال :

أحدها : أنها بدلت كلها ، وهو مقتضى القول المحكي بجواز الامتهان وهو إفراط ، وينبغي حمل إطلاق من أطلقه على الأكثر ، وإلا فهي مكابرة ، والآيات والأخبار كثيرة في أنه بقي منها أشياء كثيرة لم تبدل ؛ من ذلك قوله تعالى :

(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوارة والانجيل .... الآية) .

ومن ذلك قصة رجم اليهوديين وفيه وجود آية الرجم ، ويؤيده قوله تعالى (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) .

ثانيها : أن التبديل وقع ولكن في معظمها وأدلته كثيرة وينبغي حمل الأول عليه .

ثالثها : وقع في اليسير منها ومعظمها باق على حاله ، ونصره الشيخ تقي الدين بن تيمية في كتابه « الرد الصحيح على من بدل دين المسيح » .

رابعها : إنما وقع التبديل والتغيير في المعاني لا في الألفاظ ، وهو المذكور هنا .

قال ابن حزم : وبلغنا عن قوم من المسلمين ينكرون أن التوراة والانجيل اللتين بأيدي اليهود والنصارى محرفان ، والحامل لهم على ذلك قلة مبالاتهم بنصوص

---

(١) فتح الباري (١٧ : ٣٠٧ — ٣٠٨) .

القرآن والسنة ، وقد اشتملا على أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون . .

ويقال لهؤلاء المنكرين : قد قال الله تعالى في صفة الصحابة : ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه . . . إلى آخر السورة . وليس بأيدي اليهود والنصارى شيء من هذا . ويقال لمن ادعى أن نقلهم نقل متواتر : قد اتفقوا على أن لا ذكر لمحمد ﷺ في الكتابين ، فإن صدقتموهم فيلزمه أن لاذكر لمحمد ﷺ ولا لأصحابه ؛ وإلا فلا يجوز تصديق بعض وتكذيب بعض مع مجيئها مجيئاً واحداً أه .

وقال الشيخ بدر الدين الزركشي : اغترف بعض المتأخرين بهذا — أي بما قال البخاري — فقال إن في تحريف التوارة خلافاً ، هل هو في اللفظ والمعنى ؟ أو في المعنى فقط ؟ ومال إلى الثاني ، ورأى جواز مطالعتها ، وهو قول باطل ولا خلاف أنهم حرفوا وبدلوا [1] .

وقال السيد رشيد رضا في هذا الصدد : ماوقع من التحريف والنقصان فيها قد كان قبل الاسلام وأما بعده فجل ماوقع من التحريف هو المعنوي بحمل اللفظ على غير ماوضع له ، واختلاف الترجمة ، وقد كان مثل البخاري من جهابذة المنقول ومثل الفخر الرازي من جهابذة المعقول يظنان أن جميع تحريف أهل الكتاب معنوي ، لأن تغيير أهل الملة لكتابها الديني غير معقول إذ لابد أن يكون بالتواطؤ وإجماع الأمة ، وسبب هذا ، أن هؤلاء العلماء لم يكونوا يعلمون أن اليهود لم يكن عندهم من التوراة في الصدر الأول من تاريخهم إلا النسخة التي وضعها موسى عليه السلام في صندوق العهد — التابوت — وأنها فقدت بعد ذلك ، ولم يكونوا يحفظونها وأن ماعندهم الآن يرجع إلى ما كتبه لهم « عزرا » بعد السبي . ولذلك

---

(١) نقلا عن فتح الباري (١٧ : ٢٠٨) .

تكثر فيه الألفاظ البابلية ، وهم يزعمون أنه ألهم الصواب فيما كتب إلهاما ، مع أن مافيها من الأغلاط المخالفة للواقع ومن ذكر الحوادث التي وقعت بعد موسى ، ومن ذكر موت موسى وعدم ظهور أحد بعده مثله ، الخ . . . ماينقض دعوى الالهام المذكور [1] .

وقصارى القول : إن التوراة الحالية — إلا فقرات قليلة منها — كالوصايا العشر ليست هي التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام كما ذكرنا سابقاً وإنما هي مجموعة من الأسفار كتبت بعد موسى عليه السلام بأزمان متفاوتة ، وبأيد متنوعة ، وبأفكار مختلفة ، وإن اليهود كتبوها انعكاسا لأخلاقهم وتاريخهم وآلامهم ، وكان مقصدهم الأول من وراء ذلك إظهارهم الشعب الاسرائيلي بمظهر الشعب المقرب عند الله والمفضل على غيره ، ولكثرة الأشخاص الذين اشتركوا في كتابتها امتلأت بالأخطاء والمفتريات والمتناقضات .

(١) مجلة المنار جزء ٣ م ٢٦ ، ٢٩ رمضان سنة ١٣٤٣ هـ ٢٣ ابريل سنة ١٩٢٥ م ص ٧٨

ثانياً الانجيل

أ ـ تعريفه د ـ تحريفه

ب ـ تاليفه هـ ـ مصادره

ج ـ محتوياته

أ ـ تعريف الانجيل :

ذكرنا فيما سبق أن الكتاب المقدس يشمل عند إطلاقه أسفار العهد القديم والعهد الجديد ، وبعبارة أخرى يشمل التوراة والانجيل معاً ، وقد استقر رأي النصارى في أوائل القرن الخامس الميلادي على اعتماد سبعة وعشرين سفراً من أسفارهم قرروا أنها هي وحدها الأسفار المقدسة ، أي الموحى بها ، ويقصدون أنه موحى لأصحابها بمعانيها لا بألفاظها ، وأطلقوا عليها اسم (العهد الجديد) للمقابلة بينها وبين ما اعتمد من أسفار اليهود المقدسة التي أطلقوا عليها اسم (العهد القديم)[1] .

وتوجع أسفار العهد الجديد إلى ثلاث مجموعات وسفرين :

فالمجموعات هي :

١ ـ مجموعة الأناجيل وعددها أربعة : إنجيل متى ، وإنجيل مرقص ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا

---

(١) الأسفار المقدسة للدكتور وافي (ص ٦٣)

٢ — مجموعة رسائل بولس (١) ، وعددها أربع عشرة رسالة .

---

(١) بولس : وهو في الحقيقة مؤسس النصرانية الحالية وواضعها ، ولذلك نتكلم عنه بشيء من التفصيل .

ولد بولس في طرسوس في كيليكية بآسيا الصغرى من أبوين يهوديين . جاء في الفقرة الثالثة من الاصحاح الثاني والعشرين من سفر أعمال الرسل حكاية عنه (أنا رجل يهودي ولدت في طرسوس كيليكية ، ولكن ربيت في هذه المدينة (أورشليم) .

وجاء في الفقرة السادسة من الاصحاح الثالث والعشرين من السفر نفسه (ولما علم بولس أن قسماً منهم صدوقيون والآخر فريسيون — وهما فرقتان من فرق اليهود — صرخ في المجمع : أيها الرجال الاخوة أنا فريسي ابن فريسي .

وقد دخل بولس النصرانية وأصبح معلماً لها ، وكان لبولس تلاميذ ، منهم : لوقا : الذي أخلص له الود وقد كتب رسالة أعمال الرسل لكنها في الحقيقة قصة حياة بولس ، وكلها وصف لأعماله واشادة بمعجزاته .

ولم يقيد بولس نفسه بما تلقاه سواه عن عيسى بل راح يقول بصراحة : انه الوحيد الذي أؤتمن على المسيحية الصحيحة ، وان كل ما يخالف ما يقول به من تعاليم كلام دنس يخالف العلم ، يتظاهر به قوم زاغوا عن الايمان ، ولهذا يجب الاعراض عن مثل هذا الكلام ؟

وراح بولس يعلن ديانة استمد لها عناصر من الثقافات الأجنبية التي كان على علم واسع بها ، يقول ويلز :« وقد أوتي بولس قوة عقلية عظيمة وكان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية ، فتراه على علم عظيم باليهودية وغيرها من الديانات التي كانت تعتنقها الاسكندرية ؛ فنقل الى المسيحية كثيراً من أفكارهم ومصطلح تعبيرهم .

ويقول برى :« وكان عيسى يهودياً وقد ظل كذلك أبداً ولكن بولس كون المسيحية على حساب عيسى ، فبولس في الحقيقة مؤسس المسيحية ، وقد أدخل على ديانته بعض تعاليم اليهود ليجذب له اتباعاً منهم ، كما أدخل صوراً من فلسفة الاغريق ليجذب أتباعاً له من اليونان ، فبدأ يذيع أن عيسى منقذ ومخلص وسيد استطاع الجنس البشري بواسطته أن ينال النجاح .

وهذه الاصطلاحات التي قال بها بولس كانت شهيرة عند كثير من الفرق فاغتباط أتباع هذه الفرق الى ديانة بولس ، وعمد كذلك — ليرضي المثقفين من اليونان — فاستعار من فلاسفة اليونان وبخاصة الفيلسوف « فيلو » فكرة اتصال الاله بالأرض عن =

٣ – مجموعة الرسائل الكاثوليكية وعددها سبع رسائل [١] .

وأما السفران فهما : سفر أعمال الرسل للوقا [٢] وسفر رؤيا يوحنا [٣] .

ويطلق اسم (الإنجيل) عرفا على تلك القصص التي وجدت بعد زمان المسيح تقص أحواله وأعماله وأقواله التي وعظ بها ومعجزاته وخوارق العادات التي أجراها الله على يديه .

ب – تأليف الاناجيل :

ذكرنا فيما سبق أن الانجيل ليس واحداً عند النصارى ، وإنما هو أربعة أناجيل، وتمثل هذه الأناجيل الأربعة المعتمدة أهم مجموعات العهد الجديد وإليك أسماء مؤلفيها وتاريخ تأليفها .

أما إنجيل متى فمؤلفه متى بن حلفى وهو أحد الحواريين الاثني عشر ، كان

= طريق الكلمة أو ابن الاله أو روح القدس »(المسيحية: الدكتور أحمد شلبي ص ٥٩ – ٦٠ ، ٧٥ – ٧٦) .

(١) الرسائل الكاثوليكية : لا تستأثر هذه الرسائل كما في العهد الجديد إلا بحيز يسير وتعرض هذه الرسائل لبعض نواح من عقائد الديانة المسيحية وشرائعها وعباداتها وأخلاقها . ولم تعتمد الكنيسة الرسائل جميعاً إلا في سنة ٣٦٤ م أما قبل ذلك فكان كثير منها موضع شك في صحة محتوياتها وصحة نسبتها الى أصحابها عند كثير من النصارى (الاسفار المقدسة ص ٩٣ – ٩٤) .

(٢) ينسب هذا السفر للقديس لوقا صاحب الإنجيل الثالث وموضوعه تاريخ حياة الحواريين وتاريخ طائفة ممن كان لهم أثر كبير في النصرانية من التلاميذ والتابعين ، وقد عني لوقا بوجه خاص في كتابه هذا بتاريخ حياة بولس وجهاده في سبيل نشر النصرانيـــة وما ظهر على يديه من معجزات حتى لقد وقف عليه وحده نصف صفحات كتابه .

(٣) وقد كتبه يوحنا صاحب الانجيل الرابع عن رؤيا رآها وأوحي اليه فيها بكثير من الديانة النصرانية وأحداث المستقبل . (الأسفار المقدسة ص ٩٣ – ٩٤) .

متى قبل أتباعه المسيح من جباة العشور للدولة الرومانية في كفر ناحوم بفلسطين وقد مات في بلاد الحبشة سنة ٦٢ م أو سنة ٧٠ م . ويعتبر إنجيل متى من أقدم الأناجيل جميعاً إذ يرجع تاريخ تأليفه إلى سنة ٦٠ م على أرجح الأقوال [1] .

وأما إنجيل مرقس فمؤلفه القديس مرقس بن أرسطوبولس ولم يكن من التلاميذ الاثني عشر ، وأصله من اليهود ، وقد قيل إن بطرس أرسله إلى مصر ليبشر بالمسيحية ، وكان خاتمة أمره فيها أن حبسه الوثنيون وعذبوه عذاباً شديداً حتى مات متأثراً بجراحه [2] .

كتب مرقس إنجيله باليونانية واختلفوا في تاريخ كتابته ، فقال هورن : « ألف الإنجيل الثاني ـ يعني إنجيل مرقس ـ سنة ٥٦ وما بعدها إلى سنة ٦٥ ، والأغلب أنه ألف سنة ٦٣ م [3] .

وأما إنجيل لوقا [4] : فمؤلفه القديس لوقا وقد اختلفوا في مولده وأصله

---

(١) انظر كتاب مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين (ج ٢ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣) ، وانظر الأسفار المقدسة (ص ٦٤) ، وكتاب خلاصة تاريخ المسيحية في مصر (ص ٥٢) .

(٢) انظر قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست « لفظ مرقس » وكتاب مرشد الطالبين (ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤) وخلاصة تاريخ المسيحية في مصر (ص ٦١ ، ٦٣) .

(٣) انظر إظهار الحق (ج ١ ص ٤٤) .

(٤) يعلم من كلام لوقا في مطلع إنجيله أنه ما كان ملهماً ولا صاحب وحي كما يزعمون ـ وأنه كان يكتب لصديق له يسمى « ثاوفيلس » أموراً وصلت إليه من الذين كانوا معاينين وخداماً للكلمة . وهاك عبارته : « إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة بالأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس » اهـ . ومما ينبغي أن يلاحظ أن لوقا لم يفصح في كتابه عمن نقل عنهم ليعلم حالهم ولعله أبهمهم بقوله « كما سلمها إلينا الذين كانوا ... الخ » وهذا يوجب القدح فيما نقله والطعن في دعواه التحري والتدقيق .

واتفقوا على أنه ليس من تلاميذ المسيح ولاتلاميذ حواريه ، كما اتفقوا على أنه كان تلميذاً لبولس ورفيقاً له في أسفاره ، ثم قيل إنه قتل في عهد نيرون الملك الروماني وقيل مات في مدينة بقراس ببلاد اليونان[1] سنة ٧٠ م . وكما اختلفوا في مولده وأصله كذلك اختلفوا في السنة التي كتب بها إنجيله ، قال هورن: « ألف الانجيل الثالث - يعني إنجيل لوقا - سنة ٥٣ م أوسنة ٦٣ م أو سنة ٦٤م »[2] .

وقال الدكتور بوست في قاموسه : وقد كتب هذا الانجيل قبل خراب أورشليم ويرجح أنه كتب في قيصرية في فلسطين مدة أسر بولس سنة ٥٨ إلى سنة ٦٠ م غير أن البعض يظنون أنه كتب قبل ذلك .

وأما إنجيل يوحنا : فقد ألفه الحواري يوحنا بن زبدي الصياد وكان تأليفه إياه حوالي سنة ٩٠ م على أرجح الأقوال،فهو لذلك أحدث الأناجيل جميعاً،وليس عند النصارى سند صحيح يثبتون به صحة هذا الانجيل إلى يوحنا الحواري ، وإنما يقولون في ذلك بالظن الخالي عن الدليل ، ولذلك أنكر المحققون من علمائهم قديماً وحديثاً صحة هذه النسبة[3] .

وكان لدى النصارى في القرنين الأول والثاني أناجيل قديمة غير الأربعة السابق ذكرها ، وقد قيل إنها بلغت مائة إنجيل ونيفاً ، منها : إنجيل برنابا الذي يتفق في أكثر مسائله مع القرآن - وبخاصة مسألة صلب المسيح - ويزيل الهوة التي ابتدعها بولس والتي أبعدت المسيحية عن الأديان السماوية ، ومنها إنجيل الأبيونين ، وإنجيل ميلاد مريم ، وإنجيل توما الاسرائيلي ، وإنجيل الطفولة ،

---

(١) انظر الفارق بين المخلوق والخالق ص ٣٢٥ - ٣٢٦ وتفسير المنار (٦ : ٢٩٤)

(٢) إظهار الحق (١ : ٤٤).

(٣) انظر إظهار الحق (١ : ٤٤) والفارق بين المخلوق والخالق (ص ٣٤٢) وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار (ص ٣٩٩) ومابعدها والأسفار المقدسة (ص ٦٤) وما بعدها ، وتفسير المنار (٦ : ٢٩٢) وما بعدها .

وإنجيل نيكوديم ، وإنجيل مرسيون ، وإنجيل جاك الأصغر ... الخ[1] .

وقد أرادت الكنيسة النصرانية في أواخر القرن الثاني الميلادي أن تستبعد الأناجيل غير المعتمدة في نظرها وتحكم ببطلانها ، فاختارت الأناجيل الأربعة السابق ذكرها من بين الأناجيل الكثيرة التي كانت رائجة حينئذ ، وقررت أنها هي وحدها الأناجيل الصادقة في حقائقها وفي صحة نسبتها إلى أصحابها ، وأن ماعداها من الأناجيل أناجيل موضوعة ، وحملت النصارى على قبولها ورفض ماعداها وتركها ما أرادت ، ولم تكترث الكنيسة لما بين مضامين هذه الأناجيل الأربعة من التناقض والتخالف مادام ذلك لا يخالف المنزع العام الذي قصدته ، وهو التثليث ، وكون عيسى ابن الله ، وأنه صلب ليكفر خطايا البشر[2] .

ج ـ محتويات الأناجيل :

ترجع أهم الأمور التي تشتمل عليها هذه الأناجيـــل إلى أربعة موضوعات وهي القصص ، والعقيدة ، والشريعة ، والأخلاق .

أما القصص فيشغل أكبر حيز من هذه الأناجيل ويعرض لقصة مريم ، وحملها بالمسيح وولادته ، ودعوته إلى دينه ، واجتبائه للحواريين والتلاميـــذ ، وصلبه ، ورفعه إلى السماء .

وأما العقائد التي تشتمل عليها هذه الأناجيل فتدور كلها حول المسيح وتقرر ألوهيته وبنوته للأب ، وأن المسيح قد صلب ليكفر بذلك الخطيئة التي ارتكبها آدم ـ إذ عصى ربه وأكل من الشجرة ـ التي انتقلت بالوراثة إلى جميع نسـله وكانت متعلقة بهم إلى يوم يبعثون ، لولا أن افتداهم المسيح بدمه ، وأن المسيح

---

(١) انظر دائرة معارف القرن العشرين (م ١ ص ٦٠٩) تحت كلمة الانجيل .

(٢) قصص الأنبياء (ص ٣٩٩) ومحاضرات في النصرانية لأبي زهرة (ص ٩٩) . وانظر الأسفار المقدسة ص ١٠٢ وما بعدها .

قد قام من قبره بعد صلبه بثلاثة أيام وظل مع حوارييه وأنصاره أربعين يوماً . ثم رفع إلى السماء حيث جلس إلى يمين أبيه يصرف شؤون العالم ، وسيتولى هو يوم القيامة حساب الناس على ما فعلوه في الحياة الدنيا .

وأما ما يتعلق بشؤون الشريعة ، فإنه يفهم من هذه الأناجيل أن المسيحية قد أقرت شريعة اليهود المقررة في العهد القديم ، ولم تستثن من ذلك إلا ماورد عن المسيح نص بنسخه أو تعديله .

وأما فيما يتعلق بأخلاق الأناجيل فإنها معنية كل الامعان في مثاليتها وحريصة كل الحرص على أن تقوم العلاقات بين الناس على أساس التسامح والعفو[1] .

شواهد تحريف الانجيل :

يزعم النصارى أن أسفار الكتاب المقدس سواء العهد القديم منها أو العهد الجديد قد كتبت كلها بالالهام أي بالوحي عن طريق الالهام .

ولو عرضنا محتويات هذه الأناجيل على كتابنا الكريم الذي أنزله الله مهيمناً على غيره من الكتب ؛ لخرجنا بشواهد كثيرة من التناقض والكذب والتبديل والعبث والتغيير الذي أصاب هذه الأناجيل ، وقد تعرض للكلام على ذلك كثير من الباحثين كابن حزم في كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل) ، وكالشيخ شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي المعروف بالقرافي في كتابه المشهور (الأجوبة الفاخرة على الاسئلة الفاجرة) وكشيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه (الجواب الصحيح على من بدل دين المسيح) وكالامام المحقق ابن القيم في كتابه (هداية الحيارى من اليهود والنصارى) وكالأستاذ رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) وغير هؤلاء ممن ذكروا أمثلة كثيرة من التناقض الذي يكاد يستغرق أناجيلهم بحيث لم يبق منها باب خالص من المتناقضات الصريحة .

---

(١) الأسفار المقدسة ص ٦٨ - ٧٣ .

وها نحن أولاء نكتفي بذكر أمثلة للتدليل والاقناع :

١ ـ المسيح الذي يحدثنا عنه القرآن غير المسيح الذي يحدثنا عنه إنجيلهم ، فالمسيح في القرآن إنسان من البشر اصطفاه الله كما اصطفى غيره من الرسل ، وكل ما بينه وبين غيره من البشر من خلاف هو أنه قد ولد بدون أب وليس ذلك بعزيز على الله ، فقد خلق الله تعالى آدم من قبل دون أب ولا أم (إنَّ مَثَلَ عيسى عندَ الله كمَثَلِ آدمَ خَلَقَه مِنْ تراب ثم قال له كُنْ فيكون [١]) .

أما مسيح هذه الأناجيل المحرّفة فهو كائن غريب ، هو إله ، وابن للاله ، وأقنوم من هذه الأقانيم المكونة له .

والقرآن يذكر أن المسيح لم يقتل ولم يصلب ولكن شبه لهم ، وأن آدم قد أناب إلى الله واستغفر من خطيئته التي ارتكبها إذ أكل من الشجرة فغفرها الله له وأن الخطيئة لا يحمل وزرها غير مقترفها ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ، بينما تذكر هذه الأناجيل أن من أهم الأغراض التي ظهر من أجلها المسيح ابن الله هو أن يكفّر بدمه الخطيئة التي ارتكبها آدم والتي انتقلت بطريق الوراثة إلى جميع نسله ، وأنه قد صلب بالفعل فحقق بذلك أهم غرض ظهر من أجله .

والقرآن يذكر أن الديانة التي جاء بها المسيح ديانة توحيد تدعو إلى عبادة الله وحده ، وفي ذلك يقول الله تعالى على لسان المسيح مجيباً على سؤال من ربه (ما قلتُ لهم إلا ما أمرتَني به أنِ اعبدُوا اللهَ ربي وربّكم وكنتُ عليهم شهيداً مادمتُ فيهم فلما توفيتَني كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم وأنتَ على كل شيءٍ شهيدٌ [٢]) .

بينما نرى أن الديانة التي تقررها هذه الأناجيل هي ديانة شرك تقوم على

---

(١) الآية ٥٩ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١١٧ من سورة المائدة .

الاعتقاد بالتثليث ، وقد نعى القرآن الكريم في أكثر من آية على النصارى تحريفهم لكتاب الله في أسفارهم المزعومة ، وتغييرهم لطبيعة المسيح وزعمهم أنه ابن الله بقوله : (... وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله ذلك قولهم بأفواههم يُضاهِئون قولَ الذين كفروا من قبلُ قاتلهم الله أنّى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ بنَ مريمَ وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون[1]) .

وقوله (يا أهلَ الكتابِ لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحقَّ إنما المسيحُ عيسى بنُ مريمَ رسولُ الله وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثةٌ ، انتهوا خيراً لكم إنما اللهُ إلهٌ واحدٌ سبحانه أن يكون له ولدٌ له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً[2]) .

والقرآن يذكر أن الحواريين كانوا أنصارَ الله ومن الداعين إلى عقيدة التوحيد (يا أيها الذينَ آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بنُ مريمَ للحواريين مَن أنصاري إلى الله ، قال الحواريون نحنُ أنصار الله ، فآمنتْ طائفةٌ من بني إسرائيلَ وكفرتْ طائفةٌ فأيدنا الذينَ آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين[3]) .

وقال (وإذْ أوحيتُ إلى الحواريين أنْ آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنّا واشهدْ بأننا مسلمون[4]) .

على حين أن هذه الأناجيل ينسب تدوينها لبعض حواريي السيد المسيح وتلاميذه وتابعيه مع اشتمالها على تقرير عقيدة الشرك ؛ فإما أن يكون الأشخاص الذين تنسب إليهم الأناجيل هم غير الحواريون والأنصار الذين يحدثنا عنهم القرآن،

---

(١) الآيتان ٣٠ — ٣١ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١٧١ من سورة النساء .

(٣) الآية ١٤ من سورة الصف . وظاهرين غالبين .

(٤) الآية ١١١ من سورة المائدة .

وإما أن يكونوا هم الذين يحدثنا عنهم القرآن ويذكر أنهم أنصار الله وتكون هذه الكتب من تأليف أناس آخرين ونسبت إليهم بهتاناً وزوراً .

٢ – قال تعالى في شأن القرآن الكريم ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[1]. جعل سبحانه عدم وجود اختلاف في القرآن دليلاً على كونه من عنده عز شأنه، وبالتالي يكون وجود الاختلاف في أي كتاب دليلاً على كونه من عند غير الله ، وهاك بعض الأمثلة من اختلافات مصنفي العهد الجديد .

المثال الأول :

اختلاف متى ولوقا في نسب المسيح عليه السلام من وجوه ستة، ذكرها الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق[2] وهذا الاختلاف الذي يعترف به علماء النصارى[3] ولا يجدون مناصاً من الاقرار به يدل على أمرين :

أحدهما : أن أحد الانجيلين لم يكتب بالالهام بيقين، إذا فرضنا أن أحدهما صادق والآخر كاذب ؛ فالكاذب لاشك لم يكن بالالهام ، وإلا كان الاله الذي أوحى به كاذباً وذلك لايليق بحسب بداهة العقل، ولما كان الصحيح منهما غير متعين فالشك يرد على الاثنين حتى يثبت الصحيح ويقوم الدليل على صدقه دون الآخر ، ومع هذا الشك لا يمكن الاعتقاد بأن ثمة إلهاماً ، فإن الشك إن اعترى الأصل زال الاعتقاد .

---

(١) من الآية ٨٢ من سورة النساء .

(٢) انظر اظهار الحق (١ : ٥٥) ، والفارق بين المخلوق والخالق (ص ٢٤ – ٢٥) وكتاب محاضرات في النصرانية (ص ٨٣ – ٨٤) وقارن بين إنجيل متى (١ : ١٥ : ١٦) و (١ : ٦) و (١ : ١٢) و (١ : ١ – ١٦) وإنجيل لوقا (٣ : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٤) .

(٣) أمثال اكهارن وكيسر وهيس وديوث ووتر وغيرهم – انظر إظهار الحق ١ : ٥٥ .

ثانيها : أن إنجيل متى لم يكن معروفاً للوقا ولو كان لوقا يعرفه لراجعه ولما وقع في الخطأ الذي وقع فيه ، أو على الأقل ما خالفه ، وهذا يدل على أنه لم يكن موجوداً قط[1].

المثال الثاني :

نقل يوحنا عن عيسى عليه السلام في الاصحاح الخامس آية ٣١ من إنجيله مانصه « إن كنتُ أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً » ونقل في الاصحاح الثامن آية ١٤ من الانجيل نفسه أنه قال : « إن كنتُ أشهدُ لنفسي فشهادتي حق » .

المثال الثالث :

اختلاف متى ولوقا في شأن اللصّين اللذين صلبا مع المسيح ؛ فعلى رواية متى أنهما كانا كافرين ، وعلى رواية لوقا : أن أحدهما مؤمن والآخر كافر[2].

المثال الرابع :

وقد اشتملت بعض هذه الأناجيل على أخبـــار لو صحت لكانت معلومة مشهورة في التاريخ يعرفها الخاص والعام، ولدونتها كتب التاريخ على أنها حوادث مفردة عجيبة في الدهر ، ولكن لم يرد لها ذكر في التاريخ ولم يعرف الناس أمرها إلا من تلك الكتب ، فمن هذه الأخبار :

أ ـ ماجاء في إنجيل متى في الباب السابع والعشرين آية ٥١ ـ ٥٣ بصدد صلب المسيح وقيامته : (فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى قسمين من فوق إلى أسفل ، والأرض تزلزلت ، والصخور تشققت ، والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة ، وظهروا لكثيرين ، وأما قائد المائة

(١) محاضرات في النصرانية محمد أبو زهرة (ص ٨٤ ـ ٨٥) .

(٢) انظر انجيل متى ٢٧ : ٣٨ ـ ٤٤ ، وانجيل لوقا ٢٣ : ٣٩ ـ ٤٣ .

الذين يحرسون يسوع ، فلما رأوا الزلزلة وما كان خافوا جداً وقالوا : حقاً كان هذا ابن الله) .

وقد علق الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة على هذا بقوله : « وهذه حادثة عظيمة لو صحت لدونها التاريخ العام ولو صحت أيضاً لآمن الرومان واليهود ، ولكن لم ترد أخبار بإيمان أحد من اليهود على إثر تلك البينات الباهرات ، ولقد جزم العلامة المسيحي نورتن بكذب هذه الحكاية ، وقال في تكذيبها : هذه الحكاية كاذبة ، والغالب أن أمثال هذه الحكايات كانت رائجة في اليهود بعد خراب أورشليم ، فلعل أحداً كتب هذه الحكاية في حاشية النسخة العبرانية ، وأدخلها الكتاب في المتن ، وهذا المتن وقع في يد المترجم فترجمها كما وجدها[1] » .

ومما يدل على كذب هذه الحادثة أيضاً أن يوحنا — وكان معاصراً لمتى — لم يذكرها في إنجيله ، ولوقا لم يذكر عنها إلا انشقاق الحجاب مع أنه كان متتبعاً كل شيء من الأول بتدقيق كما ذكر ذلك في أول إنجيله .

ب — وما جاء في إنجيل متى في الاصحاح السادس عشر آية ٢٧ — ٢٨ من قوله حكاية عن المسيح (فإن ابن الانسان — يعني نفسه — سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله . الحق أقول لكم : إن من القيام ههنا قوم لايذوقون الموت حتى يروا ابن الانسان آتياً في ملكوته) أهـ .

وهذا كذب فإن كل القائمين هناك ذاقوا الموت ومضى على موتهم مئات السنين ، ولم ير أحد منهم ابن الانسان — عيسى — آتياً في ملكوته في مجد أبيه مع الملائكة مجازياً كل إنسان حسب عمله .

ج — وما جاء في إنجيل متى أيضاً في الاصحاح الرابع والعشرين (٢٩ — ٣٤) حكاية عن المسيح : « وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس ،

---

(١) محاضرات في النصرانية ص ٨٧ — ٨٨ ، وانظر إظهار الحق ١ : ٨٨ .

والقمر لا يعطي ضوءه ، والنجوم تسقط من السماء ، وحينئذ تظهر علامة ابن الانسان في السماء . . . الحق أقول لكم : لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله » . أهـ

فهذا كله كذب لأنه قد مضى الجيل المذكور ولم يحصل شيء مما ذكر ، وهذه القصة ذكرت في إنجيل مرقس (١٣ : ٢٤ - ٣١) وفي إنجيل لوقا (٢١ : ٢٥ - ٣٣) مع اختلاف في الألفاظ ومع زيادة ونقصان .

المثال الخامس :

لم تختلف الأناجيل الأربعة في مسألة من المسائل كاختلافها في مسألة القبض على المسيح وحبسه ثم محاكمته ، وصلبه فلا تكاد جزئية من الجزئيات في أحدها تتحد مع الجزئية نفسها في إنجيل آخر .

ولما كانت هذه الأناجيل من تأليف قوم يدعي النصارى لهم الالهام ويعتقدون خلوها من الخطأ ، كان ينبغي أن تكون كتابتهم في هذه الحادثة المهمة التي هي مناط النجاة ودعامة الايمان في نظرهم متطابقة متوافقة بحيث لا يكون فيها اختلاف أصلا ، ولا أريد أن أورد أمثلة مخافة التطويل وإنما أحيل القارىء إلى كتاب قصص الأنبياء [1] للشيخ عبد الوهاب النجار ليطلع بنفسه عليها .

ويعجبني ما قاله الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه القيم (محاضرات في النصرانية) ص ٨٦ — ٨٧ ، فقد قال ما نصه : « وفي الحق أن من يراجع الأناجيل في خبرها عن القبض على المسيح وحبسه ، ثم محاكمته وصلبه ، ثم قيامته من قبره ، يجد الاختلاف في أخبارها اختلافا بينا ، ولو كان بعض هذا الاختلاف في شهادة اثنين يشهدان في درهم ما ثبتت بشهادتهما دعوى ولا انتصر بهما حق ، ولتراجع الأناجيل في هذا المقام لتعرف مقدار الصحة في خبرها ونتعرف مقدار ما في دعوى الالهام لكاتبيها عند كتابتها من

---

(١) ص ٤٣٤ — ٤٥٢ .

حق ، فلا شك أن ذلك الاختلاف الذي لايمكن التوفيق بين متناقضه يؤدي إلى أن تلك الأناجيل يأتيها الشك من كل جانب ، يأتيها من بين يديها ومن خلفها فلا يمكن أن تكون إلهاماً من حكيم حميد ، وأن ذلك الاختلاف فيما أحاط بمسألة الصلب — فوق أنه يفقد الثقة بالأناجيل — هو أيضا يجعل خبر الصلب عند القارىء الخالي الذهن الذي لم يكن في ذهنه قبل القراءة ماينفيه أو يثبته موضـــع الشك يرجح فيه الرد على القبول والتكذيب على التصديق أهـ .

مصادر الانجيل :

قام الدكتور أحمد شلبي في كتابه (المسيحية) بدراسة موضوعية بين فيها المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية وقد انتفع في بحثه هذا بثلاثة مراجع أجنبية باللغة الأمية ذكر أسماءها في كتابه المذكور .

وندع الدكتور شلبي يحدثنا عن هذه المراجع ومــــا اقتبسه منها ومن غيرهـا فيقول :

« أما المرجع الأول فقد عقد فصلاً خاصاً لمناقشة المقارنة بين البوذية والمسيحية ويتضح من هذا الفصل أن المسيحية استعارت كثيراً من معتقداتها وشعائرها من البوذية ؛ فالتثليث ، والأقانيم ، وقصة الصلب للتكفير عن خطيئة البشر ، والزهد والتخلص من المال للدخــــول في ملكوت السموات ، والرهبانية ، وتعذيب الجسم ... كلها مستعارة من البوذية .

وأما المرجـــع الثاني فدراســـة واسعة مستفيضة حول الأصــــول التي انحدرت منها عقائد المسيحية وشعائرها ، وهـذا المرجع يصور المسيحية ثوباً مهلهلاً تكوّن من مجموعة كبيرة من الرقاع ، جاءت كل رقعـــة منها من واد ، فبعض المعتقدات انحدر من الأديان الوثنية ، وبعضها من البوذية ، وبعضهـا من الفلسفة الإغريقية ، وبعضها من الخرافات التي يدين بها البدائيون .. وهكذا .

وأما المرجع الثالث ، فإن عنوانه (المسيحية الوثنية) خير دليل على اتجاه مباحثه .

وبجانب هذه المراجع هناك مراجع أخرى سلكت هذا السبيل ، وفيما يلي صورة سريعة مستقاة من هذه الكتب توضح لنا بدقة خطأ الادعاء الذي يرى أن هذه العقائد مستمدة من الأناجيل أو من أقوال عيسى ، فقد وجدت هذه الاتجاهات قبل عيسى وقبل الأناجيل بمئات السنين . وأول مانورده اقتباس من الأستاذ عباس محمود العقاد يربط بين عقائد المسيحية وعقائد البدائيين ، يقول سيادته : (لما كشفت أمريكا الوسطى وجد الأسبان فيها أقواماً يتعبدون على أديان لا يعرفونها فخف القساوسة والمبشرون إلى البلاد الجديدة ليبحثوا في أديانها ويحولوا أقوامها إلى العقيدة المسيحية فأدهشهم بعد قليل من الدراسة أن يروا أن لهم شعائر على شيء من الشبه بنظائرها في الديانة المسيحية ، وذلك كالتكفير عن الخطيئة والخلاص وغيرها من المناسك) أ هـ كلام العقاد (وقد ظهرت البوذية قبل المسيحية بأكثر من خمسة قرون ويلاحظ غوستاف لوبون تشابهاً واضحاً بين الديانتين من ناحية الشكل ومن ناحية الموضوع ونقتبس منه قوله : (إنك تلاحظ تماثلاً عجيباً من كل وجه بين صيام عيسى في البرية حيث حاول الشيطان أن يغريه ثلاث مرات ، وصيام بوذا في الآجام حيث حاول الشيطان أن يغريه ثلاث مرات أيضاً ، ويذكرنا ما حدث لهذا الحكيم الهندومي مع المرأة التي طلب منها أن تسقيه وهي من الطبقة الدنيا بما حدث لعيسى مع السامرية وما قاله لها ، وكلتا الديانتين أمرت بالإحسان والزهد ، وكلتاهما ناطت الخطيئة بالنيات كما تناط بالأعمال ، وكلتاهما ابتدعت الرهبانية ، ولم تكونا سوى وجهين لحادث مهم واحد في تاريخ العالم ، ويختم غوستاف لوبون هذه المقارنة بقوله : وليس مما نبالي به كثيراً أن تكون إحداهما مدينة للأخرى فلا ندرس هذا الأمر في هذا الكتاب . .) أ هـ كلام غوستاف لوبون .

أما نحن فإننا ندرس هذا الأمر في هذا الكتاب ولذلك نقرر أن مسيحية

بولس استعارت هـذا وسواه من البوذية فطبيعة اللاحق أن يستعير من السابق ولا يمكن العكس أن يكون ، وبخاصة أن هذه الاتجاهات دونت قبل ظهور عيسى [1] ، أهـ .

---

(١) المسيحية للدكتور أحمد شلبي ص ١٢٠ ، ١٢٢ .

الباب الأول

الفصل الأول

١ ـ معنى الاسرائيليات .

٢ ـ بيان أقسامها .

٣ ـ حكم روايتها .

معنى الاسرائيليات

لفظ الاسرائيليات ، جمع مفرده إسرائيلية ، وهي قصة أو حادثة تروى عن مصدر إسرائيلي . والنسبة فيها إلى إسرائيل ، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبو الأسباط الاثني عشر [١] .

وقد ذكر اليهود في القرآن الكريم منسوبين إلى أبيهم إسرائيل [٢] في

---

(١) الاسرائيليات في التفسير والحديث للأستاذ محمد حسين الذهبي لسنخة مقدمة لمجمع البحوث الاسلامية بالأزهر « ص ١٢ » .

(٢) من أشهر أسماء بني إسرائيل ، العبريون ، والاسرائيليون ، ويهود ، وقد قيل إنهم سموا بالعبرانيين نسبة لابراهيم الذي ذكر في سفر التكوين باسم « إبراهيم العبراني » ــ

مواضع كثيرة كقوله تعالى (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون[1]). وإسرائيل كلمة عبرانية مركبة من (إسرى) بمعنى عبد أو صفوة . ومن (إيل) وهو الله ، فيكون معنى الكلمة عبد الله وصفوته من خلقه[2] .

قال الدكتور (جورج بوست) في قاموس الكتاب المقدس : (إسرائيل لقب يعقوب ، وهي تفيد معنى الأمير المجاهد مع الله ؛ ثم أطلق هذا اللقب على جميع ذرية يعقوب إلى حين انفصال العشرة أسباط عن بيت داود[3] .

والمقصود من الاسرائيليات أو المعنى الاصطلاحي لها مما لم يتحدث عنه

= لأنه عبر نهر الفرات وأنهاراً أخرى .

وأما سبب تسميتهم اليهود ، فقد قيل إنهم سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل ، وقالوا : انا هدنا اليك — أي تبنا ورجعنا — قال صاحب لسان العرب : (الهود — التوبة ، هاد يهود هوداً ، وتهود تاب ورجع الى الحق . فهو هائد .. وفي التنزيل العزيز: (إنا هدنا اليك) أي تبنا اليك ، وقيل نسبة إلى قبيلة يهوذا « وعرب بقلب الذال دالاً » وقوله تعالى « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر » معناه دخلوا اليهودية .. قاله سيبويه : وفي الحديث : ما من مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . «رواه البخاري في كتاب التفسير ج٦ ص ٣ ٤ ١» معناه أنهما يعلمانه دين اليهودية والنصرانية ويدخلانه فيه أهـ « لسان العرب ج ٤ ص ٤٥٠ — ٤٥٢ » .

ويذكر الكتاب المقدس قصة خرافية عن سبب تسمية اسرائيل بذلك : فقد جاء في سفر التكوين الاصحاح الثاني والثلاثين ما نصه (وصارعه — يقصد يعقوب عليه السلام — انسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه ، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه وقال : اطلقني لأنه قد طلع الفجر ، فقال : لا أطلقك إن لم تباركني ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب ، فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت) أهـ .

(١) الآية ٤٠ من سورة البقرة .

(٢) انظر دائرة معارف القرن العشرين (م١ ص ٢٨٠) تحت كلمة « اسرائيل » .

(٣) قاموس الكتاب المقدس مجلد أول تحت كلمة « إسرائيل » .

المتقدمون وإنما تحدث عنه عدد من الباحثين المحدثين ، فمنهم من قـــال : (لفظ الاسرائيليات وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودي للتفسير ، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه ، إلا أنا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل ، فنريد به ما يعم اللون اليهودي واللون النصراني للتفسير ، وما تأثر بـه التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية ، وإنما أطلقنا على جميع ذلك لفظ الاسرائيليات من بـــاب التغليب للجانب اليهودي على الجانب النصراني ، فإن الجانب اليهودي هو الذي اشتهر أمره ، فكثر النقل عنه ، وذلك لكثرة أهله وظهور أمرهم ، وشـــدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الاسلام إلى أن بسط رواقه على كثير من بلاد العالم ، ودخل الناس في دين الله أفواجا[1] .

ومنهم من قال : (هذه الكلمة يهودية الأصل ، وقد غلبت على كل ما نقل من اليهودية إلى الاسلام وما نقل عن الأديان الأخرى إليه أيضا .. ولكنها خصت بهذا الاسم لأن أغلب ما نقل عن اليهودية والأديان الأخرى كان طريقه أولئك الاسرائيليون[2]) .

ومنهم من قال : (يطلق علماء المسلمين كلمة إسرائيليات على جميع العقائد غير الاسلامية ولا سيما تلك العقائد والأساطير التي دسها اليهود والنصارى في الدين الاسلامي منذ القرن الأول الهجري[3]) .

ومنهم من قال : (الاسرائيليات اصطلاح أطلقه المدققون من علماء الاسلام على القصص والأخبار اليهودية ، والنصرانية التي تسربت إلى المجتمع الاسلامي ، بعد دخول جمع من اليهود والنصارى إلى الاسلام أو تظاهرهم بالدخول فيه[4] .

---

(١) التفسير والمفسرون (١٦٥:١) .

(٢) نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن للدكتور السيد أحمد خليل ص٣٧

(٣) السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية – فان فلوتن – ص ١٠٩ ترجمة وتعليق الدكتور حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم .

(٤) الألوسي مفسراً « رسالة مخطوطة بجامعة القاهرة » محسن عبد الحميد ص٣١٩

ويلاحظ أن هذه الآراء متقاربة المعنى ، وإنما تفاوتت من حيث الشمول وعدمه .

والنهج الذي سنسير عليه في بحثنا هذا هو أخذ هذا اللفظ بمفهومه الواسع بحيث يشمل كل دخيل على التفسير ، وبخاصة ما فيه مبالغة ودس وكذب وتحريف ولو كان مروياً عن غير إسرائيليين ، أو متعلقاً بقصص غير إسرائيلي ، لأننا لاحظنا أن كثيراً من كتب التفسير بالمأثور تورد بيانات مسهبة حول القصص والشخصيات والأعلام والأحداث القرآنية معزوة إلى بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم من غير مسلمي أهل الكتاب ، وفيها كثير من الإغراب والخيال والمبالغة ، ومن هذه البيانات ما هو حول قصص وشخصيات ليست واردة في أسفار أهل الكتاب مثل قصة هود وقومه عاد ، وصالح وقومه ثمود ، وشعيب وقومه ، وأصحاب الأيكة ، وأهل الرس ، ولقمان وغير ذلك ، مما هو عربي أو غير إسرائيلي ، ومنها ما رووه بصيغة أحاديث نبوية غير واردة في كتب الأحاديث المعتبرة بحيث يكون إطلاقنا على هذه البيانات — عندما نتعرض إليها — اسم الاسرائيليات ليس على جهة الحقيقة ، وإنما هو من قبيل التغليب .

يقول الاستاذ أمين الخولي : « وكان اليهود في ماضيهم الطويل قد شرقوا راحلين من مصر ومعهم آثار حياتهم فيها معهم ، ثم أبعدوا مشرقين إلى بابل في أسرهم .. وقد حملوا من أقصى المشرق في بابل وأقصى المغرب في مصر ما حملوا ، وجدء البيئة العربية الاسلامية من كل هذا المزيج ما جاء ، إلى جانب ما بعث إليها الديانات الأخرى التي دخلت تلك الجزيرة ، وألقت إلى أهلها ما ألقت من خبر أو قصص ديني ، وكل أولئك قد تردد على آذان قارئي القرآن ، ومتفهميه ، قبلما خرجوا إلى ما حول جزيرتهم شرقاً وغرباً فاتحين ، ثم ملأ آذانهم حين خالطوا أصحاب تلك البلاد التي نزلوها وعاشوا بها ، وإن كان الذي اشتهر من ذلك هو

اليهودي ، لكثرة أهله ، وظهور أمرهم فدعيت تلك المزيدات التي اتصلت بروايات التفسير النقلي باسم الاسرائيليات [1] .

(١) دائرة المعارف الاسلامية المجلد الخامس ص ٣٥٦ تعليق الاستاذ أمين الخولي تحت مادة « تفسير » .

اقسام الاسرائيليات

تنقسم الاسرائيليات إلى اقسام متعددة باعتبارات مختلفة :

فتنقسم أولا باعتبار السند إلى ما يلي :

أ ــ صحيح من ناحية سنده ومتنه ، ومثاله : ما رواه البخاري في صحيحه قال : حدثنا عبد الله بن سلمة حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال بن أبي هلال عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن هذه الآية التي في القرآن (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً [1]) قال : في التوراة : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، فيفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً [2]) .

ب ــ ضعيف من ناحية سنده أو متنه :

فمثال الأول : ما رواه ابن جرير في تفسيره قال : (حدثنا القاسم قال : حدثنا الحسين قال حدثنا حجاج عن ابن جريج عن وهب بن سليمان عن شعيب

---

(١) من الآية ٤٥ من سورة الأحزاب .

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير (٦ : ١٦٩ - ١٧٠) ، وانظر تفسير ابن كثير ٢٥٣:٢ ، وقد ذكر نحو هذا عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ، انظر كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ١ : ١٩ .

الجبائي قال : في كتاب الله : الملائكة حملة العرش لكل ملك منهم وجه إنسان وثور وأسد ، فإذا حركوا أجنحتهم فهو البرق[1] أهـ .

وشعيب الجبائي : يماني يروي من أساطير أهل الكتاب،قال صاحب لسان الميزان في ترجمته : (أخباري متروك) ثم ذكر شيئاً لا يقبله العقل من كلامه[2].

ومثال الثاني : ما ذكره ابن كثير في تفسيره قال : قال عبد الرزاق في تفسيره عن الثوري عن موسى بن عقبة ، عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار قال : ذكرت الملائكة أعمال بني آدم وما يأتون من الذنوب ، فقيل لهم اختاروا منكم اثنين،فاختاروا هاروت وماروت، فقال لهما : إني أرسل إلى بني آدم رسلا وليس بيني وبينكم رسول،انزلا لا تشركا بي شيئاً،ولا تزنيا،ولا تشربا الخمر . قال كعب : فوالله ما أمسيا من يومهما الذي اهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه .

وقد علق ابن كثير على هذا الإسناد بقوله :

(وهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الاسنادين المتقدمين[3]) .

ثم ذكر ابن كثير رواية أخرى عن ابن جرير قال : حدثنا المثنى حدثنا الحجاج أخبرنا حماد عن خالد الحذاء عن عمير بن سعيد،قال سمعت علياً رضي الله

---

(1) تفسير الطبري « ١ : ٤٤٣ » طبعة دار المعارف .

(2) لسان الميزان لابن حجر « ٣ : ١٥٠ » .

(3) تفسير ابن كثير « ١ : ١٣٨ » ، ويقصد بالاسنادين ما قاله الامام أحمد رحمه الله أخبرنا يحيى بن بكير حدثنا زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما « مرفوعا » ثم ذكر الحديث ، وما قاله ابن مردويه : حدثنا دعلج بن أحمد حدثنا هشام بن علي بن هشام حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا سعيد بن سلمة حدثنا موسى بن سرجس عن نافع عن ابن عمر « مرفوعا » وقد علق الشيخ أحمد شاكر على كلام ابن كثير بقوله : « وان من رفعه قد أخطأ ووهم لأن الذين رووه من قصص كعب الأحبار أحفظ وأوثق ممن رووه مرفوعا . وهو تعليل دقيق من امام حافظ جليل (مسند الامام أحمد ٩ : ٣٥ — ٤٠) .

عنه يقول : كانت الزهرة امرأة جميلة من أهل فارس . . . الخ القصة) ، وعلق ابن كثير بقوله : (وهذا الاسناد رجاله ثقات وهو غريب جداً [1]) .

وقد تقدم متن الحديث الامام فخر الدين الرازي بقوله : واعلم أن هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة [2] ، ثم بين أوجه فسادها من ناحية متنها .

وقال الشيخ أحمد شاكر : (مخالفته ـ أي الحديث ـ واضحة للعقل لا من جهة عصمة الملائكة القطعية بل من ناحية أن الكوكب الذي نراه صغيراً في عين الناظر قد يكون حجمه أضعاف حجم الكرة الأرضية بالآلاف المؤلفة من الأضعاف فأنى يكون جسم المرأة الصغير [3] إلى هذه الأجرام الفلكية الهائلة [4]) .

ج ـ موضوع : وهو ما كان مختلقاً مصنوعاً ومثاله : ما رواه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن بني إسرائيل لما اعتدوا وعلوا وقتلوا الأنبياء بعث الله عليهم ملك فارس بختنصر ، وكان اللهملكه سبعمائة سنة ، فسار إليهم حتى دخل بيت المقدس فحاصرها وفتحها وقتل على دم زكريا سبعين ألفاً ثم سبى أهلها ... وسلب حلي بيت المقدس واستخرج منها سبعين ألفاً ومائة ألف عجلة من حلي حتى أورده بابل . قال حذيفة : فقلت : يارسول الله لقد كان بيت المقدس عظيماً عند الله ؟ ، قال : أجل بناه سليمان بن داود من ذهب ودر وياقوت وزبرجد ، وكان بلاطه : بلاطة من ذهب وبلاطة من فضة ، وعمده ذهباً ... الخ [5]) .

---

(١) تفسير ابن كثير «١ : ١٣٦» .

(٢) تفسير الرازي «٣ : ٢١٩ — ٢٢٠» .

(٣) نذكر الرواية الموقوفة على علي كرم الله وجهه والتي ذكرها ابن كثير : ان المرأة قد ارتفعت الى السماء ومسخت كوكبا وهو كوكب الزهرة .

(٤) عمدة التفسير اختصار وتحقيق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله «١ : ١٩٦ ، ١٩٧» .

(٥) تفسير الطبري «١٥ : ١٧» ط بولاق .

وقد علق الحافظ ابن كثير على هذا بقوله : وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً وهو حديث موضوع لا محالة لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث ، والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته . وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي : بأنه موضوع مكذوب وكتب ذلك على حاشية الكتاب [1]).

وتنقسم ثانياً باعتبار موضوع الخبر الاسرائيلي إلى ما يلي :

أ - ما يتعلق بالعقائد ومثاله : مارواه البخاري في كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع فيقول : أنا الملك ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وما قدروا الله حق قدره ... الآية[2]) .

ب - ما يتعلق بالأحكام ومثاله : مارواه البخاري في كتاب التفسير عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن اليهود جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم برجل منهم وامرأة قد زنيا ، فقال لهم : « كيف تفعلون بمن زنى منكم »؟ قالوا : نحممهما ونضربهما ، فقال : « لا تجدون في التوراة الرجم »؟ فقالوا : لا نجد فيها

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ : ٢٥) .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر ، قال الحافظ بن حجر في شرح الحديث : قال ابن التين : تكلف الخطابي في تأويل الاصبع وبالغ حتى جعل ضحكه صلى الله عليه وسلم تعجباً وإنكاراً لما قال الحبر ورد ماوقع في الرواية الأخرى (فضحك صلى الله عليه وسلم تعجباً وتصديقاً) بأنه على قدر ما فهم الراوي ، قال النووي : وظاهر السياق أنه ضحك تصديقاً له بدليل قراءته الآية التي تدل على صدق ماقال الحبر ، وقال ابن حجر معلقاً : والأولى في هذه الأشياء الكف عن التأويل مع اعتقاد التنزيه . فتح الباري « ١٠ : ١٧٦ » .

شيئاً ، فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتم ، فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، فوضع مدراسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم ، فطفق يقرأ مادون يده وماوراءها ولا يقرأ آية الرجم ، فنزع يده عن آية الرجم ، فقال : ماهذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا : هي آية الرجم ، فأمر بهما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد فرأيت صاحبها يجنأ (١) عليها يقيها الحجارة (٢)) .

ومنه مارواه السيوطي في الدر عن ابن عباس في قوله تعالى (كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه (٣)) قال : "عرق ، أخذه عرق النسا فكان يبيت له زقاء — صياح — فجعل لله عليه إن شفاه أن لا يأكل لحماً فيه عروق ، فحرمته اليهود (٤) .

ومنه أيضاً مارواه الامام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عباس قال : حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي ، فكان في سألوه : أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه قبل أن تنزل التوراة ؟ قال : فأنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل — يعقوب عليه السلام — مرض مرضاً شديداً ، فطال سقمه ، فنذر لله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه ، فكان أحب الطعام إليه لحمان الابل ، وأحب الشراب إليه ألبانها ، فقالوا : اللهم نعم (٥) .

ج — ما يتعلق بالمواعظ وتفصيل بعض الجزئيات مما ليس له صلة

---

(١) يميل عليها وينعطف .

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير ٦ : ٤٦ — ٤٧ .

(٣) الآية ٩٣ من سورة آل عمران .

(٤) الدر المنثور للسيوطي ٢ : ٥١ .

(٥) المسند ٤ : ١٥٦ — ١٥٧ ، ١٦١ — ١٦٢ .

بالقسمين السابقين ، ومن أمثلته ما ذكره بعض المفسرين ومنهم مقاتل بن سليمان عند قوله تعالى « وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون [1] » .

يقول مقاتل في وصف هذه الهدية : (فأرسلت بهدية مع الوفد عليهم المنذر ابن عمرو. والهدية مائة وصيف ووصيفة، وجعلت للجارية قصة أمامها وقصة خلفها، وجعلت للغلام قصة أمامه وذؤابة وسط رأسه ، وألبستهم لباساً واحداً ، وبعثت بحقة فيها جوهرتان إحداهما مثقوبة والأخرى غير مثقوبة ، وقالت للوفد : إن كان نبياً فسيميز بين الجواري والغلمان ويخبر بما في الحقة .. فلما انتهت إلى سليمان ميز بين الوصفاء والوصائف ، وحرك الحقة وجاء جبريل وأخبره بما فيها ، فقيل له : أدخل في المثقوبة خيطاً من غير حيلة إنس ولا جان ، واثقب الأخرى من غير حيلة إنس ولا جان ، وكانت الجوهرة المثقوبة معوجة الثقب فأتته دودة تكون في الفصفصة [2] وهي الرطبة فربط في مؤخرتها خيطاً ، فدخلت الجوهرة حتى أنفذت الخيط بالجانب الآخر ، فجعل رزقها في الفصفصة ، فجاءت الأرضة فقالت لسليمان : اجعل رزقي في الخشب والسقوف والبيوت ، قال : نعم ، فثقبت الجوهرة، وهذه حيلة من غير إنس ولا جان ، وسألوه ماء لم ينزل من السماء ولم يخرج من الأرض فأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت ، فجمع العرق في شيء حتى صفا وجعل في قداح الزجاج،فعجب الوفد من علمه،وجاء جبريل عليه السلام فأخبره بما في الحقة فأخبرهم سليمان بما فيها،ثم رد سليمان الهدية وقال للوفد: أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم [3]) .

وما ذكره الحافظ ابن كثير عن قصة جريج العابد فقال :

(إن جريجاً اتهمته امرأة بغي بنفسها ، وادعت أن حملها منه ، ورفعت

---

(١) الآية ٣٥ من سورة النمل .

(٢) نبات تأكله الدواب .

(٣) الآية ٣٦ من سورة النمل؛ وانظر تفسير مقاتل ٣:١٠٥٧ — ١٠٥٨ ج

أمرها إلى ولي الأمر ، فأمر فأنزل من صومعته وخربت صومعته وهو يقول : مالكم ! مالكم ! قالوا : ياعدو الله ، فعلت بهذه المرأة كذا وكذا ، فقال جريج : اصبروا ، ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً ، ثم قال : ياغلام من أبوك ؟ قال : أبي الراعي — وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه — ولما رأى بنو اسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً وقالوا : نعيد صومعتك من ذهب ، قال : لا بل أعيدوها من طين كما كانت)[1].

وتنقسم **ثالثاً** باعتبار الموافقة لما في شريعتنا والمخالفة لها إلى ما يلي :

١ — موافق لما في شريعتنا ومثاله ما رواه مسلم من طريق فاطمة بنت قيس — وكانت من المهاجرات الأول — قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — بعد أن جمع الناس — « إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ؛ ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً فجاء فبايع وأسلم، **وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال ... الخ**[2] ».

وروى الشيخان عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « تكون الأرض يوم القيامة خبزة نزلاً لأهل الجنة » فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الله عليك يا أبا القاسم ، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ، قال : بلى . قال: تكون الأرض خبزة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ثم نظر النبي صلى الله عليه وسلم ثم ضحك حتى بدت نواجذه[3].

٢ — مخالف لما في شريعتنا ومثاله :

ما أخرجه النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم بسند قوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء فأعطى الجرادة خاتمه — وكانت

---

(١) تفسير ابن كثير « ٤ : ٣٤١ » .

(٢) صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة باب قصة الجساسة « ٤ : ٢٢٦١ » .

(٣) صحيح البخاري كتاب الرقاق .

جرادة امرأته وكانت أحب نسائه إليه ــ فجاءالشيطان في صورة سليمان، فقال لها هاتي خاتمي فأعطته . فلما لبسه دانت له الجن والانس والشياطين ، فلمــا خرج سليمان عليه السلام من الخلاء قال لها : هات خاتمي ، فقالت : قد أعطيته سليمان ، قال : أنا سليمان ، قالت : كذبت ، لست سليمان ، فجعل لا يأتي أحداً ، يقول أنا سليمان إلا كذبه ، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة ، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله عز وجل وقام الشيطان يحكم بين الناس . فلما أراد الله تعالى أن يرد على سليمان سلطانه ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان،فأرسلوا إلى نساء سليمان عليه السلام فقالوا لهن : أيكون من سليمان شيء ، قلن : نعم ، إنه يأتينا ونحن حيّض، وما كان يأتينا قبل ذلك ، فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ، ظن أن أمره قد انفضح، فكتبوا[1] كتباً فيها سحر ومكر ، فدفنوها تحت كرسي سليمان ثم أثاروها وقرؤوها على الناس قالوا : بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم، فأكفر الناس سليمان فلم يزالوا يكفرونه ، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحه في البحر فتلقته سمكة فأخذته ، وكان سليمان عليه السـلام يحمل على شاطيء البحر بالأجر ، وجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي بها الخاتم فدعا سليمان عليه السلام وقال : تحمل لي هذا السمك ثم انطلق إلى منزله ولما انتهى الرجل إلى باب داره ، أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم ، فأخذهـا سليمان فشق بطنها فإذا الخاتم في جوفها، فأخذه فلبسه ، فلما لبسه دانت له الانس والجن والشياطين وعاد إلى حاله ، وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر ، فأرسل سليمان في طلبه ــ وكان شيطاناً مريداً ــ يطلبونه ولا يقدرون عليه حتى وجدوه يوماًنائماًفجاؤوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص فاستيقظ فوثب فجعل لا يثبت في مكان من البيت إلادار معه الرصاص، فأخذوه وأوثقوه وجاؤوا به إلى سليمان عليه السلام، فأمربه فنقر له في رخام ثم أدخل في جوفه ثم سد بالنحاس، ثم أمر به

---

(١) أي الشياطين .

فطوح في البحر وذلك قوله : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً . . .) يعني الشيطان الذي كان قد تسلط عليه[1].

٣ ـ مسكوت عنه وليس في شريعتنا مايؤيده ولا ماينقضه . مثاله :

ما جاء في تفسير مقاتل للآية ٢٥٨ من سورة البقرة وهي « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين » . (بهت نمرود الجبار فلم يدر مايرد على إبراهيم ، ثم إن الله عز وجل سلط على نمرود بعوضة بعدما أنجى الله إبراهيم من النار ، فعضت شفته ، فأهوى إليها فطارت في منخره ، فذهب ليأخذها ويستخرجها ، فدخلت في خياشيمه ، فذهب ليستخرجها فدخلت دماغه ، فعذبه الله بها أربعين يوماً ، ثم مات منها ، وكان يضرب رأسه بالمطرقة ، فإذا ضرب سكنت البعوضة ، وإذا رفع عنها تحركت ، فقال الله سبحانه : وعزتي وجلالي لا تقوم الساعة حتى آتي بها ـ يعني الشمس ـ (من قبل المغرب) فيعلم من يرى ذلك أني أنا الله قادر على أن أفعل ما شئت[2]) .

هذا ومما هو ملحوظ أن هذه التقسيمات الثلاثة إنما هي بالاعتبارات

---

(١) الدر المنثور ، وقد نبه الحافظ ابن الجوزي ووافقه السيوطي على وضع هذه القصة ، والصحيح المتعين في تفسير الفتنة هو ماجاء في الصحيحين ولفظ البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله ـ ولم يستثن ولو استثنى لكان ـ فطاف على السبعين امرأة فلم تحمل امرأة إلا امرأة واحدة جاءت بشق إنسان . انظر الدر المنثور للسيوطي (٥ : ٣١١) وانظر أيضاً قصة داود وأوريا في المرجع السابق عند قوله تعالى (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب) .

(٢) تفسير مقاتل « ١ : ١٢٣ ـ ١٢٤ » .

المذكورة وواضح كل الوضوح انها متداخلة يمكن إرجاع بعضها إلى بعض ويمكن أن ندخلها كلها تحت هذه الأقسام الثلاثة :

١ - مقبول .

٢ - مردود .

٣ - ومتوقف فيه[١] .

(١) انظر : الاسرائيليات وأثرها في التفسير والحديث في هذه الرسالة .

حكم رواية الإسرائيليات

ورد في هذه المسألة عدد من الأحاديث والآثار توهم التعارض، بعضها يجيز وبعضها الآخر يمنع، ونرى أن نعرض لذكر هذه الأحاديث والآثار بادئين بأحاديث المنع، ثم نثني بأحاديث الجواز، ثم نوفق بين هذه وتلك على قدر ما يفتح الله به. فنقول:

أولاً: أدلة المنع:

١ — أخرج الامام أحمد والبزار — واللفظ له — عن جابر رضي الله عنه قال: نسخ عمر كتاباً من التوراة بالعربية، فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقرأ ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتغير، فقال له رجل من الأنصار: ويحك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني[1]».

٢ — وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا [آمنا بالله وما أنزل إلينا ... الآية]»[2].

---

(١) فتح الباري «١٧ : ٢٠٩».

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير «٦ : ٢٥».

٣ – وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : (يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يُشَب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب ، فقالوا : [هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً] ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم[1]) .

٤ – وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى كعب الأحبار عن التحديث وأوعده بالنفي إلى بلاده ، وقال له : لتتركن الحديث عن الأول أو لألحقنك بأرض القردة[2] .

ثانياً : أدلة الجواز :

قال تعالى مخاطباً أشرف خلقه صلى الله عليه وسلم : (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين[3]) وقد فعلها صلى الله عليه وسلم – كما بيناه فيما سبق – واقتدى بالنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الصحابة رضوان الله عليهم لاعتقادهم أن ذلك سنة ؛ فاحتجوا عليهم بكتابهم بما يؤيد ديننا ويبين ضلالهم . يقول الإمام البقاعي – بعد أن أورد قصة رجم اليهوديين – اللذين زنيا – : « يُعلم من هذا أن الأحسن في باب النظر أن يرد على الإنسان بما يعتقد صحته ؛ ولأجل ذلك أرشد

---

(١) صحيح البخاري كتاب الشهادات (٣ : ٢٣٧) وقوله : « كتابكم ... أي القرآن . أحدث الأخبار بالله ، أي أقربها نزولاً إليكم من عند الله عز وجل ، فالحديث بالنسبة إلى المنزل إليهم وهو في نفسه قديم . لم يشب ، أي لم يخلط ، فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم : فيه تأكيد الخبر بالقسم ، وكأنه يقول : لا يسألونكم عن شيء مع علمهم أن كتابكم لا تحريف فيه فكيف تسألونهم وقد علمتم أن كتابهم محرف . انظر فتح الباري « ٦ : ٢٢٠ ، ٧ : ٢٨٠ » والأقوال القويمة للبقاعي ورقة ١٩ مخطوطة .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير « ٨ : ١٠٨ » والمراد بأرض القردة أرض اليمن .

(٣) الآية ٩٣ من سورة آل عمران .

سبحانه إليه ، فإنه لو استدل عليهم بكتابنا ما افتضحوا عند غير المسلمين مثل هذه الفضيحة العامة عند كل ذي عقل[1] .

ويقول العلامة الآلوسي : (ومما يدل على حل الرجوع إليها - أي التوراة - في الجملة قوله تعالى (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) وقد كان المؤمنون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار ينقلون منها ما ينقلون من الأخبار ، ولم ينكر ذلك ولا سماعه أحد من أساطين الاسلام ، ولا فرق بين سماع ما ينقلونه منه وبين قراءته فيها وأخذه منها ، وقد رجع إليها غير واحد من العلماء في إلزام اليهود والاحتجاج عليهم ببعض عباراتها في إثبات حقية بعثته صلى الله عليه وسلم[2] .

٢ - ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل كنيسة لليهود وسمع قراءة التوراة حتى أتوا على صفته : فقد روى الامام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن الله عز وجل ابتعث نبيه بإدخال رجل الجنة ، فدخل الكنيسة ، فإذا يهودي يقرأ عليهم التوراة فلما أتوا على صفة النبي صلى الله عليه وسلم أمسكوا وفي ناحيتها رجل مريض ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مالكم أمسكتم ؟ » فقال المريض إنهم أتوا على صفة نبي فأمسكوا ، ثم جاء المريض يحبو حتى أخذ التوراة فقرأ حتى أتى على صفة النبي صلى الله عليه وسلم وأمته ، فقال : هذه صفتك وصفة أمتك ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . ثم مات ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « لوا أخاكم[3] » .

---

(١) الأقوال القويمة في حكم النقل من الكتب القديمة للبقاعي مخطوطة ورقة ١٥ .

(٢) روح المعاني « ٢٠ : ٨٥ » .

(٣) المسند « ٦ : ٢٣ - ٢٤ » حديث رقم ٣٩٥١ ، وانظر تفسير القاسمي « ١ : ٤٣ » وقوله « لوا أخاكم » . هو فعل أمر من « ولي يلي » يأمرهم بتولي أمره من غسل وصلاة ودفن لأنه مات مسلماً .

٣ — وروى مسلم من طريق فاطمة بنت قيس قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد أن جمع الناس - : إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة؛ ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً وأسلم ، وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال ... الخ[1].

٤ — وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن ثلاثة في بني إسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص، فقال أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، قد قذرني الناس ، قال : فمسحه فذهب عنه ، فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً ، فقال : أي المال أحب إليك ؟ قال : الابل ، أو قال : البقر - هو شك في ذلك أن الأبرص والأقرع قال أحدهما ، الابل وقال الآخر : البقر - فأعطي ناقة عشراء فقال يبارك الله فيها . وأتى الأقرع فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عني هذا قد قذرني الناس، فقال فمسحه فذهب وأعطي شعراً حسناً قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر ، قال فأعطاه بقرة حاملا وقال يبارك لك فيها ، وأتى الأعمى فقال : أي شيء أحب إليك؟ قال يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس، قال فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطاه شاة والداً ، فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من إبل ، ولهذا واد من بقر ، ولهذا واد من الغنم ، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال ، بعيراً أتبلغ عليه في سفري، فقال له : إن الحقوق كثيرة . فقال له: كأني أعرفك : ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ، فقال : لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له : مثل ما قال لهذا ، فرد عليه

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب قصة الجساسة « ٤ : ٢٢٦١ ».

مثما رد عليه هذا، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، وأتى الأعمى في صورته ، وقال رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري ؛ فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله بصري وفقيراً فقد أغناني ، فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله ، فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك[1] » .

٥ – وروى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار[2] » .

٦ – وقد اقتنى بعض الصحابة أسفار أهل الكتاب وأدمن مطالعتها :

روى الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ في ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص أنه أصاب جملة من كتب أهل الكتاب وأدمن النظر فيها ورأى فيها عجائب[3] .

وروى أيضاً في ترجمة عبد الله بن سلام أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إني قرأت القرآن والتوراة . فقال : « اقرأ هذا ليلة وهذا ليلة » .

وعلق الذهبي بقوله : فهذا – إن صح – ففيه الرخصة في تكرير التوراة وتدبرها[4] اهـ . أي ليعلم المحرّف فيها من سياق القرآن الكريم ، وليحصر فيما تقوم به الحجة على محرفة أسفارها ، وليزداد معرفة بجادلتهم من معتقدهم ، ولغير ذلك .

---

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٤ : ٢٠٨ .

(٢) المرجع السابق ، كتاب أحاديث الأنبياء .

(٣ و ٤) تذكرة الحفاظ للذهبي ١ : ٤١ ، ٢٧ .

وذكر الحافظ ابن كثير حديثاً مرفوعاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص ثم شك في صحة رفع هذا الحديث ، فعلق عليه بقوله : وفي صحة الحديث نظر ولعله من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه اللتين وجدهما يوم اليرموك [1].

وقال أيضاً في مقدمة تفسيره : غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين (ابن مسعود، وابن عباس) ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

وروى الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ في ترجمة أبي هريرة : عنه أنه لقي كعباً فجعل يحدثه، ويسأله فقال كعب : ما رأيت أحداً لم يقرأ التوراة أعلم بما فيها من أبي هريرة[2] .

٣ - التوفيق بين الأدلة :

هذه أدلة المنع وأدلة الجواز، ووجه التوفيق بين هذه الأحاديث التي تفيد النهي عن سؤال أهل الكتاب وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي يجيز التحديث عنهم، يتبين لنا من شرح معنى حديث عبد الله بن عمرو ، فإن معنى قوله صلى الله عليه وسلم « وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » أن حدثوا عنهم بما تعلمون صدقه وهو ما يوافق القرآن أو السنة الصحيحة مما في الحديث عنهم من العظة والاعتبار، ولا يجوز أن يكون المعنى حدثوا عنهم بكل حديث حق أو باطل إذ

---

(١) تفسير ابن كثير « ٣ : ١٠٢ » والحديث (نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غابت فقال : في نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض) والزاملة البعير الذي يحمل عليه المتاع .

(٢) تذكرة الحفاظ الذهبي « ١ : ٢٩ » .

من المعلوم ضرورة أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجيز التحديث بالكذب ، كما لا يجوز أن يكون المعنى حدثوا عنهم بما تعلمون كذبه .

قال الامام الشافعي : من المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجيز التحديث بالكذب؛ فالمعنى حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، وأما ماتجوّزونه فلاحرج عليكم بالتحدث به عنهم،وهو نظير قوله :« إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم »[1] أه . وقوله : (ولا حرج) أي لا ضيق عليكم في الحديث عنهم ، لأنه كان قد تقدم منه صلى الله عليه وسلم الزجر عن الأخذ عنهم ، والنظر في كتبهم ، ثم حصل التوسع في ذلك ، لا لكل أحـــد ، ولكن لمن رسخ في علوم الشريعة وتمكن من معرفة أصولها ، فصار لديه من قوة النظر ما به يستطيع أن يميز بين الحق والباطل والصواب والخطأ كما فعل عبد الله ابن عمرو بن العاص حين أصاب يوم اليرموك زاملتين من علوم أهل الكتاب ، وكان يحدث منهما بما أذن به الشارع لا بكل ما فيهما[2] .

قال الحافظ ابن حجر : وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الاسلامية والقواعد الدينية خشية الفتنة ، ثم لما زال المحظور وقع الإذن في ذلك لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار[3] أه .

ويجاب عن حديث ابن عباس رضي الله عنه (كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه أحدث الأخبار بالله ... الخ) بأن هـذا من قول ابن عباس وقد علمنا أنه كان يسمع ممن أسلم من أهل الكتاب .

وقوله (... ولا والله مارأينا منهم رجـــلاً قط يسألكم عن الذي أنزل

---

(١) فتح الباري كتاب أحاديث الأنبياء (٦ : ٣٨٨)

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص ٤٥)

(٣) فتح الباري كتاب أحاديث الأنبياء (٦ : ٣٨٨) .

عليكم) يدل على أن كلامه في أهل الكتاب الذين لم يسلموا ، فأما الذين أسلموا فعمل ابن عباس يقتضي أنه لا بأس للعالم المحقق منه أن يسأل أحدهم .

يقول الحافظ ابن حجر : وأما قوله تعالى (فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك [1]) فالمراد به من آمن منهم والنهي إنما هو عن سؤال من لم يؤمن منهم [2] .

وأما حديث جابر : نسخ عمر كتاباً من التوراة فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغير . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ... الحديث » .

فالنهي الوارد فيه كان في مبدأ الاسلام وقبل استقرار الأحكام خشية الفتنة ، والاباحة بعد أن عرفت الأحكام واستقرت وذهب خوف الاختلاط كما مر بنا .

قال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث ... (والذي يظهر أن كراهية ذلك للتنزيه لا للتحريم ، والأولى في هذه المسألة التفرقة بين من لم يتمكن ويصر من الراسخين في الايمان فلا يجوز له النظر في شيء من ذلك ، بخلاف الراسخ فيجوز له ولا سيما عند الاحتياج إلى الرد على المخالف ، ويدل على ذلك نقل الأئمة قديماً وحديثاً من التوراة وإلزامهم اليهود بالتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم بما يستخرجونه من كتابهم ، ولولا اعتقادهم جواز النظر فيه لما فعلوه وتواردوا عليه [3]) .

وقد نقل ابن بطال عن المهلب أنه قال : (هذا النهي إنما هو في سؤالهم عما لا نص فيه ، لأن شرعنا مكتف بنفسه ، فإذا لم يوجد فيه نص ففي النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم ، ولا يدخل في النهي سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا والأخبار عن الأمم السالفة [4] .

---

(١) الآية ٩٤ من سورة يونس .

(٢) فتح الباري (١٧ : ١٠٠) كتاب التوحيد .

(٣) المرجع السابق (١٧ : ٣٠٩) .

(٤) فتح الباري (١٧ : ١٠٠) .

وقال البقاعي : (وهذه الأحاديث الناهية في إثبات حكم في شرعنا دليل عليه حتى يكون هداية لنا من أضل نفسه إلى شيء لم يهدنا شرعنا إليه ، وحتى يكون اتباعاً لموسى عليه السلام وتوكأ لنبينا صلى الله عليه وسلم ، وحتى يكون زيادة فيما عندنا لم تكن في شرعنا قبل ذلك ، وحتى يكون تهوكاً - أي تحيراً - كما في بعض طرق حديث جابر رضي الله عنه ليلزم عنه أن شرعنا ناقص ومحتاج إلى غيره[1]) .

وقال الآلوسي - بعد أن أورد حديث جابر - (وأجيب بأن غضبه صلى الله عليه وسلم من ذلك لما أن التوراة التي بأيدي اليهود إذ ذاك كانت محرفة ، وفيها الزيادة والنقص وليست عين التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام ، وكان الناس حديثي عهد بكفر ، فلو فتح باب المراجعة إلى التوراة ومطالعتها في ذلك الزمان لأدى إلى فساد عظيم[2]) .

وأما من استدل بالتحريم بما ورد في حديث جابر المتقدم من غضبه صلى الله عليه وسلم[3] ، فهو معترض بأنه قد يغضب من فعل المكروه ، ومن فعل ما هو خلاف الأولى إذا صدر عن لا يليق منه ذلك ، ومن ذلك غضبه من تطويل معاذ صلاة الصبح بالقراءة ، وقد يغضب بمن يقع منه تقصير في فهم الأمر الواضح مثل الذي سأل عن لقطة الإبل[4] .

---

(١) الأقوال القويمة ورقة ٣٣ .

(٢) روح المعاني (٢٠ : ٨٤) .

(٣) يقصد الشيخ بدر الدين الزركشي ، وقد استدل بحديث جابر الآنف الذكر على عدم الجواز وادعى الإجماع فيه وإليك نص عبارته : « ... والاشتغال بنظرها وكتابتها - يقصد التوراة - لا يجوز بالإجماع وقد غضب صلى الله عليه وسلم حين رأى مع عمر صحيفة فيها شيء من التوراة ، وقال : « لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي » ولولا أنه معصية ما غضب منه . أهـ (فتح الباري ١٧ : ٣٠٨)

(٤) والحديث كما جاء في باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره : عن زيد بن خالد الجهني أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله رجل عن اللقطة فقال : « اعرف وكاءها - أو قال وعاءها - وعفاصها ثم عرفها ، ثم استمتع بها ، فإن جاء ربها فأدها إليه =

أما قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به » .

فقد بين أن العلة هي خشية التكذيب بحق أو التصديق بباطـــل ، والعالم المتمكن من معرفة الحق من الباطل بأمن من هـذه الخشية ، يوضح ذلك أن عمر — وهو صاحب القصة — كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم يسمع من مسلمي أهل الكتاب وربما سألهم ، وشاركه جماعة من الصحابة ، ولم ينكر ذلك أحد .

وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام ... الخ . فإن دلالة هذا الحديث على الجواز أقرب من دلالته على المنع فلم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : لاتسمعوا منهم ، ولا قال : ولا تنقلوا عنهم ، وإنما نهى عـن التصديق والتكذيب ، ولا ريب أن المنهي عنه هو التصديق المبني على حسن الظـن بصحفهم والتكذيب المبني على غير حجة ولو قامت حجة صحيحة وجب العمل بها .

قال الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث « لاتصدقوا أهـل الكتاب ولا تكذبوهم » أي إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً لئلا يكون في نفس الأمر صدقاً فتكذبوه أو كذباً فتصدقوه فتقعوا في الحرج ، ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه ولاعن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه ، نبه على ذلك الشافعي رحمه الله وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف من ذلك[1] » .

وقال ابن كثير : (إذا تقرر جواز الرواية عنهم فهو محمول على ما يمكن

= قال : فضالة الابل ، فغضب حتى احمرت وجنتاه — أوقال : احمر وجهه — فقال : ومالك ولها ؟ معها سقاؤها وحذاؤها ، ترد الماء وترعى الشجر ، فذرها حتى يلقاها ربها . قال : فضالة الغنم . قال : لك أو لأخيك أو للذئب أ هـ فتح الباري (١ : ١٩٦ — ١٩٧) .

(١) فتح الباري كتاب التفسير (٨ : ١٣٨) .

أن يكون صحيحاً ، فأما ما يعلم أو يظن بطلانه بمخالفته الحق الذي بأيدينا الذي هو عن المعصوم ، فذلك متروك مردود لا يعرج عليه [1]) .

وقال السيد رشيد رضا في تفسيره : (والمراد من النهي عن سؤالهم ، النهي عن سؤال الاهتداء وتلقي ما يروونه بالقبول لأجل العلم بالشرائع الماضية وأخبار الأنبياء لزيادة العلم أو لتفصيل بعض ما أجمله القرآن ، وسببه ما هو ظاهر من السياق وهو أنهم لنسيانهم بعض ما أنزل إليهم ، وتحريفهم لبعضه بطلت الثقة برواياتهم؛ فالمصدق لها عرضة لتصديق الباطل ، والمكذب لها عرضة لتكذيب الحق ، إذ لا يتيسر لنا أن نميز فيما عندهم بين المحفوظ السالم من التحريف وغيره ، فالاحتياط أن لا نصدقهم ولا نكذبهم إلا إذا رووا شيئاً يصدقه القرآن أو يكذبه فإننا نصدق ما صدقه ونكذب ما كذبه ، لأنه مهيمن على تلك الكتب وشهيد عليها [2]) .

وأما سر نهي عمر كعباً عن التحديث وتهديده إياه بالنفي ، وقوله له أيضاً : إن كنت تعلم أنها التوراة التي أنزل الله على موسى فاقرأها آناء الليل والنهار [3] ، فهو خشية عمر على عامة الناس عندما يسمعون أحاديث كعب فلا يميزون بين الحق والباطل منها فتشوش عليهم عقائدهم ، ويرى أن مدارسة القرآن والحديث أهم من هذه الاسرائيليات التي يرويها كعب .

ومن هنا نستطيع التوفيق بين منع ابن مسعود وابن عباس عن سؤال أهل الكتاب والنظر في كتبهم ، ثم ما كان منهما من الأخذ عن كعب وغيره من

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٣٣:٢) .

(٢) تفسير المنار (١٢:٦) ط الثالثة سنة ١٣٧٥ هـ مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بمصر .

(٣) روى الامام ابن حزم عن عمر رضي الله عنه أنه أتاه كعب الحبر بسفر وقال له : هذه التوراة أفأقرؤها ؟ فقال له عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — إن كنت تعلم أنها التي أنزل الله على موسى فاقرأها آناء الليل والنهار . الفصل (٢١٧:١) .

مسلمي أهل الكتاب ، وذلك لكونهم متمكنين من التمييز بين حقها وباطلها ، فهما بمأمن من هذه الخشية .

وجملة القول : إن حكم رواية الاسرائيليات هو الجواز المقيد ضمن دائرة محدودة بينتها السنة وأقوال الصحابة وعملهم ؛ فكل رواية من هـــذه الروايات الاسرائيلية إن صدقها الشارع فهي مقبولة يقيناً ، وإن كذبها فهي مردودة يقيناً ، وإن كان الشارع ساكتاً عن التصديق والتكذيب لها فنسكت عنها فلا نصدق ولا نكذب ، وهذا منهج سديد لا تخشى منه غائلة الاسرائيليات لأن من ذكرها إنما ذكرها على أنها إسرائيليات خاضعة لذلك المعيار السديد . فإذن لا كعب ولا غـــيره من رواة الاسرائيليات أثروا ولا يستطيعون أن يؤثروا على عقائد الاسلام وما شرعه من أحكام أصـــلا ، ما دامت رواياتهم تعرض على ذلك المحك الدقيـــق[1] .

ولكن ينبغي أن يلاحظ أن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليـل على صدقه أو كذبه شيء ، وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات أو في تعيين مالم يعين فيها ، أو في تفصيل ما أجمل فيها شيء آخر ، لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله مايوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله ومفصل لما أجمل فيه ، وحاشا لله ولكتابه من ذلك ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أذن بالتحدث عنهم ؛ أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم . فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنهـــا بكتاب الله ، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان ؟ ![2]

---

(١) مقالات الكوثري « ص ٣٤ » .

(٢) عمدة التفسير تعليق أحمد شاكر « ١ : ١٥ » .

آراء بعض العلماء في رواية الإسرائيليات

تناول هذه المسألة عدد من العلماء ، أهمهم شيخ الاسلام ابن تيمية ، والحافظ ابن كثير ، والامام البقاعي . وفيما يلي ننقل نص أقوالهم مبتدئين بشيخ الاسلام ابن تيمية :

اولا — رأي ابن تيمية :

يقسم ابن تيمية أخبار مسلمة أهل الكتاب إلى ثلاثة أقسام : صحيح ، وموضوع ، ومسكوت عنه . فيقول في مقدمته في أصول التفسير ما نصه :

(ولكن هذه الأحاديث الاسرائيلية تذكر للاستشهاد ، لا للاعتقاد فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

والثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ماهو مسكوت عنه لامن هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته لما تقدم — يقصد حديث : بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج — ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ، ولهذا تختلف أقوال علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً ، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم ، وعصا موسى من أي الشجر كانت ؟ وأسماء الطيور

التي أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به المقتول من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى عليه السلام .. إلى غير ذلك ، مما أبهمه الله في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم [1]) .

وقال في موضع آخر : من المرجع السابق - عند كلامه عن الاختلاف في التفسير فيما كان مستنده النقل فقط ما نصه :

(الاختلاف في التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك ، إذ العلم إما نقل مصدق ، وإما استدلال محقق ، والمنقول إما عن المعصوم وإما عن غير المعصوم . فالمنقول عن المعصوم يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف ، وأما المنقول عن غير المعصوم - وهو مالا طريق لنا إلى الجزم بالصدق منه ، فالبحث عنه مما لا فائدة فيه ، والكلام فيه من فضول الكلام . وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله نصب على الحق فيه دليلا ، فمثال مالا يفيد ولا دليل على الصحيح منه : اختلافهم في ألوان أصحاب الكهف ، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة ، وفي مقدار سفينة نوح ، وما كان خشبها ؟ وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ، ونحو ذلك . فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، فما كان من هذا منقولاً نقلا صحيحاً عن النبي صلى الله عليه وسلم كاسم صاحب موسى أنه الخضر فهذا معلوم ، وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب كالمنقول عن كعب ووهب ومحمد بن إسحاق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب ، فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه ، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه » وكذلك ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون ، لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل في ذلك عن

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص ٤٤ - ٤٦) .

بعض الصحابة نقلاً صحيحاً ، فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم أو من بعض من سمعه منهم ، أقوى من نقل التابعي ، ومع جزم الصاحب فيما يقوله كيف يقال إنه أخذه عن أهل الكتاب ، وقد نهوا عن تصديقهم ؟ فالمقصود أن المنقولات التي يحتاج إليها في الدين ، قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره ، ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي ، والملاحم ، ولهذا قال الإمام أحمد « ثلاثة أمور ليس لها إسناد : التفسير ، والملاحم ، والمغازي » ويروى : ليس لها أصل ، أي إسناد لأن الغالب عليها المراسيل[1]) .

ثانياً — رأي ابن كثير :

للحافظ ابن كثير كلمات قوية في شأن الاسرائيليات ورواياتها ، وقد رسم في بعضها خطته نحوها ، وقد وجدناه يقسم الاسرائيليات — تبعاً لشيخه ابن تيمية — إلى ثلاثة أقسام ، يقول في مقدمة تفسيره — بعد أن ذكر حديث « بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج . . ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » — ولكن هذه الأحاديث تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذلك صحيح .

والثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ماهو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته لما تقدم[2] .

---

(١) مقدمة في أصول التفسير (ص ١٧ — ٢٠) .

(٢) علق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله على هذا بقوله : (. . إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شيء ، وذكر ذلك في تفسير القرآن ، =

وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك؛كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعددهم ، وعصا موسى من أي الشجر كانت ؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لابراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى .. إلى غير ذلك ، مما أبهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم [1] .

وقال في موضع آخر من تفسيره : (.. وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : « حدثوا عن بني إسرائيل ولاحرج » فيما قد يجوزه العقل ، فأماما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل،

= وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات،أو في تعيين مالم يعين فيها،أو في تفصيل ما أجمل منها شيء آخر ، لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله مايوهم أن هذا الذي لانعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه ، ومفصل لما أجمل فيه ، وحاشا الله ولكتابه من ذلك ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أذن بالتحدث عنهم أمرنا أن لانصدقهم ولا نكذبهم ، فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله ونضعها منه موضع التفسير أو البيان ؟! .. اللهم غفراً)(عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ــ إختصار وتحقيق أحمد شاكر (١ : ١٥)

وقد علق أيضاً صاحب كتاب محاسن التأويل على هذا بقوله : (فحيث جازت حكايته ، على ما قاله ، فالأولى رواية ما كان من القسم الأول أو الثالث من نص كتبهم ، كما هو مذهب عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، كما نقله ابن كثير هنا ، والذهبي والسيوطي كما تقدم . وإنما كان الأولى في رواية الإسرائيليات ما ذكرته دفعاً لمناقشة بعضهم على الإسرائيليات المتداولة في التفاسير بأنها لم ترد في كتب الحديث المشهورة حتى تكون المرجع ولم تؤخذ من أسفارهم حتى تتطابق معها ، فارتأي النقل عنها لذلك ، لا إعتقاداً بسلامتها من التحريف المحقق ، كلا بل توسعاً في باب الأخبار للاستشهاد والاعتبار ، قياماً بالحجة على الخصم من معتقده ، وناهيك بذلك . محاسن التأويل للقاسمي(١ : ٤٤ ــ ٤٥)

(١) تفسير ابن كثير (١ : ٤) .

والله أعلم . وقد أكثر كثير من السلف والمفسرين وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ولله الحمد والمنة[1]) .

وقال في مطلع كتابه البداية والنهاية : (ولسنا نذكر من الاسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب مما فيه بسط لمختصر عندنا ، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا ، فنذكره على سبيل التحلي به ، لا على سبيل الاحتياج إليه[2] والاعتماد عليه ، وقد قص الله على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر ما مضى من خلق المخلوقات وذكر الأمم الماضين ، وبين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته بيانا شافيا ، فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك وترك ما لا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه طوائف من علماء أهل الكتاب ، وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا ، ولسنا نحذو حذوهم ؛ ولا ننحو نحوهم ، ولا نذكر منها إلا القليل على سبيل الاختصار ونبين ما فيه حق مما وافق ما عندنا ، وما خالفه فوقع فيه الانكار ، فأما الحديث الذي رواه البخاري رحمه الله في صحيحه عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » فهو محمول على الاسرائيليات المسكوت عنها عندنا ، فليس عندنا ما يصدقها ولا ما يكذبها ، فيجوز روايتها للاعتبار ، فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه استغناء بما عندنا ، وما شهد له شرعنا بالبطلان فذاك مردود لا تجوز حكايته إلا على سبيل الانكار والابطال[3]) .

---

(١) المرجع السابق (٤ : ٢٢) .

(٢) لكن ساغ ذلك على سبيل التحلي — كما يقول — في كتب التاريخ، فلا نراه سائغا في كتب التفسير لأنه كثيرا ما يحمل ذلك على أنه بيان ما أجمله الله في كتابه .

(٣) البداية والنهاية (١ : ٦) .

وقال عند تفسير قوله تعالى : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون [1]) .

وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم ، فعامتها أحاديث بني إسرائيل ، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح ، وما خالف منها شيئاً من ذلك رددناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه ، بل نجعله وقفا ، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته ، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين ، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته الشريعة الكاملة الشاملة . والذي نسلكه في هذا التفسير الاعراض عن كثير من الأحاديث الاسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم ، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة [2] .

ثالثاً — رأي الإمام البقاعي :

حقق الامام البقاعي هذا البحث وأشبع القول فيه وذلك في كتابيه (المناسبات) و (الأقوال القويمة) ، فهو يرى أن النقل من الكتب القديمة جائز ويستشهد على صحة ذلك بحادثة الرجم ، ويذكر عدة أحداث من استشهاد النبي صلى الله عليه وسلم بالتوراة على صحة مايدعيه ، وكل ذلك يذكره البقاعي تمهيداً الرأي المقبول عنده في جواز النقل من الكتب القديمة ، فيقول في كتابه (الأقوال القويمة في حكم النقل من الكتب القديمة ـ ورقة ٣٤ « مخطوطة ») مانصه : (حكم النقل عن بني إسرائيل ولو كان فيما لا يصدقه كتابنا ولا يكذبه

---

(١) الآية ٥١ من سورة الأنبياء .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ : ١٨١ – ١٨٢) .

الجواز وإن لم يثبت ذلك المنقول ، وكذا مانقل عن غيرهم من أهل الأديان الباطلة ، لأن المقصود الاستئناس لا الاعتماد ، بخلاف ما يستدل به في شرعنا ، فإنه العمدة في الاحتجاج للدين ، فلا بد من ثبوته ، فالذي عندنا من الأدلة ثلاثة أقسام : موضوعات ، وضعاف ، وغير ذلك ؛ فالذي ليس بموضوع ولا ضعيف مطلق ضعف ، يورد للحجة ، والضعيف المتماسك للترغيب ، والموضوع يذكر لبيان التحذير منه بأنه كذب،فإذا وازنت ما ينقله أئمتنا من أهل ديننا للاستدلال لشرعنا بما ينقله الأئمة عن أهل الكتاب ، سقط من هذه الأقسام الثلاثة في النقل عنهم ما هو للحجة فإنه لاينقل عنهم مايثبت به حكم من أحكامنا .

ويبقى ما يصدقه كتابنا فيجوز نقله ، وإن لم يكن في حيز ما يثبت ؛ لأنه في حكم الموعظة لنا . وأما ما كذبه كتابنا فهو كالموضوع لا يجوز نقله إلا مقروناً ببيان حاله [1].

وقال في كتابه « المناسبات » عند تفسير قوله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... الآية[2] » ما نصه (فإن أنكر منكر الاستشهاد بالتوراة أو بالانجيل ، وعمي عن أن الأحسن في باب النظر أن يرد على الانسان بما يعتقد ، تلوت عليه قول الله تعالى استشهاداً على كذب اليهود (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) ، وقوله تعالى (وأنزلنا إليك الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) في آيات من أمثال ذلك كثيرة ، وذكرته باستشهاد النبي صلى الله عليه وسلم بالتوراة في قصة الزاني كما سيأتي في سورة المائدة مستوفى . وروى الشيخان عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة نزلاً لأهل الجنة ، فأتى رجل من اليهود فقال :

---

(١) والفرق واضح بين رأيي ابن كثير والبقاعي ، فالأول لم ينظر إلى الرواية وإنما نظر إلى طبيعية المنقول والمنقول إليه من حيث الموافقة والمخالفة أما الثاني فنظر إلى السند وإلى طبيعة المنقول والمنقول إليه .

(٢) الآية ٣٤ من سورة البقرة .

بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ؟ قال : بلى ، قال : تكون الأرض خبزة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه » وقريب من ذلك حديث الجساسة في أشباهه ، هذا فيما يصدقه كتابنا ، وأما مالا يصدقه ولا يكذبه ، فقد روى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » رواه مسلم والترمذي والنسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه ، وهو معنى ما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم » فإن دلالة هذا على سنية ذكر مثل ذلك أقرب من الدلالة على غيرها ، ولذا أخذ كثير من الصحابة رضي الله عنهم عن أهل الكتاب . فإن فهم أحد من الشافعية منع أئمتهم من قراءة شيء من الكتب القديمة مستنداً إلى قول الامام أبي القاسم الرافعي في شرحه : (وكتب التوراة والانجيل مما لا يحل الانتفاع به لأنهم بدلوا وغيروا ، وكذا قال غيره من الأصحاب) قيل له : هذا مخصوص بما علم تبديله ؛ بدليل أن كل من قال ذلك علل بالتبديل فدار الحكم معه[1]) .

---

(١) تفسير البقاعي (نظم الدرر ص ٨٩ — ٩٠) .

الفصل الثاني

امتزاج الثقافة الإسرائيلية بالثقافة الإسلامية وتسربها إلى تفسير القرآن

كان في جزيرة العرب بيئات يهودية خالصة ، يسكن بعضها في المدينة وضواحيها كبني قينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظة ، ويسكن البعض الآخر بعيداً عن المدينة كيهود خيبر وتيماء وفدك ووادي القرى .

وكان اليهود الذين يسكنون هذه البقاع يحملون معهم تراث أسلافهم ، فهم يهود ديناً وعادات وأخلاقاً .

وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي هاجر فيه اليهود إلى جزيرة العرب ، فبعضهم يرى أن هجرتهم إليها كانت في عهد داود عليه السلام ، والبعض الآخر يرى أنها كانت في عهد الملك « حزقيال » الذي حكم بلاد يهودا من سنة ٧١٧ إلى سنة ٦٩٠ ق . م .

إلا أن هذين الرأيين ليس لهما سند ثابت من التاريخ ولذا لم يعتمدهما المحققون من المؤرخين ، والذي ارتضاه بعض المؤرخين هو الرأي القائل بأن الهجرة الكبرى لليهود إلى جزيرة العرب حدثت ما بين القرن الأول والثاني بعد الميلاد ، على أثر تنكيل « تيطس » الروماني بهم سنة ٧٠ م ، وهذا لا يمنع أنه كان يوجد

عدد قليل من اليهود توطنوا الجزيرة العربية قبل هذا التاريخ [١].

وقد كانت لليهود مواضع يقيمون فيها عباداتهم وشعائر دينهم، ويتدارسون فيها أحكام شريعتهم وأيامهم الماضية وأخبارهم الخاصة برسلهم وأنبيائهم وكتبهم وغير ذلك، عرفت بين الجاهليين بـ « المدراس » و « بيت المدراس » [٢].

ولم يكن المدراس في الواقع موضع عبادة وصلوات وتدريس فحسب، بل كان إلى جانب ذلك المكان الذي يتجمع فيه اليهود لتبادل المشورة في سائر أحوالهم الدينية والدنيوية، وهو المكان الذي كان يقصده غيرهم حين يريد الاستفسار عن أخبار اليهود أو عن شيء يريد الوقوف عليه. والذين كانوا يقومون بمهمة تعليم اليهود أمور دينهم هم علماؤهم وأحبارهم .. وقد ذكر المؤرخون أنه كان في مقدمة هؤلاء الأحبار – زمن النبوة – عبد الله بن سلام رضي الله عنه الذي أعلن إسلامه بعد لقائه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي مقدمتهم أيضاً عبد الله بن صوريا الذي قيل عنه: إنه لم يكن بالحجاز في زمانه من هو أعلم بالتوراة منه [٣].

وقد جاءت الأخبار الصحيحة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة كان يذهب إلى اليهود في « مدراسهم » ليدعوهم إلى الإسلام ويحذرهم من الكفر به [٤]، وبعض الصحابة أيضاً كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما كانا يذهبان

---

(١) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم للأستاذ محمد عزة دروزة « ١ : ١٢ » و « ٣ : ٤٨ » وما بعدها وانظر تاريخ اليهود في بلاد العرب لاسرائيل ولفنسون « ص ٩ » وتاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي « ٦ : ٩، ١٠، ١٦، ٢٤ ».

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي « ٢ : ١٢٠ ».

(٣) تاريخ العرب قبل الاسلام « ٦ : ٩٩، ١٠٦ ».

(٤) روى البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة « ٩ : ١٣١ – ١٣٢ » عن أبي هريرة قال: بينا نحن في المسجد خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: انطلقوا إلى يهود فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس، فقام النبي صلى الله عليه وسلم فناداهم فقال يا معشر يهود أسلموا تسلموا فقالوا بلغت يا أبا القاسم، فقال لهم =

إلى مدراسهم ويستمعان إلى علمائهم ويأمرانهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم الذي كانوا يستفتحون به على غيرهم ، والذي يعرفون صـــدقه فيما يبلغه عن ربه كما يعرفون أبناءهم .

وقد حكى القرآن الكريم كثيراً من المجادلات الدينيـة والأسئلة المتعنتة التي كان اليهود يقومون بتوجيهها إلى النبي صلى الله عليه وسلم بقصد إحراجه .

روى ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس قال « بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفا لهـم أمره وبعض قوله وقالا : « إنكم أهـل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . قال : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهـم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ ... الخ[1] » .

وروى ابن إسحق قال « حدثت عن سعيد بن جبير أنه قـال : أتى رهط من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ قال : فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه ـ أي تغير ـ ثم ساورهم ـ أي باطشهم ـ غضباً لربه ، قال : فجاءه جبريل ـ عليه السلام ـ

= رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أريد أسلموا تسلموا فقالوا قد بلغت يا أبا القاسم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أريد ثم قالها الثالثة فقال اعلموا أنما الأرض لله ورسوله وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله .

(١) تفسير ابن كثير « ٣ : ٧١ — ٧٢ » .

فسكنه، فقال: خفض عليك يا محمد، وجاءه من الله تعالى بجواب ماسألوه عنه: «قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد». قال: فلما تلاها عليهم، قالوا: فصف لنا يا محمد كيف خلقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول، وساورهم، فأتاه جبريل — عليه السلام — فقال له مثل ما قال له أول مرة، وجاءه من الله تعالى بجواب ماسألوه؛ يقول الله تعالى: «وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون[1]».

وقد تسربت ثقافة اليهود إلى العرب قبل الاسلام وبعده، وقد كان العرب قبل الاسلام يتصلون بجيرانهم اليهود ويسمرون معهم ويتلقون عنهم بعض الأحداث التي كان لهم بها علم سابق، وكان هذا أمراً طبيعياً فقد كانت العرب أمة أمية كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أحاديثه[2]، وكما قرره القرآن الكريم في أكثر من آية[3]؛ في حين كان أهل الكتاب وبخاصة اليهود منهم يقرؤون ويكتبون، وبأيديهم كتب وأسفار دينية كثيرة، وكانوا بالاضافة إلى ذلك يعيشون في بيئات متحضرة يساهمون في مختلف مجال حياتها جيلاً بعد جيل؛ يشهد بذلك ماجاء في الحديث عن ابن عباس «كان هذا الحي من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحي من اليهود وهم أهل كتاب، فكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم وكانوا يقتدون بكثير من فعلهم[4]».

ويروون عن وهب بن منبه أنه كان يقول: «لقد رأيت اثنين وتسعين

---

(١) سيرة ابن هشام «٢ : ٢٢٠».

(٢) جاء في الحديث «بعثت إلى أمة أمية» وجاء في حديث آخر «نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا ...» صحيح البخاري كتاب الصوم وجامع الترمذي كتاب أبواب القراءات.

(٣) كقوله تعالى: «هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ... الآية».

(٤) أخرجه أبو داود وانظر تفسير ابن كثير «١ : ٣٦١».

كتاباً كلها من السماء : اثنان وسبعون منهـــا في الكنائس وفي أيدي الناس ، وعشرون لا يعلمها إلا قليل (١) » .

ولما جاء الاسلام دخلت فيه طائفة من أحبار اليهود مثل عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهم ،وكان بعض المسلمين يسألهم عنجزئيات الأحداث والقصص والشخصيات والأعلام القرآنية ، ومن ذلك مثـــلاً مارواه المفسرون في سياق تفسيرهم لآيات ذي القرنين من سورة الكهف عن خلاف وقع بين ابن عباس ومعاوية -- رضي الله عنهما - في قراءة جملة « عين حمئة » (٢) حيث كان معاوية يقرؤها « عين حامية » بمعنى نبع ماء حار ، وكان ابن عباس يقرؤها « عين حمئة » بمعنى طينة سوداء ، فاتفقا على تحكيم كعب الأحبار، فسألاه كيف تجد الشمس في التوراة ؟ فقال لهما : في طينة ســـوداء فوافق جوابه كلام ابن عباس (٣) .

وعن طريق هذه الأجوبة تسرب الكثير من الاسرائيليات إلى المسلمين .

ويرى الأستاذ محمد عزة دروزة : أن جل ماروي عن مسلمة أهل الكتاب كان على هـذه الصورة ، أي أجوبـة على أسئلة من المسلمين عن جزئيات الأحداث والشخصيات والمسائل القرآنية منها ما كان يأتي مسهباً ومنها ما كان يأتي مقتضباً ، وأنهم كانوا يعزون أجوبتهم إلى مافي أيديهم من الأسفار(٤) .

كذلك تسرب كثير من الاسرائيليات عن طريق نفر من المسلمين أنفسهم

---

(١) طبقات ابن سعد (٥٤:٣:٥) .

(٢) الآية ٨٦ من سورة الكهف .

(٣) تفسير الطبري (٩:٦ - ١٠) وانظر مثل هذه الأسئلة (١٧ : ١٠ و ٢٧ : ٣١) وانظر تفسير ابن كثير « ٣ : ١٠٣ » .

(٤) من مقال له بعنوان (حول الاسرائيليات في كتب التفسير) مجلة الوعي الاسلامي — الكويت — السنة الثانية — العدد التاسع عشر — رجب ١٣٨٦ هـ .

أمثال عبد الله بن عمرو بن العاص فقد روى أنه أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب يوم اليرموك فكان يحدث الناس ببعض مافيها اعتماداً على حديث مروي[1].

وإذا كان عبد الله بن عمرو يحدث من كتب أهل الكتاب بما أذن به الشارع فقد ظهرت — فيما بعد — جماعة من القصاص الذين اشتهروا بتفسير القرآن، فأرادوا أن يشرحوا ما أبهمه القرآن الكريم مما لا فائدة في العلم به مما تعلموه من اتصالهم باليهود والنصارى ، وأكملوا من ابتداع خيالهم ماوجدوه من نقص فيما تعلموه ووضعوا ذلك كله تفسيراً للقرآن الكريم ، ولم يكلفهم ذلك عناء ولا ترددوا في أن يصوغوا ماربطوه بالقرآن من صور خيالهم على وجه جدير بالتصديق بواسطة إسنادهم هذه الخيالات إلى رجال ثقات معتد بهم ، وفي كتب التفسير من ذلك شيء كثير .

وعن هؤلاء المفسرين الذين لا يتورعون عن تفسير القرآن بمثل هذه الخيالات والأوهام ، يقول النظام : (لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة ، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية إلى غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم ، وليكن عندكم عكرمة والكلبي والسدي والضحاك ومقاتل بن سليمان وأبو بكر الأصم في سبيل واحدة ، فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم[2]) .

ولعل من أهم العوامل التي ساعدت على تأثر التفسير بقصص التوراة والإنجيل هو أن القرآن الكريم يتفق مع التوراة والإنجيل في إيراد بعض المسائل وبخاصة قصص الأنبياء ، ولكن للقرآن الكريم منحى يخالف منحى التوراة .

فإنه يقتصر على مواضع العظة ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل ، فهو

---

(١) وهو قوله صلى الله عليه وسلم: بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج . . الحديث .

(٢) الحيوان للجاحظ (١: ٣٤٣ — ٣٤٦)

لا يذكر — غالبا — تاريخ الوقائع ، ولا أسماء البلدان التي حصلت فيها ، ولا أسماء الأشخاص الذين جرت على يدهم بعض الحوادث ، وإنما يتخير ما يمس جوهر الموضوع ، ويعرض عما لا فائدة لنا في العلم به . وإذا نحن تتبعنا هذه الموضوعات التي اتفق في ذكرها القرآن والتوراة ، أو القرآن والإنجيل ، ثم أخذنا موضوعاً منها وقارنا بين ما جاء في الكتابين وجدنا اختلاف المسلك ظاهراً جليا . فمثلا قصة آدم عليه السلام قد ورد ذكرها في القرآن الكريم ، كما ورد ذكرها في التوراة ، بيد أن القرآن لم يتعرض لمكان الجنة ولا لنوع الشجرة التي نهي آدم عن الأكل منها ، ولا لبيان الحيوان الذي تقمصه الشيطان ليزلها ، ولا ما كان من تفصيل الحوار بين الله تعالى وآدم ، ولا للبقعة التي هبط إليها آدم بعد خروجه من الجنة ، ولكن التوراة تعرضت لكل ذلك وأكثر منه ، فأبانت أن الجنة في عدن شرقا ، وأن الشجرة التي نهيا عنها كانت في وسط الجنة وأنها شجرة الحياة ، وذكرت ما انتقم الله به من الحية التي أغوتهما بأن جعلها تسعى على بطنها وتأكل التراب ، وانتقم من حواء بتعبها هي ونسلها في حبلها ... الخ[1] .

ونقرأ تفسير الطبري وتفسير مقاتل بن سليمان في هذه القصة فيتجلى لنا بوضوح أنهما أخذا ما جاء في التوراة وشروحها من تفصيل لهذه القصة . ووضعوه تفسيراً لآيات القرآن الكريم ، وهم يروون ذلك عن وهب بن منبه تارة ، وعن اسرائيل عن أسباط عن السُّدِّي تارة أخرى[2] . ومثلا نجد القرآن الكريم قد اشتمل على موضوعات وردت في الانجيل كقصة ولادة عيسى بن مريم ومعجزاته

---

(١) أنظر العهد القديم الاصحاح الأول من سفر التكوين (ص ٤ — ٥) .

(٢) انظر تفسير مقاتل (١٨:١ — ٢١) وتفسير الطبري (١٨٦:١) وما بعدها . وقد روى الجاحظ في كتابه (الحيوان) عن كعب الأحبار أنه قال : مكتوب في التوراة أن حواء عوقبت بعشر خصال وأن آدم عوقب بعشر خصال وأن الحية عوقبت بعشر خصال ثم ذكرها الجاحظ وشك فيها لأنها ليست مذكورة في التوراة وعلق بقوله : إن صحت الرواية عن كعب فإنه إنما كان يعني كتب اليهود جميعها — (الحيوان: ٤ : ٦٤)

عليه السلام[1] . فجاء المفسرون ينقلون عن مسلمة اليهود والنصارى شروحاً لهذه الآيات[2] .

ولم يقتصر تأثير الإسرائيليات على كتب التفسير فحسب ، بل تعداها إلى العلوم الإسلامية الأخرى . فقد عني بعض المسلمين بنقل تاريخ بني إسرائيل وأنبيائهم ، كما فعل ابن إسحاق والطبري في تاريخيهما ، وكما فعل ابن قتيبة في كتابه المعارف ، وقد أثبت العلم أن كثيراً مما نقل من تاريخ بني إسرائيل غير صحيح ، مما يدل على أن الروايات التي نقلت كان كثيراً منها ينقل عن العوام وأشباههم ، ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين ؛ كان من الطبيعي لمعرفة الرسالة وسيرة الرسول دراسة أحوال الرسل والأنبياء الذين جاؤوا من قبله ، ونوع رسالتهم والأقوام الذين اتبعوا الرسالة أو رفضوها ، فتوسع مجال التاريخ وبالتالي مجال الرجوع إلى كتب أهل الكتاب .

كذلك كان لليهود أثر غير قليل في بعض المذاهب الكلامية ، فابن الأثير يروي عند الكلام على أحمد بن أبي دؤاد : أنه كان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة ، وأخذ ذلك عن بشر المريسي ، وأخذ بشر عن الجهم ابن صفوان ، وأخذه الجهم عن الجعد بن درهم ، وأخذه الجعد عن أبان بن سمعان ، وأخذه أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم وختنه ، وأخذه طالوت عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لبيد يقول بخلق التوراة ، وأول من صنف في ذلك طالوت ، وكان زنديقاً فأفشى الزندقة[3] أهـ .

وروى صاحب العقد الفريد عن الشعبي أنه قال لمالك بن مغاوية : (أحذركم الأهواء المضلة ، وشرها الرافضة ، فإنها يهود هذه الأمة ، يبغضون الاسلام كما

(1) انظر العهد الجديد إنجيل متى الإصحاح الأول وإنجيل مرقص الاصحاح الثاني .

(2) انظر تفسير الطبري (3 : 190) .

(3) الكامل لابن الأثير (7 : 26) .

ببغض اليهود النصرانية ، ولم يدخلوا في الاسلام رغبة ولا رهبة من الله؛ ولكن مقتاً بأهل الاسلام ، وبغياً عليهم ، وقد حرقهم علي بن أبي طـالب ... وذلك أن محبة الرافضة محبة اليهود. قالت اليهود : لايكون الملك إلافي آل داود ، وقالت الرافضة : لا يكون إلا في آل علي بن أبي طالب ، وقالت اليهود : لا يكون جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح المنتظر وينادي منـــاد من السماء ، وقالت الرافضة : لا جهـــاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينزل بسبب من السماء ، واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم ، وكذلك الرافضة . واليهود لا ترى الطلاق الثلاث شيئاً وكذا الرافضة ، واليهود لا ترى على النساء عدة وكذا الرافضة ، واليهود تستحل دم كل مسلم ، وكذلك الرافضة . واليهود حرفوا التوراة ، وكذا الرافضة حرفت القرآن . واليهود تنتقص جبريـل وتقول هو عدونا من الملائكة ، وكذا الرافضة تقول : غلط جبريل في الوحي إلى محمد بترك علي بن أبي طالب ، واليهود لا تأكل لحم الجزور وكذلك الرافضة .. الخ[1]) .

وقد عالج اليهود كثيراً من المسائل الكلامية واختلفوا فيها ، فتكلموا في التشبيه لأنهم وجدوا التوراة مملوءة بألفاظ تشعر بالشبيه ، وتعرضوا للرجعة ، وقد حكى هذه الأقوال وغيرها عن اليهود الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) ، وهذه الأقوال والخلافات تسرب الكثير منها إلى المسلمين عمن أسلم من اليهـــود؛ فرأينا من المسلمين جماعة من غلاة الشيعة والمشبهة يقولون إنه يجوز على الله تعالى الانتقال والنزول والصعود والاستقرار ... الخ ، فحذوا في ذلك حذو اليهود في اختلافهم . يقول الشهرستاني – في الكلام عن المشبهة –: (إنهم أجروا الأحاديث الواردة في ذلك على مايتعارف في صفات الأجسام ، وزادوا في الأخبار أكاذيب وضعوها ، ونسبوها إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وأكثرها مقتبس من اليهود ، فإن التشبيه فيهم طباع ،حتى قالوا في الله تعالى : اشتكت عيناه فعادته الملائكة ،

---

(١) العقد الفريد (١: ٢٦٦) .

وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه .. الخ [1] ، وقالت الشيعة في الرجعة على نحو ماقال اليهود، فقد كان عند اليهود أن النبي إلياس صعد إلى السماء وسيعود فيعيد الدين والقانون ، فقال ابن سبأ اليهودي - كما حكى ابن حزم - لما قتل علي : لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة ماصدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً . ونمت هذه الفكرة عند الشيعة فنشأت عنها عقيدتهم في المهدي المنتظر .

مما تقدم نرى أن كثيراً من المسائل الكلامية وغيرها كان منبعها اليهود، وأنها قيلت على مثال ماقالوا . وصدق رسول الله ﷺ حيث قال : (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم ، قلنا: يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن [2]) .

ونرى بعد هذا أن نذكر مقالة ابن خلدون في مقدمته ، ليتبين لنا كيف تسربت الاسرائيليات إلى المسلمين، وأسباب استكثارهم من رواياتها، وإقحامها على تفسير القرآن الكريم ، فإنه خير من كتب في هذا الموضوع ، وإليك نص مقالته :

قال رحمه الله : « وقد جمع المتقدمون في ذلك - يعني التفسير النقلي - وأوعوا ؛ إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين ، والمقبول والمردود، والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني « ص ٣٧ ، ٣٨ » وانظر ضحى الاسلام للأستاذ أحمد أمين « ١ : ٣٣٤ - ٣٣٧ » .

(٢) صحيح البخاري « ٩ : ١٢٦ - ١٢٧ »

وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية ؛ فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة ، وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك ، وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم ، فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم وفي أمثال هذه الأغراض ، أخبار موقوفة عليهم ، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل ، وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات ، وأصلها — كما قلنا — عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك ، إلا أنهم بَعُد صيتهم ، وعظمت أقدارهم ، لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة ، فتلقيت بالقبول من يومئذ ... »[1] .

وسواء أكانت هذه هي كل الأسباب أم كانت وراءها أسباب دعت إلى الإكثار من رواية هذه الإسرائيليات ، فقد اتسعت على كل حال نقول التفسير لمثل هذه المرويات التي بيّن البحث أنها شملت مزيجاً متنوعاً من مخلفات الأديان المختلفة التي ترامت إلى علم العرب[2] .

★ ★ ★

(١) مقدمة ابن خلدون ج ٣ : ٩٩٧ — ٩٩٨ طبعة لجنة البيان العربي .

(٢) انظر (التفسير معالم حياته — منهجه اليوم) للأستاذ أمين الخولي ص ٢٨ ، وانظر التفسير والمفسرون ١ : ١٧٨ .

الباب الثاني

الفصل الأول

الإسرائيليات في دور الرواية

أولا : موقف الصحابة من الإسرائيليات

أشار القرآن الكريم إلى كثير من تاريخ الأمم الغابرة التي حلّ بها العذاب على ما اجترحت من الآثام ، وإلى بدء الخلق وتكوين الأرض والسموات ، ولم يكن لدى العرب من المعرفة ما يستطيعون به شرح هذه المجملات التي أشار إليها القرآن ، إذ كانوا أمة أمية في صحراء نائية عن مناهل العلم والمعرفة . والانسان بطبعه حريص على استكناه المجهول ، واستيضاح ما عزت عليه معرفته ، فالجأتهم الحاجة إلى الاستفسار من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولا سيما مُسلمتهم ، كعبد الله بن سلام ، و كعب الأحبار ، فكان بعض الصحابة يسألهم عن بعض جزئيات الحوادث ، وعن تفصيل مجملات القصص ، بقدر ما يرون أنه موضح للقصة ومبين لما أجمله القرآن منها ، من غير أن يخرجوا عن دائرة الجواز التي حددها لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ، وبقوله : « لا تصدقوا

أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقـــولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ... الآية » .

وعلى هذا فإن الصحابة إذا أخذوا عن أهل الكتاب ، كانوا يصدقونهم فيما يتفق مع شريعتنا ، وكانوا يكذبونهم فيما لا يتفق معها ، وكانوا يتوقفون فيما يحتمل الصدق والكذب ، فلا يقطعون بصدقه لاحتمال أن يكون كذبا ، ولا يقطعون بكذبه لاحتمال أن يكون صدقاً . كما كانوا لا يسألون عـــن الأشياء التي يشبه أن يكون السؤال عنها نوع من اللهو والعبث ، كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف ، وبعض البقرة الذي ضُرب به قتيل بني إسرائيل ، ومقدار سفينة نوح ، ونوع خشبها ، واسم الغلام الذي قتله الخضر ، وغير ذلك مما يعد السؤال عنه قبيحاً ، ومن قبيل تضييع الوقت في غير فائدة ، ولهذا قال الدهلوي – بعد أن بين أن السؤال عن مثل هذا تكلف ما لا يعني – (وكانت الصحابة – رضي الله عنهم – يعدون مثل ذلك قبيحاً من قبيل تضييع الأوقات[1]) .

كذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يسألون أهل الكتاب عن شيء مما يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالأحكام ، اللهم إلا إذا كان على جهة الاستشهاد والتأييد لشرعنا ، للاحتجاج عليهم من معتقدهم .

ولا ينبغي أن يجعل من تلقي الاسرائيليات على هذا الوجه ذريعة للطعن في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم كانوا يزنونها بالميزان الشرعي – كما أسلفنا – وكان ذلك منهم بعد استقرار أصول الشريعة ، وإرساء قواعدهـــا وكان مايروونه من ذلك ، مما يتعلق بالأخبار والقصص ، لا بالعقائد والأحكام ، فلم تكن رواية هذه الأخبار بالتي تزلزل عقائـــدهم أو تشوش أفكارهم – ومنزلتهم معروفة في العلم والدين – كما لا ينبغي أن يتخذ من رواية هـــذه الاسرائيليات

---

(١) الفوز الكبير في أصول التفسير « ص ٣٥ » وانظر التفسير والمفسرون ١ : ١٦٩ – ١٧٠ .

وسيلة للطعن في رواتها من أمثال كعب ووهب ممن أثنى عليهم الصحابة وزكاهم أهل البصر بالتعديل والتجريح — كما سنبين ذلك فيما بعد — وذلك لأنهم حكموها عن كتب غير مصدقين لها على الاطلاق ، بل كانت عقيدتهم فيها كعقيدة الصحابة : ما جاء على وفق شرعنا صدقوه ، وما خالفه كذبوه ، وما لم يوافق أو يخالف شرعنا ردوا فيه العلم إلى الله عز وجل ، وما مثلهم فيما ينقلون ويحكون إلا كمثل رجل أمين أراد أن يطلعك على مؤلف بغير لسانك ، فترجمه إلى لغة تفهمها لتعرف ما فيه إن صدقاً أو كذباً ، وليس أمثال ابن مسعود وابن عباس وأبي هريرة وعبدالله بن عمرو بالقاصرين عن تمييز الخبيث من الطيب ، حتى يقال : إن نقلها إليهم يشوش على أفكارهم وعقائدهم [1] .

ولقد حاول بعض المستشرقين تصوير الصحابة في صورة مغفلين خرافيين يصدقون كل ما يلقى إليهم من كعب وغيره من مسلمي أهل الكتاب ، وتبعهم في هذه الفرية السيد رشيد رضا ، والأستاذ أحمد أمين ، وأبو رية .

وإليك نص كلامهم :

قال السيد رشيد رضا في مجلة المنار الجزء الأول — المجلد ٢٦ ص ٦١٥) : (ونحن نعلم أن أبا هريرة روى عن كعب وكان يصدقه ... ومثل هذا كان يقال في ابن عباس وغيره ممن روى عن كعب ، وكان يصدقه) . وقال في موضع آخر من نفس المجلد (ص ٧٨٣) : (... ولا يبعد [2] انخداع بعض الصحابة والتابعين بما بثاه — يقصد كعباً ووهباً — هما وغيرهما من هذه الأخبار فإذا صدق بعض الصحابة كعب الأحبار في بعض مفترياته التي كان يوهمهم أنه أخذها من التوراة أو غيرها من كتب أنبياء بني إسرائيل ، وهو من أحبارهم ، أو في غير ذلك ، فلا يستلزم هذا إساءة الظن فيهم) .

---

(١) الحديث والمحدثون « ص ١٨٦ — ١٨٧ » للشيخ محمد أبو زهو .

(٢) يقصد الأستاذ عبد الرحمن الجمجوني ، وكان بينه وبين صاحب المنار مساجلة علمية على صفحات المنار .

وقال الأستاذ أحمد أمين في كتابه فجر الاسلام ص ٢٠١ : (ولم يتحرج حتى كبار الصحابة مثل ابن عباس من أخذ قولهم . روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلاتصدقوهم ولا تكذبوهم » ولكن العمل كان على غير ذلك ، وأنهم كانوا يصدقونهم وينقلون عنهم) .

وقال أبو رية في كتابه « أضواء على السنة المحمدية ص ١١٠ » (وتلقى الصحابة ومن تبعهم كل ما يلقيه هؤلاء الدهاة — يقصد عبد الله بن سلام و كعب الأحبار ووهب بن منبه — بغير نقد أو تمحيص معتبرين أنه صحيح لاريب فيه) . وقال أيضاً في: ص ١٢٥ - ١٢٦) : (كان من أثر وثوق الصحابة بمسلمة أهل الكتاب واغترارهم بهم أن صدقوهم فيما يقولون ، ويروون عنهم ما يفترون ... وكان أبو هريرة أكثر الصحابة وثوقاً بهم وأخذاً عنهم وانقياداً لهم) . أ هـ

والحق أن هذا الزعم الذي سقنا لك أقوال أصحابه آنفـــاً مخالف للواقع ومجانب للصواب ، فقد علم الصحابة رضوان الله عليهم من كتاب الله عز وجل أن أهل الكتاب غيروا في كتبهم وبدلوا فامتزج الحق فيها بالباطل والصدق بالكذب ، ورووا عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم » ونهى بعضهم عن الأخذ عنهم[1] ، وكان عند عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يسميها « الصادقة » تمييزاً لها عن صحف كانت عنده من أهل الكتاب .

وروت لنا كتب الصحاح وغيرها من الكتب المعتبرة : أن الصحابـــة رضوان الله عليهم كانوا إذا سألوا أهل الكتاب عن شيء ، فأجابوا عنه خطأ كذبوهم وردوا عليهم خطأهم وبينوا لهم وجه الصواب فيه .

فمن ذلك مارواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى

(١) كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس (كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ... الحديث) .

الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة فقال : « فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه »[1] .

فقد اختلف السلف في تعيين هـــذه الساعة ، وهل هي باقية أو رفعت ؟ وإذا كانت باقية فهل هي في جمعة واحدة في السنة أو في كل جمعة منها ؟ فنجد أبا هريرة رضي الله عنه يسأل كعب الأحبار عن ذلك، فيجيبه كعب الأحبار بأنها في جمعة واحدة من السنة ، فيرد عليه أبو هريرة قوله هـذا ، ويبين له : إنها في كل جمعة ، فيرجع كعب إلى التوراة فيرى الصواب مع أبي هريرة فيرجع إليه) .

وروى ابن جرير عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عباس أنه قال : (المفدي إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحق وكذبت اليهود[2]) .

وبلغ ابن عباس أن نوفاً البكالي – وهو ربيب كعب – يزعم أن موسى صاحب الخضر غير موسى بن عمران ، فقال ابن عباس : كذب عدو الله[3] .

وروى البخاري في كتاب الاعتصام من صحيحه عن معاوية أنه ذكر كعباً، وقال : (إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب[4]) .

وروى ابن كثير في تفسيره أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب منكراً (أنت تقول أن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا !) وعلق ابن كثير على ذلك بقوله : وهذا الذي أنكره معاوية على كعب هو الصواب ، والحق مع معاوية في ذلك الإنكار[5]) .

---

(١) القسطلاني « ٢ : ١٩٠ » وانظر صحيح البخاري في باب الجمعة « ٢ : ١٣ » وانظر سنن النسائي (كتاب الجمعة) والتفسير المفسرون « ١ : ١٧٠ » .

(٢) تفسير ابن جرير « ٢٣ : ٥٣ » .

(٣) تفسير ابن كثير « ٣ : ١٩٢ » .

(٤) سنتكلم عن تأويل هذا الحديث عندما نترجم لكعب .

(٥) تفسير ابن كثير « ٣ : ١٠١ » .

يتبين مما تقدم أن الصحابة – رضوان الله عليهم – لم يكونوا مغفلين مخدوعين يصدقون كل ما يلقى إليهم – كما اتهموا – كما تبين أنهم ما كانوا يسلمون لكعب ولا لغيره من مسلمي أهل الكتاب كل ما يروونه من إسرائيليات ، وأما ما كان من رجوع عبدالله بن عمرو وابن عباس وأبي هريرة إلى كعب وغيره ، فقد كان خاضعاً للقاعدة القاضية بتصديق ماصدقه الشرع الإسلامي ، وتكذيب ما كذبه ، والتوقف فيما سوى ذلك ، وهي التي أشار إليها قوله عليه الصلاةوالسلام: « لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » .

من اشتهر برواية الإسرائيليات

من الصحابة

يتصفح الإنسان كتب التفسير بالمأثور، فلا يلبث أن يلحظ أن غالب ما يروى فيها من إسرائيليات عن الصحابة معزو إلى عبد الله بن عباس، وأبي هريرة، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن سلام، وتميم الداري، وغيرهم، وسأكتفي بالترجمة لهؤلاء الخمسة مبيناً موقف كل منهم على حدة، بعد أن بينت موقف الصحابة من هذه الإسرائيليات بإجمال.

أ — ابن عباس :

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولد والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالشعب بمكة، وعندما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له رضي الله عنه من العمر ثلاث عشرة سنة، وقد عاش حتى توفي بالطائف سنة ٦٨ هـ.

وهو ترجمان القرآن، وحبر الأمة، ورأس المفسرين. دعا له النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل [1]».

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر «٣: ٩٣٥». وروي لابن عباس «١٦٦٠ حديثاً»، أخرج له الشيخان منها «٢٣٤» حديثاً، اتفقا على «٧٥» حديثاً، منها وانفرد البخاري بـ «١١٠» أحاديث ومسلم بـ «٤٩» حديثاً، وأحاديثه في الكتب الستة وكتب السنن. انظر السنة قبل التدوين «ص ٤٧٧» للدكتور محمد عجاج الخطيب.

وقد روي عنه في التفسير مالا يحصى كثرة بطرق ليس معظمها بصحيح ، ومن ذلك التفسير المنسوب إليه ، وهو الذي طبع باسم (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) رواية الفيروزبادي صاحب القاموس المحيط . فإن نسبته إليه لا تصح ؛ وحسبنا في التدليل على هذا ما روي منسوباً إلى الإمام الشافعي - رضي الله عنه - من قوله : (لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث [1]) . مع أن هذا التنوير المنسوب إليه مطبوع في نحو أربعمائة صفحة من القطع الكبير.

وقد ساعد ابن عباس على تضلعه في التفسير وقوته فيه ؛ نشأته في بيت النبوة وملازمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأكابر الصحابة بعد وفاة الرسول ، ثم حفظه للعربية ومعرفته لغريبها وآدابها وخصائصها ، وأساليبها شعراً ونثراً ، وبلوغه مرتبة الاجتهاد ، وعدم تحرجه من التفسير ، وقد وهبه الله عقلاً راجحاً ، ورأياً صائباً ، وقريحة وقادة ، ويقيناً وإيماناً ، قال عمر رضي الله عنه : (ابن عباس فتى الكهول ، له لسان قئول ، وقلب عقول [2]) وقال علي كرم الله وجهه يثني عليه في تفسيره (كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق) .

وكان ابن عباس شيخ المفسرين بمكة ، وصاحب مدرسة التفسير بها . قال ابن تيمية : (وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة ، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء وعكرمة ... الخ [3]) .

أشهر الطرق عن ابن عباس :

١ - طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة المتوفى سنة ١٤٣ هـ عن ابن عباس ، وهذه أجود الطرق عنه . قال الإمام أحمد : (وإن في مصر

---

(١) الاتقان « ٢ : ٢٢٤ » .

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ترجمة ابن عباس .

(٣) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ١٥ .

صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة ، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً) وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه .

٢ ـ طريق قيس بن مسلم الكوفي المتوفى سنة ١٢٠ هـ عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين .

٣ ـ طريق ابن إسحق صاحب السيرة عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت ، عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس . وهي طريق جيدة وإسنادها حسن .

٤ ـ طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير ، تارة عن أبي مالك، وتارة عن أبي صالح عن ابن عباس . والسدي الكبير مختلف فيه .

٥ ـ طريق عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج عن ابن عباس ، وابن جريج لم يقصد الصحة فيما جمع ، وإنه روى فيه تفسير كل آية من الصحيح والسقيم .

٦ ـ طريق الضحاك بن مزاحم الهلالي عن ابن عباس . وهي غير مرضية .

٧ ـ طريق عطية العوفي عن ابن عباس . وهي غير مرضية أيضاً .

٨ ـ طريق مقاتل بن سليمان الأزدي الخراساني ، وقد جرّحه رجال الحديث وقالوا : إنه يروي عن مجاهد وعن الضحاك ولم يسمع منهما ، وقد كذّبه غير واحد ، ولم يوثقه أحد ، واشتهر عنه التجسيم والتشبيه .

٩ ـ طريق محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦ هـ عن أبي صالح عن ابن عباس . وهذه أوهى الطرق ، فالكلبي ـ وإن وجد من قال : رضوه في التفسير ـ متروك الحديث ليس بثقة عند جميع أهل الحديث ، وإذا انضم إلى طريق الكلبي رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب [١] .

---

(١) الإتقان ٢ : ١٨٨ ـ ١٨٩ ، وانظر التفسير والمفسرون ١ : ٧٧ ـ ٨١ ، للمرحوم أستاذنا الدكتور محمد حسين الذهبي ، وكشف الظنون ١ : ٣٠٤ ، ومقدمة تفسير أحمد مصطفى المراغي .

رجوع ابن عباس إلى أهل الكتاب :

لم يجد عبد الله بن عباس غضاضة في الأخذ عمن أسلم من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ، وإن كان قد حذر ونهى من لا علم له عن الأخذ عنهم مخافة التشويش على عقائدهم .

وكان رضي الله عنه يرجع إلى أهل الكتاب بحكم اتفاق القرآن مع التوراة والانجيل في كثير من المواضع التي أجملت في القرآن وفصلت فيهما .

وقد قلنا فيما سبق : إنه كان يرجع إلى أهل الكتاب في دائرة محدودة ضيقة تتفق مع القرآن وتشهد له، أما ماعدا ذلك مما يتنافى مع القرآن ولا يتفق مع الشريعة الإسلامية ،فكان ابن عباس – كغيره من الصحابة – لا يقبله ولا يأخذ به .

اتهام ابن عباس بالتوسع في الأخذ عن أهل الكتاب :

يتهم المستشرق اليهودي جولد زيهر ابن عباس رضي الله عنه بتوسعه في الأخذ عن أهل الكتاب ، فيقول في كتابه (مذاهب التفسير الاسلامي) في (ص ٨٥ – ٨٨) : « وأجدر من ذلك بالتصديق الأخبار التي تفيد أن ابن عباس كان لا يرى غضاضة أن يرجع في الأحوال التي يخامره الشك إلى من يرجو عنده علما ، وكثيراً ماذكر أنه كان يرجع في تفسير معاني الألفاظ إلى من يدعى أبا الجلد[1] » ثم يقول : « وكثيراً ما تجد بين مصادر العلم المفضلة لدى ابن عباس اليهوديين اللذين اعتنقا الاسلام : كعب الأحبار وعبد الله بن سلام ... ولم يعد ابن عباس أولئك الكتابيين حججاً فقط في الاسرائيليات وأخبار الكتب السابقة ... بل كان يسأل أيضاً كعب الأحبار مثلاً عن التفسير الصحيح للتعبيرين القرآنيين (أم الكتاب) و (المرجان) .

---

(١) هو غيلان بن فروة الأزدي ، يقول فيه العسكري في كتاب (التصحيف والتحريف) : هو صاحب كتب وجماع لأخبار الملاحم .

وقد رأى الناس في هؤلاء اليهود أن عندهم أحسن الفهم — على العموم — في القرآن وفي كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وما فيها من المعاني الدينية، ورجعوا إليهم سائلين عن هذه المسائل بالرغم من التحذير الشديد من كل جهة من سؤالهم[1]».

وتقول دائرة المعارف الإسلامية (۱ : ۲۰) تحت « مادة ابن عباس » (أخذ ابن عباس كثيراً من القصص من الذين أسلموا — لاسيما كعب — وصاغها صياغة جديدة حتى تطابق القرآن[2]) .

والحق أن هذا غلو في الرأي وبعد عن الصواب، فابن عباس قد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بتأويل القرآن والتفقه في الدين فكان — بفضل هذه الدعوة المستجابة — ترجمان القرآن وكان لا يضارعه أحد في التفسير ، وكان يرجع إليه الصحابة في ذلك ، فبعيد أن يكثر من الرجوع — وهو ترجمان القرآن — إلى أهل الكتاب ، وبخاصة إذا كان رجوعه إليهم للكشف عن معاني بعض ألفاظ القرآن الكريم ، فالقرآن كتاب عربي نزل بلغة العرب وبلاغتهم ، ولم ينزل بلغة أهل الكتاب ، فابن عباس — وهو عربي محض — أعلم بلا شك من كعب وأضرابه . ثم كيف يستبيح ابن عباس رضي الله عنه لنفسه أن يحدث عن بني إسرائيل بمثل هذا التوسع الذي زعموه ، وهو نفسه كان أشد الناس نكيراً على من يفعل ذلك؟ فقد أخرج البخاري في ثلاثة مواضع من صحيحه عن ابن عباس قوله : (يامعشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب ، وكتابكم الذي أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله ، تقرؤونه لم يشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله ، وغيروا بأيديهم الكتاب ، فقالوا : هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ، ولا والله

---

(۱) انظر أيضاً مذاهب التفسير لجولد زيهر تعريب الدكتور علي حسن عبد القادر « ص ٦٥ — ٦٧ » .

(۲) دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية (مادة ابن عباس) .

ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم [1].

وعلى الرغم مما جاء في تفسير الطبري من روايات ظاهرها يفيد توسع ابن عباس في سؤاله لكعب الأحبار، فإنني لا أستطيع أن أسلم بصحة جميع هذه الروايات، وأعتقد أن أغلبها موضوع عليه، ومعروف لدى جميع العلماء أن ابن جرير لم يلتزم في تفسيره صحة كل ما يرويه، فلم لا يكون بعض ما ينسب إلى ابن عباس من روايته عن كعب وغيره مكذوباً عليه ؟ ! وسأفصل ذلك عند الكلام عن الوضع على ابن عباس .

الوضع على ابن عباس وأسبابه :

ويبدو أن السر في كثرة الوضع على ابن عباس هو مكانته في التفسير، وأنه كان من بيت النبوة؛ والوضع عليه يكسب الموضوع ثقة وقوة ورواجاً أكثر مما لو وضع على غيره، أضف إلى ذلك أن ابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، وكان من الناس من يتزلف إليهم ويتقرب منهم بما يرويه لهم عن جدهم ابن عباس، كذلك نجد من أسباب كثرة الوضع على ابن عباس في التفسير ما قصده أعداء الإسلام من اليهود والنصارى الذين اندسوا بين أبنائه متظاهرين بالإسلام، ثم عمدوا إلى الدس والوضع في التفسير بعد أن عجزوا عن أن ينالوا من هذا الدين عن طريق الحرب والقوة، أو عن طريق البرهان والحجة.

نقد بعض الروايات التي رويت عن ابن عباس في كتب التفسير :

١ - روى ابن كثير في تفسيره نقلاً عن البيهقي في الأسماء والصفات عن طريق شريك بن عبد الله النخعي، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس في قوله تعالى (في الآية ١٢ من سورة الطلاق) (الله الذي خلق سبع

---

(١) صحيح البخاري - كتاب التفسير « ٦ : ٢٥ » .

سموات ومن الأرض مثلهن ... الآية) قال : سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى[1]) .

وقد علّق أبو حيان على الحديث بقوله : (هذا حديث لا شك في وضعه وهو من رواية الواقدي الكذاب[2]) .

وسند الحديث أيضا ضعيف لأن (شريك) يخطيء ، وقد تغير حفظه منذ ولي القضاء في الكوفة ، وعطاء بن السائب اختلط قبل موته[3] .

٢ — وروى ابن جرير عن ابن عباس في تعيين الذبيح روايتين مختلفتين :
الأولى مرفوعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومفيدة أن الذبيح هو إسحاق .
والثانية : موقوفة على ابن عباس ومفيدة أن الذبيح هو إسحاق أيضا[4] . ولو أننا عرضنا هاتين الروايتين على قواعد المحدثين في نقد الرواية والترجيح ؛ لتبين لنا بكل وضوح أن الرواية القائلة بأن الذبيح هو إسماعيل أصح من غيرها وأرجح بما يخالفها ، لأنها مؤيدة بأدلة كثيرة يطول ذكرها ، وأيضاً فإن الرواية التي يذكرها ابن جرير مرفوعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومفيدة أن الذبيح هو إسحق في سندها علي بن زيد والحسن بن دينار ، وعلي بن زيد منكر الحديث ، والحسن ابن دينار متروك ، كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره[5] ، ثم روى ابن جرير رواية ثالثة على لسان ابن عباس نفسه ؛ يصرح فيها بنقيض الروايتين السابقتين ويكذب اليهود في زعمهم أن الذبيح هو إسحاق ، قال ابن جرير : (حدثني يونس قال : أخبرنا ابن وهب ، قال أخبرني عمر بن قيس ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن

---

(١) تفسير ابن كثير « ٣٨٠:٤ » ، وانظر الآلوسي « ١٤٢:٢٨ — ١٤٣ » .

(٢) البحر المحيط « ٢٨٧:٨ » وانظر الآلوسي « ١٤٣:٢٨ » .

(٣) تقريب التهذيب « ٣٥١:١ ، ٢٢:٢ » .

(٤) تفسير ابن جرير « ٥٤:٢٣ » .

(٥) تفسير ابن كثير « ١٧:٤ » .

عبد الله بن عباس أنه قال : المفدي إسماعيل ، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود[1]) ، وهذا الأثر صحيح عن ابن عباس وإسناده على شرط الصحيح، وهو كما ترى صريح في تكذيب اليهود فيما زعموه ؛ وهو يقضي على كل أثر بخلافه[2] .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤ : ١٧) بعد ما ساق الروايات التي تزعم أن الذبيح هو إسحاق : (وهذه الأقوال — والله أعلم — كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم في الدولة العمرية ، جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديماً ، فربما استمع له عمر رضي الله عنه ، فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه ، غثها وسمينها ، وليس لهذه الأمة — والله أعلم — حاجة إلى حرف واحد مما عنده).

٣– ومما يدلنا أيضاً على الوضع على ابن عباس رضي الله عنه ما نسبه الإمام البغوي إلى ابن عباس في تفسير قوله تعالى: (وتخفي في نفسك ما الله مبديه ...[3]). قال : أي حب زينب وهي في عصمة زيد .. ![4] ، وقد كان المنتظر من البغوي ألا يروي خرافة حب النبي صلى الله عليه وسلم لزينب ؛ بعد تزويجه إياها لزيد عن مسلم مطلقاً ، فضلاً عن ابن عباس ، وقد حكى البغوي مثل هذه الرواية عن قتادة أيضاً ، وهي لا تصح بحال وقد دسها في التفسير يوحنا الدمشقي في العهد الأموي[5] .

وقبل أن ندع ابن عباس إلى غيره ، نرى أنه لا بد لنا أن ننبه إلى حقيقة

---

(١) تفسير ابن جرير « ٢٣ : ٥٤ » .

(٢) انظر التفسير والمفسرون « ١ : ١٦٢ — ١٦٣ » .

(٣) من الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

(٤) تفسير البغوي على هامش تفسير الخازن « ٥ : ٢١٥ » .

(٥) انظر مناهج التفسير لأبي زهرة « ص ٢٠٤ » (مقال في مجلة لواء الاسلام — العدد الثامن من السنة الخامسة — ربيع الثاني سنة ١٣٧١ هـ — يناير ١٩٥٢ م .

تتصف بها ذلك الحبر ، ترجمان القرآن، من ظلم كثير وقع عليه وأسيء به إليه؛ فضلاً عما فيه من تأويل لآيات القرآن الكريم بما لا تحتمله بحال ، وبما هي منه براء ، ولا يمكن ولا يعقل أن يكون قد قاله ذلك الصحابي الجليل الذي دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم ، بأن يعلمه الله التأويل ويفقهه في الدين . !

إن كتب التفسير — بصفة عامة — تهتم كثيراً بما قاله ابن عباس في تفسير القرآن الكريم ، وقد أساء الرواة الضعاف والوضاعون والمدلسون من كل مجروح مُوَهَّن إلى ذلك الحبر الجليل،فنسبوا إليه كلاماً كثيراً لم يقله ، ثم أساء كثير من أصحاب التفاسير، فنقلوا هذه الروايات وسودوا بها صفحات كتبهم دون بحث الأسانيد ، وهكذا وصلت إلينا كتب التفسير وهي تحكي عن ابن عباس في تأويل الآية الواحدة — أحياناً — رأيين أو ثلاثة،أو أكثر أحياناً ، وبعض هذه الآراء يناقض بعضها الآخر مناقضة صريحة بحيث يستحيل الجمع بينها ، ومن غير المعقول ولا السائغ أن يقول صحابي جليل كابن عباس كل هذا الخليط العجيب من التفاسير للآية الواحدة ، ولست أدعو بهذا الكلام إلى طرح كل ماروي عن ابن عباس مما حفلت به كتب التفسير ، فإن منه الصحيح وغيره ، إنما أدعو إلى دراسة السند في كل رواية قبل الحكم لها أو عليها . وفي هذه الدراسة ينبغي أن نتثبت مما يلي :

١ — أن الراوي ليس ضعيفاً ولا مجروحاً ولا مجهولاً (وهذا مايجب تطبيقه على كل راو في السند) .

٢ — أن العصر الذي عاش فيه كان يتيح له فرصة اللقاء بمن روى عنه في السند ؛ وإنما يتأتى هذا إذا كان كل راو ومن روى عنه متعاصرين ، ويقتضي هذا بالطبع معرفة السنة التي توفي فيها كل منها .

٣ — أن يثبت أن أحدهما رحل إلى البلد الذي يقيم فيه الآخر إذا لم يكونا من بلد واحد .

٤ — (وهو شرط انفرد به البخاري من بين أصحاب الكتب الستة) أن يثبت التلاقي — والسماع أيضاً — بين كل راو ومن روى عنه ، ولا تكفي المعاصرة إن لم يثبت اللقاء والسماع منه دون وسيط ؛ وإلا فقد روى المتأخر عن الوسيط.

ب — أبو هريرة

هو عبد الرحمن بن صخر ، وكنيته أبو هريرة ، أسلم وقدم على النبي صلى الله عليه وسلم عام خيبر سنة سبع من الهجرة في المحرم [١]، وهو — على قلة صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم — أحفظ من روى الحديث ، بشهادة الامام الشافعي رضي الله عنه وغيره . قال الامام الشافعي : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره [٢] — وقال البخاري : روى عنه نحو الثمانمائة من أهل العلم ، وكان أحفظ من روى الحديث في عصره [٣] . أهـ . والسر في ذلك أمور نذكرها :

أولاً : مواظبته على حضور مجالس النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد روى البخاري في صحيحه في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة أن أبا هريرة قال : إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله الموعد، إني كنت امرأ مسكينا ، ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني ، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم ، فشهدت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، وقال من يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي ، ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئاً سمعه مني ، فبسطت بردة كانت علي ، فوالذي بعثه بالحق ما نسيت شيئاً سمعته منه [٤] .

---

(١) تاريخ الاسلام «٢ : ٣٣٣» وانظر طبقات ابن سعد «٤ : ٣٢٥» وسير أعلام النبلاء «٢ : ٤١٧» والاصابة «٧ : ١٩٩ — ٢٠٩» وتهذيب التهذيب «١٢ : ٢٦٢».

(٢) تذكرة الحفاظ «١ : ٣٤» والبداية والنهاية «٨ : ١٠٦» .

(٣) تهذيب التهذيب «١٢ : ٢٦٥» .

(٤) صحيح البخاري . كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة «٩ : ١٣٣» .

ثانياً : أدرك أبو هريرة كبار الصحابة وأخذ عنهم الشيء الكثير من الحديث فتكامل علمه به واتسع أفقه فيه .

ثالثاً : طول حياته بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد عاش بعده سبعة وأربعين عاما ينشر الحديث ويبثه بين الناس بعيداً عن المناصب والمشاغل والفتن .

وتوفي أبو هريرة بالمدينة سنة سبع وخمسين من الهجرة [1] ، على المعتمد عن ثمانية وسبعين عاماً رضي الله عنه .

عدة ما روي عنه من الحديث :

أبو هريرة أكثر الصحابة حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى له الامام أحمد بن حنبل في مسنده (٣٨٤٨) حديثاً وفيها مكرر كثير باللفظ والمعنى ويصفو له بعد حذف المكرر خير كثير .

وروى له الامام بقي بن مخلد في مسنده (٥٣٧٤) حديثـاً ، وله في الصحيحين (٣٢٥) حديثاً انفرد البخاري منها بـ (٩٣) حديثاً ومسلم بـ (١٨٩) حديثا [2] .

أصح الطرق عن أبي هريرة :

حكي عن علي بن المديني أن من أصح الأسانيد إطلاقا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة [3] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٤ : ٦٤) .

(٢) انظر البارع الفصيح في شرح الجامع الصحيح مخطوطة ورقة ٩ ، وتاريخ الاسلام (٢ : ٣٣٤) ، وشذرات الذهب ١ : ٦٣ ، والفصل لابن حزم (٤ : ١٣٨)

(٣) تدريب الراوي ص ٣٦ ، والكفاية ص ٣٩٨

وقال سليمان بن داود أصح الأسانيد كلها يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة [١] . وأصح ماروي من الحديث عن أبي هريرة ماجاء عن مالك، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة . وماجاء عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة . وماجاء عن سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة . وماجاء عن معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة . وماجاء عن إسماعيل بن أبي حكيم، عن عبيد بن سفيان الحضرمي، عن أبي هريرة . وماجاء عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة [٢] .

هل كان أبو هريرة تلميذا لكعب الأحبار ؟ :

أثار بعض أهل الأهواء شبهات حول أبي هريرة قديماً وحديثاً [٣] ، وقد حمل لواء الدفاع عن الصحابي الجليل بعض العلماء [٤] الذين كشفوا نوايا هؤلاء المغرضين

---

(١) المرجع السابق نفس الموضع .

(٢) هذه الأسانيد خرجها الشيخ أحمد شاكر من مسند أبي هريرة في مسند الامام أحمد ، انظر مسند الامام أحمد شرح وتعليق أحمد شاكر (١ : ١٤٩ — ١٥٠) .

(٣) فمن القدماء : النظام ، والمريسي ، والبلخي . ومن المحدثين ، جولد تسهر ، وشبرنجر ، وهما من المستشرقين . والشيخ رشيد رضا في مجلة المنار «م ٢٩ ص ٢٤٣» والأستاذ أحمد أمين في كتابه — فجر الاسلام — «ص ٢١٩» وعبد الحسين شرف الدين العاملي في كتابه (أبو هريرة) ومحمود أبو رية في كتابة (أضواء على السنة المحمدية) .

(٤) كابن قتيبة في كتابه (تأويل مختلف الحديث) والدارمي في كتابه (رد الدارمي على بشر المريسي) وتفرقت بعض الردود في كتب الصحاح ، وشروحها كفتح الباري .

وقد تولى الدفاع عن الصحابي الجليل عدد من الباحثين المعاصرين، من بينهم أستاذنا الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله في كتابه (السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي) والشيخ محمد أبو زهو في كتابه (الحديث والمحدثون) والشيخ محمد محمد أبو شهبة في كتابه (دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين)، والشيخ محمد محمد السماحي في كتابه (أبو هريرة في الميزان) والأستاذ عبد الرحمن المعلمي اليماني في كتابه الأنوار =

وبينوا الحق من الباطل ، وماززوا الخبيث من الطيب . ونكتفي من هذه الشبه التي أثارها القوم بواحدة لها مساس بموضوع الرسالة .

قالت دائرة المعارف الاسلامية - تحت مادة كعب الأحبار - (وكان من أهم تلاميذه عبد الله بن عباس أحد قدامى مفسري القرآن وأبو هريرة [1]) أهـ.

وقال الأستاذ أحمد أمين : (.. وقد أخذ عنه اثنان هما أكبر من نشر علمـه ، ابن عباس - وهذا يعلل ما في تفسيره من إسرائيليات - وأبو هريرة [2]) أهـ .

وحذا حذوهما أبورية ، ولكنه هول هذا الزعم وبالـغ فيه ، إذ صوره مؤامرة دبرها كعب الأحبار لبث الاسرائيليات في الدين الاسلامي ، وجعل أبا هريرة مطية له من أجل ذلك . ويرى أبورية أن كعباً قد سلط قوة دهائه على سذاجة أبي هريرة لكي يستحوذ عليه ، ويتمه ليلقنه كل ما يريد أن يبثه في الدين الاسلامي من خرافات وأوهام ؛ وكان لهي ذلك أساليب غريبة وطرق عجيبة ! ويرى أبورية أيضاً أن كعباً كان يثني على أبي هريرة وعلى معرفته لما في التوراة ؛ ليثق الناس به ويأخذوا عنه حديثه الذي يلقنه إياه كعب .

هكذا يتصور أبو رية ، أبا هريرة ألعوبة في يد كعب ، يأخذ عنه ويدعي أنه سمعه من الرسول صلى الله عليه وسلم .

وإليك نص عبارة أبي رية لندرك مدى تجنيه على الصحابي الجليل أبي هريرة

= الكاشفة) والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في كتابه (ظلمات أبي رية) والدكتور محمد عجاج الخطيب في كتابيه (السنة قبل التدوين) و (أبو هريرة راوية الاسلام) .

فجزاهم الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء

(1) دائرة المعارف الاسلامية م ١١ ص ٥٨٢ - ٥٨٣ تحت مادة (كعب الأحبار) الترجمة الانجليزية .

(2) فجر الاسلام ، ص ١٦٠ .

رضي الله عنه ، قال: (.. ويبدو أن أباهريرة كان أول الصحابة انخداعاً به — يقصد كعب الأحبار — وثقة فيه، ورواية عنه وعن إخوانه ، كما كان أكثرهم رواية للحديث ، ويتبين من الاستقراء أن كعب الأحبار قد سلط قوة دهائه على سذاجة أبي هريرة لكي يستحوذ عليه، وينيمه ليلقنه كل مايريد أن يبثه في الدين الاسلامي من خرافات وأوهام ، وكان له في ذلك أساليب غريبة ، وطرق عجيبة. فقد روى الذهبي في تذكرة الحفاظ في ترجمة أبي هريرة أن كعباً قال فيه : مارأيت أحداً لم يقرأ التوراة أعلم بما فيها من أبي هريرة[1] . فانظر دهاء هذا الكاهن ومكره بأبي هريرة الذي يتجلى في درس تاريخه أنه كان رجلاً فيه غفلة وغرة ، إذ من أين يعلم أبو هريرة مافي التوراة ، ولو عرفها لما استطاع أن يقرأها لأنها كانت باللغة العبرية ... الخ[2]) أهـ .

ونقول في الجواب :

١ — نعم روى الصحابة — ومنهم أبو هريرة — عن كعب وغيره من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا أخبار الأمم الماضية ، وتواريخها مما أباح لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم روايته . وحذرهم من تصديقهم له أو تكذيبهم بقوله عليه الصلاة والسلام « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ... الحديث » فتروى أخبارهم على جهة العظة والاعتبار لاعلى أنها مهيمنة على ماجاء في القرآن الكريم من أخبار، وعلى ذلك فليست هذه الروايات مما يعول عليها في دين الله وشريعة الاسلام حتى تكون مصدر شبهات للمؤمنين أو الملاحدة والمارقين ، ولا توجب أن يكون الدين كغيره من سائر الأديان دين خرافات وأوهام ، ومن ذلك يتبين لنا أن الصحابة لم ينخدعوا في كعب الأحبار لا في قليل ولا كثير ، فسواء صدق كعب فيما

---

(١) أورد الحافظ الذهبي هذا القول عن أبي هريرة في باب المدح ، وأورده أبو رية في باب الذم والاتهام .

(٢) أضواء على السنة المحمدية » ص ١٧٢ — ١٧٣ .

يحدث به أو كذب ، فإنه لايروي عن مصدر التشريع المعتبر عن المسلمين .

٢ - وأما أن كعب الأحبار قد سلط قوة دهائه على سذاجة أبي هريرة لكي يستحوذ عليه ... الخ ، فهذا اتهام صارخ لأبي هريرة بالسذاجة ، فلو كان به سذاجة ما خفيت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين ولاه ولاية البحرين ، ولو كان ساذجاً لاستجاب لعمر حين طلبه لولاية البحرين مرة ثانية [١] . ولو كان ساذجاً ما عول عليه الصحابة والتابعون في الفتوى ، وسنذكر قصة تدل على عكس ماذهب إليه أبو رية .

أخرج النسائي عن أبي هريرة قال : (.. أتيت الطور فوجدت ثَمَّ كعباً ، فمكثت أنا وهو يوماً أحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحدثني عن التوراة ، فقلت له : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أهبط ، وفيه تيب عليه ، وفيه قبض ، وفيه تقوم الساعة ، ما على الأرض من دابة إلا وهي تصيح يوم الجمعة مصيخة حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا ابن آدم ، وفيه ساعة لا يصادفها مؤمن وهو في الصلاة يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه إياه » فقال كعب : ذلك يوم في كل سنة ، فقلت بل هي في كل جمعة ، فقرأ كعب التوراة ثم قال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم هو في كل جمعة ، فخرجت فلقيت بصرة بن أبي بصرة الغفاري فقال: من أين جئت ؟ قلت :من الطور ، قال : لو لقيتك من قبل أن تأتيه لم تأته ؛ قلت له : ولم ؟ قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ، ومسجدي ، ومسجد بيت المقدس » فلقيت عبدالله بن سلام فقلت : لو رأيتني خرجت إلى الطور ، فلقيت كعباً فمكثت أنا وهو يوماً أحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثني عن التوراة ، فقلت

---

(١) كانت ولاية أبي هريرة على البحرين من سنة ٢١ - ٢٣ هـ ، انظر طبقات ابن سعد « ٢ : ٤ : ٦٠ » .

له : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير يوم ... » فذكر الحديث ... قال كعب ذلك يوم في كل سنة . فقال عبد الله بن سلام كذب كعب . قلت : ثم قرأ كعب فقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو في كل جمعة . فقال عبد الله : صدق كعب . إني لأعلم بتلك الساعة ، فقلت : يا أخي حدثني بها، قال: هي آخر ساعة من يوم الجمعة قبل أن تغيب الشمس ، فقلت : أليس قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يصادفها مؤمن وهو في الصلاة ، وليست تلك الساعة صلاة ؟ قال : أليس قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من صلى وجلس ينتظر الصلاة ، لم يزل في صلاته حتى تأتيه الصلاة التي تلاقيها ؟ » قلت : بلى ، قال : فهو كذلك [1].

٣ — وذكر أبو رية ثناء كعب على أبي هريرة بأنه يعلم ما في التوراة مع أنه لم يقرأها ... وهذا . . إن صح فلا شيء فيه ، لأن كثيراً من الناس يستمعون الأخبار من المجالس والندوات دون أن يقرأوا الكتب ، وأبو هريرة ،كان يسمع من غير واحد غير كعب مثل عبد الله بن سلام ، ووهب بن منبه ، وكان ذا حافظة قوية ، فلما كان يذاكر كعباً يراه عالماً بشيء كثير مما سمعه منه أو من غيره ، ولم ير أحداً ممن لم يقرأ التوراة فيه تلك الخاصية غير أبي هريرة ، فشهد له بها، ولا أدري كيف غاب عن المؤلف أن العلم لا يتوقف على معرفة القراءة والكتابة ، مع أن الكلمة المسموعة لا تقل عن الكلمة المقروءة رسوخاً في النفس ؟ ، وماذا يقول المؤلف في بعض الأكفاء في القديم والحديث الذين حصلوا من العلوم والمعارف ما لم يحصله غيرهم من المبصرين القارئين الكاتبين ؟!

٤ — وحاول أبو رية أن يستشهد ببعض الأحاديث ليدعم زعمه بأن أبا هريرة يكذب في الحديث . والمشهور عن أبي هريرة أنه كان يعزو كل ما يحدث

---

(١) سنن النسائي — كتاب الجمعة — ذكر الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة ٣ : ١١٤ — ١١٥ » .

به عن غير النبي صلى الله عليه وسلم إلى قائله، فبالأحرى أن يبين حديث كعب وما يقوله له كعب ، ولا يمكن لإنسان أن يتصور أبا هريرة الذي روى حديث «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» عن الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يكذب على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وينسب ما يقوله كعب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وخاصة أن كعب الأحبار لم يلق النبي عليه الصلاة والسلام ، فإن كان أبو هريرة وابن عباس قد سمعا من كعب ورويا عنه ، فإنما رويا أخبار الأمم الماضية ، وعزوها إليه . وربما يكون بعض السامعين قد خلط بين ما يرويه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وما يرويه من القصص عن كعب ، ويثبت ذلك ماقاله بشير بن سعيد : (.. اتقوا الله وتحفظوا من الحديث فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة ، فيحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،ويحدثنا عن كعب الأحبار ، ثم يقوم فأسمع بعض من كان معنا يجعل حديث رسول الله عن كعب ويجعل حديث كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]) فما جريرة أبي هريرة في ذلك .!!

والغريب من أمر المؤلف أنه يتعجب من بعض الأحاديث التي يرويها أبو هريرة ويوافقه عليها كعب ويستشهد بما يؤيدها من التوراة . مثال ذلك قوله : (.. وإليك مثلاً من ذلك نختم به مانقله من الأحاديث التي رواها أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي في الحقيقة من الاسرائيليات حتى لا يطول بنا القول : روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ، اقرؤوا إن شئتم وظل ممدود) . ولم يكد أبو هريرة يروي هذا الحديث حتى أسرع كعب، فقال: صدق — والذي أنزل التوراة على موسى والفرقان على محمد ...[2]) .

---

(١) سير أعلام النبلاء « ٢ : ٤٣٦ » عن بشر بن سعيد وأخرجه مسلم عن بشير وهو الأصح .

(٢) أضواء على السنة المحمدية « ص ١٧٧ » وروى هذا الحديث الإمام مسلم .

ماوجه الانكار في هذا الحديث ، وقد رواه غير أبي هريرة من الصحابة ، رواه سهل بن سعد وأبو سعيد الخدري[1]، فهل خدع كعب هذين الصحابيين أيضاً ؟ ! وما هي غاية كعب في قوله هذا، إني أتعجب من إنكار الكاتب عليه هذا الحديث ؟ فهل أنكر على أبي هريرة هذا الحديث لضخامة الشجرة ؟ . أم أنكر عليه أن يسير الراكب مائة عام في ظلها ؟ أم أنكر عليه هذا لأنه لم يعهد في حياته مثلها ؟ هل يريد الكاتب أن ينفي كل مالا يتصوره عقله وتفكيره[2] ؟ !

---

(١) انظر صحيح مسلم « ٤ : ٢١٧٥ ، ٢١٧٦ » .

(٢) الأحاديث التي صححها علماؤنا رحمهم الله ليس فيها ما يرفضه العقل أو يحيله،لأنها إما أن تتعلق بأمور العقيدة وهذه يجب أن تتفق مع القرآن وليس في القرآن شيء يحكم العقل بفساده أو بطلانه أو استحالته ، وإما أن تتعلق بالأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات وآداب وغيرها ، وليس في حديث من هذه الأحاديث التي صححها علماؤنا ما يرفضه العقل أو يحكم باستحالته . وإما أن تكون أخباراً عن الأمم الماضية ، أو أخباراً عن عالم الغيب مما لايقع تحت النظر كشؤون السماوات والحشر والجنة والنار ، وهذه ليس فيها ما يحكم العقل ببطلانه وقد يكون فيها مالا يدركه العقل فيستغربه .

فإذا جاءت عن طريق ثابت يفيد القطع فيجب اعتقادها ، وإن جاءت عن طريق يفيد غلبة الظن فليس من شأن المسلم أن يبادر إلى تكذيبها ،وبهذا نرى أن فريقاً كبيراً من الناس لايفرقون بين ما يرفضه العقل وبين مايستغربه فيساوون بينهما في سرعة الانكار والتكذيب مع أن حكم العقل فيما يرفضه ، ناشيء من استحالته ، وحكم العقل فيما يستغربه ناشيء من « عدم القدرة على تصوره » وفرق كبير بين ما يستحيل وبين مالا يدراك ، على أننا نرى من الاستقراء التاريخي وتتبع التطور العلمي والفكري أن كثيراً مما كان غامضاً على العقول أصبح مفهوماً واضحاً ، بل إن كثيراً مما كان يعتبر حقيقة من الحقائق ، أصبح خرافة من الخرافات ، وما كان مستحيلاً بالأمس أصبح اليوم واقعاً ولا تعوزنا الأمثلة لذلك ، فنحن نعيش في عصر استطاع فيه الإنسان أن يكتشف القمر بصواريخه، بل لقد نزل فيه وهو يستعد للنزول في غيره من الكواكب، ولو أن إنساناً فكر في مثل هذا في القرون الوسطى ، أو منذ مائة سنة لعد من المجانين . والذين يبادرون بتحكيم العقل في صحة الحديث أو كذبه لا نراهم يفرقون بين المستحيل وبين المستغرب فيبادرون إلى تكذيب كل ما يبدو غريباً في عقولهم،وهذا غرور طائش ناتج من اغترارهم بعقولهم من جهة ، ومن اغترارهم بسلطان العقل ومدى صحة حكمه فيما لا يقع تحت =

إن أراد هذا وجب عليه أن ينفي كثيراً من المخترعات التي نسمع بها ولا نراها أو ينفي كثيراً مما جاء في القرآن الكريم ، بل عليه أن يترك جانباً عظيماً من اللغة العربيـة ، ذلك لأن بعض ماجاء في السنة من ألفاظ وعبارات إنما جاءت على نسق وسنن ماجاء في القرآن الكريم من عبـارات سيقت من باب المجاز لا من باب الحقيقة ، تخاطب الاحساسات النفسية ، والنفوس البشرية لتصور عظمة ما يتلوه القرآن الكريم من الثواب والعقاب ، لذلك وجب علينا أن نعرف الألفاظ والعبارات التي لاتطابق الحقيقة إلى المجاز ، فللعدد معنى خاص لايتناوله غيره ، وقد أجمع المفسرون على أن بعض ما ذكر من الأعداد في القرآن الكريم ، إنما جاء للتكثير لا للحصر ، وكذلك ماجاء في السنة في مثل هذا المقام من العبارات الكثيرة التي لا تتناول حقيقة العدد . وعبارة الحديث على ظل الشجرة إنما تفيد بيان اتساع ذلك الظل الذي أعده الله للمؤمنين ، فمن الخطأ أن يجعل المؤلف الحقيقة والواقع ميزاناً لتلك الألفاظ التي وردت من باب المجاز ، لأنه في ذلك سيجانب القواعد المسلمة في اللغـة ، ويقع معها في أخطاء فادحة ، لايقره عليها أحد ، ويلزم من هذا عدم فائدة الاستعارات والكنايات والمجازات العقلية التي تشكل جانباً عظيماً في تراثنا الأدبي ، مادام المؤلف سيصرف كل لفظ إلى حقيقته . ! !

ثم إن العلم الحديث يرجح أن لفظ هذا الخبر من باب الحقيقة لا من باب المجاز ، فإذا عرفنا أن سرعة الضوء ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية، وأن ضوء كثير من الكواكب والنجوم يستغرق وصوله إلينا ساعات ضوئية ومنها ما يستغرق أياماً بل عشرات السنين الضوئية ، وإذا تذكرنا إلى جانب هذا قوله تعالى : (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله

= سلطانه من جهة أخرى ، ونحن نرى أن أكثر ما يستندون إليه في تكذيب ما صححه الجمهور إنما هي أحاديث تتعلق إما بأخبار الأمم الماضية وإما بالأمور الغيبية .

يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[1]) . وقوله صلى الله عليه وسلم في وصف الجنة « . . فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[2] » .
إذا تذكرنا كل هذا . . أدركنا أنه ليس في هذا الحديث ما يثير العجب ، ولا ما يستدعي الإنكار على راويه ، بل نزداد إيماناً بصحة هذا الخبر الذي أيده النقل والعقل والمقاييس العلمية[3] .

ونرى أن نختم هذه الكلمة بكلمة العلامة المحقق الشيخ أحمد شاكر ، قال رحمه الله : في أوائل مسند أبي هريرة من مسند الإمام أحمد (١٢ : ٨٤ — ٨٦)
(وقد لهج أعداء السنة وأعداء الاسلام في عصرنا ، وشغفوا بالطعن في أبي هريرة وتشكيك الناس في صدقه وفي روايته وما إلى ذلك أرادوا ، وإنما أرادوا أن يصلوا إلى تشكيك الناس في الإسلام تبعاً لسادتهم المبشرين ، وإن تظاهروا بالقصد إلى الاقتصار على الأخذ بالقرآن أو الأخذ بما صح من الحديث في رأيهم ، وما صح من الحديث في رأيهم إلا ما وافق أهواءهم وما يتبعون من شعائر أوربة وشرائعها ، ولن يتورع أحدهم عن تأويل القرآن إلى ما يخرج الكلام عن معنى اللفظ في اللغة التي نزل بها القرآن ليوافق تأويلهم وهواهم وما إليه يقصدون ! !
وما كانوا بأول من حارب الاسلام في هذا الباب ، ولهم في ذلك سلف من أهل الأهواء قديماً ، والاسلام يسير في طريقه قدماً ، وهم يصيحون ماشاؤوا ، لا يكاد الاسلام يسمعهم ؛ بل هو إما يتخطاهم لا يشعر بهم ، وإما يدمرهم تدميراً .

ومن عجب أن تجد ما يقول هؤلاء المعاصرون ، يكاد يرجع في أصوله ومعناه إلى ما قال أولئك الأقدمون ، بفرق واحد فقط : أن أولئك الأقدمين ـ زائغين كانوا أم ملحدين ـ كانوا علماء مطلعين ، أكثرهم ممن أضله الله على علم !

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الحديد .
(٢) صحيح مسلم « ٤ : ٢١٧٥ » أخرجه عن سهل بن سعد الساعدي .
(٣) انظر « السنة ومكانتها » للدكتور مصطفى السباعي «ص٤٩» وما بعدها ، وانظر « أبو هريرة راوية الإسلام » للدكتور محمد عجاج الخطيب «ص٢٢٠» وما بعدها .

أما هؤلاء المعاصرون، فليس إلا الجهل والجرأة، وامتضاغ ألفاظ لا يحسنونها يقلدون في الكفر ثم يتعالون على كل من حاول وضعهم على الطريق القويم !!

ولقد رأيت الحاكم أبا عبد الله المتوفى سنة ٤٠٥ هـ حكى في كتابه المستدرك (٣ : ٥١٣) كلام شيخ شيوخه ، إمام الأئمة أبي بكر بن محمد بن إسحق بن خزيمة المتوفى سنة ٣١١ هـ في الرد على من تكلم في أبي هريرة ، فكأنما هو يرد على أهل عصرنا هؤلاء . وهذا نص كلامه .. (.. وإنما يتكلم في أبي هريرة لدفع أخباره من قد أعمى الله قلوبهم ، فلا يفهمون معاني الأخبار : إما معطل جهمي يسمع أخباره التي يرونها خلاف مذهبهم الذي هو كفر فيشتمون أبا هريرة ، ويرمونه بما الله تعالى قد نزهه عنه تمويهاً على الرعاع والسفلة ، أن أخباره لا تثبت بها الحجة . وإما خارجي يرى السيف على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يرى طاعة خليفة ولا إمام، إذا سمع أخبار أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم خلاف مذهبهم الذي هو ضلال ولم يجد حيلة في دفع أخباره بحجة وبرهان ، كان مفزعه الوقيعة في أبي هريرة . أو قدري اعتزل الإسلام وأهله ، وكفر أهل الاسلام الذين يتبعون الأقدار الماضية التي قدرها الله تعالى وقضاها قبل كسب العباد لها ، إذا نظر إلى أخبار أبي هريرة التي قد رواها عن النبي صلى الله عليه وسلم في إثبات القدر ولم يجد حجة يؤيد بها صحة مقالته التي هي كفر وشرك ، كانت حجته عن نفسه أن أخبار أبي هريرة لا يجوز الاحتجاج بها . !

أو جاهل يتعاطى الفقه ويطلبه من غير مظانه ، إذا سمع أخبار أبي هريرة فيما يخالف مذهب من قد اجتبى مذهبه واختاره تقليداً بلا حجة ولا برهان ، تكلم في أبي هريرة، ودفع أخباره التي تخالف مذهبه ويحتج بأخباره على مخالفيه إذا كانت أخباره موافقة لمذهبه) .

ج — عبد الله بن عمرو بن العاص :

هو أبو محمد عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي ، السهمي، أسلم قبل

أبيه [1] وكان النبي ﷺ يحبه ويفضله على والده [2] وكان مجتهداً في العبادة ، مكثراً لتلاوة القرآن الكريم ، كما كان أكثر الصحابة أخذاً للحديث والعلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى عبد الله بن عمرو عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وروى عنه خلائق كثيرون من التابعين : منهم سعيد بن المسيب ، وعروة ، وأبو سلمة وحميد ابنا عبد الرحمن ، ومسروق ، وغيرهم ، وتوفي بمصر - على أرجح الأقوال - سنة ٦٣ هـ [3] .

منبع ثقافته : ترجع ثقافة عبد الله بن عمرو إلى منبعين :

أما المنبع الأول : فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقد كتب وحفظ عنه الشيء الكثير . روى البخاري في كتاب العلم أن أبا هريرة قال : (ما كان أحد أكثر حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مني ؛ إلا ما كان من عبد الله ابن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب) .

وروى مسلم - في كتاب العلم - عن عروة بن الزبير قال : قالت عائشة : (يا ابن أختي بلغني أن عبد الله بن عمرو مار بنا إلى الحج فالقه فسائله ، فإنه قد حمل عن النبي صلى الله عليه وسلم علماً كثيراً ، قال : فلقيته ، فسألته عن أشياء يذكرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عروة : فكان فيما ذكر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله لا ينتزع العلم من الناس انتزاعاً ، ولكن يقبض العلماء فيرفع العلم معهم ، ويبقى في الناس رؤوساً جهالاً يفتونهم بغير علم فيضلون ويضلون) قال عروة : فلما حدثت عائشة بذلك أعظمت ذلك وأنكرته .

---

(١) تاريخ أبي الفداء « ١ : ١٩٤ » .

(٢) تذكرة الحفاظ « ١ : ٣٩ » .

(٣) المصدر السابق ، وانظر المسند للإمام أحمد في الهامش « ٩ : ٢٢٣ » شرح الشيخ أحمد شاكر .

قالت : أحدثك أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول هذا ؟ قال عروة : حتى إذا كان قابل ، قالت له : إن ابن عمرو قد قدم فالقه ، ثم فاتحه حتى تسأله عن الحديث الذي ذكره لك في العلم ، قال : فلقيته فسألته فذكره لي على نحو ما حدثني به في مرته الأولى ، قال عروة : فلما أخبرتها بذلك ، قالت : ما أحسبه إلا قد صدق ، أراه لم يزد فيه شيئاً ولم ينقص . وفي رواية أخرى قالت : والله لقد حفظ عبد الله[1] أهـ .

وجاء عنه أنه كان يكتب كل ما يسمعه من النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهته الصحابة عن ذلك ، وقالوا له : إن النبي صلى الله عليه وسلم ، يتكلم في الغضب والرضا ، فلا تكتب كل ما تسمع ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال : « اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا الحق[2] » .

وروى ابن سعد في طبقاته عن عبد الله بن عمرو قال : استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في كتابة ما سمعته ، قال : فأذن لي فكتبته ، فكان عبد الله يسمي صحيفته تلك الصادقة[3] .

وروى ابن سعد أيضاً عن مجاهد أنه قال : رأيت عند عبد الله بن عمرو ابن العاص صحيفة ، فسألت عنها فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بيني وبينه فيها أحد[4] .

وروى الذهبي عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل[5] .

---

(١) صحيح مسلم – كتاب العلم – ٤ : ٢٠٥٩ ، ط دار إحياء الكتب العربية .

(٢) سنن الدارمي ١ : ١٢٥ ، وانظر المسند ١٠ : ٢٦ – ٢٢ .

(٣) طبقات ابن سعد ٤ : ٢٦١ .

(٤) المصدر السابق ٥ : ١٨٩ .

(٥) تاريخ الإسلام ٣ : ٣٧ .

وأما المنبع الثاني ، فهو ما أصابه من كتب أهل الكتاب ، ومعرفته اللغة السريانية ، فقد تعلم عبد الله الكتابة والقراءة ، وكان لها أثر كبير في ثقافته ، ويظهر أنه كان شغوفاً إلى حد بعيد بالقراءة والاطلاع ، ولكنه لم يجد ما يشبع نهمه وتعطشه للقراءة في كتب مدونة باللغة العربية ، فبدأ يتعلم السريانية ، وقد تنبأ له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه سيقرأ التوراة والقرآن في رؤيا رآها . فقد روى الامام أحمد عنه في مسنده أنه قال : رأيت فيما يرى النائم لكأن في إحدى اصبعي سمناً وفي الأخرى عسلا ، فأنا ألعقهما ، فلما أصبحت ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « تقرأ الكتابين ، التوراة والفرقان » فكان يقرأهما[1] .

وروى ابن سعد في طبقاته عن شريك بن خليفة ، قال : رأيت عبد الله يقرأ بالسريانية[2] .

أما متى تعلم عبد الله بن عمرو السريانية ، فيرجح أنه تعلمها أثناء فتوحات الشام . فقد كان عمرو بن العاص أحد القواد الذي وجههم أبو بكر الصديق لفتح الشام . وقد شهد عبد الله مع أبيه هذه الفتوحات وكانت معه راية أبيه يوم اليرموك[3] . وقد كانت اللغة السريانية منتشرة في هذه البقاع على يد اليعاقبة ومدون بها كثير من المؤلفات القيمة . وقد ذكروا أن عبد الله أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب يوم اليرموك ، وكان يحدث الناس بما فيهما[4] . يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده أن رجلاً قال لعبد الله بن عمرو : حدثني ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعني وما وجدت في وسقيك يوم اليرموك ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المسلم من سلم

(١) المسند ٢ : ٢٢٥ .
(٢) طبقات ابن سعد ج ٤ : ٢٦١ .
(٣) أسد الغابة ج ٣ : ٢٣٤ .
(٤) فتح الباري ج ١ : ١٦٦ .

المسلمون من لسانه ويده » ، وفي رواية أخرى عن أبي سعد قال : أتيت عبد الله ابن عمرو،فقلت حدثني ماسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تحدثني عن التوراة والإنجيل ، قال : فذكر الحديث [1] .

عبد الله بن عمرو وروايته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أما الأحاديث التي رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد بلغت في إحصائية ابن حزم الأندلسي سبعمائة حديث فقط [2] ، وهو عدد يدعو للتساؤل ، لاسيما وأن أبا هريرة — وهوالذي سبق أن اعترف أن عبد الله بن عمرو كان أكثر حديثاً منه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — قد بلغت أحاديثه (٥٣٧٤) حديثاً . فأين ذهبت أحاديث عبدالله بن عمرو التي حملها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!

ذكروا لذلك أسبابا :

١ — إن عبدالله بن عمرو استوطن مصر ، وكان الواردون إليها قليلاً ، بخلاف أبي هريرة فإنه استوطن المدينة ، وهي مقصد المسلمين من كل جهة .

٢ — كان يحدث بما في زاملتيه اللتين عثر عليهما يوم اليرموك ، فتجنب الأخذ عنه لذلك كثير من أئمة التابعين .

٣ — كان مشتغلاً بالعبادة أكثر من اشتغاله بالتعليم ، فقلت الرواية عنه ؛ بخلاف أبي هريرة فقد كان متصدراً للحديث [3] .

أما السبب الأول فمعقول ، وأما السببان الأخيران ففيهما نظر ، ذلك لأن

---

(١) المسند «١١ : ٧٨ — ٧٩ ، ١٧٣» وانظر «١١ : ١٢٧ — ١٢٨» .

(٢) أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد من العدد لابن حزم الأندلسي ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٤ . وقد اتفق الشيخان على سبعة عشر حديثاً منها وانفرد البخاري بثمانية ومسلم بعشرين (الحديث والمحدثون ص ١٤٤) .

(٣) انظر القسطلاني (١ : ٢٧٠) ، وفتح الباري (١ : ١٦٦) والحديث والمحدثون للشيخ محمد أبي زهو (ص ١٤٤) .

عبد الله كانت له مجالس علمية في مصر والشام والطائف ومكة ، وفي كل مكان يحل فيه ، وإن صحيفته الصادقة التي دون فيها أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت في متناول يده في مجالسه العلمية ، فاشتغاله بالعبادة لم يمنعه أبداً من اشتغاله بالعلم ، وقد كان رائد المدرسة العلمية في مصر . . روى المقريزي في خططه عن حسين بن شفي بن ماتع الأصبحي — أحد تلاميذ عبد الله بن عمرو المصريين — أنه كتب كتابين عن عبد الله : أحدهما فيه قضى رسول الله ﷺ في كذا ، وقال رسول الله ﷺ كذا . والآخر ما يكون من الأحداث إلى يوم القيامة[1].

وإذا كان قد تجنب الأخذ عنه كثير من التابعين ، فقد أخذ عنه كذلك كثير منهم ، وليس معقولاً أن يجلس عبد الله بن عمرو ليحدث الناس فيكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحدث الناس بأخبار الزاملتين على أنها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو أحد رواة الحديث « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار[2] » .

وقد كان عبد الله بن عمرو إلى جانب تدوينه للأحاديث ذا حافظة واعية ، يدل على ذلك حديث السيدة عائشة رضي الله عنها السابق (والله لقد حفظه عبد الله . أراه ما زاد فيه ولا نقص) . وقد كان في مجالسه العلمية يقظاً يميز بين أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأحاديث الزاملتين . وقد سبق أن قال له أحد الأعراب : (حدثنا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعنا ما وجدت في وسقيك يوم اليرموك) ، وهذا يدل على أنه رضي الله عنه كان يميز في مجالسه بين أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وكلام الزاملتين ، ولم يعرف من تاريخ عبد

---

(١) خطط المقريزي (المواعظ والاعتبار) لأحمد بن علي المقريزي (٢ : ٣٣٢ — ٣٣٣) طبع مصر سنة ١٢٧٠ هـ .

(٢) المسند للإمام أحمد (٩ : ٢٤١ — حديث ٦٤٧٨) شرح الشيخ أحمد شاكر ، وانظر (٩ : ٢٥١ — حديث ٦٤٨٦) . وانظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٧ : ٤٢١) .

لنا أنه اختلط في أي فترة من فترات حياته، بل عاش الرجل متوقد الذهن، صافي العقل، يعي بقلبه، ويدون بقلمه، ولم يكن يحرص على ما أصابه من الكتب لقلة قيمتها في نظره، بل كان جل حرصه على صحيفته الصادقة، فقد كانت عزيزة جداً عليه، يدل على ذلك قوله: (ما يرغبني في الحياة إلا الصادقة والوهط[1]) وكان يحفظها في صندوق خشية عليها من الضياع[2]، وقد حفظ هذه الصحيفة أهله من بعده، ويرجح أن حفيده عمرو بن شعيب كان يحدث منها[3].

ولعل السبب الأساسي في قلة المروي عن عبد الله بن عمرو هو سبب سياسي، ذلك أن عبد الله لم يكن على وفاق مع معاوية بن أبي سفيان، لأن هوى عبد الله كان مع بني هاشم[4] أضف إلى ذلك أن جرأة عبد الله في الحق أغضبت معاوية عليه.

روى الإمام أحمد في مسنده عن حنظلة بن خويلد العنزي قال: بينا أنا عند معاوية، إذ جاء رجلان يختصمان في رأس عمار، يقول كل منهما: أنا قتلته، فقال عبد الله: ليطب أحدكما نفساً لصاحبه، فإني سمعت — يعني رسول الله صلى الله عليه

---

(١) سنن الدارمي «١: ١٢٧»، والوهط أرض له بالحجاز.

(٢) انظر مسند الإمام أحمد «١٠: ١٧٦ — حديث ٦٦٤٥».

(٣) انظر تهذيب التهذيب «٨: ٤٨ — ٤٩».

(٤) لما قتل عثمان استشار عمرو بن العاص ولديه، فقال أي الفريقين أعد؟ فقال له ابنه عبد الله: إن كنت لا بد فاعلاً.. فإلى علي (النجوم الزاهرة ١: ١١٣) وروى الذهبي في (تذكرة الحفاظ ١: ٣٥) قال: كان عبد الله يلوم أباه على القيام مع معاوية، ويتأثم من القعود عنه خوف العقوق، فحضر صفين ولم يسل سيفاً. وروي عنه أنه ندم على ذلك. فقال: مالي ولصفين؟ ومالي ولقتال المسلمين؟ لوددت أني مت قبلها بعشرين سنة، أما والله على ذلك ما ضربت بسيف، ولا طعنت برمح، ولا رميت بسهم. تاريخ الإسلام للذهبي «٢: ٣٩٢».

وسلم – يقول : « تقتله الفئة الباغية » فقال معاوية : ألا تغني[1] عنا مجنونك ياعمرو؟ فما بالك معنا ؟ قال إن أبي شكاني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أطع أباك مادام حياً ولا تعصه » فأنا معكم ولست أقاتل[2] .

وروى البخاري في صحيحه قال : (كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث : أنه بلغ معاوية وهو عنده في وفد من قريش ، أن عبد الله بن عمرو يحدث أنه سيكون ملك من قحطان ، فغضب معاوية فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد : فإنه بلغني أن رجالاً منكم يتحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأولئك جهالكم ، فإياكم والأماني التي تضل أهلها ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن هذا الأمر في قريش لايعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ماأقاموا الدين[3] » فوصف معاوية عبد الله بالجهل ، ومعاوية لم يعد عبد الله بن عمرو كذاباً ، فحديثه في قتل عمار « ستقتله الفئة الباغية » لم يكذبه فيه ، وإنما أول معاوية الحديث تأويلاً في صالحه حيث قال : «قتله من جاء به » ، وحديث « سيكون ملك من قحطان » لم ينفرد به عبد الله ؛ وإنما رواه كذلك أبوهريرة فيما ذكره البخاري عنه تحت « باب ذكر قحطان » من كتاب بدء الخلق .

هذه الأحاديث وأمثالها وبخاصة مايتعلق بالخلافة ، أقلقت معاوية ، وخاف

---

(١) تغني بالغين المعجمة من (الاغناء) يريد ألا تصرفه عنا وتكفه . وفي اللسان « ١٩ : ٣٧٩ » عن الأزهري : وسمعت رجلاً من العرب يبكت خادماً له يقول : أغن عني وجهك ، بل شرك ، يعني اكفني شرك ، وكف عني شرك . المسند في الهامش « ١١ : ١٠٥ » شرح الشيخ أحمد شاكر .

(٢) المسند « ١١ : ١٥٦ — ١٥٧ » .

(٣) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق – باب مناقب قريش « ٤ : ٢١٧ — ٢١٨ » .

على كرسي الخلافة أن يتزعزع تحته ، لأن وجود ملك من قحطان معناه خروج الأمر من قريش ، ومعاوية من قريش فكأن عبد الله يعلن في الناس أن الأمر سيخرج من يد معاوية ، ولا يستبعد أن تكون فكرة ولاية العهد قد نبتت في ذهن معاوية كرد فعل على أحاديث عبدالله بن عمرو وغيره في هذا الشأن ، ولذلك نجده يحمل الناس حملاً على مبايعة ابنه يزيد لولاية العهد ، ثم يبالغ في اضطهاد عبد الله ، فيصادر أموال والده التي ورثها عنه ويدخلها في بيت المال [1] ، ولم يقتصر على المصادرة فحسب ؛ بل كان ينهاه عن الجلوس إلى الناس والتحدث إليهم ، وقد ورث هذه الكراهية ابنه يزيد ، فكان يضطهد عبد الله كما كان يفعل أبوه .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن أبي الهذيل قال : حدثني شيخ فقال : دخلت مسجداً بالشام فصليت ركعتين ثم جلست ، فجاء شيخ يصلي إلى السارية ، فلما انصرف ثاب الناس إليه فسألت ، من هذا ؟ فقالوا : عبدالله بن عمرو ، فأتى رسول يزيد بن معاوية ، فقال – يعني عبد الله بن عمرو – : (إن هذا يريد أن يمنعني أن أحدثكم) وفي رواية أخرى : (هذا ينهاني أن أحدثكم كما كان أبوه ينهاني [2]) .

وروي في المسند عن شهر بن حوشب قال : أتى عبد الله بن عمرو على نوف البكالي وهو يحدث ، فقال : حدث فإنا قد نهينا عن الحديث [3] .

فتعقب عبدالله ونهيه عن الحديث من معاوية وابنه يزيد، هو السبب الرئيسي في رأيي في قلة المروي عن عبد الله بن عمرو من الأحاديث ، إذ قد حرم من السماع منه كثير من طلاب الحديث إذ ذاك ، مع أنه كان – باعتراف أبي هريرة – أكثر الناس حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) تاريخ عمرو بن العاص ص ٢٤٣ – حسن إبراهيم حسن .

(٢) المسند – مسند عبد الله بن عمرو « ١٠ : ٩١ – ٩٢ ، ٩٥ » .

(٣) المسند – انظر مسند عبد الله بن عمرو بن العاص « ١١ : ١٢٢ » .

عبد الله بن عمرو ورواية الإسرائيليات :

ولعبد الله بن عمرو كلام موقوف عليه ؛ بعضه حِكَم وأخبار عن الأمم السابقة أو الحوادث اللاحقة ومصدرها التوراة ، وما كان يطلع عليه من كتب الأقدمين ، ونسوق فيما يلي طائفة من كلامه :

١ — مكتوب في التوراة : من بَرّ فجر ، ومن حفر حفرة سوء لصاحبه وقع فيها[١] .

٢ — من البخاري — سأله عطاء بن يسار أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ، فقال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ... الحديث[٢] .

٣ — إن في البحر شياطين مسجونة ،أوثقها سليمان يوشك أن تخرج ، فتقرأ على الناس قرآناً[٣] .

٤ — روى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو ، قال : لما أهبط الله آدم من الجنة قال : إني مهبط معك أو — منزل معك — بيتاً يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ، ويصلى عنده كما يصلى عند عرشي ، فلما كان زمن الطوفان رفع ، فكان الأنبياء يحجونه ولا يعلمون مكانه ، حتى بوأه الله إبراهيم وأعلمه مكانه ، فبناه من خمسة أجبل : من حراء وثبير ولبنان وجبل الطور وجبل الخمر[٤] .

---

(١) حلية الأولياء « ١ : ٢٨٣ » .

(٢) صحيح البخاري — كتاب التفسير « ٦ : ١٦٩ — ١٧٠ »

(٣) مقدمة صحيح مسلم .

(٤) تفسير الطبري « ٣ : ٥٨ — ٥٩ » . جبل الخمر — هو جبل بيت المقدس، سمي بذلك لكثرة كرومه . وقد علق الشيخ أحمد شاكر بقوله : (ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد « ٣ : ٢٨٨ » . وقال : رواه الطبراني في الكبير موقوفاً ورجاله رجال الصحيح . وهو كما قال، ولكن ليس فيه حجة ، ولعله مما كان يسمع عبد الله بن عمرو من أخبار أهل الكتاب . تفسير الطبري (٣ : ٥٩ — الهامش) .

ويبدو أن حديث الشياطين المسجونة التي أوثقها سليمان ، وحديث البيت الذي رواه ابن جرير إنما هو من أحاديث الزاملتين .

ولا شك أن عبد الله بن عمرو كان يحدث الناس بالاسرائيليات في حدود الإذن الذي فهمه من الحديث الذي رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم « بلغوا عني ولو آية .. وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » وليس في ذلك من بأس ، وقد روى أبو داود في سننه (٣ : ٤٣٩) عن عبدالله بن عمرو أيضاً قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بني إسرائيل حتى يصبح ، مايقوم إلا على عظم صلاته (عظم الشيء أكثره ومعظمه ، كأنه أراد أنه صلى الله عليه وسلم لايقوم إلا لصلاة الفريضة) وكان رضي الله عنه من العلم وقوة النظر بحيث يستطيع أن يميز بين الحق والباطل منها .

وقد ذهب بعض المؤلفين المحدثين إلى أن عبدالله بن عمرو كان تلميذاً لكعب الأحبار ، وأنه استمد منه كثيراً من الاسرائيليات ، وأنه كان يجلس ويحدث الناس بحديث الزاملتين على أنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويطعن في حديثه الذي رواه البخاري وغيره « .. حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » ويدعي أن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة — وقد رواها البخاري عن عبد الله ابن عمرو — إنما هي حديث خرافة[1].

عبد الله بن عمرو ليس تلميذاً لكعب الأحبار :

وعبد الله بن عمرو ليس تلميذاً لكعب الأحبار ، فأستاذ عبد الله إنما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وماروي عن عبدالله من الاسرائيليات ليس مصدرها كعب ، لأن عبد الله نفسه كان يطلع على التوراة ، وقد عرفنا من قبل أنه تعلم السريانية ، وقد أصاب زاملتين من علوم أهل الكتاب يوم اليرموك ، وقد تتبعت كثيراً من كتب التفسير وكتب الحديث ، فما وجدت رواية لعبد الله بن عمرو عن

---

(١) أضواء على السنة المحمدية — لأبي رية ص ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٦٢ ، ٢١٦ .

كعب الأحبار، وقد رأيت خبراً واحداً لا يعدو رواية عنه، وهو مذكور في طبقات ابن سعد (٤: ٢٦٨). قال: التقى كعب الأحبار وعبد الله بن عمرو، فقال كعب: أتطير؟ قال: نعم. قال فما تقول؟ قال: أقول: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا رب غيرك، ولا حول ولا قوة إلا بك، فقال: أنت أفقه العرب، إنها لمكتوبة في التوراة كما قلت.. ودعاء التطير هذا نص حديث رواه عبـــد الله بن عمـرو عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذكره الامام أحمد في مسنده [1].

ويستدل صاحب كتاب أضواء على السنة المحمدية على أن عبد الله كان تلميذاً لكعب الأحبار بدليلين:

الأول: أن رجال الحديث ينصون في كتبهم على أن العبادلة الثلاثة وأبا هريرة ومعاوية وأنس بن مالك وغيرهم، قد رووا عن كعب الأحبار وإخوانه، ويذكرون في الهامش العبادلة الثلاثة، بأنهم عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو [2].

والذي يعرف لدى علماء الحديث أن العبادلة أربعة، وما رأينا في عباراتهم أنهم ثلاثة بل رأيناهم يقولون العبادلة الأربعة [3]، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في كتاب الاصابة [4] أنه روى عن كعب الأحبار من الصحابة ابن عمر وأبو هريرة وابن عباس وابن الزبير ومعاوية، فالعبادلة هنا ثلاثة ليس بينهم عبد الله بن عمرو

---

(١) ونص الحديث — كما رواه الامام أحمد — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك. قالوا يا رسول الله فما كفارة ذلك؟ قال: أن يقول: اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك) المسند ١٢: ١٠-١١.

(٢) أضواء على السنة المحمدية ص ١٢٠.

(٣) ذكر ابن الصلاح في مقدمته ص ٢٦٢ أن العبادلة من الصحابة يبلغون ٢٢٠ نفساً.

(٤) الاصابة ٥: ٣٢٣.

ابن العاص ، ولو فرضنا أنه وجد له رواية عن كعب ، فلا يمكن أن تدل بحال على مقام الأستاذية له ، ولعل الكاتب يجهل - أو يتجاهل - أن عبد الله نفسه كان يعرف السريانية مما ييسر عليه أن يطلع على مصادر الاسرائيليات كما يطلع كعب عليها .

الثاني : أن عبد الله بن عمرو ذكر صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ، ونقل الكاتب عن ابن كثير أن عطاء بن يسار وهو راوي الحديث عن عبد الله بن عمرو ، لقي كعباً فسأله فما اختلفا في حرف ، ويعلق أبو رية على ذلك بقوله : (وكيف يختلفان وكعب هو الذي علمه) .

وليس في الخبر ما يدل على أن كعباً علم عبد الله شيئاً ، فمجرد اتفاقهما في صفة النبي صلى الله عليه وسلم لا يدل على ذلك ، لأنه - كما قلنا - كان عبد الله يقرأ التوراة ، وقد قرأ هذا الوصف وعرف أنه وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما قرأه كعب الأحبار ، وكما قرأه عبد الله بن سلام الذي روى الدارمي نحوه عنه .

وقول الكاتب بأن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة خرافة ، إساءة أدب منه ، فقد غاب عنه قول الله تعالى : (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ... الآية [1]) وقد ذكر المفسرون أن معنى يجدونه ، أي يجدون نعته . وقد ذكر الكاتب ضمن قائمة المراجع التي اطلع عليها كتاب العهد القديم ، ولو أنه جشم نفسه قراءة التوراة ، كما قرأتها لوجد في سفر أشعياء إصحاح ٤٢ هذا الوصف مع اختلاف في بعض الألفاظ تبعاً لاختلاف الترجمة ، ثم إن للتوراة شروحاً وتعليقات ، لا يبعد أن يكون عبد الله قد اطلع عليها ، وأحاط بها علماً ، ولا ينبئك مثل خبير . وسوف نعرض ثلاث تراجم لنص هذا الوصف كما ذكرته التوراة :

---

(١) الآيتان ١٥٦ - ١٥٧ من سورة الأعراف .

الترجمة الأولى : ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواها له البخاري في صحيحه .

والثانية : الترجمة العربية للعهد القديم الذي بأيدينا .

والثالثة : ترجمة نقلها أحد علماء القرن العاشر الهجري [1] .

١ – روى البخاري في صحيحه عن عطاء عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن هذه الآية التي في القرآن (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهــداً ومبشراً ونذيراً [2]) قال في التوراة : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب بالأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله فيفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً) .

٢ – جاء في الاصحاح الثاني والأربعين من سفر أشعياء مانصه : (هو ذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي ، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم ، لايصيح ولايرفع في الشارع صوته ... إلى الأمان يخرج إلى الحق ، لايكل ولاينكسر حتى يضع الحق في الأرض ، وتنتظر الجزائر شريعته .. أنا الرب قد دعوتك بالبر فامسك بيدك ، وأحفظك ، وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم لتفتح عيون العمي ، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة) .

٣ – وجاء في كتاب المنتخب الجليل (ص ١٤٢) نقلاً عن أشعيا (عبدي الذي ترضى نفسي ، أعطيه كلامي ، فيظهر في الأمم عدلي ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك

---

(١) هو أبو الفضل المالكي من علماء القرن العاشر في كتابه المنتخب الجليل من تخجيل من حرف الانجيل .

(٢) من الآية ٤٥ من سورة الأحزاب .

ولا يصخب ، يفتح العيون العور ، ويسمع الآذان الصم ، ويحيي القلوب الميتة ، لا يضعف ، ولا يميل إلى الهوى ، ولا يذل الصالحين، بل يقوي الصديقين المتواضعين، وهو نور الله الذي لا يطفأ

فأنت ترى أن المعنى يكاد يكون متفقاً وإن اختلفت الألفاظ .

أما طعن الكاتب في حديث عبدالله: « وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » فطعن لا يستند إلى أساس ، لأن الحديث رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم ، ولم ينفرد عبد الله بروايته كما ذكره الكاتب نفسه .

والقرآن الكريم مملوء بالحديث عن بني إسرائيل، وفي كتب الصحاح كثير من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بني إسرائيل . وذلك لأن الحديث عن الأمم السابقة لا يخلو من عبر وعظات، والعلماء قديماً وحديثاً دأبهم أن ينظروا في كتب أهل الكتاب ليجادلوهم بالتي هي أحسن، وليقيموا عليهم الحجة على صحة الرسالة المحمدية بما يعتقدونه ، وقد قال الله تعالى : (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك[1]) .

ولم يكن عبد الله حينما يروي هذه الاسرائيليات التي استمدها من كتبهم ليكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيحدث الناس من الزاملتين، وينسب الحديث إليه كما يزعم الكاتب وكما سبقه إلى هذا الزعم بشر المريسي[2] . وقد كان أبورية غير أمين في نقله، فقد ذكر في كتابه (ص ١٦٣) نقلا عن فتح الباري (١ :

(١) الآية ٩٤ من سورة يونس .

(٢) انظر رد الدارمي على بشر ص ١٣٦ فقد ادعى بشر المريسي أن عبد الله بن عمرو كان يروي — يقصد أخبار الزاملتين — للناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يقال له: لا تحدثنا عن الزاملتين ، وهذا ادعاء باطل فقد ثبت أن ابن عمرو كان أميناً في نقله وروايته لا يحيل ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم على أهل الكتاب ، كما لا يحيل ما روى عن أهل الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم .

٢٦٦) أن عبد الله بن عمرو كان قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب وكان يرويها للناس عن النبي صلى الله عليه وسلم . فتجنب الأخذ عنه كثير من أئمة التابعين ، وكان يقال له: لاتحدثنا عن الزاملتين . فهرعت إلى فتح البـــاري وإذا بـه ــ شهد الله ــ خالياً من عبارة (عن النبي) إنما زادها هو من عنده ، تدليساً على ابن حجر و كذباً عليه حتى توافق هواه ويتخذ منها شاهداً على صدق دعواه.

ولأبي رية سابقة في تحريف النصوص التي ينقلها ، فقد نقل في صفحة ١١٥ من كتابه (أضواء على السنة) عن ابن كثير في البداية والنهاية (٨ : ١٠٦) أن عمر رضي الله عنه قال لكعب الأحبار : لتتركن الحديث عن رســـول الله ، أو لالحقنك بأرض القردة . وعبارة ابن كثير لتتركن الحديث (عن الأول)وليس فيها (عن رسول الله)ولكن أمانة أبي رية أجازت له تحريف هذا النص ، ليثبت ما ادعاه من أن عمر كان ينهاه عن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالتالي يثبت عدم كونه ثقة فيما يرويه من ذلك . فهل تكذيب الصحابة والافتراء عليهم والانتحال على العلمـــاء أمثال ابن حجر وابن كثير وغـــيرهما من الأمانة العلمية . ثم أن عبد الله رضي الله عنه كان يميز في جلساته العلمية بين الحديث النبوي وبين أخبار أهل الكتاب كما قلنا ، وقد شهدت له السيدة عائشة رضي الله عنهــــا بقولها : (والله لقد حفظ عبد الله أراه مازاد ولا نقص) ولم يعرف من تاريخه أنه اختلط في أي فترة من فترات حياته ، فإذا كان بعض الوضاعين يتقولون عنه ما لم يقله فما ذنبه هو ؟

روى الإمام أحمد في مسنده عن يعقوب بن عاصـــم بن عروة بن مسعود الثقفي قال : سمعت رجلاً قال لعبد الله بن عمرو : إنك تقول إن الساعة تقوم إلى كذا .و كذا ..؟ قال : لقد هممت ألا أحدثكم شيئاً، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً [١] .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله الديلمي قـال : دخلت على عبد

(١) المسند للإمام أحمد . مسند عبد الله بن عمرو « ٦٠٨٣:٦٠ » .

الله بن عمرو وهو في حائط له بالطائف يقال له الوهط، فقلت : بلغني عنك حديث (كذا) فقال عبد الله بن عمرو: إني لا أحل لأحد أن يقول عليّ مالم أقل[1].

فإذا كان يحدث هذا في حياة عبد الله ، فما بالك بعد وفاته وبخاصة أنه لم يكن مع الحكام الأمويين على وفاق، بل كانوا يكرهونه ويسيئون إليه فلا يبعد أن يكون كثيرمن هذه الاسرائيليات مدسوساً عليه ، والحمد لله الذي قيض رجال السنن فمازوا الخبيث من الطيب ، ولم أر في كتب السنة مروياً عنه إلا النزر اليسير جداً مما يصح أن يطلق عليه إسرائيليات، كحديث مسلم في مقدمته : (إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان توشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآناً) والموجود في كتب التاريخ منها مروياً عنه ،إمامبتور الأسانيد فيكون محلاللشك، أو ضعيفاً فيكون موجباً الرفض .

د ــ عبد الله بن سلام .

هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ، ثم الأنصاري ، يكنى أبا يوسف ، وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، كان حليفاً للأنصار وكان اسمه في الجاهلية « الحصين » فلما أسلم سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، وتوفي في المدينة في خلافة معاوية سنة ٤٣ هـ ، وهو أحد الأحبار ، أسلم إذ قدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة [2]. روى البخاري عن سعد بن أبي وقاص أنه قال : ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة ، إلا لعبد الله بن سلام وقال : فيه نزلت هذه الآية (وشهد شاهد من بني إسرائيل [3] . .) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه ابناه :

---

(١) المسند « ١٠ : ١٦٨ » .

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر « ٣ : ٩٢١ » .

(٣) الآية ١٠ من سورة الأحقاف .

يوسف ومحمد ، وعوف بن مالك ، وأبو هريرة ، وأبو بردة بن أبي موسى ، وعطاء ابن يسار ، وغيرهم .

اشتهر عبد الله بن سلام بين الصحابة بالعلم، حتى لقد روي أنه لما حضر معاذ ابن جبل الموت ، قيل له: يا أبا عبد الرحمن أوصنا ، فقال: أجلسوني .. قال: إن العلم والإيمان عند أربعة رهط : عند عويمر أبي الدرداء ، وعند سلمان الفارسي ، وعند عبد الله بن مسعود ، وعند عبد الله بن سلام الذي كان يهودياً فأسلم ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه عاشر عشرة في الجنة » .

وليس عجيباً أن يكون عبدالله بن سلام في هذه المكانة العالية من العلم؛ بعد أن اجتمع لديه علم التوراة وعلم القرآن [1] ،وبعد أن امتزجت فيه الثقافتان ، اليهودية والإسلامية ، ولقد نقل عنه المسلمون كثيراً مما يدل على علمه بالتوراة وما حولها ، ونجد ابن جرير الطبري ينسب إليه في تاريخه كثيراً من الأقوال في المسائل التاريخية الدينية ، كما نجده يتجمع حول اسمه كثير من المسائل الإسرائيلية ، يرويها كثير من المفسرين في كتبهم ، ونحن أمام ما يروى عنه من ذلك ، لا نزيف كل ماقيل ولا نقبل كل ما قيل ، بل علينا أن نعرض كل ما يروى عنه على مقياس الصحة المعتبر في باب الرواية ، فما صح قبلناه وما لم يصح رفضناه (.. هذا وإنا لا نستطيع أن نتهم الرجل في علمه؛ ولا في ثقته وعدالته بعد ما علمت أنه من خيار الصحابة وبعد ما جاء فيه من آيات القرآن الكريم وبعد أن اعتمده البخاري وغيره من أهل الحديث ، كما أننا لم نجد من أصحاب الكتب التي بين أيدينا من طعن عليه في علمه أو نسب إليه من التهم مثل ما نسب إلى كعب الأحبار ووهب بن منبه[2] ، اللهم إلا ما كان من أبي رية،

---

(١) روى الذهبي في تذكرة الحفاظ « ١ : ٢٧ » عن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني قرأت القرآن والتوراة فقال : (اقرأ هذا ليلة وهذا ليلة) .

(٢) انظر تهذيب التهذيب « ٥ : ٢٤٩ » ، وأسد الغابة « ٣ : ١٧٦ — ١٧٧ » ، وانظر التفسير والمفسرون « ١ : ١٨٦ — ١٨٧ » .

وأضرابه ممن شُغِفوا بالطعن على كل من روى إسرائيليات من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتابعيهم .

هـ ـ تميم الداري .

هو تميم بن أوس الداري ، من نصارى اليمن . أسلم سنة تسع من الهجرة ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم [1] ، وروى عنه : ابن عمرو ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، وأنس بن مالك ، وزرارة بن أوفى ، وروح بن زنباع ، وعبد الله ابن وهب ، وعطاء بن يزيد ، وشهر بن حوشب ، وغيرهم . قال قتادة : كان من علماء أهل الكتابين ، وقال ابن سيرين : كان يختم في ركعة [2] .

وهو أول من أسرج السراج في المسجد وأول من قص وذلك في عهد عمر [3] ، وروت لنا كتب الصحاح أن تميماً ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم قصة الجساسة ، فحدث النبي صلى الله عليه وسلم عنه بذلك ؛ وعد ذلك من مناقبه [4] ، وقد طعن بعض المؤلفين المحدثين في حديث الجساسة ؛ فزعم أن الحديث من مفتريات تميم الداري الذي حاول أن يلوث الدين الاسلامي بإدخال المسيحيات فيه ، كما حاول أن ينشر الفتنة ويشعل نار البغضاء بين المسلمين [5] . وقد استدل المؤلف على صدق دعواه بكلام نقله عن الشيخ رشيد رضا ؛ ويتلخص فيما يلي :

---

(١) روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية عشر حديثاً : روى لمسلم حديثاً واحداً ، وروى عنه بقي الستة إلا البخاري (انظر دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لمحمد بن علان الصديقي ص ٢٥٨ وما بعدها) .

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر « ١ : ٥١١ - ٥١٢ » .

(٣) الإصابة « ١ : ١٩١ » طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٢٣ هـ .

(٤) وهذه منقبة شريفة تدخل في رواية الأكابر عن الأصاغر .

(٥) انظر أضواء على السنة المحمدية لأبي رية «ص ١٤٠» وما بعدها .

١ ـ إن سكوت النبي صلى الله عليه وسلم لا يدل على صدق القصة ، وإن مثل هذا السكوت لا يدخل تحت التقرير .

٢ ـ إن تصديق الكاذب فيما لا يخل بأمر الدين ولا يترتب عليه حكم شرعي أمر جائز على الأنبياء[١] .

والرد على ذلك نقول :

١ ـ إن حديث الجساسة رواه الإمام مسلم في صحيحه[٢] ورجاله ثقات عدول لا مطعن في واحد منهم ، وقد رواه غير مسلم : الإمام أحمد ، وأبو يعلى ، وأبو داود ، وابن ماجه . ورواه غير فاطمة بنت قيس من الصحابة : أبو هريرة ، وعائشة ، وجابر ، رضوان الله عليهم ، فالحديث لم ينفرد به الإمام مسلم ولا انفردت بروايته فاطمة بنت قيس ، وقد عتبر الأئمة رواية النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عن تميم رضي الله عنه من مناقبه .. قال الحافظ ابن حجر في الإصابة في ترجمته : (مشهور في الصحابة ، كان نصرانياً وقدم المدينة فأسلم ، وذكر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قصة الجساسة والدجال ، فحدث النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه بذلك على المنبر ، وعُدّ ذلك من مناقبه[٣]) . ثم نقل عن أبي نعيم أنه قال : كان راهب أهل عصره وعابد أهل فلسطين ، وكان كثير التهجد بالليل ، قام ليلة بآية حتى أصبح . وهي قوله تعالى : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات .. الآية[٤]) .

ومن مناقبه ما ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة أيضاً ـ وذلك عند ترجمة معاوية بن حرمل وكان مع مسيلمة الكذاب في الردة ثم قدم على عمر تائباً .. قال : (أخرج البغوي من طريق الجريري عن أبي العلاء عن معاوية بن حرمل قال :

---

(١) مجلة المنار «٩ : ٩٩٤ - ١٠٠٠» وانظر أضواء على السنة المحمدية «ص ١٤٢ - ١٤٣» .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب قصة الجساسة «٤ : ٢٢٦١» .

(٣) الإصابة «١ : ١٩٦» ط مطبعة السعادة سنة ١٣٢٣ هـ .

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر «١ : ١٩٦» ط مطبعة السعادة .

قدمت على عمر ، فقلت يا أمير المؤمنين تائب من قبل أن يُقدر عليّ ، فقال : من أنت؟ فقلت : معاوية بن حومل ختن مسيلمة، قال : اذهب فانزل على خير أهل المدينة ، قال : فنزلت على تميم الداري ، فبينا نحن نتحدث إذ خرجت نار بالحرة ، فجاء عمر إلى تميم فقال : يا تميم ، اخرج ، فقال وما أنا ؟ وما تخشى أن تبلغ من أمري ؟ فصغر نفسه ، ثم قام فحاشها حتى أدخلها الباب الذي خرجت منه ، ثم اقتحم في أثرها ، ثم خرج فلم تضره [1]) أهـ . وهذه الحادثة تدل على كرامة تميم رضي الله عنه . وعمر رضي الله عنه — وهو العبقري الملهم — ما كان ليخفى عليه حال تميم ومنزلته من الصلاح والاستقامة والإخلاص ، وهو القائل : (لست بخب والخب لا يخدعني) فكيف يجوز في العقول أن يرمى مثل هذا بالكذب والدس والإفساد في الدين ؟ !!

٢ — أما دعواه أن هذا لا يدخل تحت التقرير فممنوع ، قال الحافظ ابن حجر في الفتح : (وقد اتفقوا على أن تقرير النبي صلى الله عليه وسلم لما يفعل بحضرته ، أو يقال ويطلع عليه بغير إنكار، يدل على الجواز لأن العصمة تنفي عنه ما يحتمل في حق غيره مما يترتب على الإنكار فلا يقر على باطل [2]) أهـ

٣ — وأما دعواه أن هذا ليس من أمور الدين التي يعصم الأنبياء فيها عن تصديق الكاذب ، فهو ممنوع أيضاً ، إذ كيف لا يعتبر الإخبار بأشراط الساعة من أمور الدين ؟ ولو كان ما حدث به تميم كذباً لما سكت الوحي عن بيان الحق فيما أخبر به ، كما حدث في كثير من الأحيان حينما كان المنافقون وأضرابهم يقولون خلاف ما يبطنون ، فينزل الوحي فاضحاً لهم ومبيناً كذبهم .

٤ — وقد سبق أن ذكرنا عند الكلام عن أقسام الإسرائيليات بأن هذا

---

(١) الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر « ١ : ١٧٧ » ط المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٥ هـ .

(٢) فتح الباري « ١٣ : ٢٧٥ » ط المطبعة البهية المصرية ١٣٥٢ هـ .

الحديث من الإسرائيليات الصحيحة المقبولة التي ينبغي تصديقها لموافقتها ماجاء في شرعنا، يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال » ، وقد روي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن الجساسة هي دابة الأرض المذكورة في قوله تعالى : (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم .... الآية[1]) .

٥ — ونختم ردنا على أبي رية بكلمة طيبة للشيخ أحمد شاكر ينعى عليه فيها وعلى أستاذه الشيخ رشيد رضا تشكيكهم في أحاديث وردت في الصحيحين . يقول رحمه الله :

(لم نر فيمن تقدمنا من أهل العلم من اجترأ على ادعاء أن في الصحيحين أحاديث موضوعة ؛ فضلاً عن الإيهام والتشنيع الذي يطويه كلامك — يقصد أبا رية — فيوهم الأغرار أن أكثر ما في السنة موضوع ! هذا كلام المستشرقين . غاية ماتكلم فيه العلماء نقد أحاديث فيها بأعيانها لا بادعاء وضعها — والعياذ بالله — ولا بادعاء ضعفها ، وإنما نقدوا عليها أحاديث لاتبلغ في الصحة الذروة العليا التي التزمها كل منها ، وهذا مما أخطأ فيه كثير من الناس ومنهم أستاذنا السيد رشيد رضا رحمه الله[2]) .

موقف التابعين من الإسرائيليات

ذكرنا أن الاسرائيليات قد بدأ دخولها في التفسير في عهد الصحابة رضوان الله عليهم ، وبينا دوافع ذلك وأسبابه ، كما بينا مبلغ رجوع الصحابة إلى أهل الكتاب وأخذهم عنهم ، وقلنا إنه كان في دائرة محدودة ضيقة ، وقد بين نجم الدين

---

(١) من الآية ٨٢ من سورة النمل ، وانظر صحيح مسلم بشرح النووي، بتعليق محمد فؤاد عبد الباقي « ٤ : ٢٢٦١ » .

(٢) المسند « ١٢ : ١٢٢ » وما بعدها ، تعليق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله .

الطوفي في كتابه (الاكسير في قواعد علم التفسير) سبب تضخم التفسير بالاسرائيليات في عهد التابعين واختلاف أقوالهم في تفسير الآية الواحدة بقوله : (ثم تفرق الصحابة رضي الله عنهم بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم في البلاد ، ونقلوا ما علموه من التفسير إلى تابعيهم ، وليس كل صحابي علم تفسير جميع القرآن بل بعضه ، إذ الجامعون للقرآن على عهده صلى الله عليه وسلم كانوا نفراً معدودين ، وشرذمة قليلين ، فألقى الصحابي ذلك البعض إلى تابعه ، ولعل ذلك التابعي لم يجتمع بصحابي آخر يكمل له التفسير ، أو اجتمع بمن لا زيادة عنده على ما عند الصحابي الذي أخذ عنه ، فاقتصر عليه وشرع يكمل تفسير القرآن باجتهاده استنباطا من اللغة تارة ، ومن السنة أخرى ، ومن نظير الآية المطلوب تفسيرها من القرآن أخرى ، ومن مدارك أخر رآها صالحة لأخذ التفسير منها ، كالتاريخ ، وأيام الأمم الخالية ، والاسرائيليات ونحوها ، فاتسع الخرق وكثر الدخل في التفسير ، حتى آل الأمر إلى الأقوال الكثيرة ، تفعل كل طبقة من المفسرين ، كفعل التي قبلها من زيادة الوجوه والاختيارات كما تراهم يصرحون به في تفاسيرهم ، وينسبون الأقوال إلى آرائهم ومذاهبهم[1]) .

كذلك يرجع سبب تضخم التفسير بالاسرائيليات في عهد التابعين إلى كثرة من دخل من أهل الكتاب في الاسلام، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية ، كما يرجع إلى كثرة الوضع ونشاط القصاص في هذا المضمار ، فقد وجدنا في كتب التفسير أمثلة على هذا القصص لا حصر لها معزوة إلى بعض التابعين، أمثال قتادة، ومسروق، ومجاهد، وكعب، ووهب وعكرمة ، والحسن، والضحاك ، وسعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم، وعطاء ، وطاووس، وغيرهم . وهذه القصص التي نسبت إليهم فيها كثير من الإغراب والمبالغة والخيال ، والبعد عن المنطق والعقل والإمكان .

---

(١) الاكسير في قواعد علم التفسير لنجم الدين سليمان بن عبد القوي الطوفي البغدادي (مخطوطة مصورة في المكتبة الأزهرية ورقة ٤ نمرة ٦٣٩ علوم القرآن) .

ومن الأمثلة على ذلك مارواه عكرمة في تفسير الرعد ، قال : ملك في السحاب يجمع السحاب كما يجمع الراعي الإبل ، فيؤلف بينه ، فـذلك الصوت تسبيحه [1] أ هـ . وهذا يتعارض مع الحقائق العلمية في سبب نشوء الرعد .

ومن ذلك ماروى ، عن السدي عن زيد بن أسلم في سياق المناظرة بين إبراهيم عليه السلام والملك نمرود ، وهذه القصة قد وردت في تفسير مقاتل [2] ، كما وردت في تفسير ابن كثير [3] . وفيها أن الله سلط البعوض على النمرود ، وجنوده وقت طلوع الشمس ، فلم يروا عين الشمس ، وسلطها عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم ، وتركتهم عظاما بادية ، ودخلت واحدة منها منخري الملك ، فمكثت فيه أربعمائة سنة يعذبه الله بها ، حتى كان يضرب رأسه بالمرزبة [4] في هذه المدة ، ثم أهلكه الله بها .

* * *

(١) تفسير الطبري ١٣ : ١٦٦ ، الطبعة الأميرية .

(٢) انظر تفسير مقاتل للآية ٢٥٨ — من سورة البقرة (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ... الآية) .

(٣) انظر تفسير ابن كثير للآية (٢٥٨ من سورة البقرة) .

(٤) المرزبة : عصية من حديد .

من اشتهر برواية الإسرائيليات

من التابعين

والذين رووا الاسرائيليات من التابعين كثيرون ، وسنكتفي فيما يلي بالترجمة لاثنين منهم ، وهما كعب الأحبار ووهب بن منبه ، ممن يدور حولهما أغلب ما يروى من الإسرائيليات في كتب التفسير :

١ — كعب الأحبار :

هو أبو إسحاق ، كعب بن ماتع بن هيسوع الحميري ، وأصله من يهود اليمن ، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم في خلافة أبي بكر أو عمر ، وقيل في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، والراجح أن إسلامه كان في خلافة عمر رضي الله عنه ، وكعب هذا يقال له : كعب الأحبار ، وكعب الحبر [١] ؛ نظراً لثراء معلوماته ، فقد كان من أحبار اليهود ، ومن أوسعهم اطلاعاً على كتبهم ، وكان من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، أسلم سنة اثنتي عشرة من الهجرة في زمن عمر رضي الله عنه ، وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل الشام ، وقال : كان على دين يهود فأسلم وقدم المدينة ، ثم خرج إلى الشام ، فسكن حمص حتى توفي بها سنة اثنتين وثلاثين في خلافة عثمان ، وقد بلغ مائة وأربعين سنة .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية تحت مادة — كعب الأحبار ص ٥٨٢ — الترجمة الإنجليزية ، وانظر دائرة المعارف اليهودية .

وأخرج ابن سعد بسند حسن عن سعيد بن المسيب قال : قال العباس لكعب : مامنعك أن تسلم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ؟ قال : إن أبي كان كتب لي كتاباً من التوراة ، فقال : اعمل بهذا ، وختم على سائر كتبه ، وأخذ عليّ بحق الوالد على الولد ألا أفض الختم عنها ، فما رأيت ظهور الإسلام ، قلت : لعل أبي غيّب عني علماً ، ففتحتها ، فإذا صفة محمد وأمته فجئت الآن مسلماً [1] .

ذكر أبو الدرداء كعباً ، فقال : إن عند ابن الحميري لعلماً كثيراً . وروى معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير أنه قال : قال معاوية . ألا إن أبا الدرداء أحد الحكماء ، ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء ، إنْ كان عنده لعلم كالبحار ، وإن كنا فيه لمفرطين .

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً ، وعن عمر وصهيب وعائشة . وروى عنه من الصحابة ابن عمر ، وأبو هريرة ، وابن عباس ، وابن الزبير ، ومعاوية ، ومن كبار التابعين أبو رافع الصائغ ، ومالك بن عامر ، وسعيد بن المسيب وعطاء ، وعبد الله بن رباح الأنصاري ، وآخرون [2] .

طعن بعض المعاصرين فيه ، وتفنيد ذلك .

اتفقت كلمة نقاد الحديث على توثيق كعب ، ولذا لانجد له ذكراً في كتب الضعفاء ، والمتروكين ، وترجم له النووي في تهذيبه وقال : (اتفقوا على كثرة علمه وتوثيقه) وأخرج له الشيخان في الصحيح وكذا باقي أصحاب الكتب الستة [3] . ومع ثناء العلماء عليه وتوثيق النقاد له ، نجد بعض المعاصرين

---

(١) الإصابة « ٥ : ٣٢٣ » المطبعة الشرقية .

(٢) الإصابة « ٥ : ٣٢٣ » ، وانظر تهذيب التهذيب « ٨ : ٤٣٩ » .

(٣) تذكرة الحفاظ « ١ : ٥٢ » ، ومقالات الكوثري ص ٣٢ .

يطعنون في كعب بأنه أسلم نفاقاً ليحكي يخدع المسلمين فيصدقوا مايرويه من إسرائيليات يشوه بها دينهم ، وأنه كان يكذب في الأخبار ، وأن له يداً في مقتل عمر رضي الله عنه ... الخ مازعموا .

ونسوق إليك أولاً اتهام هؤلاء القوم ثم نفند هذا الاتهام :

قال السيد رشيد رضا : (كعب الأحبار الذي أجزم بكذبه ، بل لا أثق في إيمانه [1]) . وقال : (فلتنظر كيف تسلسل انخداع الناس بروايات كعب الكذاب ، وجعلوا دينها على كتب اليهود لا عينه ، وأكثرها لا ذكر لها في كتبهم ، وإنما هو الذي افتراها تشويهاً للإسلام [2]) . وقال : ثم ليعلم أن شر رواة هذه الإسرائيليات أو أشدهم تلبيساً وخداعاً للمسلمين هذان الرجلان : كعب الأحبار ووهب بن منبه [3]) .

وقال : (كعب الأحبار الذي أدخل على المسلمين شيئاً كثيراً من الإسرائيليات الباطلة المخترعة ، وخفي على كثير من المحدثين كذبه ودجله لتعبده [4]) .

وقال مستشهداً بما جاء في صحيح البخاري عن معاوية في شأن كعب : (إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب [5]) : (إن قول معاوية أن كعباً كان من أصدق المحدثين عن أهل الكتاب ، وإنهم مع ذلك اختبروا عليه الكذب ، طعن صريح في عدالته وفي عدالة جمهور رواة الإسرائيليات إذ ثبت كذب من يعد من أصدقهم [6]) .

---

(١) مجلة المنار الجزء التاسع مجلد ٢٧٥ : ٦٩٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٠١ .

(٣) مجلة المنار ج ١٠ م ٢٧ : ص ٧٨٣ .

(٤) تفسير المنار ٨ : ٤٤٩ .

(٥) البخاري من كتاب التوحيد ١٣ : ٢٥٩ من فتح الباري .

(٦) مجلة المنار ج ١ م ٢٦ ص ٧٦ — ٧٧ .

وغمز المحدثين ورماهم بالتقصير وقلة الاطلاع والاغترار بكعب لتوثيقهم إياه .. فقال : (إن قدماء رجال الجرح والتعديل اغتروا بهما - يقصد كعباً ووهباً - وعدلوهما، فكيف لو تبين له - يقصد ابن تيمية - ماتبين لنا من كذب كعب ووهب ، وعزوهما إلى التوراة وغيرها من كتب الرسل ، ماليس فيهما شيء منه ولا حومت حوله[1]) وقال : (ولو علم أولئك - يقصد الإمام أحمد ، وابن معين ، والبخاري ومسلم ، ممن وثقوا كعباً ووهباً ماعلم هؤلاء - يقصد ابن تيمية وابن حزم وابن كثير - من ذلك ، لجزموا بأن وهباً كان كذاباً غاشاً للمسلمين بصلاحه ولم يقبلوا له رواية قط[2]) .

وقال أيضاً : (رواية كعب عن التوراة من وصف النبي صلى الله عليه وسلم كذب على التوراة أيضاً ومثلها كان يخدع المسلمين ، ولو كانت هذه العبارة[3] في التوراة لرواها من أسلم على يدي النبي صلى الله عليه وسلم من أحبار اليهود كعبد الله بن سلام وجماعته ولنقلت بالتواتر ، ولكان لها شأن عظيم ، إذ لا يمكن للمعاندين تأويلها كما أولوا البشارات غير الصريحة بهذا المقدار[4]) .

ثم ذكر أن رجال الحديث عنوا بنقد السند أكثر من المتن ، فقال : (وأما تمحيص متون الروايات وموافقتها أو مخالفتها للحق والواقع والأصول أو الفروع الدينية القطعية أو الراجحة وغيرها فليس من صناعتهم، ويقل الباحثون فيه منهم، ومن تعرض له منهم كالإمام أحمد والبخاري لم يوفه حقه ، ومن هذا القبيل حكاية بعض الرواة ككعب الأحبار ووهب عن كتب بني إسرائيل لم يكن يحيى بن معين وأحمد وأبو حاتم وابنه وأمثالهم يعرفون ما يصح من ذلك وما لا يصح لعدم

---

(١) تفسير المنار « ٩ : ٩ » .

(٢) مجلة المنار مج ٩ ، ٢٦ ص ٧١٩ .

(٣) وهي : محمد رسول الله ، عبدي المختار ، مولده بمكة ، ومهاجره المدينة ، وملكه بالشام .

(٤) مجلة المنار مج ٧ ، ٢٧ ص ٤٤٤ .

اطلاعهم على تلك الكتب وعدم ظهور دليل على كذب الرواة المتقنين للكذب فيما يعزونه إليها[1]) .

ثم ذكر أن لها ضلعاً في مؤامرة مقتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فقال .. (بعد أن ساق رواية عن وهب في وصفه الثعبان الذي تحولت إليه عصا موسى .. (ومثله عندي – يقصد وهباً – كعب الأحبار الإسرائيلي ، كلاهما كان تابعياً كثير الرواية للغرائب التي لا يعرف لها أصل منقول ولا معقول ، وقومهما كانوا يكيدون للأمة الإسلامية العربية التي فتحت بلاد الفرس ، وأجلت اليهود من الحجاز ، فقاتل الخليفة الثاني فارسي مرسل من جمعية سرية لقومه ، وقتلة الخليفة الثالث كانوا مفتونين بدسائس عبد الله بن سبأ اليهودي ، وإلى جمعية السبئين وجمعيات الفرس ترجع جميع الفتن السياسية وأكاذيب الرواية في الصدر الأول[2]) .

وقال في موضع آخر : (وبعد هذا كله أقول : إذا ثبت ما حررناه كذب الرجل بما ذكر ، فلا يبقى مجال للشك في أنهما كانا يغشان المسلمين ويدخلان في كتبهم الريب ورواياتهم ما يقتضي الطعن في دينهم ، وحينئذ لا يبقى محل لاستغراب اشتراكهما في تلك الجمعيات اليهودية والمجوسية التي كانت تكيد للاسلام والعرب[3]) .

ويوضح هذا المعنى – أي إشتراك كعب في مؤامرة قتل عمر رضي الله عنه – الدكتور أحمد أمين مستدلاً بما رواه ابن جرير الطبري في تاريخه[4] فيقول : .. (وقد لاحظ بعض الباحثين أن الرواة الثقات كابن قتيبة والنووي لا يروون عنه أبداً ، وابن جرير الطبري يروي عنه قليلاً ، ولكن غيرهم كالثعلبي والكسائي

(١) مجلة المنار « ج ٨ م ٢٧ » .

(٢) تفسير المنار « ٩ : ٤٤ – ٤٥ » .

(٣) مجلة المنار « م ٢٧ ج ٨ ص ٦١٩ » .

(٤) تاريخ الطبري « ٥ : ١٩١ » .

ينقل عنه كثيراً من قصص الأنبياء كقصة يوسف والوليد بن الريان وأشباه ذلك.
ويروي ابن جرير أنه جاء إلى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام وقال له : اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام ، قال : وما يدريك ؟ قال أجده في كتاب الله عز وجل في التوراة . قال عمر : إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ قال : اللهم لا ، ولكن أجد صفتك وحيتك وأنه قد فني أجلك . وهذه القصة إن صحت دلت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر ثم وضعها هو في هذه الصيغة الإسرائيلية، كما تدلنا على مقدار اختلاقه فيما ينقل ، وعلى الجملة فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم في عقيدتهم وعلمهم كثير كان له فيهم أثر غير صالح[1]) .

ويقول الدكتور جواد علي :

(ولكن جمهرة من المحققين ارتابت من هـــذا القول – توثيق كعب ووهب – وشكت في أكثره ، والواقع أن أكثر ماروي عن هؤلاء من أخبار وأقوال يشير إلى أنهم لم يكونوا على نحو ماقيل عنهم من العلم،وأنهم لم يكونوا أصحاب علم بالتوراة،وإن بعضهم تآمر على الخلفاء بينما كان يتظاهر بخلاف ذلك[2]) .

تفنيد هذه الاتهامات

١ – نبدأ الرد بذكر قاعدة من قواعد الجرح والتعديل وهي أن (من الوجوه التي يعرف بها ثقة الراوي ، تخريج أحد الشيخين له في الصحيح وإن تكلم في بعض من خرج له فلا يلتفت إليه) .

وكعب أخرج له الشيخان في صحيحيهما ، وكذا باقي أصحاب الكتب

---

(١) فجر الاسلام ص ١٦١ .

(٢) مقال في مجلة الرسالة العدد ٧٥٧ ، ٢٣ من صفر سنة ١٣٦٧ هـ ٥ من يناير سنة ١٩٤٨ السنة السادسة عشرة مجلد سنة ١٩٤٨ ص ٢٦ تحت عنوان عبد الله بن عباس للدكتور جواد علي .

الستة ، وهذا دليل على أنه كان ثقة عند هؤلاء جميعاً ، وتلك شهادة كافية لرد كل تهمة تلصق بهذا الحبر الجليل .

٢ — اتهام كعب بالكذب وتعمد الدس والوضع استناداً إلى حديث البخاري الذي رواه عن معاوية بقوله : (إنه كان من أصدق هؤلاء المحدثين وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب) غير مسلم وإن كان ظاهر كلام معاوية رضي الله عنه ، يخدش كعباً في بعض مروياته ، لكنه لايدل على أنه كان وضاعاً كذاباً كما ستبين ذلك ، ولو تأملنا كلام معاوية لوجدناه في حقيقة الأمر توثيقاً لكعب وثناء عليه بأنه أصدق المحدثين عن أهل الكتاب ، وإن كان في بعض تلك الأخبار التي ينقلها مالا يطابق الواقع ، فالكذب حينئذ مضاف إلى تلك الكتب التي ينقل عنها لا إلى كعب ، وما أشبه قول معاوية (وإن كنا لنبلو عليه الكذب) بقول ابن عباس : (بدّل مَنْ قبله فوقع في الكذب) ثم إن معاوية الذي قال هذا القول ، روينا عنه فيما سبق أنه قال : (ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء ، إن كان عنده علم كالبحار وإن كنا فيه لمفرطين) فمعاوية قد شهد لكعب بالعلم وغزارته وحكم على نفسه بأنه فرط في علم كعب ، فهل يعقل أن معاوية يشهد هذه الشهادة لرجل كذاب ؟ ومعاوية — كما هو معروف عنه — داهية لاتخفى عليه الرجال ولا دسائسهم ، كما أنه لايخشى كعباً ، ولا يعقل أن يتملقه ، ولو يعلم فيه أكثر من ذلك لقاله .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح في شرح هذه العبارة : (وإن كنا لنبلو عليه الكذب) أي يقع بعض مايخبرنا عنه بخلاف مايخبرنا به . قال ابن التين : وهذا نحو قول ابن عباس في حق كعب المذكور : بدل من قبله فوقع في الكذب ، قال : والمراد بالمحدثين في قوله : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب أنداد كعب ممن كان من أهل الكتاب وأسلم ، فكان يحدث عنهم ، وكذا من نظر في كتبهم فحدث عما فيها قال : ولعلهم كانوا مثل كعب ، إلا أن كعباً كان أشد منهم بصيرة وأعرف بما يتوقاه . وقال ابن حبان في

كتاب (الثقات): أراد معاوية أنه يخطىء أحياناً فيما يخبره، ولم يرد أنه كان كذاباً . وقال غيره : الضمير في قوله (لنبلو عليه) الكتاب ، لا كعب ، وإنما يقع في كتابهم الكذب لكونهم بدلوه وحرفوه . وقال القاضي عياض : يصح عوده على الكتاب ويصح عوده على كعب وعلى حديثه وإن لم يقصد الكذب ويتعمده، إذ لا يشترط في مسمى الكذب التعمد ، بل هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه ، وليس فيه تجريح لكعب بالكذب ، وقال ابن الجوزي: المعنى أن بعض الذي يخبر به كعب عن أهل الكتاب يكون كذباً ، لا أنه يتعمد الكذب ، وإلا فقد كان كعب من أخيار الأحبار[1] أهـ .

وقال الحافظ ابن كثير في تأويل الحديث : (.. يعني فيما ينقله، لا أنه كان يتعمد نقل ماليس في صحفه ، ولكن الشأن في صحفه أنها كانت من الإسرائيليات التي غالبيتها مبدّل مصحّف محرّف مختلق[2]) .

ولا يغرب عن بالنا أن ابن الجوزي صاحب ملكة في النقد ، وكان حرباً على الوضاعين ، فلو كان يرى في كعب أنه كان وضاعاً دساساً لما تردد في تجريحه، ولما حمل كلمة معاوية على هذا المحمل الحسن .

٣ ـ لا ينكر أن الكثير من الإسرائيليات دخلت في الإسلام عن طريق أهل الكتاب الذين أسلموا ، وأنهم نقلوها بحسن نية ، ولكن الذي لا يسلم به الباحث أن يكون كعب ووهب وأضرابهما ـ ممن أسلموا ، وحسن إسلامهم ـ غرضهم الدس والاختلاق والإفساد في الدين ، وابن خلدون لما عرض في مقدمته لمادخل التفسير بالمأثور من الإسرائيليات؛ لم يرم مسلمة أهل الكتاب بالدس والوضع ـ كما صنع صاحب المنار وغيره ـ وإنما جعلهم مصدراً لنقل هذه الإسرائيليات إلى العرب ، وهذا شأن الباحث المنصف ، لا الطاعن المتحامل .

---

(١) فتح الباري « ٢٥٩:١٣ ـ ٢٦٠ » .

(٢) تفسير ابن كثير « ١٠١:٣ » .

ثم إن أخبار بني إسرائيل ليست تعبدنا الله بها ، ولم تلزم بالتحري في نقلها إلزامنا بنقل الأحاديث الإسلامية ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « .. حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ؛ فإنكم لا تحدثون عنهم شيئاً إلا وقد كان فيهم أعجب منه » . فأي وزر على من بلغه هذا الحديث فحدث بأخبار بني إسرائيل على علاتها كما قرأها وسمعها مادام لم يرد في ديننا ما يمنع من ذلك ، ولم تصادم أصلاً من أصوله ، وإلا كانت مردودة .

٤ – ما رمى به صاحب المنار المحدثين بالتقصير والاغترار بكعب وعنايتهم بالسند دون المتن ، غير مسلم له أيضاً ، فلقد كان لجهابذة الحديث ونقاده جهد مشكور في الكشف عن هذه الإسرائيليات وتمييز صحيحها من باطلها وغثها من سمينها ، وما من رواية من روايات كعب إلا ونقدوها نقداً علمياً نزيهاً ، ولقد بلغ من تحوط أئمة الحديث البالغ الغاية أنهم قالوا : إن قول الصحابة فيما لا مجال للرأي فيه إنما يكون له حكم الرفع إذا لم يكن الصحابي معروفاً بالأخذ عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، فأما إذا كان معروفاً بالأخذ عنهم فلا ، لجواز أن يكون من الإسرائيليات . وهذا تحوط يدل على أصالة في النقد وبعد نظر محمود من من المحدثين ، وإن ما وضعه المحدثون من قواعد لنقد الراوي والمروي ، هي أدق وأرقى ما وصل إليه علم النقد في القديم والحديث .. نعم نحن لا ننكر أن المحدثين توسعوا في نقد السند أكثر من توسعهم في نقد المتن ولذلك سر نحب أن نجليه للقراء والباحثين :

ففي الحق أن علماء الحديث كانوا أبعد غوراً وأدق نظراً حينما لم يجروا في نقد المتن الأشواط البعيدة التي جروها في نقد السند ، وذلك لاعتبار ديني دقيق لاحظوه في السنة عند الاكتفاء بصلاح الراوي وتقواه ، وعدالته ظاهراً وباطناً ، وضبطه ، وحفظه ، وتوقيه الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمتى توفرت العدالة بشروطها مع الضبط والحفظ والأمانة والتحرج من التزيد والتغيير كان احتمال الكذب والاختلاق بعيداً جداً إن لم يكن ممتنعاً ، وبذلك أزاحوا من طريق

السنة الآلاف ، بل عشرات الألوف من الأحاديث المكذوبة ، ثم نقدوا المتن[1] في الحدود المعقولة دون ما حاجة للمبالغة في نقد المتن ، وذلك لأن متن الحديث :

أ - قد يكون متشابهاً غير مفهوم العبارة فلا محل - مع هذا الاحتمال - لتحكيم النقد العقلي المجرد في المتن ، إذ مثل هذا التشابه مما لا تستقل العقول

---

(١) من أهم القواعد التي وضعوها لنقد المتن ما يلي :

١ - ألا يكون ركيك اللفظ بحيث لا يقوله بليغ أو فصيح .

٢ - ألا يكون مخالفاً لبدهيات العقول ، بحيث لا يمكن تأويله .

٣ - ألا يخالف القواعد العامة في الحكمة والأخلاق .

٤ - ألا يكون مخالفاً للحس والمشاهدة .

٥ - ألا يخالف البدهي في الطب والحكمة .

٦ - ألا يكون داعية إلى رذيلة تتبرأ منها الشرائع .

٧ - ألا يخالف المعقول في أصول العقيدة من صفات الله ورسله .

٨ - ألا يكون مخالفاً لسنة الله في الكون والإنسان .

٩ - ألا يشتمل على سخافات يصان عنها العقلاء .

١٠ - ألا يخالف القرآن أو محكم السنة أو المجمع عليه أو المعلوم من الدين بالضرورة بحيث لا يحتمل التأويل .

١١ - ألا يكون مخالفاً للحقائق التاريخية المعروفة عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

١٢ - ألا يوافق مذهب الراوي الداعية إلى مذهبه .

١٣ - ألا يخبر عن أمر وقع بمشهد عظيم ثم ينفرد راو واحد بروايته .

١٤ - ألا يكون ناشئاً عن باعث نفسي حمل الراوي إلى روايته .

١٥ - ألا يشتمل على إفراط في الثواب العظيم على الفعل الصغير والمبالغة بالوعيد الشديد على الأمر الحقير .

ولم يكتف علماؤنا بهذا بل نقدوا المتن بعد سلامته من العلل السابقة كلها من ناحية اضطرابه أو شذوذه أو إعلاله ، كما بحثوا فيما يمكن أن يقع فيه من قلب أو غلط أو إدراج ، ولكل ذلك أمثلة وشواهد محلها كتب القوم رحمهم الله .

بإدراكه ، ولا يدرك المراد منه إلا عن الله أو عن رسوله المبلغ عنه ، والواجب إما الإيمان به كما ورد مع تفويض علم حقيقته إلى الله والتنزيه عن الظاهر المستحيل، وإما التأويل بما يوافق العقل وما احكم من النقل ؛ وذلك مثل أحاديث الصفات ونحوها .

ب ــ وقد يكون متن الحديث ليس من قبيل الحقيقة بل من قبيل المجاز فرفضه باعتبار حمله على الحقيقة استنادا إلى أن العقل أو الحس والمشاهدة لا يقره مع إمكان حمله على المجاز المقبول لغة وشرعاً ، تهجم وتنكر لقواعد البحث العلمي الصحيح ، وذلك مثل حديث ذهاب الشمس بعد غروبها وسجودها تحت العرش المروي في الصحيح [1] فلو حملناه على حقيقته لأدى ذلك إلى البطلان [2] ، على حين لو حمل على المجاز المستساغ لظهر ما فيه من سر وبلاغة ، فسجود الشمس : المراد به خضوعها وسيرها طبق إرادته سبحانه ، وعدم تأبيها عن النظام الدقيق المحكم الذي فطرها الله عليه واستمرارها عليه من غير انقطاع ولا فتور .

جـ ــ وقد يكون متن الحديث من قبيل الغيبيات ؛ كأحوال القيامة واليوم الآخر فردها تحكيماً للعقل فيها وبناء على قياس الغائب على الشاهد ؛ ليس من الانصاف ، وذلك كالأحاديث الواردة في صفة الجنة ونعيمها والنار وعذابها ونحو ذلك .

---

(1) روى البخاري في صحيحه (كتاب التوحيد . باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم) عن أبي ذر قال: دخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فلما غربت الشمس قال : « يا أبا ذر هل تدري أين تذهب هذه »؟ قال ، قلت: الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنها تذهب تستأذن في السجود فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها » ، ثم قرأ : ذلك مستقر لها ــ في قراءة عبد الله .

(2) لأنه صار من المعلوم القطعي لمئات الملايين من البشر أن الشمس لا تغيب عن الأرض في أثناء الليل ؛ وإنما تغيب عن بعض الأقطار وتطلع على غيرها ؛ فنهارنا ليل عند غيرنا وليلنا نهار عندهم .

د – وقد يكون متن الحديث من الأخبار التي كشف العلم عن مساتيرها واعتبرت من المعجزات النبوية التي جاءت الأيام بتصديقها ، وذلك مثل حديث الذباب .. فقد روى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه كله ، ثم لينزعه ؛ فإن في إحدى جناحيه داء والأخرى شفاء »[1] ، فلو أن العلماء تمسكوا بالنظر السطحي وتسرعوا في الحكم ببطلان هذا الحديث وأمثاله مما خفي وجه الحكمة فيه ، ثم ظهرت بعد ذلك الحكمة واضحة جلية ، ألا يكون ذلك جهالة في البحث وقصورا في النظر وإجحافا بحق صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ؟ ثم ألا ترى معي أن المحدثين كانوا على حق في المسلك الذي انتهجوه[2] ؟ .

ه – وأما ماذكره السيد رشيد رضا من أن (رواية كعب عن التوراة في

---

(١) صحيح البخاري « كتاب بدء الخلق » باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم . أنكر بعض أهل الأهواء هذا الحديث، وقالوا : كيف يكون الذباب الذي هو مباءة الجراثيم فيه دواء ؟ وكيف يجمع الله الداء والدواء في شيء واحد ؟

وقد بذل علماؤنا الأوائل – أثابهم الله – الجهد في رد هذه الشبهة فقالوا : لامانع عقلاً أن يجمع الله الداء والدواء في شيء واحد، بل هو أمر مشاهد معروف ، فالنحلة تلقي السم من أسفلها وتخرج عسلاً فيه شفاء للناس من فيها ، والحية القاتل سمها يدخل لحمها في الترياق الذي يعالج به السم .

وقال ابن القيم في زاد المعاد « ٣ : ٢١٠ – ٢١١ » : (واعلم أن في الذباب قوة سمية يدل عليها الورم والحكة العارضة من لسعه وهو بمنزلة السلاح ، فإذا سقط فيما يؤذيه اتقاه بسلاحه . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقابل تلك السمية بما أودعه الله في جناحه الآخر من الشفاء فيغمس كله في الماء والطعام فيقابل المادة السمية بالمادة النافعة فيزول ضررها) .

وقد توصل بعض الأطباء في عصرنا الحاضر إلى أن في الذباب مادة قاتلة للميكروب فبغمسه في الإناء تكون هذه المادة سبباً في إبادة ما يحمله الذباب من الجراثيم التي ربما تكون عالقة به . وبذلك أصبح ماقال العلماء الأقدمون – تجويزاً – حقيقة مقررة .

(٢) دفاع عن السنة للأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة ص ٤٨ وما بعدها .

وصف النبي صلى الله عليه وسلم كذب على التوراة أيضاً وعنها كان يخدع المسلمين ..... الخ) ، ثم مازعمــه من أن كل روايات كعب المعزوة إلى التوراة والتي لاوجود لها في التوراة المتداولة اليوم دليل على كذب كعب وافترائــه ... الخ .

فلا أدري كيف ساغ له مثل هذا القول ، مع أن القرآن الكريم ينص على هذا في أكثر من آية (.. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل [1]) ، (وإذ قال عيسى بن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد [2]) ، (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار [3]) .

فهذه آيات من كتاب الله صريحة الدلالة على أن اسم الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء ذكره صراحة في التوراة والانجيل ، وجاء ذكره وذكر صحابته عن طريق التشبيه والتمثيل في التوراة والانجيل أيضاً . فأي غرابة وأي مناقضة وأي شيء فيه يستنكره عقل مسلم إذا روى أهل الكتاب من أسلم منهم أن اسم النبي صلى الله عليه وسلم أو وصف صحابته أو بعضهم مكتوب في التوراة ؟ ! ، وإذا كان ماروي عنهم لانجده الآن في التوراة والانجيل المعترف بهما لدى اليهود والنصارى في عصرنا هذا ، فهل يكون ذلك دليلا على كذب تلك الأخبار ، أم يكون ناشئا مما أخبر الله عنهم أنهم حرفوا هذه الكتب وبدلوها ؟ !

---

(١) من الآية ١٥٧ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ٦ من سورة الصف .

(٣) من الآية ٢٩ من سورة الفتح .

وأيا ما كان فالشيخ رشيد رضا بين أمرين: إما أنه يعترف بصحتها ويكذب كل ماجاء من الأخبار مما لانجده اليوم فيها، وإما أن يعترف بتبديلها فيعترف بما صح من تلك الأخبار ولو لم نجدها فيها. أما أن يقول: إن ماجاء في تلك الأخبار متفقا مع مافي التوراة والانجيل فذلك دليل على أن واضعها يهود أو نصارى، وماجاء في تلك الأخبار مما لاوجود له فيها فذلك دليل على كذب تلك الأخبار، لأنا لانجدها فيها فهذا هو التناقض بعينه.

٦ – أما قولهم: إن له يداً في مقتل عمر رضي الله عنه مستدلين بما جاء في تاريخ ابن جرير الطبري، عن سليمان بن عبدالعزيز، عن عبدالله بن جعفر، عن أبيه، عن المسور بن مخرمة، من أن كعب الأحبار قال له: ياأمير المؤمنين اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام. فقال: ومايدريك؟ قال: أجده في كتاب الله عز وجل التوراة .... الخ [١].

فالجواب عنه: أن ابن جرير وغيره من المؤرخين لم يلتزموا الصحة فيما ينقلون ويحكون، ولذا نجد في كتبهم الضعيف والموضوع. والباحث المنصف إذا نقل خبراً من هذه الكتب ينبغي أن يمحصه سندا ومتنا، ونحن إذا نظرنا إلى سند هذه القصة ومتنها لانشك في أنها تنادي على نفسها بالكذب والاختلاق وذلك:

أ – لسقوط سندها فإن سليمان مجهول لم نجد له ترجمة، وأبوه ساقط الحديث – كما بينه جمع من الأئمة – وعبدالله بن جعفر لابأس به، فأما أبوه جعفر فلا يعرف برواية أصلا [٢].

ب – ولأنها لو كانت في التوراة لما اختص بعلمها كعب الأحبار وحده؛ ولكن كان يشاركه العلم بها أمثال عبدالله بن سلام وعبدالله بن عمرو ممن لهم علم بالتوراة.

---

(١) تاريخ الطبري (٤: ١٩٠ – ١٩١) ط دار المعارف.

(٢) تقريب التهذيب لابن حجر (١: ٦، ٤٠٤)، وانظر الأنوار الكاشفة ص ١١١.

ج – ولأنها لو صحت لكان المنتظر من عمر حينئذ أن لا يكتفي بقول كعب ، ولكن يجمع طائفة ممن أسلم من أهل الكتاب ولهم إحاطة بالتوراة ويسألهم عن هذه القصة ، وهو لو فعل لافتضح أمر كعب وظهر للناس كذبه ولتبين لعمر أنه شريك في مؤامرة دبرت لقتله ، أو أنه على علم بها وحينئذ يعمل عمر على الكشف عنها بشتى الوسائل وبشكل عدبريا ومنهم كعب ، هذا هو المنتظر من أي حاكم عادي يقال له مثل ذلك ؛ فضلاً عن عمر المعروف بكمال الفطنة وحدة الذهن وتمحيص الأخبار ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل فكان ذلك دليلاً على اختلاقها .

د – وأيضاً فإنها لو صحت لكان معناها أن كعباً له يد في المؤامرة وأنه يكشف عن نفسه بنفسه وذلك باطل لمخالفة طباع الناس ، إذ المعروف أن من اشترك في مؤامرة يبالغ في كتمانها حرصاً على نجاحها وتفادياً من تحمل تبعتها بعد وقوعها .

وبذلك تبين لنا أن هذه القصة مفتراة بدون أدنى اشتباه ، وأن رمي كعب بالكيد للإسلام في شخص عمر والكذب في النقل عن التوراة اتهام باطل لا يستند إلى دليل أو برهان ، ولقد كان عمر والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أعلم بحال كعب منا لأنه صحبهم وجالسهم . ولو كان هناك مايوجب اتهامه لاتهموه ، وقد علمنا أنهم لم يتهموه لا قبل انكشاف المؤامرة ولا بعده، فوجب الجزم بأنه لم يقع منه مايقتضي اتهامه .

ومن عجيب أمر هؤلاء الطاعنين أنهم يجعلون روايات المؤرخين حجة لا يأتيها الباطل بحال إذا كان لهم غرض في إثبات مضمونها، ويتشككون في روايات البخاري ومسلم إذا جاءت على غير مايشتهون [١] .

٧ – وأما قول الأستاذ أحمد أمين : (وعلى الجملة فقد دخل على المسلمين

---

(١) الحديث والمحدثون للشيخ أبو زهو « ص ١٨٢ – ١٨٣ » .

من هؤلاء وأمثالهم في عقيدتهم وعلمهم كثير كان له فيهم أثر غير صالح . .) فإن أراد أن يرجع ذنب هذا الأثر السيء إلى كعب وأضرابه، فنحن لانوافقه عليه لأن مايرويه كعب وغيره من أهل الكتاب لم يسندوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكذبوا فيه على أحد من المسلمين ، وإنما كانوا يروونه على أنه من الإسرائيليات الموجودة في كتبهم ، ولسنا مكلفين بتصديق شيء من ذلك ولا مطالبين بالإيمان به بعد ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . . . » ، وإذا كانت هذه الإسرائيليات المروية عن كعب وغيره قد أثرت في عقيدة المسلمين وغيرهم أثراً غير صالح فليس ذنب هذا راجعاً إلى كعب الأحبار وأضرابه لأنهم رووه على أنه مما في كتبهم ولم يشرحوا به القرآن — اللهم إلا ما يتفق من هذا مع القرآن ويشهد له — ثم جاء من بعدهم فحاولوا أن يشرحوا القرآن بهذه الإسرائيليات فربطوا بينها وبينه على مابينها من بعد شاسع ، بل وزادوا على ذلك ما نسجوه من قصص خرافية نسبوها لهؤلاء الأعلام ترويجاً لها وتمويهاً على العامة [1].

وفي كتاب فضائل الشام (للربعي) سبع عشرة حكاية عن كعب ، قال فيها مخرجه الشيخ ناصر الدين الأرناؤوط : (كل الأسانيد لاتصح [2]) مما يدل على أن غالب مايروى عنه مكذوب عليه، وقد استغل الوضاعون — بعدوفاته — شهرته فكذبوا عليه كثيراً ، وكان الكذب عليه أيسر من الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم [3] .

٨ — وأنقل في نهاية الكلام عن كعب الأحبار فقرات يسيرة مما قرره علماء الحديث في التحذير من جرح رجال الحديث بغير تثبت :

---

(١) التفسير والمفسرون « ١ : ١٩٠ » .

(٢) الأنوار الكاشفة ص ١٢٨ .

(٣) وقد اعترف الشيخ رشيد رضا نفسه بالوضع على كعب فقال في موضع من تفسير المنار : « وأنا أظن أن هذا القول موضوع على كعب » .

قال العلامة ابن الصلاح في المقدمة في النوع الحادي والستين مانصه : (على الآخذ في ذلك أن يتقي الله تبارك وتعالى ويتثبت ويتوقى التساهل ، لكي لايجرح سليماً أو يرمي بريئاً بسمعة سوء تبقى عليه الدهر عاراً) ، ونقل العلامة القاسمي في كتابه « الجرح والتعديل ص ٤ » عن علماء الحديث أنهم قالوا : (أعراض المسلمين حفرة من حفر النار وقف على شفيرها طائفتان من الناس : المحدثون والحكام) فأمام هذا التحذير الشديد لايصح الاحتجاج في تجريح كعب [1] بما نسب إليه من الأخبار الضعيفة الموجودة في بعض كتب التفسير أو التاريخ لاحتمال أن ماورد في هذه الكتب موضوع عليه [2] كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

٢ — وهب بن منبه :

هو أبو عبد الله وهب بن مُنَبِّه اليماني الصنعاني ، ولد سنة أربع وثلاثين من الهجرة [3] في ذمار باليمن على بعد مرحلتين من صنعاء ، ويذكر الذهبي أنه ولد في خلافة عثمان . وأصل والده — منبه — من هَرَاة بخراسان أرسل إلى اليمن زمن كسرى أنو شروان ، وأسلم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ونشأ وهب في اليمن ، وولي القضاء لعمر بن عبد العزيز [4] . توفي وهب سنة أربعة عشر ومائة من الهجرة ، على أرجح الأقوال وعمره ثمانون سنة [5] . روى عن أبي هريرة وأبي

---

(١) يقول الشيخ رشيد في مجلة المنار « ج ١ م ٢٦ ص ٧٩٨ » : هذا وإن عمدتنا في جرح روايات كعب ماجاء فيها من إسرائيليات تقطع ببطلانها وهو آفتها » ، وهذا الموقف منه يناقض عبارته الأولى .

(٢) ذكر صاحب كتاب الأنوار الكاشفة في « ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٦ » أمثلة من روايات موضوعة على كعب .

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر « ١١ : ١٦٨ » ، وتذكرة الحفاظ « ١ : ٨٨ » .

(٤) مرآة الجنان لليافعي « ص ٢٤٨ » .

(٥) تاريخ الذهبي « ٧ : ٤٣٨ » والمعارف لابن قتيبة « ص ٢٣٣ » وتهذيب التهذيب (١١ : ١٦٨) .

سعيد الخدري وعبد الله بن عمر وابن عباس وجابر بن عبد الله وغيرهم [1] . وروى عنه ابناه عبد الله وعبد الرحمن ، وأخواه إسماعيل وهمام ، وابن أخيه عبد الصمد ، وعبد المنعم بن إدريس ، وعمرو بن دينار ، وإسرائيل أبو موسى ، وسماك بن الفضل وعوف الأعرابي وغيرهم ، وأخرج له البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي [2] .

ثقافته :

كان وهب بن منبه واسع العلم ، كثير الاطلاع على كتب الأولين ، يقول ابن خلكان : (كانت له معرفة بأخبار الأوائل ، وقيام الدنيا ، وأحوال الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وسير الملوك [3]) .

وذكر عنه ابن قتيبة في كتاب المعارف أنه كان يقول : (قرأت من كتب الله تعالى اثنين وسبعين كتاباً [4]) .

ويقول ابن كثير : (له معرفة بكتب الأوائل [5]) ، كما يذكر ياقوت : أن وهباً كان كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة بالإسرائيليات [6] .

ولقد اعتنى وهب بالإسرائيليات وأراد بها توضيح بعض الإشارات القرآنية ، واستطاع أن يدخل عنصر القصص إلى المدرسة الإسلامية ، وقد جمع

---

(1) تذكرة الحفاظ للذهبي « 1 : 100 - 101 » ط الثالثة مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن الهند سنة 1375 هـ .

(2) تذكرة الحفاظ « 1 : 101 » .

(3) وفيات الأعيان « 5 : 88 - 89 » .

(4) كتاب المعارف لابن قتيبة « ص 202 » ط الأولى المطبعة الإسلامية سنة 1353 هـ .

(5) البداية والنهاية « 9 : 276 » .

(6) معجم الأدباء « 7 : 232 » .

وهب هذه القصص مما كان متداولاً بين المسلمين ، وخاصة قصص عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ، وأضاف إليها ماحصل عليه من القصص نتيجة قراءته لكثير من الكتب المقدسة ، وروي عنه أنه قال : يقولون عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه ، وكعب أعلم أهل زمانه ، أفرأيت من جمع علمها ؟ » يعني نفسه [1] ») !

وقد لاحظ ابن قتيبة الفرق بين معلوماته عـــن بدء الخليقة وبين سفر التكوين ، ومقارنة ابن قتيبة لمعلومات وهب تدل على أنه أضاف مادة إلى ما أخذه عن العهد القديم . وعناصر هذه المادةتستند إلى شرح الآيات القرآنية وإلى الإسرائيليات ، وإلى تأملاته في كتب أهل الكتاب .

مؤلفاته :

تنسب إلى وهب بعض المؤلفات عن فترة ماقبل الإسلام ، فابن سعد يذكر أنه ألف (أحاديث الأنبياء [2]) والمسعودي يذكر أنه ألف كتاب « المبدأ » [3] وينسب حاجي خليفة لوهب أيضاً (كتاب الإسرائيليات) .ويرى (مروزنتال) أن كتاب الإسرائيليات الذي ذكره صاحب كشف الظنون ، قد يكون نفس كتاب المبدأ [4] .

وقد ذكر ياقوت أن وهب بن منبه ألف كتاباً عنوانه (ذكر المـــلوك المتوجة من حمير وأخبارهم وغير ذلك [5]) وقد ذكر ابن خلكان أنه رأى هـذا

---

(١) تذكرة الحفاظ « ١ : ١٠١ » .

(٢) ابن سعد « ٧ : ٩٧ » .

(٣) مروج الذهب « ٥ : ١٢٧ » .

(٤) انظر بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب للدكتور عبد العزيز الدوري « ص ١١٤ » .

(٥) معجم الأدباء « ٦ : ٢٢٢ » .

الكتاب ، وقال عنه : إنه من الكتب المفيدة[١] . وقد ألف وهب في المغازي كما أشار إلى ذلك صاحب كشف الظنون[٢] ، ونجد كثيراً من آثار وهب في تفسير الطبري وتاريخه ، وفي كتب بعض المؤرخين ، كابن قتيبة وابن إسحق وغيرهما[٣] .

مطاعن بعض الناس على وهب :

طعن عليه بعض الكتاب المعاصرين ، كما طعنوا على كعب ، ورموه بالكذب والتدليس وإفساد عقول بعض المسلمين وعقائدهم .

قال السيد رشيد رضا في تفسيره عند قوله تعالى : (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين[٤]) مانصه : (. . . وفي التفسير المأثور روايات في صفة الثعبان الذي تحولت إليه عصا موسى عليه السلام ، وفي تأثيره على فرعون ما هو إلا من الإسرائيليات التي لا يصح لها سند ، ولا يوثق فيها بشيء ، ومنها قول وهب بن منبه : أما إن العصا لما صارت ثعباناً حملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً ، وقام فرعون منهزماً . قال ابن كثير رواه ابن جرير ، والإمام أحمد وابن أبي حاتم وفيه غرابة في سياقه والله أعلم أ هـ .

وقد اقتصرت على هذه الرواية لأقول إنني أرجح تضعيف عمرو بن علي الفلاس لوهب على توثيق الجمهور له ، بل أنا أسوأ فيه ظناً على ماروي من كثرة عبادته ، ويغلب على ظني أنه كان له ضلع مع قومه الفرس الذين يكيدون للاسلام وللعرب ويدسون لهم من باب الرواية ومن طريق التشيع[٥]) .

---

(١) انظر وفيات الأعيان « ٢ : ١٨٠ » .

(٢) كشف الظنون « ٢ : ١٧٤٧ » .

(٣) يعتبر بعض المؤلفين أن وهباً هو أول من وضع هيكلا قصصياً لتاريخ النبوة منذ بدء الخليقة حتى ظهور الإسلام وقد أخذ عنه أو تأثر به من ناحية المادة أو الهيكل بعض المؤرخين . « بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص ١١٢ » .

(٤) الآية ١٠٧ من سورة الأعراف .

(٥) تفسير المنار « ٩ : ٤٤ » .

وقال الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه (بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب — ص ٢٦) : « ولم يكن وهب دقيقاً بل إنه لم يترفع عن الادعاء الكاذب » .

وقال الدكتور جواد علي عنه : (إنه لم يكن على ما يظهر من الروايات المنسوبة إليه يتورع من التلفيق ، ليثبت أنه كان صاحب علم بأحوال الماضين وبما سيكون ، شأنه في ذلك شأن زميليه كعب الأحبار وابن سلام اللذين يليها بالمنزلة ؛ أقول ذلك على الرغم من تلك الصورة التي رسمها نفر من المحدثين له وأحيطت بهالة من التبجيل والاحترام ، وعلى الرغم من تلك النعوت التي جاء بهـــا عليه نفر من أصحاب كتب الرجال ؛ على حين كانوا يبخلون بمنح بعض أناساً أوثق منه وأصدق عراتب ودرجات[1]) .

وقد اتهم أبو رية وهباً مع من اتهمهم من فضلاء الصحابة والتابعين من أسلموا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار .. فقال عنهم : (إنهم كانوا يبثون في الدين الاسلامي أكاذيب وترهات يزعمون مرة أنها في كتابهم ، ومن مكنون علمهم ، ويدعون أخرى أنها مما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهي في الحقيقة من مفترياتهم) .

ثناء العلماء عليه :

قبل أن نفند المطاعن التي أثيرت حول وهب نذكر طرفاً من ثناء العلماء عليه : قال الذهبي : كان ثقة صادقاً كثير النقل من كتب الاسرائيليات . وقال أبو زرعة والنسائي : ثقة ، وقال العجلي : كان وهب ثقة تابعياً . وقال الحافظ ابن حجر : وثقه الجمهور وشذ الفلاس . فقال : كان ضعيفاً ، وشبهته في ذلك أنه كان يتهم بالقول في القدر . وقال الامام أحمد : كان يتهم بشيء من القدر ثم رجع . وقال أبو سنان : سمعت وهب بن منبه يقول : كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعة

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي « ج ١ ص ٣٤٢ » .

وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء في كلها: من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر، فتركت قولي [1].

وذكره ابن حبان في الثقات ، وروى له البخاري ومسلم في صحيحيهما .

ونحن أمام توثيق الجمهور له ، واعتماد البخاري وغيره لحديثه ، وما ثبت عنه من الورع والصلاح [2] لانقول إلا أنه رجل مظلوم من متهميه ، ومظلوم هو وكعب من أولئك الذين استغلوا شهرة الرجلين ومنزلتهما العلمية ، فنسبوا إليهما مالا يصح عنهما وشوهوا سمعتهما ، وعرضوهما للنقد اللاذع والطعن المرير [3]

تفنيد ماتقدم من المطاعن على وهب :

١ ــ أما القصة التي ساقها الشيخ رشيد رضا في تفسيره من أن (العصا لما صارت ثعباناً حملت على الناس فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً ... الخ ففي سندها مجهول ، فمن المحتمل أن هذا المجهول هو الواضع لهذا الخبر ثم نسبه إلى وهب لشهرته [4]) . إذ أننا نلاحظ أن روايات وهب وقصصه أصبحت كما يبدو إرثاً لعائلته التي حاولت نشرها والاضافة إليها بقصد تمجيد وهب ، وبقصد رواج هذه الروايات والقصص لشهرة وهب ، وقد تولى ذلك إسماعيل بن عبد الكريم عن عبد الصمد بن معقل (أخي وهب) عن وهب . وهذا السند كثيراً مانجده في تفسير الطبري وتاريخه ، وقد كان هذا السند بعينه هو سند القصة المذكورة التي جرح السيد

---

(١) تهذيب التهذيب « ١١ : ١٦٨ » .

(٢) قال مثنى بن الصباح : لبث وهب عشرين سنة لم يجعل بين الفجر والعشاء وضوءاً .

(٣) انظر تهذيب التهذيب « ١١ : ١٦٦ ـ ١٦٧ » وميزان الاعتدال « ٣ : ٢٧٨ » ومجلة نور الاسلام (الأزهر) السنة الثالثة « ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ » والتفسير والمفسرون « ١ : ١٩٧ » .

(٤) انظر رد الأستاذ عبد الرحمن الجمجوني على الشيخ رشيد رضا على صفحات مجلة المنار « ج ١ م ٢٦ ص ٧٥ ، ٦٠ » .

رشيد بسببها وهباً . ورواية ابن جرير لهذه القصة لاتدل على صحتها لأن ابن جرير كما هو معروف عنه ، لم يلتزم الصحة في كل مايرويه ، والذي ينظر في تفسيره وتاريخه يجد فيهما لايصح شيئاً كثيراً . وسنوضح ذلك فيما بعد إن شاء الله .

فما جريرة وهب إذا كانت القصة موضوعة عليه !! ألم يكن من الأولى للسيد رشيد رضا أن يتروى ويتثبت قبل أن يجرحه وهباً نتيجة لهذه الرواية وغيرها ، ضارباً بعرض الحائط توثيق أئمة الحديث له ، وهذا يستلزم الحط من أقدارهم ، وزعزعة الثقة في أقوالهم .

ونحن مع الشيخ رشيد في أن سياق القصة فيه غرابة ، غير أن القصة — إن صحت عنه — فهي من قبيل الأخبار الاسرائيلية التي لاتصادم أصلا من أصول ديننا ، وقد أباح الشارع في التحديث عن بني إسرائيل بمثل ذلك . ولم يكلفنا تمحيص أخبارهم والبحث في أسانيدها لأنها ليست مما تعبدنا الله بها . ومعروف أن كتب أهل الكتاب محرفة مبدلة كما أخبرنا الله تبارك وتعالى . وقد أمرنا رسولنا صلوات الله وسلامه عليه بألا نصدقهم فيها ولا نكذبهم ، وعقيدة وهب فيها كعقيدة المسلمين ، ما جاء على وفق شرعنا صدقه ، وما خالفه كذبه ، ومالم يوافق أو يخالف شرعنا رواه ، وتوقف في تصديقه وتكذيبه ، ورد فيه العلم إلى الله عز وجل .

٢ — وأما قوله : (وإني أرجح تضعيف الفلاس لوهب على توثيق الجمهور له بل أنا أسوأ فيه ظناً على ماروي من كثرة عبادته .... الخ ..) .

فقد مر بنا أن البخاري ومسلم قد أخرجا له في صحيحيهما ، ومر بنا أيضا أن كل من أخرج له البخاري أو مسلم فهو ثقة ولا يقبل قول من جرحه ، وحينئذ لا يلتفت لتضعيف ابن الفلاس لوهب وبخاصة أنه لم يبين وجه التضعيف ؛ والمقرر في فن المصطلح أن التجريح لايقبل إلا مع البيان ، وشبهة الفلاس التي ضعف لأجلها وهباً هو قوله بالقدر ، وقد ذكرنا أنه رجع عنه . فقد مر بنا قول الامام أحمد ، « وكان يتهم بشيء من القدر ثم رجع » ، وقال حماد بن سلمة عن أبي سنان ، سمعت

وهب بن منبه يقول : (كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعة وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء، في كلها : من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر فتركت قولي [1]) . وقال الجوزجاني، كان وهب كتب كتاباً في القدر ثم حدثت أنه ندم عليه [2] . وقال ابن عيينة عن عمرو بن دينار دخلت على وهب داره بصنعاء فأطعمني جوزاً من جوزة في داره . فقلت له : وددت أنك لم تكن كتبت في القدر ، فقال : أنا والله وددت ذلك [3] .

فنلاحظ من هذه النصوص أنه لم يثبت على رأيه ، وعقيدته في القدر ، بل تركها بعد ما تبين له الحق وندم على ما كان منه بعد أن ظهر له الصواب ، وبعد رجوعه عن رأيه ، لا يصح أن نطعن عليه من هذه الناحية .

٣ ــ وأما اتهام الدكتور الدوري له بأنه لم يترفع عن الادعاء الكاذب ، واتهام الدكتور جواد علي بأنه لم يتورع عن التلفيق ، واتهامه لعلماء الحديث بأنهم جادوا على وهب وكعب وعبد الله بن سلام بنعوت كانوا يبخلون بها على أناس أوثق منهم وأصدق بمراتب ودرجات ، فالجواب عنه :

إن أئمة الحديث ونقاده ــ رحمهم الله ــ كانوا يبينون أحوال الرواة وينقدونهم ويعدلونهم حسبة لله لا تأخذهم خشية أحد ، ولا تملكهم عاطفة ، فليس أحد من أهل الحديث يحابي في الحديث أباه ولا أخاه ولا ولده ، فهذا زيد ابن أنيسة يقول : : (لا تأخذوا عن أخي [4]) ، وقال علي بن المديني لمن سأله عن أبيه : (سلوا عنه غيري فأعادوا المسألة ، فأطرق ، ثم رفع رأسه فقال : هو الدين ، إنه ضعيف [5]) .

---

(١) انظر طبقات ابن سعد « ٥ : ٣٦٦ » .

(٢) تهذيب التهذيب « ١١ : ١٦٨ » .

(٣) المرجع السابق .

(٤) صحيح مسلم شرح النووي « ١ : ١٢١ » .

(٥) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي « ص ٦٦ » .

وكان أئمة الحديث يأمرون طلابهم وإخوانهم أن يبينوا حال الراوي ، والذي يكثر غلطه والمتهم في حديثه . قال عبد الرحمن بن مهدي : (سألت شعبة وابن المبارك والثوري ومالك بن أنس عن الرجل يتهم بالكذب ، فقالوا : انشروه فإنه دين[1]) .

وعن يحيى بن سعيد قال : (سألت سفيان الثوري وشعبة ومالكاً وابن عيينة عن الرجل لا يكون ثبتاً في الحديث ، فيأتيني الرجل فيسألني عنه . وقالوا : أخبر عنه أنه ليس بثبت[2]) . وكان طلاب العلم يسألون الأئمة ويكتبون إليهم ليخبروهم عن الرواة ، ومن ذلك ما رواه الامام مسلم بإسناده عن عبيد الله بن معاذ العنبري عن أبيه قال : (كتبت إلى شعبة أسأله عن أبي شيبة ، قاضي واسط ، فكتب إلي لا تكتب عنه ومزق كتابي .. [3]) .

وعن أبي بكر بن خلاد قال : قلت ليحيى بن سعيد القطان أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله تعالى ؟ قال : لأن يكون هؤلاء خصمائي أحب إلي من أن يكون خصمي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لم حدثت عني حديثاً ترى أنه كذب ؟[4] » .

وإذا فلم يكن هم علماء الحديث إلا توثيق من يعتقدونه ثقة مأموناً على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتجريح من يرونه غير ثقة ولا مأمون ، أما إنهم كانوا يوثقون ويضعفون للهوى أو لرغبة أو رهبة ، فذلك ما نعيذهم منه بعد ما عرفناه عنهم من النصح لله ورسوله .

---

(١) مقدمة التمهيد لابن عبد البر ، مخطوطة مصورة في معهد المخطوطات بالجامعة العربية ص ١٢ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي « ١ : ٩٢ » .

(٣) المرجع السابق « ١ : ١١٠ » .

(٤) الكفاية في علم الرواية « ص ٤٤ » .

٤ — وأما اتهام أبي رية عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب ابن منبه وغيرهم من مسلمة أهل الكتاب بأنهم كانوا (يبثون في الدين الإسلامي أكاذيب وترهات ويزعمون مرة أنها في كتابهم ومن مكنون علمهم ، ويدّعون أخرى أنهما سمعوه عن النبي صلى الله عليه وسلم ... الخ) ، فالجواب عنه : إن ما رواه وهب وغيره لم يسنده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يكذب فيه على أحد من المسلمين ، وإنما كان يرويه على أنه من الإسرائيليات ، ولسنا مكلفين بتصديقه ولا الإيمان به ، وربما يكون موضوعاً عليه . يقول الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : (وبعض أهل عصرنا تكلم فيه — يقصد وهب بن منبه — عن جهل ، ينكرون أنه يروي الغرائب عن الكتب القديمة وما في هذا بأس ، إذ لم يكن ديناً ، ثم أنى لنا أن نوقن بصحة ما روي عنه من ذلك وأنه هو الذي رواه وحدّث به) .

موقف تابع التابعين من الاسرائيليات

ذكرنا أن رواية الإسرائيليات قد كثرت في عهد التابعين عما كانت عليه في عهد الصحابة — رضوان الله عليهم — وبينا أسباب ذلك ، أما في عهد تابع التابعين فقد ازدادت رواية الإسرائيليات واستفحل خطرها ، فقد ظهر جماعة من المفسرين القصاص توسعوا في الاستعانة بالمصادر اليهودية والنصرانية لتأويل بعض نصوص القرآن الكريم ، وتفصيل بعض مجملاته عن الأمم والرسل قبل الإسلام ، حتى لقد أصبح الرجوع إلى أهل الكتاب أصلاً معتمداً عندهم ، وقد شجعهم على التزيد في الأخبار التي يروونها لهم ، تصديق العامة وأشباههم لهم ، وإصغاؤهم إليهم كلما كان حديثهم غريباً خارجاً عن فطر العقول ، أو كان رقيقاً يحزن القلوب ، ويستفزر العيون [١] . ومن هؤلاء مقاتل بن سليمان المتوفي ١٥٠ هـ والذي ذكر أبو حاتم بأنه

---

(١) انظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة « ص ٢٧٩ — ٢٨٠ » .

استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعلها موافقة لما في كتبهم [1] .

ويتبين لنا مدى خطر هؤلاء المفسرين القصاص من عبارة النظام التي قالها في صدد التحذير منهم والتي نقلها عنه الجاحظ في كتابه الحيوان . ونصها : (لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة ؛ فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم ، وليكن عندكم عكرمة ، والكلبي ، والسدي ، والضحاك ، ومقاتل بن سليمان ، وأبو بكر الأصم في سبيل واحدة ، فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم [2]) .

من اشتهر برواية الإسرائيليات من أتباع التابعين

وقد اشتهر برواية الإسرائيليات جماعة من أتباع التابعين منهم :

١ — ابن جريج :

هو أبو خالد أو أبو الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وأصله رومي نصراني ، كان من علماء مكة ومحدثيهم ، وهو أول من صنف الكتب بالحجاز [3] قال أحمد بن حنبل : كان من أوعية العلم . توفي سنة خمسين ومائة [4] .

روى عن عطاء بن أبي رباح ، وزيد بن أسلم ، والزهري ، وطاووس ، وابن أبي مليكة ، وعطاء الخراساني ، وعمرو بن دينار وغيرهم . وروى عنه السفيانان ومسلم بن خالد ، وابن علية ، ووكيع ، وعبد الرزاق وغيرهم [5] . وقد اختلفت

---

(١) وفيات الأعيان « ٢ : ٥٦٨ » .
(٢) الحيوان للجاحظ « ١ : ٣٤٣ — ٣٤٦ » .
(٣) تهذيب التهذيب « ٦ : ٤٠٢ — ٤٠٦ » .
(٤) تذكرة الحفاظ « ١ : ١٦٠ — ١٦١ » .
(٥) المصدران السابقان .

أنظار العلماء في توثيقه : فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه ؛ قال العجلي : مكي ثقة . وقال ابن خراش : كان صدوقاً ، وقال يحيى بن سعيد : كان ابن جريج صدوقاً فإذا قال : حدثني ، فهو سماع . وإذا قال : أخبرني ، فهو قراءة . وإذا قال : قال : فهو شبه الريح .

وقال الدارقطني : تجنب تدليس ابن جريج فإنه قبيح التدليس لا يدلس إلا فيما سمعه من مجروح . وعن مالك قال : كان ابن جريج حاطب ليل . وذكره ابن حبان في الثقات وقال : كان من فقهاء الحجاز وقرائهم ومتقنيهم وكان يدلس[1] .

وذكر الخزرجي في خلاصته [2] أنه مجمع عليه من أصحاب الكتب الستة ، ولكن نرى أبا رية يطعن في إسلامه فيقول في كتابه : (وممن كان يبث في الدين الإسلامي ما يخفيه قلبه ابن جريج الرومي ، الذي مات سنة ١٥٠ هـ وكان البخاري لا يوثقه ، وهو على حق في ذلك) [3] وهذا مخالف للواقع فإن ابن جريج إمام جليل ومن أوعية العلم كما يقول الإمام أحمد ، وقد روى شيئاً من هذه الإسرائيليات ممن تقدمه ولا غضاضة في ذلك ، ولا أدري ما دليل أبي رية على أن ابن جريج كان يبث في الدين الإسلامي ما يخفيه قلبه ، وهل شق عن قلبه ؟ ولا أدري أيضاً من أين استقى كلامه الذي عزاه للبخاري بقوله : « وكان البخاري لا يوثقه وهو على حق في ذلك » .

ويبدو أن كل من روى إسرائيليات فهو موضع تهمة في نظر أبي رية حتى ولو كان صحابياً [4] . وكلمة الحق في ابن جريج أنه لم يقصد الصحة في كل ما جمع

---

(١) تهذيب التهذيب « ٦ : ٤٠٤ - ٤٠٦ » .

(٢) « ص ٢٠٧ » .

(٣) أضواء على السنة المحمدية « ص ١٤٨ » .

(٤) بينا فيما سبق أن أبا رية طعن في الصحابيين الجليلين أبي هريرة وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

وروي من التفسير ، بل روى ماذكر في كل آية من الصحيح والسقيم كما يقول صاحب الإتقان [1] .

وكان أحياناً لايبالي من أين يأخذ ، فقد قيل : إنه كان حاطب ليل ، وهذا يستلزم أن يكون المفسر على حذر فيما يرويه عن ابن جريج في التفسير حتى لايروي ضعيفاً أو يعتمد على سقيم . غير أن ذلك لايستلزم المبالغة في إساءة الظن به إلى درجة اتهامه بالنفاق ! !

٢ — الكلبي :

هو محمد بن السائب الكلبي الكوفي النسابة المفسر ، روى عن أخويه ، وعن عامر الشعبي ، والأصبغ بن نباتة ، وغيرهم . وروى عنه ابنه هشام ، والسفيانان، وحماد بن سلمة ، وابن المبارك ، وابن جريج، وابن إسحق ، وأبو معاوية ، ومحمد بن مروان السدي الصغير ، وغيرهم .

توفي سنة ست وأربعين ومائة .

وقد طعن فيه عدد من العلماء . قال معتمر بن سليمان عن أبيه : كان بالكوفة كذابان : أحدهما الكلبي ، وعنه قال : قال الليث بن أبي سليم : كان بالكوفة كذابان ، أحدهما الكلبي ، والآخر السدي ، وقال البخاري: تركه يحيى وابن مهدي ،وعن يحيى بن معين أنه قال:ليس بشيء . وقال الثوري : عجباً لمن يروي عن الكلبي . وقال أبو عاصم عن سفيان الثوري أنه قال : قال الكلبي : ماحدثتُ به عن أبي صالح عن ابن عباس فهو كذب فلا ترووه .

وقال يزيد بن هارون : كبر الكلبي وغلب عليه النسيان .

وقال أبو حاتم : الناس مجمعون على ترك حديثه ، هــــو ذاهب الحديث

---

(١) الاتقان ٢ : ١٨٨ .

لا يشتغل به ، وقال النسائي : ليس بثقة ولا يكتب حديثه . وقال علي بن الجنيد والحاكم وأبو أحمد والدارقطني : متروك . وقال الجوزجاني : كذاب ساقط ، وقال ابن حبان : وضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفه ؛ روى عن أبي صالح التفسير ، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس ؛ لا يحل الاحتجاج به وقال الساجي : متروك الحديث وكان ضعيفاً جداً لفرطه في التشيع [1] .

وقال صاحب الاتقان — عند كلامه عن طرق الرواية عن ابن عباس — وأوهى طرقه طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، فإذا انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب [2] .

لذلك فقد تجنب الطبري في تفسيره النقل عن الكلبي ومقاتل ؛ لأنهما متهمان [3] كما تجنب النقل عنه كثير من المفسرين .

٣ — ابن اسحاق :

هو محمد بن إسحق بن يسار بن خيار — ويقال : كومان — المدني ، أبو بكر ، — ويقال أبو عبد الله — المطلبي ، مولاهم ، نزيل العراق .

روى عن أبيه وعميه ، والزهري ، ومكحول ، وإبراهيم بن عقبة ، وحميد الطويل ، وأبي الزناد ، وغيرهم . وروى عنه : يحيى بن سعيد ، وإبراهيم بن سعد ، والحمادان ، والسفيانان ، وغيرهم ، مات سنة ١٥١ هـ [4] .

ومع كونه حجة في المغازي ، فقد وثقه قوم ووهاه آخرون ، وأخذوا عليه

---

(١) تهذيب التهذيب « ٩ : ١٧٨ — ١٨٠ » .

(٢) الاتقان « ٢ : ١٨٩ » .

(٣) فتاوى ابن تيمية « ٢ : ١٩٢ » .

(٤) تهذيب التهذيب « ٩ : ٣٨ — ٤٤ » .

أنه روى في السيرة أشياء كثيرة منكرة منقطعة، وكان يحدث عن أهل الكتاب .
قال أحمد بن حنبل : كان ابن إسحق يدلس ، وقال أبو عبد الله : قدم ابن إسحق بغداد فكان لا يبالي عمن يحكي عن الكلبي وغيره . وقال عبد الله بن أحمد : ما رأيت أبي أتقن حديثه قط ، وقيل له : يحتج به ؟ قال : لم يكن يحتج به في السنن ، وعن ابن معين قال : محمد بن إسحق ثقة وليس بحجة . وقال النسائي : ليس بالقوي، وقال ابن المديني: ثقة لم يضعه عندي إلا روايته عن أهل الكتاب[1] .
وقد رجع ابن إسحق إلى علماء أهل الكتاب مثل وهب بن منبه وغيره حين يريد أخباراً عن الحوادث اليهودية أو المسيحية، فقد جاء في أقواله التي نقلها عنه الطبري ما يلي : (وعن بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول)[2] (ويزعم أهل التوراة)[3] وقد نقل ابن إسحق نصوصاً من التوراة[4] وجدناها في تفسير الطبري وتاريخه، كما وجدنا نقولاً كثيرة عنه وبخاصة ما له علاقة بأنبياء بني إسرائيل. ونكتفي هنا بسوق مثال واحد :

روى ابن جرير في تفسيره عند قوله تعالى: (إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض) قال : حدثنا محمد بن إسحق،قال : حدثني بعض من يسوق أحاديث الأعاجم من أهل الكتاب، ممن قد أسلم ممن توارثوا علم ذي القرنين، أن ذا القرنين كان رجلاً من أهل مصر اسمه مرزبا بن مردبة اليوناني من ولد يونن بن يافث بن نوح .. الخ[5] . فهذا السند يعطينا فكرة واضحة عن مبلغ رجوعه فيما يرويه عن أهل الكتاب وعن عدم اهتمامه بكون من روى عنه ثقة أو غير ثقة . فيكتفي بكون من روى عنه بعض من أسلم من أهل الكتاب ولكن من هو ؟ وما مبلغ أمانته وصدقه ؟ فذلك ما يسكت عنه ابن إسحق ولا يعرض له بالمرة .

---

(١) تهذيب التهذيب .
(٢) تفسير الطبري « ١٠ : ١٨٢ ، ٢٢٨ » طبعة بولاق .
(٣) المرجع السابق « ١٢ : ٢٣ » .
(٤) انظر تفسير الطبري « ١٠ : ١١٦ » .
(٥) تفسير الطبري « ١٦ : ١١٤ » .

الإسرائيليات في دور التدوين

ثم جاء بعد عصر تابع التابعين من عظم شغفه بالإسرائيليات وأفرط في الأخذ منها، إلى درجة جعلتهم لا يردون قولاً، ولا يحجمون عن أن يلصقوا بالقرآن كل ما يروى لهم وإن كان لا يتصوره العقل، واستمر هذا الشغف بالإسرائيليات والولع بنقل هذه الأخبار التي أصبح الكثير منها نوعاً من الخرافة إلى أن جاء دور التدوين للتفسير، فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الإسرائيلي الذي كاد يصد الناس عن النظر فيها والركون إليها [1].

ومما ساعد على كثرة تسرب الإسرائيليات إلى كتب التفسير وغيرها ترجمة التوراة وشروحها. فقد ذكر صاحب الفهرست [2]. أن أحمد بن عبد الله بن سلام ترجم التوراة ترجمة دقيقة؛ وبذلك قدم هذا الرجل وغيره للمفسرين مادة خصبة جديدة من الإسرائيليات يضيفونها إلى تفسير القرآن الكريم، ومن ثم توسع المفسرون والمؤرخون في الاستعانة بهذه الترجمات في تصوير أخبار ما قبل البعثة، وكانوا أحياناً يتزيدون في هذه الأخبار وذلك كلها استبد بالمفسر الميل إلى الإغراب والتقصي لجزئيات الحوادث، وقد جرأهم على ذلك ضعف ملكة النقد عند معاصريهم.

ولقد وجدنا لهذه الإسرائيليات أثراً واضحاً في كثير من العلوم التي دونت منها: التفسير والحديث والتاريخ، ولما كان التفسير يستمد كثيراً من هذه العلوم الثلاثة، وله صلة بها؛ نرى أن نعرض للإسرائيليات فيها باختصار ثم نعرض بعد ذلك بتوسع لأثر الإسرائيليات في كتب التفسير لأنه من صلب موضوع بحثنا.

---

(١) التفسير والمفسرون « ١: ١٧٦ – ١٧٧ ».

(٢) الفهرست لابن النديم « ص ٣٢ ».

الإسرائيليات في الحديث

إذا تتبعنا كتب السنة وجدنا فيها كثيراً من أخبار بني إسرائيل مروياً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسانيد صحيحة ، منها : ما يكون تفسيراً لما ورد في القرآن الكريم ، كالأحاديث الواردة في تفسير قوله تعالى في الآية ٥٨ من سورة البقرة : (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين) فقد روى البخاري في صحيحه في كتاب التفسير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا : حبة في شعرة) . ومنها ماخرج مخرج القصص والأمثال والمواعظ بقصد الترغيب والترهيب ؛ ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه[1] عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت ، فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً يعلمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه . فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه . فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي . وإذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر . فبينا هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم ، الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة

---

(١) كتاب الزهد والرقائق . باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام » ٤ : ٢٢٩٩ » .

حتى يمضي الناس ، فرماها فقتلها ، ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أي بني ، أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ماأرى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل علي ، وكان الغلام يبرىء الأكمه [1] . والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء . فسمع جليس الملك كان قد عمي ، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال : ماهاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لاأشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟ قال : ربي، قال : ولك رب غيري ؟ قال : ربي وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام . فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ماتبرىء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل !! فقال: إني لاأشفي أحداً ، إنما يشفي الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له : ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بجليس الملك ، فقيل له ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه . ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى . فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا . فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: مافعل أصحابك قال : كفانيهم الله ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور [2] فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه ، فذهبوا به . فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، فجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك : مافعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله . فقال : للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ماآمرك به . قال: وماهو ؟ قال : تجمع الناس

---

(١) الأكمه : الذي خلق أعمى .

(٢) القرقور : السفينة الصغيرة .

في صعيد واحد وتصلبني على جذع . ثم خذ سهماً من كنانتي . ثم ضع السهم في كبد القوس . ثم قل : باسم الله ، رب الغلام ، ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه . فوقع السهم في صدغه ، فوضع يده في صدغه في موضع السهم . فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، فأتي الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود في أفواه السكك ، فخدت وأضرم النيران وقال : من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها[2] أو قيل له : اقتحم . ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها . فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أمه ! اصبري فإنك على الحق .

ومن ذلك أيضاً قصة الأقرع والأبرص والأعمى[3] وحديث جريج العابد ، والثلاثة الذين التجأوا إلى الغار[4] ، وغير ذلك من أحاديث بني إسرائيل .

وهذه الأخبار الاسرائيلية التي حدث بها رسول الله ﷺ لغرض العظة والعبرة صحيحة مقبولة — كما قلنا — ، ولكنا وجدنا في الحديث كما وجدنا في التفسير أخباراً إسرائيلية كثيرة منسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد دسها في الحديث — في الأعم الأغلب — طائفتان هما : — الزنادقة والقصاص ، فقد وجدت هاتان الطائفتان في مرويات أهل الكتاب وأساطير القدماء مادة خصبة ، فاستمدوا من هذين المصدرين ماشوهوا به وجه الاسلام .

١ — ومن أمثلة مادسه الزنادقة على الاسلام :

أ — ماروي من أنه قيل : يارسول الله ، مم ربنا ؟ قال : من ماء مرور لا من

---

(٢) ارموه فيها .

(٣) ، (٤) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ماذكر عن بني إسرائيل ٤ : ٢٠٨ — ٢١٠ .

أرض ولا سماء ، خلق خيلاً فأجراها فعرقت ، فخلق نفسه من ذلك العرق [1].

ب - ومنها حديث : « إن الدنيا سبعة آلاف سنة ، بعثت في آخرها » . وقد أورده ابن الجوزي في الموضوعات وقال ابن الأثير : ألفاظه مصنوعة [2] .

وقد ضعف الشيخ رشيد رضا رحمه الله الروايات الواردة في عمر الدنيا ، ونقدها بقوله : (وما جاء في الآثار من أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة مأخوذ من الإسرائيليات التي كان يبثها زنادقة اليهود والفرس في المسلمين حتى رووه مرفوعاً ، وقد اغتر بها من لا ينظرون في نقد الروايات إلا من جهة أسانيدها ، حتى استنبط بعضهم منها ما بقي من عمر الدنيا . وللجلال السيوطي رسالة في ذلك هدمها عليه الزمان ، كما هدم أمثالها من التخرصات والأوهام ، وما بث في الإسرائيليات من الكيد للاسلام . قال السيد الآلوسي : وإنما أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك ، فإنه أدعى إلى الطاعة والزجر عن المعصية ، كما أن إخفاء الأجل الخاص للانسان كذلك)[3] .

جـ - ومنها ما أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم - وصححه - عن ابن عمر مرفوعاً : إن بين كل أرض والتي تليها خمسمائة عام ، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء ، والحوت على صخرة ، والصخرة بيد ملك ، والثانية سجن الريح ، والثالثة فيها حجارة جهنم ، والرابعة فيها كبريتها ، والخامسة فيها حياتها ، والسادسة فيها عقاربها والسابعة ، وفيها إبليس مصفد بالحديد ، يد أمامه ويد خلفه ، يطلقه الله تعالى لمن يشاء أه .. وقد علق الآلوسي على هذا الحديث بقوله : (وهو حديث منكر - كما قال الذهبي - لا يعول عليه أصلاً فلا تغتر بتصحيح الحاكم ، ومثله في ذلك أخبار كثيرة في هذا الباب ولولا خوف الملل لذكرناها لك)[4] .

---

(١) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لابن عراق « ١ : ٣٤ » .

(٢) نقلاً عن تفسير المنار « ٩ : ٤٣٦ » .

(٣) تفسير المنار « ٩ : ٤٣٢ » .

(٤) تفسير الآلوسي « ٢٨ : ٤٣١ » .

٢ ــ ومن أمثلة ما دسه القصاصون على الاسلام :

أ ــ أن في الجنة شجرة يخرج من أعلاها الحلل ، ومن أسفلها خيل بلق من ذهب مسرجة ملجمة بالدر والياقوت لا تروث ولا تبول ، ذوات أجنحة ، فيجلس عليها أولياء الله فتطير بهم حيث شاؤوا[١] .

ب ــ وكان بعض هؤلاء القصاص شحاذين يضعون من الحديث ما يرغبون به الناس في الاحسان إليهم والعطف عليهم ، من هذا ما رواه السيوطي في كتابه (تحذير الخواص من أكاذيب القصاص)ص ٤٨ وما بعدها ، عن جعفر بن محمد الطيالسي قال : (صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين في مسجد الرصافة ، فقام بين أيديهم قاص ، فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، قالا : حدثنا عبدالرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيراً منقاره من ذهب وريشه من مرجان ... وأخذ في قصة نحواً من عشرين ورقة ، فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحيى بن معين ، وجعل يحيى بن معين ينظر إلى أحمد ، فقال له : أنت حدثته بهذا ؟ فقال : والله ما سمعت بهذا إلا الساعة ، فلما فرغ من قصصه وأخذ العطيات ثم قعد ينتظر بقيتها ، قال له يحيى بن معين بيده : تعال ، فجاء متوهماً لنوال ، فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث ؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، فقال له : أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل ، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان ولا بد والكذب فعلى غيرنا . فقال له : أنت يحيى بن معين ؟ قال : نعم ، قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق ، ما حققته إلا الساعة ، فقال له يحيى : وكيف علمت أني أحمق ؟ قال : كأن ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما . وقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين !! فوضع أحمد كمه على وجهه ، وقال : دعه يقوم ، فقام كالمستهزىء بهما أهـ .

---

(١) تنزيه الشريعة المرفوعة « ٢ : ٣٧٨ » .

جـ ـ ولقد بالغ بعض القصاصين فيما يقصونه على الناس، حتى خرجوا بذلك عن حد الشرع والعقل الأمر الذي أفزع عقلاء المسلمين، فهذا قص يحدث بقصة داود وأوريا، فبلغ ذلك سيدنا علياً كرم الله وجهه، فيقول: (من حدث بحديث داود على ما يرويه القصـــاص جلدته مائـة وستين جلدة، وذلك حـــد الفرية على الأنبياء)[1].

وقد بين ابن قتيبة الوجوه التي يدخل فيها الفساد على الحديث بقوله: والحديث يدخله الفساد من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: الزنادقة واحتيالهم للاسلام[2]، وتهجينه بدس الأحاديث المستشنعة والمستحيلة، كالأحاديث التي قدمنا ذكرها من عرق الخيل، وعيادة الملائكة، وقفص الذهب على جمل أورق، وزغب الصدر، ونور الذراعين[3] مع أشياء كثيرة ليست تخفى على أهل الحديث.

والوجه الثاني: القصاص على قديم الأيام، فإنهم يميلون وجوه العوام إليهم ويستدرون ماعندهم بالمناكير والغريب والأكاذيب من الأحاديث، ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجيباً خارجاً عن فطر العقول، أو كان رقيقاً يحزن القلوب، ويستغزر العيون. فإذا ذكر الجنة قال: فيها الحوراء من مسك أو زعفران، وعجيزتها ميل في ميل، ويبوىء الله تعالى وليـــه قصراً من لؤلؤة بيضاء فيـه سبعون ألف مقصورة، في كل مقصورة سبعون ألف قبة، في كل قبة سبعون ألف فراش على كل فراش سبعون ألف كذا وكذا، فلايزال في سبعين ألف كذا وسبعين ألف كذا، كأنه يرى أنه لا يجوز أن يكون العدد فوق السبعين ألفاً ولادونها، ويقول: لأصغرمن في الجنة منزلة عند الله من يعطيه الله تعالى مثل الدنيا كذا وكذا ضعفاً. وكلما كان هذا أكثر كان العجب أكثر والقعود عنده

(١) تفسير النسفي ٥/٤: ٢٩-٣٠.

(٢) تحويلهم له عن قصده.

(٣) والقصص التي أشار إليها ذكرها في مقدمة كتابه تماما ويمكن الرجوع إليها

أطول والأيدي بالعطاء إليه أسرع . والله تبارك وتعالى يخبرنا في كتابه بما في جنته بما فيه مقنع عن أخبار القصاص وسائر الخلق إلى أن قال : ثم يذكر آدم عليه السلام. ويصفه فيقول: كان رأسه يبلغ السحاب أوالسماء ويحا كثها، فاعتراه لذلك الصلع، ولما هبط على الأرض بكى على الجنة حتى بلغت دموعه البحر وجرت فيها السفن . ويذكر داود عليه السلام فيقول : سجد لله تعالى أربعين ليلة وبكى حتى نبت العشب بدموع عينيه ، ثم زفر زفرة هاج[1] له ذلك النبات . ويذكر عصا موسى عليه السلام فيقول : كان نابها كنخلة سحوق وعينها كالبرق الخاطف وعرفها كذا ، ثم قال : ويذكر عباداً أتاهم يونس عليه السلام في جبال لبنان فيخبرهم عن الرجل أنه كان يركع ركعة في سنة ويسجد نحو ذلك ، ولا يأكل إلا في كذا وكذا من الزمان .. الخ[2] .

الوجه الثالث : وإذا كان هؤلاء الزنادقة والقصاص قد روجوا لما رووه من الاسرائيليات بنسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك عن خبث نية منهم؛ فإن بعض علماء المسلمين قد وقع في مثل هذا حيث رفعوا ماهو موقوف على الصحابة أو التابعين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك عن غفلة منهم يقول الشيخ رشيد رضا : (كان الرواة ينقلون عن الصحابي أو التابعي ما مصدره هذه الاسرائيليات من غيربيان؛ فيغتر به بعض الناس فيظنون أنه لابدأن يكون له أصل مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه لايعرف بالرأي، فيعدونه من الموقوف الذي له حكم المرفوع)[3] .

والخطأ الذي يقع في الحديث يكون على وجوه مختلفة منها :

١ ــ رفع ماهو موقوف على الصحابة مما أخذوه عن أهل الكتاب ، وكان هذا يقع كثيراً لبعض الرواة، يقول بشر بن سعيد: (اتقوا الله وتحفظوا من

---

(١) هاج : يبس .

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة « ص ٢٧٩ ــ ٢٨٤ » .

(٣) تفسير المنار « ٨ : ٣٥٦ » .

الحديث ، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة ، فيحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحدثنا عن كعب الأحبار ثم يقوم ، فاسمع بعض من كان معنا يجعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كعب ، وحديث كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاتقوا الله وتحفظوا في الحديث)[1] .

ومن أمثلة ذلك :

أ ـ روى الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عمر بن إبراهيم ، حدثنا قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لما ولدت حواء طاف بها إبليس ، وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سميه عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث ، فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره) أ هـ . وهذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن عمر بن إبراهيم هذا قد وثقه ابن معين ولكن قال أبو حاتم الرازي : لا يحتج به .

ثانيها : أنه قد روي من قول سمرة نفسه وليس مرفوعاً كما روى ابن جرير عن سمرة بن جندب ، قال : سمى آدم ابنه عبد الحارث .

ثالثها : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا ، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه : روى ابن جرير عن الحسن : (جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال : كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم . وقال الحسن : عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده ، يعني (جعلا له شركاء فيما آتاهما) وكان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا أ هـ . وهذا هو التفسير الصحيح للآية ؛ لأنه لا يعقل أن يفسر الرسول صلى الله عليه وسلم الآية بما

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير « ٨ : ١٠٩ » ونحوه في سير أعلام النبلاء « ٢ : ٤٣٦ » .

نسب إليه ، لما يؤدي إليه من الطعن على آدم وزوجه ورميها بالشرك ، ويظهر أنه من جملة الإسرائيليات التي دخلت علينا في ديننا .

وقد علق ابن كثير على تفسير الحسن للآية بقوله : (أسانيدها صحيحة عن الحسن: أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ماحملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث – يقصد حديث سمرة – عنده محفوظاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل هو ولا غيره عنه ، ولاسيما مع تقواه وورعه ، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي . ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم)[1] .

ب – وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غابت فقال : (في نار الله الحامية لولا مايزعها من أمر الله لأحرقت ماعلى الأرض) ورواه الامام أحمد في مسنده أيضاً[2] .

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : (وفي صحة رفع هذا الحديث نظر ولعله، من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه اللتين وجدهما يوم اليرموك[3]) .

جـ – وروى الامام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله ،

---

(١) تفسير ابن كثير « ٢ : ٢٧٤ – ٢٧٥ » وانظر البداية والنهاية « ١ : ٩٦ » .

(٢) المسند – مسند عبد الله بن عمرو « ١١ : ١٥٩ » وقد علق عليه الشيخ أحمد شاكر بقوله : إسناده ضعيف لجهالة مولى عبد الله بن عمرو راويه .

(٣) تفسير ابن كثير « ٣ : ١٠٢ » .

فيستثني فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه ... الخ) ويعلق ابن كثير على الحديث بقوله : (ولعل أباهريرة تلقاه من كعب فإنه كان كثيراً ما كان يجالسه ، ويحدثه ، فحدث به أبو هريرة ، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع فرفعه)[1] .

٣ – ومن وجوه الخطأ في الحديث رفـــع ماهو موقوف عـــلى التابعي ومثاله :

أ ـ مارواه محمد بن إسحاق عن الزهري عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (وكان مثل بلعم بن باعوراء في بني إسرائيل كمثل أمية بن أبي الصلت في هذه الأمـــة) وعلق ابن عساكر على الحديث بقوله : (والحديث موقوف على ابن المسيب)[2]

ب ـ وما رواه ابن جرير في تفسيره قال : حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل قال :هشام بن يوسف ، عن أمية بن شبل ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن أبي هريرة ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي عن موسى صلى الله عليه وسلم على المنبر ، قال : وقع في نفس موسى هل ينام الله تعالى ذكره ، فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً ثم أعطاه قارورتين وأمره أن يحتفظ بهما . قال : فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ، ثم يستيقظ فيحبس إحداهما عن الأخرى ، ثم نام نومة فاصطمت يداه وانكسرت القارورتان ، قال : ضرب الله مثلاً ، إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض[3] .

وعلق ابن كثير على هذا بقوله : (وهذا حديث غريب رفعه ، والأشبه أن يكون موقوفاً وأن يكون أصله إسرائيلياً)[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير « ٣: ١٠٤ — ١٠٥ » .
(٢) تفسير المنار « ٩ : ٣٨٢ » .
(٣) تفسير الطبري « ٣: ٦ » .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير « ١ : ٢٩٣ » .

الإسرائيليات في كتب التاريخ

وقد اشتملت بعض كتب التاريخ والسير وما شاكلها على موضوعات وروايات إسرائيلية مكذوبة ؛ يظنها من يغتر بها أنها من الروايات الاسلامية . وليست منها في شيء ، والأخباريون والمؤرخون ، من شأنهم التساهل في إيراد الأحاديث ، ولا يدققون تدقيق المحدثين ، وبخاصة فيما يتعلق ببدء الخلق ، وأسرار الوجود ، وأحوال الأمم السابقة ، والملاحم ، والفتن المنتظرة ؛ يقول ابن جرير ، في مقدمة تاريخه : (... فما كان في كتابي هذا ، مما يستنكره قارئه ، أو سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا ، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أُدي إلينا)[1] وقال الإمام أحمد : (... ثلاثة كتب ليس لها أصل ، التفسير ، والملاحم ، والمغازي) وقد نقد المحدثون مَنْ تصدوا للتاريخ والأخبار ، وبينوا منزلتهم في الحديث[2] . ومن أمثلة ما ذكره المؤرخون مما لا صحة له :

(١) تاريخ الطبري ١ : ٧ - ٨ .

(٢) فمن رجال كتب السير في الشرق محمد بن إسحق ، ومع كونه عمدة في المغازي ، فقد وثقه قوم ، ووهاه آخرون ، وآخذوا عليه أنه روى في السير أشياء كثيرة منكرة ، منقطعة ، وكان يحدث عن أهل الكتاب . وراويته زياد البكائي ، مختلف فيه ، ضعفه النسائي وتركه ابن المديني وقال أبو حاتم : لايحتج به . وراويته الآخر سلمة بن الفضل الرازي مختلف فيه ، يقول أبو حاتم عنه أيضاً : لا يحتج به ، وراوية سلمة هذا هو محمد بن حميد الرازي ، مختلف فيه ، وقد كذبه كثيرون أشنع تكذيب . وبطريقه يسوق ابن جرير الطبري روايات ابن إسحق ، ومنهم هشام بن محمد الكلبي وأبوه ، وهما معروفان بالكذب ، ومنهم محمد بن عمر الواقدي ؛ وقد كذبه أناس=

١ — ما ذكره الثعلبي في الباب الأول في بدء خلق الأرض وكيفيتها من من كتاب (قصص الأنبياء) قال ما نصه : (إن الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السموات والأرض ، ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت ماء ، ثم نظر إلى الماء ، فغلى وارتفع منه زبد ودخان ، وبخار ، وأرعد من خشية الله ، فمن ذلك اليوم يُرعَد إلى يوم القيامة).

ثم قال : (ثم بعث الله تعالى من تحت العرش ملكاً ، فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع ، فوضعها على عاتقه ، إحدى يديه في المشرق ، والأخرى في المغرب ، باسطتين ، قابضتين ، على قرار الأرضين السبع ، حتى ضبطها ، فلم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن ، وأربعون ألف قائمة ، وجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تستقر قدماه ، فأحضر الله ياقوتة خضراء من أعلى درجة من الفردوس ، غلظها مسيرة خمسمائة عام ، فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه ، فاستقرت عليها قدماه ، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض وهي كالحسكة تحت العرش ، ومنخر ذلك الثور في البحر فهو يتنفس كل يوم نفساً ، فإذا تنفس مد البحر ،

— بل جعله النسائي من كبار الكذابين ، والذين وثقوه أخذوا عليه أن في روايته كثيراً من الأخبار الكاذبة ، حيث كان يروي عن كل من هب ودب ، والخبر لا يسلم ما لم يسلم سنده . ومنهم سيف بن عمر التميمي ، صاحب كتاب (الردة والفتوح) ويقول عنه أبو حاتم : متروك الحديث يشبه حديثه حديث الواقدي . وقال الحاكم : اتهم بالزندقة وهو في الرواية ساقط . وقال ابن حبان : قالوا إنه كان يضع الحديث ، يروي الموضوعات عن الأثبات ، اتهم بالزندقة ، وضعفه غير واحد ، وراويته شعيب بن إبراهيم يقول عنه الذهبي : فيه جهالة ، ويقول ابن عدي : ليس بالمعروف ، وله أحاديث وأخبار فيها ما فيه تحامل على السلف . اهـ . والراوي عنه السري بن يحيى غير موثق ، وهو شيخ ابن جرير في رواياته عن سيف . وأما من فوق سيف من الرجال فمجاهيل في الغالب . ومنهم موسى بن عقبة ، وقد أثنوا عليه خيراً ، إلا أن رواياته عن ابن شهاب وقد ذكر الاسماعيلي أنه لم يسمع منه شيئاً ، وابن شهاب تغلب عليه المراسيل في باب المغازي والسير ، ومراسيله شبه الريح عند أهل النقد . (مقالات الكوثري ص ٤٥٦ — ٤٥٧) .

وإذا رد نفسه جزر ، ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار ، فخلق الله تعالى صخرة خضراء ، غلظها كغلظ سبع سموات وسبع أرضين ، فاستقرت قوائم الثور عليها .. الخ)[1] ثم قال : (قال كعب الأحبار: إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض ، فوسوس إليه ، وقال له : أتدري ما على ظهرك يا لوتيا من الأمم والدواب والشجر والجبال وغيرها، لو نفضتها أو ألقيتها عن ظهرك أجمع لكان ذلك أروح لك . قال : فهم لوتيا أن يفعل ذلك ، فبعث الله تعالى إليه دابة فدخلت في منخره فوصلت إلى دماغه[2]) .

٢ — وما ذكره ابن جرير الطبري في تاريخه عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (.. كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً . يدعوهم إلى الله عز وجل؛ حتى كان آخر زمانه ، غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ، ثم جعل يعمل سفينة ، فيمرون فيسألونه فيقول: أعملها سفينة ، فيسخرون منه ، ويقولون : تعمل سفينة في البر فكيف تجري ؟ فيقول : سوف تعلمون ، فلما فرغ منها ، وفار التنور ، وكثر الماء في السكك ، خشيت أم الصبي عليه ، وكانت تحبه حباً شديداً ، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثي الجبل ، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها حتى ذهب به الماء ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي)[3] وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : (.. وهذا حديث غريب وقد روي عن كعب الأحبار وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفاً متلقى عن مثل كعب الأحبار)[4] وروى ابن جرير أيضاً عن

---

(١) قصص الأنبياء « ص ٤ » ، وانظر الأساطير العربية قبل الإسلام للدكتور محمد عبد المعيد خان « ص ١٥٠ » وما بعدها .

(٢) قصص الأنبياء « ص ٥ » وانظر الأساطير العربية قبل الاسلام «ص ١٥٢».

(٣) تاريخ الطبري « ١ : ١٨٠ » .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير « ١ : ١١٣ ، ١١٤ » .

وهب بن منبه ، قال : (ثم نبىء فيهم – يعني في بني إسرائيل – بعده – يعني بعد إلياس – اليسع ، فكان فيهم ماشاء الله أن يكون ، ثم قبضه الله إليه ، وخلفت فيهم الخلوف ، وعظمت فيهم الخطايا وعندهم التابوت يتوارثونه كابراً عن كابر ، فيه السكينة . وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، فكان لايلقاهم عـــدو ، فيقدمون التابوت ، ويزحفون به معهم إلاهزم الله ذلك العدو ، والسكينة – فيما ذكر ابن إسحق ، عن وهب بن منبه ، عن بعض أهل العلم من بني إسرائيل – رأس هرة ميتة ، فإذا صرخت في التابوت بصراخ هر أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح[1]) .

٣ – وروى ابن الأثير في الكامل – عند ذكر الطوفان – عن مجاهـــد والشعبي ، قالا : (كان التنور بأرض الكوفة ، وأخبرته زوجته – يعني زوجة نوح عليه السلام – بفوران الماء من التنور . وأمر الله جبرائيل فرفع الكعبة إلى السماء الرابعة . وكان آخر من دخل السفينة الحمار ، فلما دخل صدره تعلق إبليس بذنبه ، . . . وعلا الماء على رؤوس الجبال ، فكان على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً ، فهلك ما على وجه الأرض من حيوان ونبات ، فــلم يبق إلا نوح ومن معه وإلا عوج بن عنق ، فيما زعم أهل التوراة ، وكان بين إرسال الماء وبين أن غاض ستة أشهر وعشر ليال ، وطافت السفينة بالأرض كلها لاتستقر حتى أتت الحرم فلم تدخله ، ودارت بالحرم أسبوعاً ثم ذهبت في الأرض تسير بهم حتى انتهت إلى الجودي[2] . وروي أيضاً عن وهب بن منبه أنه قال : (إن سام بن نوح أبو العرب وفارس والروم ، وأن حام أبو السودان ، وأن يافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج . وقيل إن القبط من ولد قوط بن حام ، وإنما كان السودان في نسل حام ؛ لأن نوحاً نام فانكشفت سوأته ، فرآها حام فلم يغطها ، ورآها سام ويافث ، فألقيا عليه ثوباً ، فلما استيقظ علم ما صنع حام وإخوته فدعا عليهم .)[3] اهـ .

---

(١) تاريخ الطبري « ١ : ٤٦٣ – ٤٦٤ » .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير « ١ : ٤٠ – ٤١ » .

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير « ١ : ٤٤ » قلت وهذا الخبر في الاصحاح التاسع من سفر التكوين من العهد القديم .

٤ – وروى الحافظ ابن كثير عن كعب الأحبار : أن معاوية سأله عن الصخرة – يعني صخرة بيت المقدس – فقال الصخرة على نخلة، والنخلة على نهر من أنهار الجنة، وتحت النخلة مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط، أهل الجنة، حتى تقوم الساعة. وروي بطريق آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلق ابن كثير عليه بقوله : (وهذا منكر من هذا الوجه ، بل هو موضوع . قال الحافظ ابن عساكر، وكونه من كلام كعب الأحبار أشبه . قلت وكلام كعب الأحبار هذا إنما تلقاه من الإسرائيليات التي منها ما هو مكذوب مفتعل وضعه بعض زنادقتهم أو جهالهم، وهذا منه) .[1]

٥ – وفي كتب التاريخ روايات دست فيها على يد أعداء الاسلام الذين قصدوا من ورائها تشويه سمعة الاسلام، وسمعة القائمين بالدعوة إلى الاسلام . ومن أمثلة ذلك . حديث الغرانيق ، وقد رواه غير واحد من كتاب السيرة، وأشار إليه غير واحد من المفسرين، ووقف عنده كثيرون من المستشرقين طويلاً. وهو حديث ظاهر التهافت ينقضه قليل من التمحيص .

ومن ذلك أيضاً قصة زينب بنت جحش وسنزيفها وتزييف حديث الغرانيق عند الكلام عن المستشرقين والإسرائيليات .

* * *

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير « ٢ : ٦٣ » .

الباب الثالث

الإسرائيليات في كتب التفسير

أولا : موقف المفسرين من الإسرائيليات بإجمال :

لم يطمئن كثير من المسلمين منذ عصور مبكرة إلى التفسير المروي في جملته ، فتناولوه بالنقد إجمالاً وتفصيلاً ، فأحمد بن حنبل يقول : (ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي) [1].

---

(١) شككك بعض الكتاب المعاصرين في أحاديث التفسير كلها ، واستدل على ذلك بقول الامام أحمد بن حنبل :(ثلاثة ليس لها أصـــل . . . الخ) ونقسم الرد عليه إلى قسمين :

الأول — في أحاديث التفسير .

الثاني — فيما نقله عن الإمام أحمد .

أولاً : أما أحاديث التفسير ؛ فلا يخفى على من طالع كتب السنة أنها أثبتت شيئاً كبيراً منها بطرق صحيحة لا غبار عليها . وما من كتاب في السنة إلا وقد أفرد فيه مؤلفه باباً خاصاً لما ورد في التفسير عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو الصحابة أو التابعين . وقد اشترط علماء التفسير على من يفسر كتاب الله عز وجل أن يعتمد فيه على ما نقل عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك . قال الإمام أبو جعفر الطبري في تفسيره :(إن مما أنزل الله من القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم مالا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان =

ويقول ابن تيمية في رسالته (مقدمة في أصول التفسير) بعد ذكر

= الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره (واجبه وندبه وإرشاده ، وصنوف نهيه) تفسير الطبري ١/٢٥ أهـ . وقال أبو حيان صاحب البحر المحيط — في مقدمة تفسيره — في صدد ما يحتاج إليه المفسر (الوجه الرابع) تعيين مبهم وتبيين مجمل وسبب نزول ونسخ، ويؤخذ ذلك من النقل الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك من علم الحديث . وقد تضمنته الكتب والأمهات التي سمعناها ورويناها ذلك كالصحيحين والجامع للترمذي وسنن أبي داود أهـ وأخذ يعدد كتب السنة .

وفي الاتقان للسيوطي « ٢ : ١٧٦ » .. قال ابن تيمية : (يجب أن يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه . فقوله تعالى :(لتبين للناس ما نزل إليهم) يتناول هذا وهذا ، وقسم الزركشي القرآن إلى قسمين ، قسم ورد تفسيره بالنقل وهو إما عن النبي صلى الله عليه وسلم أو الصحابة أو التابعين ، وقسم لم يرد (انظر البرهان ٢ : ١٧٢) فأنت ترى أنهم جعلوا التفسير بين منقول وغير منقول ، وأوجبوا على المفسر أن يرجع إلى الأول ويعرفه . ولو لم يصح منه شيء ما أوجبوا الرجوع إليه .

وهناك من العلماء من ذهب إلى أنه لا يجوز التفسير إلا بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال السيوطي في الاتقان « ٢ : ١٨٠ » اختلف الناس في تفسير القرآن ، هل يجوز لكل أحد الخوض فيه ؟ فقال قوم : لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن ، وإن كان عالماً أديباً متسعاً في معرفة الأدلة والفقه والنحو والأخبار والآثار ، وليس له إلا أن ينتهي إلى ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك .. الخ) وهذا .. وإن كان خلاف المعتمد إلا أنه يدل على أن هناك آثاراً في التفسير لا يصح تجاهلها ، ولا يسوغ لأي عالم إنكارها ؛ كيف وقد ورد عن الشافعي في مختصر البويطي أنه لا يحل تفسير المتشابه إلا بسنة عن النبي صلى الله عليه وسلم أو خبر عن أحد من الصحابة أو إجماع العلماء . نعم .. إن الذي نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم من تفسيره أقل مما لم ينقل ، والذي صح عنه أقل مما لم يصح ولكن هذا لا يجوز تشكيك الناس في جملته .

ثانياً — وأما ما نقله عن الإمام أحمد في أحاديث التفسير فهو يشير إلى ما روي عنه في قوله : « ثلاثة ليس لها أصل ، التفسير والملاحم والمغازي » وفي رواية « ثلاثة كتب لا أصل لها ، المغازي والملاحم والتفسير » . =

الحديث وذكر الأدلة على كذبه : (وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة

= والكلام عن هذه العبارة من وجوه :

أولاً — إن في النفس من صحتها شيئاً ؛ فإن الإمام أحمد نفسه قد ذكر في مسنده أحاديث كثيرة في التفسير، فكيف يعقل أنه يخرج هذه الأحاديث ويثبتها عن شيوخه في مسنده ثم يحكم بأنه لم يصح في التفسير شيء . وأيضاً فتقتضي هذه العبارة أن يكون كل ماروي عن أخبار العرب ومغازي المسلمين مكذوباً من أصله . ومن يقول بهذا ؟!

ثانياً — إن نفي الصحة لا يستلزم الوضع أو الضعف قطعاً ؛ بل معنى ذلك أنه غير صحيح عنده وعلى حسب شروطه التي اشترطها في صحة الحديث ، فلئن كان غير صحيح عنده فقد يكون صحيحاً عند غيره ، وقد عرف عن الإمام أحمد خاصة نفي الصحة عن أحاديث وهي مقبولة وقالوا في تأويل ذلك : إن هذا الاصطلاح خاص به . قال اللكنوي في (الرفع والتكميل) : « كثيراً ما يقولون — لا يصح .. أو لا يثبت هذا الحديث » . ويظن منه من لا علم له أنه موضوع أو ضعيف ، وهو مبني على جهله بمصطلحاتهم وعدم وقوفه على مصرحاتهم فقد قال علي القاري : في « تذكرة الموضوعات » : لا يلزم من عدم الثبوت وجود الوضع ، وقال الحافظ ابن حجر ، في تخريج أحاديث الأذكار المسمى (بنتائج الأفكار) . ثبت عن أحمد بن حنبل أنه قال : لا أعلم في التسمية — أي التسمية في الوضوء — حديثاً ثابتاً . قلت : لا يلزم من نفي العلم ثبوت العدم ، وعلى التنزل لا يلزم من نفي الثبوت ثبوت الضعف ، لاحتمال أن يراد بالثبوت الصحة فلا ينتفي الحسن اهـ .

ثالثاً — الإمام أحمد لم يقل إنه لم يصح في التفسير شيء ، وإنما قال : « ثلاثة ليس لها أصل » . والظاهر أن مراده نفي كتب خاصة بهذه العلوم الثلاثة بدليل ما جاء في الرواية الثانية مصرحاً به : « ثلاثة كتب » وهذا المعنى هو ما فهمه الخطيب البغدادي حيث قال : « إن هذا محمول على كتب مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة ، فأشهرها كتابان الكلبي ومقاتل ابن سليمان . وقد قال الإمام أحمد في تفسير الكلبي : من أوله إلى آخره كذب لا يحل النظر فيه » .

رابعاً — يحتمل أن يكون مراد الإمام أحمد أن ما صح من التفسير قليل بالنسبة لما لم يصح ؛ قال الزركشي في البرهان « ٢ : ١٥٦ » : للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة ؛ أمهاتها أربعة : الأول — النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو الطراز الأول ، لكن يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع فإنه كثير . قال الميموني سمعت أحمد بن حنبل يقول : ثلاثة كتب ليس لها أصول : المغازي والملاحم —

مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي والزمخشري في فضائل سور القرآن سورة سورة ، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم)[1].

ثم ينقد ابن تيمية نفسه بعض رجال هذا التفسير الذين تهافتوا على رواية الآثار الضعيفة ، فيقول : (والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، وكان حاطب ليل ، ينقل ماوجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع . والواحدي صاحبه كان أبصر منه بالعربية لكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف .

والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي ، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة . والموضوعات في كتب التفسير كثيرة ومنها الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة ، وحديث علي الطويل في تصدقه بخاتمه في الصلاة فإنه موضوع باتفاق أهل العلم)[2] .

وقال أيضاً : في موطن كلامه عن التفسير المأثور : (وما نقل في ذلك عن بعض الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين)[3] .

وقد تنبه الأئمة القدامى إلى كثرة ماروي عن ابن عباس فنقدوه، وقد صح

= والتفسير . قال المحققون من أصحابه : ومراده أن الغالب أنها ليس لها أسانيد صحاح متصلة وإلا فقد صح من ذلك كثير . . الخ أهـ .

وقصارى القول: إن الاستشهاد بعبارة الإمام أحمد بن حنبل للتشكيك في أحاديث التفسير كلها غير صحيح ، يبطله ، ثبوت أحاديث التفسير في أمهات الكتب الصحيحة كالبخاري ومسلم والموطأ والترمذي ، بل في مسند الإمام أحمد نفسه . (انظر السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي للاستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله ص ٢١٨ وما بعدها) .

(١) مقدمة في أصول التفسير « ص ٣٢ » .

(٢) مقدمة في أصول التفسير « ص ٣٢ - ٣٣ » .

(٣) المصدر السابق « ص ١٩ » .

عن الإمام الشافعي أنه قال : (لم يثبت عن ابن عباس إلا شبيه بمائة حديث[1]) كما تعرضوا لنقد الرواة عنه فقالوا : أوهى طرقه ، طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، فإذا انضم إليها محمـــد بن مروان السُّدّي الصغير . فهي سلسلة الكذب[2] .

ولقد كان لجهابذة الحديث ونقاده جهاد مشكور في الكشف عن هــــذه الاسرائيليات وتمييز صحيحها من باطلها وغثها من سمينها ، كما كان لبعض المفسرين فضل التنبيه على بطلان بعض ماروي من الإسرائيليات في كتب التفسير ، كابن كثير ، والفخر الرازي ، والآلوسي ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ رشيدرضا ، وفارس هذه الحلبة هو الحافظ ابن كثير فقد تصدى في كتابيه التفسير والتاريخ لنقد هذه الإسرائيليات وتحقيق القول فيها .

وقديماً شعر بعض المحدثين بالنقص الذي يوجد في كتب التفسير من ذكر الأحاديث بلا سند ولا عزو ؛ فألف الحافظ الزيلعي تخريجاً لأحاديث الكشاف ، وقفاه الحافظ ابن حجر فاختصره في كتاب سماه (الكاف الشاف ، من تخريج أحاديث الكشاف) . وقد أحسنا بهـــذا العمل الجليل حيث ميزا المقبول من المردود ، وما أحوج كتب التفسير إلى مثل هذه التخريجات .

وبالجملة فكتب التفسير من عهد ابن جرير إلى اليوم لا يكاد يخلو تفسير منها من إسرائيليات إلا أنها متفاوتة قلة وكثرة .

نعم . . هناك مفسرون وقفوا من هــــذه الروايات موقف الناقد المنكر - كما سبق أن ذكرنا - وبخاصة المتأخرين منهم ؛ الذين تسنى لهم الاطلاع على أسفار أهل الكتاب بعد أن ترجمت ، وعرفوا ما فيها من تهافت وتحريف وتغيير ؛ إلا أن هذا لم يكن شاملاً ، وإن الناقدين أنفسهم رووا كثيراً منها في مناسبات كثيرة .

---

(١) الاتقان « ٢ : ١٨٩ » .

(٢) الاتقان « ٢ : ١٨٩ » .

وفي اعتقادي أن سبب الإكثار أو الإقلال من رواية هذه الإسرائيليات في كتب التفسير يرجع إلى رأي المفسر في حكم روايتها وإلى بيئته وثقافته ، ويتضح ذلك فيما يأتي :

ثانياً : موقف المفسرين من الإسرائيليات بالتفصيل .

لانريد أن نستقصي هنا جميع الكتب المدونة في التفسير لأن هذا أمر لايتيسر لنا، نظراً لعدم وقوع كثير منها في أيدينا ، ولو تيسر ذلك وذهبنا نتكلم عن موقف كل منها من الإسرائيليات لطال علينا الأمر ،والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إن المنبت* لاأرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » لهذا رأيت أن أتكلم عن جملة من كتب التفسير هي أهمها وأشهرها وأكثرها تداولاً .

وسبيلي في هذا أن أعرف أولاً بإيجاز شديد بمؤلف التفسير ، ثم أبين ثانياً موقفه من الإسرائيليات .

١ ــ التفسير الكبير المنسوب لمقاتل بن سليمان .

التعريف بالمؤلف .

هو مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي . ولد بمدينة بلخ من إقليم خراسان [١] ثم تحول إلى البصرة، والبصرة ثاني مدن العراق في ذلك الوقت ، والعراق بلد الملل والنحل والأهواء . وقد كان موطناً لديانات قديمة ، كان السريان قد انتشروا فيها وأنشأوا لهم مدارس ، وكانو يدرسون فيها فلسفة اليونان وحكمة الفرس ، وكان في العراق قبل الاسلام مذاهب نصرانية تتجادل في العقائد وكان العراق بعد الاسلام مزيجاً من أجناس مختلفة، وكان فيه اضطراب وفتن ، وفيه آراء تتضارب

---

(١) الكامل « ٥ : ٣٥٤ » وتاريخ بغداد « ١٣ : ١٦٩ » .

في السياسة وأصول العقائد ، وفيه تابعون مجتهدون حملوا علم من لقوا من الصحابة فكان فيه علم الدين سائغاً موروداً يجرا رما فيه من النحل المتنازعة والآراء المتضاربة[1].

وقد تأثر مقاتل بهذه البيئة في تفسيره للقرآن الكريم. وكان مقاتل على صلة بخلفاء بني العباس وحاول أن يتزلف إليهم ، فعرض عليهم أن يضع لهم أحاديث ، فقد ذكروا أنه قال للمهدي : (.. إن شئت وضعت لك أحاديث في العباس ، فقال المهدي : لاحاجة لي فيها)[2].

وقد جرح رجال الحديث مقاتلاً واتهموه بالكذب والوضع . قال يحيى ابن معين: ليس حديثه بشيء، ليس بثقة ، وقال البخاري: منكر الحديث ، وقال عنه أيضاً : لاشيء البتة .

وقال النسائي : الكذابون المعروفون بوضع الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة : إبراهيم بن أبي يحيى بالمدينة ، والواقدي ببغداد ، ومقاتل بن سليمان بخراسان ، ومحمد بن سعيد – ويعرف بالمصلوب – بالشام .

وقال أبو حاتم بن حبان : كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن الذي يوافق كتبهم ، وكان مشبهاً يشبه الرب عز وجل بالمخلوقين ، وكان يكذب مع ذلك في الحديث[3].

وقال العباس بن مصعب في تاريخ مرو: كان مقاتل لا يضبط الأسناد[4].

ومن الأدلة على كذب مقاتل ما ذكره الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال

---

(١) انظر أبو حنيفة « ص ١٨ » للأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة .

(٢) تاريخ بغداد « ١٣: ١٦٧ » .

(٣) تهذيب التهذيب « ١٠ : ٢٨١ » ، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال للمقدسي المجلد العاشر مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥ مصطلح الحديث ، وميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي « ٤: ١٧٣ ، ١٧٥ » .

(٤) ميزان الاعتدال « ٤: ١٧٣ »

عن ابن عيينة قال : سمعت مقاتلا يقول : إن لم يخرج الدجال سنة خمسين ومائة فاعلموا أني كذاب[1]، ولما لم يخرج الدجال تحقق الجواب ، وهو كذب مقاتل . وقال أبو اسماعيل الترمذي عن عبد العزيز الأوسي : حدثنا مالك أنه بلغه أن مقاتلا جاءه إنسان فقال له : إن إنساناً سألني ما لون كلب أصحاب الكهف ؟ فلم أدر ما أقول له . قال له مقاتل : ألا قلت : هو أبقع . فلو قلته لم تجد أحداً يرد عليك قولك . قال أبو إسماعيل وسمعت نعيم بن حماد يقول : أول ماظهر من مقاتل من الكذب هذا . وقال للرجل : ياماثق، لوقلت أصفر ، أو كذا أو كذا من كان يرد عليك[2] ؟!.

وقد رحل مقاتل إلى مكة وبيروت غير أن إقامته لم تطل بهما ، وأخيراً ألقى عصا الترحال في مدينة البصرة وفيها توفي سنة ١٥٠ هـ[3] .

التعريف بالتفسير .

تفسير مقاتل أقدم تفسير كامل للقرآن الكريم وصل إلينا[4] ، والتفسير مخطوط ، توجد منه نسخة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية ، وقد حققه أخيراً الدكتور عبد الله شحاتة .

ومع تجريح أئمة الحديث لمقاتل بالكذب في الحديث ، إلا أننا نلاحظ أن الثناء على مقاتل يتجه إلى تفسيره للقرآن الكريم وأحيانا إلى علمه وشخصه ، فقد روي عن الإمام الشافعي أنه قال : « الناس عيال في التفسير على مقاتل[5] » .

---

(١) تهذيب التهذيب « ١٠ : ٢٨٣ » ، وانظر ميزان الاعتدال « ٤ : ١٧٣ » .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير « ٥ : ٣٠٤ » ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي « ١٣ : ١٦٩ » وميزان الاعتدال « ٤ : ١٧٥ » .

(٤) انظر مقاتل بن سليمان ومنهجه في التفسير مع تحقيق تفسيره الكبير ، رسالة دكتوراة مخطوطة بدار العلوم « ٢ : ٩٢ — ٩٦ » .

(٥) ميزان الاعتدال « ٤ : ١٧٣ » .

وقال عبد الله بن المبارك حين رأى تفسير مقاتل : يا له من علم لو كان له إسناد ! وفي رواية أخرى عنه : ما أحسن تفسيره لو كان ثقة[1] !.

وعن مقاتل بن حيان قال : ما وجدت علم مقاتل بن سليمان إلا كالبحر[2].
وتفسير مقاتل يجمع بين المأثور والمعقول ويتميز بالبساطة والسهولة .

وبالجملة فقد استكمل مقاتل جميع العلوم التي يحتاج إليها المفسر، واستطاع أن يستثمرها جميعها في تفسيره[3] . ومع إحاطة مقاتل بكثير من العلوم والمعارف فإن تفسيره لم يسلم من عيوب ظاهرة ؛ وهذه العيوب هي :

أولاً : حذف الاسناد في وقت مبكر كان الرواة يهتمون فيه كثيراً بالأسانيد ، وبذلك وضع مقاتل الشوك في طريق تجريد التفسير من الموضوع والدخيل .

ثانياً : الكذب والتدليس في الرواية .

ثالثاً : تأثر مقاتل بإسرائيليات اليهود والنصارى في تفسيره .

رابعاً : ما ورد في تفسيره من تجسيم وتشبيه . وهذه العيوب أنقصت منزلة مقاتل ووضعت من مكانة تفسيره .

موقفه من الاسرائيليات .

تفسير مقاتل مملوء بهذه الإسرائيليات حتى ذكر في تمييز خصيصته أنه استمد علمه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعله موافقاً لما في كتبهم .

---

(١) تهذيب التهذيب « ١٠ : ٢٧٩ » ، وميزان الاعتدال « ٤ : ١٧٣ » .

(٢) تهذيب الكمال — المجلد العاشر (ترجمة مقاتل) وميزان الاعتدال « ٤ : ١٧٣ »

(٣) انظر .. مقاتل بن سليمان ومنهجه في التفسير ص ٧٢ ، ص ٧٧ الدكتور عبد الله شحاتة .

ولو أن مقاتلا بإيراده هذه الروايات الإسرائيلية قد أسندها إلى أصحابها كما فعل الطبري مثلا لالتمسنا له العذر ولكنه لم يفعل ، ولم يتعقب ما أورد منها كما فعل غيره من المفسرين ؛ وبذلك يكون مقاتل قد سن سنة سيئة للمفسرين من بعده ممن نقلوا عنه ، والتبس عليهم الصحيح بالعليل من هذه الروايات .

وسأنقل لك عدة نماذج من هذه الاسرائيليات التي أوردها مقاتل في تفسيره وقد نقلها عنه بعض المفسرين مع بعدها عن روح الاسلام وهدي القرآن الكريم .

١ ـ ذهب مقاتل في تفسير الكرسي في قوله تعالى: (وسع كرسيه السموات والأرض) مذهباً أقرب مايكون إلى الخرافة ، فقال مانصه : « يحمل الكرسي أربعة أملاك ، لكل ملك أربعة وجوه ، أقدامهم تحت الصخرة التي تحت الأرض السفلى مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل أرض مسيرة خمسمائة عام ، ملك وجهه على صورة الإنسان وهو سيد الصور وهو يسأل الله الرزق للآدميين ، وملك وجهه على صورة سيد الأنعام وهو الثور ؛ يسأل الرزق للبهائم ، وملك وجهه على صورة سيد الطير وهو يسأل الله عز وجل الرزق للطير ، وهو النسر ، وملك على صورة سيد السباع وهو الأسد وهو يسأل الرزق للسباع [1] .

ولم يذكر مقاتل الإسناد الذي اعتمد عليه ، بل أورد الأثر محذوف الاسناد مع أنه من السمعيات التي لاتقبل إلا إذا وردت في القرآن أو رويت عن المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وقد أورد الملطي في كتابه (التنبيه والرد) ، الأثر الذي ذكره مقاتل وأسنده إلى وهب بن منبه [2] . وهذا يؤكد أنه من الإسرائيليات التي أخذها مقاتل عن أهل الكتاب .

---

(١) تفسير مقاتل مجلد « ١٢٢:١ » .

(٢) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع للملطي ص ٩٩ .

٢ ــ وعند قوله تعالى: (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ، إذ أوى الفتية إلى الكهف ..) الخ الآيات ؛ فصَّل ما أبهمه القرآن من أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وغير ذلك فقال : « والكهف نقب يكون في الجبل كهيئة الغار ، واسمه بانجلوس ، والرقيم كتاب كتبه رجلان قاضيان صالحان أحدهما ، ماتوس ، والآخر أسطوس ، كانا يكتمان إيمانهما ، وكانا في منزل دقيوس الجبار وهو الملك الذي فر منه الفتية ، وكتبا أمر الفتية في لوح من رصاص، ثم جعلاه في تابوت من نحاس، ثم جعلاه في البناء الذي سدوا به باب الكهف .. ، ثم قال : وكلبهم اسمه قطمير وكان الكلب للكلمين) [١] .

٣ ــ وعند قوله تعالى : (قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله .. الآية)[٢] يقول مقاتل : في تفسير هذه الآيات .. (ثم قعد موسى مهموماً يقول في نفسه : لقد كنت غنياً عن اتباع هذا الرجل وأنا في بني إسرائيل أقرئهم كتاب الله عزوجل غدوة وعشياً ، فعلم الخضر ماحدث به موسى نفسه ، وجاء طير يدور ــ يرون أنه خطاف ــ حتى وقع على ساحل البحر فنكت بمنقاره في البحر ، ثم وقع على صدر السفينة ، ثم صوت فقال الخضر لموسى: أتدري مايقول هذا الطائر؟ قال موسى لا أدري، قال الخضر يقول: ماعلم الخضر وعلم موسى في علم الله إلا كقدر مارفعت بمنقاري من ماء البحر ، ثم خرجا من السفينة على بحر إيلة ، فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً ، فقتله الخضر بحجر أسود ، واسم الغلام حسين بن كازري واسم أمه سهوى .. الخ)[٣] .

وهذا التفصيل الذي ذكره مقاتل لافائدة فيه والكلام فيه من فضول الكلام ــ كما يقول ابن تيمية ــ ولا دليل على الصحيح منه ،فكان ينبغي الإعراض عنه والاشتغال بغيره .

---

(١) تفسير مقاتل ١ : ٨٠٧ : ٨١١ .

(٢) الآية ٧٣ ــ ٧٤ من سورة الكهف .

(٣) تفسير مقاتل ١ : ٨٢٦ ــ ٨٢٧ .

٤ – وجاء في تفسير مقاتل للآية ٢٥٨ من سورة البقرة وهي : (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين) مانصه : (بهت نمرود الجبار فلم يدر مايرد على إبراهيم، ثم إن الله عز وجل سلط على نمرود بعوضة بعدما أنجى الله إبراهيم من النار، فعضت شفته، فأهوى إليها فطارت في منخاره، فذهب ليأخذها فيستخرجها، فدخلت في خياشيمه، فذهب ليستخرجها فدخلت دماغه، فعذبه الله عز وجل بها أربعين يوماً ثم مات منها ، وكان يضرب رأسه بالمطرقة ؛ فإذا ضرب سكنت البعوضة فإذا رفع عنها تحركت، فقال الله سبحانه : وعزتي وجلالي لاتقوم الساعة حتى آتي بها – يعني الشمس – من قبل المغرب ؛ فيعلم من يرى ذلك أني أنا الله قادر على أن أفعل ماشئت)[1].

٥ – وعند تفسير قوله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون .)[2]

قال مقاتل : (فخلق آدم عليه السلام من طين أحمر وأسود وأبيض من السبخة والعذبة ؛ فمن ثَمّ نسله أبيض وأحمر وأسود، مؤمن وكافر . فحسد إبليس تلك الصورة، فقال للملائكة الذين هم معه : أرأيتم هذا الذي لم تروا شيئاً من الخلق على هيئته إن فُضّل عليّ ماذا تصنعون ؟ قالوا نسمع ونطيع لأمر الله ، وأسر عدو الله في نفسه لئن فضل آدم عليه لايطيع وليستفزنه ، فترك آدم طيناً أربعين سنة مصوراً ، فجعل إبليس يدخل من دبره ويخرج من فيه ويقول : أنا نار وهذا

---

(١) تفسير مقاتل « ١ : ١٢٣ – ١٢٤ » .

(٢) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

طين أجوف والنار تغلب الطين ، لأغلبنه ؛ فذلك قوله عز وجل : (ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين)[1] .

فقال للروح : ادخلي هذا الجسد، فقالت : أي رب ، أين تدخلني هـذا الجسد المظلم ؟ فقال الله تبارك وتعالى : ادخليه كرهاً ، فدخلته كرهاً وهي لاتخرج منه إلا كرهاً ، ثم نفخ فيه الروح من قبل رأسه فترددت الروح فيه حتى بلغت تحت جسده ـ موضع السـرة ـ فعجل للقعود ، فذلك قوله :(وكان الإنسان عجولاً) [2] .

فهذه القصة وماقبلها من الإسرائيليات الغريبة ، وقد أوردها ابن كثير في تفسيره ، وقال في الثانية :(فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة [3] مشهور في تفسير السدي ، وتقع فيه إسرائيليات كثيرة فلعل بعضهامدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة والله أعلم) [4] .

٦ ـ وعنـد تفسير قوله تعالى :(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) قال : يعني أساس البيت الحرام الذي كان رفع ليالي الطوفان على عهد نوح ، فبناه إبراهيم وإسماعيل على ذلك الأصل ، وأعانهم الله عزوجل بسبعة أملاك على البناء : ملك إبراهيم ، وملك إسماعيل ، وملك هاجر ، والملك الموكل بالبيت الحرام ، وملك الشمس ، وملك القمر ، وملك آخر [5].

٧ ـ وفي تفسير قوله تعالى : (فلما تجلي ربه للجبل جعله دكاً)[6] يذكر

---

(١) الآية ٢٠ من سورة سبأ .
(٢) الآية ١١ من سورة الإسراء . وانظر تفسير مقاتل « ١ : ١٩ ».
(٣) قال السدي في تفسيره: عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .
(٤) تفسير ابن كثير (١ :٧٦ ، ٧٧ ، ٢٩٣ ، ٣١٤)
(٥) تفسير مقاتل « ١ :٥٦ » .
(٦) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .

مقاتل أن الجبل صار دكاً أي قطعاً على ستة فرق ، فوقع ثلاثة بجبال مكة : ثبير وغار ثور ، وحرّان . ووقع بالمدينة ثلاثة ، رضوى ، وورقان ، وجبل أحد ، فذلك قوله تعالى : « جعله دكاً »[1] .

٨ – وعند تفسير قوله تعالى : (فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم)[2] يقول مقاتل : (يعني أكبر الأصنام فلم يقطعه وهو من ذهب ولؤلؤ وعيناه ياقوتتان حمراوان تتوقدان في الظلمة ، لهما بريق كبريق النار وهو في مقدم البيت ، ووضع الفأس في يدي الصنم الأكبر (لعلهم إليه يرجعون) أي يرجعون من عيدهم إلى الصنم الأكبر)[3] .

ويلاحظ أن هذا الذي أورده مقاتل في الأخبار السابقة لا فائدة منه ولا دليل عليه من القرآن أو السنة الصحيحة ، وإنما هو من الموضوعات أو الإسرائيليات .

٩ – وقد ذكر مقاتل في تفسير الآيات (٧٤ – ٨٠) من سورة الأنعام : (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة . . الخ الآيات) قصة طويلة منها : (أن الكهنة قالوا لنمرود الجبار : إنه يولد في هذه السنة غلام يفسد آلهة أهل الأرض ، فأمر نمرود بقتل كل غلام يولد في هذه السنة ، فلما ولد إبراهيم وضعه أبوه في السرب خوفاً عليه ، ونما إبراهيم نماءً سريعاً ثم أخذ يبحث عن الإله ، فلما جن عليه الليل دنا من باب السرب فرأى الزهرة ، فقال هذا ربي ، ثم قال ذلك للقمر ، ثم للشمس[4]) .

وقد عقب ابن كثير بقوله : (وما يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع ، وأنه خرج به بعد أيام فنظر في الكواكب والمخلوقات ، فتبصر فيها ، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم ؛ فعامتها أحاديث بني إسرائيل ،

---

(١) تفسير مقاتل « ٢ : ٥٨ ٤ » .
(٢) الآية ٥٨ من سورة الأنبياء .
(٣) تفسير مقاتل « ٣ : ٩٠٧ – ٩١٠ » .
(٤) تفسير مقاتل « ١ : ٣٨٨ – ٣٨٩ » .

فاوافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه ، لموافقته الصحيح وماخالف شيئاً من ذلك رددناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لانصدقه ولا نكذبه بل نجعله وقفاً ، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته ، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين ، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة ، والذي نسلكه في هذا التفسير الاعراض عن كثير من الأحاديث الاسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم ، فإنهم لاتفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة)[1] .

١٠ – وفي الآية ١ من سورة فاطر (يزيد في الخلق مايشاء) .

يقول مقاتل : (وذلك أن في الجنة نهراً يقال له نهر الحياة ، يدخله كل يوم جبريل عليه السلام بعد ثلاث ساعات من النهار يغتسل فيه وله جناحان ينشرهما في ذلك النهر ، ولجناحه سبعون ألف ريشة فيسقط من كل ريشة قطرة من ماء ، فيخلق الله عز وجل منها ملكاً يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة ، فذلك قوله تعالى : يزيد في الخلق مايشاء) .

١١ – وفي تفسير آية ٢٩ من سورة الرعد ، وهي (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) .

يقول مقاتل : (طوبى لهم ، يعني حسنى لهم ، وهي بلغة العرب ، وطوبى شجرة في الجنة ، لو أن رجلاً ركب فرساً أو نجيبة وطاف على ساقها لم يبلغ المكان الذي ركب منه حتى يقتله الهرم . ولو أن طائراً طار من ساقها لم يبلغ فرعها حتى يقتله الهرم ، وكل ورقة منها تظل أمة من الأمم ، وعلى كل ورقة منها ملك يذكر الله تعالى ، ولو أن ورقة منها وضعت في الأرض لأضاءت الأرض

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ : ١٨٠ – ١٨١) .

نوراً كما تضيء الشمس ، تحمل هذه الشجرة لهم مايشاؤون من ألوان الحلي والحلل والثمار غير الشراب)[1] .

وغني عن البيان أن هذا الكلام وماقبله من الإسرائيليات التي لم يرد فيها أثر صحيح ، فما أجدر تفسير كتاب الله أن ينقى منها .

١٢ - أما الكلام عن أنبياء الله ورسله واتهامهم بالنقائص ، فقد نقل مقاتل عن التوراة وغيرها من الكتب السابقة بعد أن عبث بها اليهود والنصارى .

يقول الله تعالى : (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب) [2] ويقول مقاتل في تفسيرها : (وذلك أن داود قال : رب اتخذت إبراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما ، فوددت أنك أعطيتني من الذكر مثل ما أعطيتهما ، فقال له : إني ابتليتهما بما لم أبتلك به ، فإن شئت ابتليتك وأعطيتك مثل ما أعطيتهما من الذكر ، قال : نعم ، قال اعمل عملك . فمكث داود عليه السلام ما شاء الله عز وجل يصوم نصف الدهر ويقوم نصف الليل ، إذ صلى في المحراب ، فجاء طير حسن ملون فوقع إليه فتناوله ، فصار إلى الكوة ، فقام ليأخذه ، فوقع الطير في بستان ، فأشرف داود فرأى امرأة تغتسل ، فتعجب من حسنها وأبصرت المرأة ظله فنفضت شعرها فغطت جسمها فزاده ذلك بها عجباً ، ودخلت المرأة منزلها وبعث داود غلاماً في أثرها ، فإذا هي « بتسامع امرأة أوريا بن حنان » وزوجها في الغزو في بعث البلقاء الذي بالشام مع نواب بن صوريا ابن أخت داود عليه السلام ، فكتب داود إلى ابن أخته بعزيمة أن يقدم أوريا ، فيقاتل أهل البلقاء ولا يرجع حتى يفتحها أو يقتل ، فقدمه فقتل رحمه الله عليه ، فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود ، فولدت له سليمان بن داود ، فبعث الله عز وجل إلى داود عليه السلام ملكين ليستنقذه بالتوبة ، فأتوه يوم رأس المائة في المحراب وكان يوم عبادته والحرس حوله ، فلما

---

(١) تفسير مقاتل « ٢ : ٦٧٩ » .

(٢) الآية ٢١ من سورة ص .

رآهما داود قد تسورا المحراب ، فزع داود وقال في نفسه : لقد ضاع ملكي حين يدخل علي بغير إذن . فقال أحدهما : (إن هذا أخي) يعني الملك الذي معه (له تسع وتسعون نعجة) يعني تسع وتسعون امرأة — وهكذا كان لداود — فطلب مني أن أضم امرأتي إليه ، فقال داود : (لقد ظلمك) بهذا الطلب ، ثم صعد الملكان . فعلم داود أن الله ابتلاه بذلك)[1] أهـ .

هذه القصة مروية من طريق السدي، والكلبي، ومقاتل بن سليمان، وكلهم مردود الرواية ليس فيهم ثقة كما علمت . وأما ما اشتملت عليه القصة من الأباطيل فيتلخص فيما يأتي :

١ — إنهم نسبوا إلى داود عليه السلام التجسس بالاطلاع على عورة امرأة أجنبية عنه .

٢ — انتهاك حرمة الجوار .

٣ — الغدر بزوج المرأة وتدبير المكيدة لقتله ليستولي على امرأته .

٤ — الخضوع لشهوته الطبيعية حيث لم يكتف بتسع وتسعين امرأة من نسائه ، واتخذ الإجرام وسيلة إلى ضم زوجة جاره إلى نسائه . وكل هــذه أمور يستحيل صدورها من نبي معصوم لأنها منافية للعصمة التي قامت الأدلة القطعية على ثبوتها للأنبياء والرسل عليهم السلام . وصارت من معتقدات الاسلام المعلومة من الدين بالضرورة ، وإذا جاز صدور هذه الجرائم من نبي على زعم المخرفين من عشاق الأساطير ، فماذا بقي للمجرمين والفسق وعبدة الأهواء والشهوات (سبحانك هذا بهتان عظيم) .

وإن من أكبر دواعي العجب أن يصدق بعض الناس هذه المفتريات ويتقلها

---

(١) تفسير مقاتل « ٢ : ١٢٦٦ ، ١٢٦٨ » .

بعض المفسرين في تفاسيرهم [1] ويزعم أنها المرادة من آيات القصة ، ويحاولون تأويل الآيات تأويلاً بارداً لتوافق هذه الأساطير ، فيزعمون أن المراد بالنعاج في الآية النساء . وأن القرآن الكريم عبر عن المرأة بالنعجة على سبيل المجاز؛ لتكون رمزاً إلى ما وقع فيه داود عليه السلام من الخطيئة بالغدر بزوج المرأة وضمها إلى نسائه ، وهي مزاعم باطلة .

الأدلة على بطلانها :

١ ــ إن قصة داود عليه السلام في سورة (ص) قد سيقت مساق المدح له ، بدليل أن الله تعالى ذكرها للنبي صلى الله عليه وسلم ليقتدي بداود في الصبر ، ومحال أن يأمر الله سيد الرسل بالاقتداء بداود إلا وهو على أتم مايكون من الكمال، وقد مدحه الله في أولها وآخرها بكثير من المدح الجليلة؛ فلو صحت هذه الأسطورة لكانت مناقضة لسياق الآيات مناقضة صريحة .

٢ ــ قامت الأدلة القطعية على أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام معصومون من المعاصي والذنوب، ولو صحت هذه الأسطورة التي تنسب إلى داود عليه السلام ــ ارتكاب الجريمة ــ لكانت هادمة لعصمته ولارتفع الوثوق برسالته وذلك باطل ،وقد نص المحدثون على أن كل خبر ناقض أصلاً قطعياً من أصول الدين فهو موضوع قطعاً ولا تجوز روايته ، وبما أن هذه الأسطورة مناقضة للعصمة التي هي من أصول الدين القطعية فهي باطلة بلا مراء .

٣ ــ إن الله تعالى أثنى على داود عليه السلام ووصفه بصفات تدلنا على استحالة صدور هذه الخطايا منه ، فقال تعالى : (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب)[2]، وقال أيضاً : (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب)[3] ومن جمع بين

---

(١) انظر على سبيل المثال : تفسير ابن جرير ، والدر المنثور للسيوطي، وتفسير البغوي .

(٢) الآية ٢٥ من سورة (ص) .

(٣) الآية ١٧ من سورة (ص) .

هـــذه الصفات فمحال أن تستولي عليه شهواته فتدفعه إلى ارتكاب الخطيئة .

٤ – إن الله تعالى وصف داود عليه السلام بأنه آتاه الحكمة وفصل الخطاب ، والحكمة هي العلم المتحكم في الإرادة الضابط لكل قوى النفس ، فلا تصدر في أي عمل إلا على مقتضاه ؛ فكيف يعقل أن تلك النفس المضبوطة في كل أعمالها بضوابط الحكمة تسف إلى ارتكاب هذه الخطايا التي يتنزه عنها وعن مثلها آحاد المؤمنين ؛ فضلاً عن نبي ورسول من المرسلين .

٥ – إن الله تعالى قد استخلف داود عليه السلام في الأرض، وجعله قدوة لأمته ؛فكيف يتصور من عنده ذرة من العقل أن يستخلف الله رجلاً يخضع لشهواته ويرتكب الجريمة في سبيلها،وكيف يعقل أن يجعله الله قدوة لأمته وهو غير قادر على ضبط نفسه وشهواته ؟!

فإن قالوا : ولماذا استغفر ربه إذن ؟ قلنا لهم: إن داود عليه السلام كان قد وزع أعماله على الأيام وخص كل يوم بعمل ، فجعل يوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء وفصل الخصومات، ويوماً للاشتغال بشؤون نفسه ، ويوماً لوعظ بني إسرائيل،ففي يوم العبادة دخل عليه خصمان تسورا المحراب ودخلا من غير المدخل المعتاد، فارتاع منهما وظن بهما سوءاً وأنهما جاءا ليقتلاه ، ثم تبين له أن الأمر على خلاف ما ظن وأنهما جاءا يحتكمان إليه، فلما قضى بينهما بالحكمة ، وتيقن أنهما بريئان مما ظن بهما، استغفر ربه من هذا الظن وإن لم يكن ذنباً في العادة إلا أنه بالنسبة للأنبياء يعتبر خلاف الأولى ، ويرون الاستغفار من مثله . فهذا سيد البشر ﷺ كان يقول: « أنه ليُغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائـــة مرة » وليس استغفاره لمعصية؛ وإنما هو زيادة تقرب إلى الله تعالى وترق في مراتب الكمال، وهذا التأويل يوافق نظم القرآن الكريم ،ويليق بعصمة الأنبياء ؛فالواجب الأخذ به ونبذ الأوهام والخرافات التي هي من شأن القصاص .

٦ – وقد نقد القصة عدد من المفسرين :

قال ابن كثير في تفسيره : (وقد ذكر المفسرون هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه ، ويزيد وإن كان من الصالحين ولكنه ضعيف عند الأئمة)[١] .

وقال النسفي في تفسيره : (وما يحكى من أن داود بعث مرة بعد مرة (أوريا) إلى غزوة البلقاء وأحب أن يقتل ليتزوجها – يعني زوجة أوريا – فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أفناء الناس فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء ، وقال علي رضي الله عنه : من حدثكم بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة وهو حد الفرية على الأنبياء)[٢] .

وفند الخازن هذه القصة تحت عنوان (فصل في تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عما لا يليق به وينسب إليه)[٣] .

١٣ – وتأثر مقاتل بالاسرائيليات في تفسيره لآيات الأحزاب المتعلقة بزواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش ،فأعظم الفرية على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومكن المستشرقين أن ينقلوا هذا الكلام عنه وعن أمثاله ، وسنؤجل الكلام في هذا الموضوع إلى حين نتعرض لموقف المستشرقين من الاسرائيليات ونكتفي الآن بهذا القدر من عرض هذه النماذج من الاسرائيليات التي أوردها مقاتل وقبلها في تفسيره وننتقل إلى تفسير آخر .

---

(١) تفسير ابن كثير « ٤ : ٣١ » قال النسائي والحاكم في (يزيد الرقاشي) : إنه متروك ، وقال فيه ابن حبان : كان من خيار عباد الله ،فغفل عن حفظ الحديث ،وشغل بالعبادة حتى كان يقلب كلام الحسن فيجعله عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا تحل الرواية عنه (تهذيب التهذيب ١١ : ٣٠٩) .

(٢) تفسير النسفي « ٤ : ٢٩ ، ٣٠ » .

(٣) تفسير الخازن « ٦ : ٣٨ – ٤٢ » .

٢ — جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري

التعريف بالمؤلف .

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري ، المحدث الفقيه الجامع لأشتات العلوم ، قال عبد العزيز الطبري في شأنه : (. . كان كالقارئ الذي لايعرف إلا القرآن ، وكالمحدث الذي لايعرف إلا الحديث ، وكالفقيه الذي لايعرف إلا الفقه ، وكالنحوي الذي لايعرف إلا النحو ، وكالحاسب الذي لايعرف إلا الحساب ، وكان عالماً بالعبادات ، جامعاً للعلوم ، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلاً على غيرها)[1] وكان أكثر مااشتهر به من هذه العلوم ، الفقه والتفسير ، والحديث والقراءات .

أما الفقه ، فقد درس المذاهب جميعا وفقه الشافعي على الخصوص ، ولم يلبث أن أدى به البحث والاجتهاد إلى اختيار مذهب انفرد به وأودعه كتبه الفقهية ، فوضع كتاباً سماه (لطيف القول) وكتاب (اختلاف الفقهاء) وقد تفقه بمذهبه كثير من العلماء . وأما التفسير فإنه قد أفضى بعلمه فيه إلى كتابه الكبير (جامع البيان في تفسير القرآن) وهو الذي نحن بصدده الآن .

وأما الحديث فقد عده الذهبي من رجال الطبقة السادسة ، وذكر النووي في كتابه (تهذيب الأسماء واللغات) : أنه في طبقة الترمذي والنسائي . ومن أشهر ماصنف فيه كتاب (تهذيب الآثار) ؛ ولغلبة الحديث عليه وضع كتابه في التاريخ على طريقة المحدثين .

وأما القراءات فقد أخذ بقراءة حمزة تلقاها عن يونس بن عبد الأعلى بمصر ، كما أخذ عليه قراءة ورش ، ثم لم يلبث أن اتخذ لنفسه قراءة لم يخرج بها عن المشهور ، ووضع كتابه المسمى بـ (الفصل بين القراءات) .

---

(١) معجم الأدباء « ١٨ : ٦١ » .

ولد ابن جرير بآمل طبرستان سنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة وتوفي ببغداد سنة عشر وثلاثمائة .

التعريف بالتفسير .

يعتبر تفسير ابن جرير من أقدم التفاسير وأشهرها ، كما يعتبر المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير النقلي ، وإن كان في الوقت نفسه يعتبر مرجعاً غير قليل الأهمية من مراجع التفسير العقلي ، نظراً لما فيه من الاستنباط ، وتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض ترجيحاً يعتمد على النظر العقلي والبحث الحر الدقيق . قال النووي : (أجمعت الأمة على أنه لم يؤلف مثل تفسير الطبري) (١)

وقال ابن تيمية : (وأما التفاسير التي بأيدي الناس ، فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري ، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة وليس فيه بدعة ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل بن بشير والكلبي) (٢)

ويقول أبو حامد الاسفرايني : (لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً) (٣)

ويقع تفسير ابن جرير في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير (٤) ، ويعتبر بحق دائرة معارف غنية في التفسير بالمأثور، وإذا كان معظم التفاسير في عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم لم تصل إلينا، فإن مضمون ما فيها قد نقله إلينا محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير الكبير المتداول بين الناس الآن .

---

(١) الاتقان « ٢ : ١٩٠ » .

(٢) فتاوى ابن تيمية « ٢ : ١٩٢ » .

(٣) تاريخ بغداد « ٢ : ١٦٣ » .

(٤) كانت آخر طبعاته بتحقيق وتخريج الأسانيد بعناية أحمد شاكر ومحمود شاكر وقد وصلت هذه الطبعة إلى نهاية الجزء الخامس عشر . وينتهي عند أول تفسير الآية ١٨ من سورة يوسف .

موقفه من الإسرائيليات .

يكثر ابن جرير في تفسيره - كما يكثر في تاريخه - من رواية الإسرائيليات ولكنه يسندها إلى أصحابها ، وقد يتعقبها في بعض الأحيان، وقد عاب عليه بعض الباحثين هذا الإكثار، وقالوا : إن سياقه للأخبار دون تمحيصها أمر لا يليق بالعالم الناقد البصير [١] .

وإذا كان هذا النقد موجهاً إليه بالنسبة لكتابه في التاريخ، فأولى أن يوجه إليه بالنسبة إلى كتابه في التفسير .

وقد اعتذر عن الطبري في موقفه هذا من الإسرائيليات عدد من الباحثين وبينوا أن عذر الطبري وغيره من المفسرين الذين يسندون مروياتهم هو : ذكرهم للسند في زمن توافر الناس فيه على معرفة حالة السند من غير توقف على تنبيه منه [٢].

---

(١) مقدمة تاريخ الطبري للأستاذ محمد أبي الفضل إبراهيم ص ٢٥

(٢) قال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان عند ترجمته للطبراني : إن الحفاظ الأقدمين يعتمدون في رواياتهم الأحاديث الموضوعة مع سكوتهم عنها على ذكرهم الأسانيد لاعتقادهم أنهم متى أوردوا الحديث بإسناده فقد برئوا من عهدته وأسندوا أمره إلى النظر في إسناده أهـ . وقال الزرقاني : في مناهل العرفان في معرض كلامه عن تفسير ابن جرير : (ومن مزاياه أنه حرر الأسانيد ، وقرب البعيد ، وجمع ما لم يجمعه غيره ، غير أنه قد يسوق أخباراً بالأسانيد غير صحيحة ثم لا ينبه على عدم صحتها . وقلنا إن عذره في ذلك هو ذكر السند في زمن توافر الناس فيه على معرفة حال السند من غير توقف على تنبيه منه (مناهل العرفان ١ : ٤٩٧) وقال فضيلة أستاذنا الجليل محمد حسين الذهبي في كتابه القيم (التفسير والمفسرون) : (- ثم إن ابن جرير وإن التزم في تفسيره ذكر الروايات بأسانيدها إلا أنه في الأعم الأغلب لا يتعقب الأسانيد بتصحيح ولا تضعيف لأنه كان يرى - كما هو مقرر في أصول الحديث - (أن من أسند لك فقد حملك البحث عن رجال السند ومعرفة مبلغهم من العدالة أو الجرح ، فهو بعمله هذا قد خرج من العهدة) وقال في موضع آخر من نفس الكتاب : (.. على أن ابن جرير كما قدمنا قد ذكر لنا السند بتمامه في كل رواية يرويها ، وبذلك يكون قد خرج من العهدة ، وعلينا نحن أن ننظر في السند ونتفقد الروايات) (التفسير والمفسرون ١ : ٢١٢ - ٢١٥) . =

على أن الحق يقتضينا أن نقول : إن ابن جرير لم يكتف بمجرد إيراد السند فقط بل نجده أحياناً يقف من السند موقف الناقد البصير ، فمثلاً عند الآية ١٩ من سورة البقرة : (فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين)

ذكر هذا السند، فقال : حدثني موسى بن هرون، قال : حدثنا أسباط عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الخ)

= وقال الأستاذ محمود شاكر : « محقق تفسير الطبري » (.. ولما رأيت أن كثيراً من العلماء كان يعيب على الطبري أنه حشد في كتابه كثيراً من الرواية عن السالفين الذين قرأوا الكتب وذكروا في معاني القرآن ما ذكروا من الرواية عن أهل الكتابين السالفين التوراة والإنجيل ، أحببت أن أكشف عن طريقة الطبري في الاستدلال بهذه الروايات رواية رواية ، وأبين كيف أخطأ الناس في فهم مقصده وأنه لم يجعل هذه الروايات قط مهيمنة على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأحببت أن أبين عند كل رواية مقالة الطبري في إسنادها ، وأنه إسناد لا تقوم به حجة في دين الله ولا في تفسير كتابه، وأن استدلاله بها كان يقوم مقام الاستدلال بالشعر القديم على فهم معنى كلمة أو دلالة على سياق جملة — (تفسير الطبري المقدمة ص ١٦ ، ص ١٧ تحقيق وتخريج محمود شاكر وأحمد شاكر) . وقال الأستاذ محب الدين الخطيب : (إن مثل الطبري ومن في طبقته من العلماء الثقات المتثبتين في إيرادهم الأخبار الضعيفة، كمثل رجال النيابة الآن ، إذا أرادوا أن يبحثوا في قضية فإنهم يجمعون كل ما تصل إليه أيديهم من الأدلة والشواهد المتصلة بها مع علمهم بتفاوتها بعضها أو ضعفه اعتماداً منهم على أن كل شيء سيقدر بقدره ، وهكذا الطبري ، وكبار حملة الأخبار من سلفنا كانوا لا يفرطون في خبر مهما كان من ضعف نقلته خشية أن يفوتهم بإهماله شيء من العلم ولو من بعض النواحي ، إلا أنهم يروون كل خبر معزواً إلى راويه ليعرف القارىء قوة الخبر من كون رواته ثقات ، أو ضعفه من كون رواته لا يوثق بهم ، وبذلك يرون أنهم أدوا الأمانة ووضعوا بين أيدي القراء كل ما وصلت إليه أيديهم .. أهـ (مقال له في مجلة الأزهر مج ٢٤ ج ٢ : غرة صفر سنة ١٣٧٢ هـ — ١٩٥٢ م) .

وعقب ابن جرير على هذا الاسناد بقوله : (فإن كان ذلك صحيحاً — ولست أعلمه صحيحاً إذ كنت بإسناده مرتاباً — فإن القول الذي روي عنها هو القول ، وإن يكن غير صحيح فأولى بتأويل الآية ماقلنا) [1] .

ومثلاً نقد سند الحديث المروي عن عائشة مرفوعاً :(ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات تعدّ علمهن إياه جبريل) بقوله : (لأن راويه ممن لايعرف في أهل الآثار ، وهو : جعفر بن محمد الزبيري[2] .

ونقد أيضاً سند الحديث :(أنزل القرآن على أربعة أحرف ، حلال وحرام لايعذر أحد بالجهالة به ، وتفسير تفسره العرب ، وتفسير تفسره العلماء ، ومتشابه لايعلمه إلا الله تعالى ذكره ، ومن ادعى علمه سوى الله تعالى ذكره فهو كاذب) المروي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مرفوعاً بقوله: (وفي إسناده نظر)وقال عن هذا الطريق في موضع آخر من كتابه :(إنه ليس من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله) [3] .

ومما يستدعي الانتباه في تفسير ابن جرير أنه ينصرف عن التعمق في أمور لا فائدة منها، فتراه يرد الروايات الواردة في أمثال ذلك بحجة أن مثل هذه المرويات لم يرد فيها نص صريح من الكتاب أو نقل صحيح من السنة ، وهو بهذا الصنيع

---

(١) تفسير الطبري « ١ : ٣٤٧ – ٣٤٨ ، ٣٥٤ » ط دار المعارف ، وعلق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله على إسناد هذه الرواية بقوله:(هذا الاسناد من أكثر الاسانيد دوراناً في تفسير الطبري إن لم يكن من أكثرها ، فلا يكاد يخلو تفسير آية من رواية بهذا الاسناد . ولم يبين علة ارتيابه في إسناده وهو مع ارتيابه، قد أكثر من الرواية به ولكنه لم يجعلها حجة قط) ثم بين منزلة رجال هذا الاسناد وعلق بقوله : (وحق لأبي جعفر رحمه الله أن يرتاب في إسناده فإن هذا الاسناد فيه تساهل كثير) . تفسير الطبري « ١ : ٥٦ ، ٣٤٨ » .

(٢) تفسير الطبري « ١ : ٨٩ » ط دار المعارف .

(٣) المرجع السابق « ١ : ٦٦ — ٧٦ » .

يلتزم منهجه الذي ذكره في مقدمة تفسيره حين قسم تأويل جميع القرآن إلى أوجه ثلاثة ، فقال في الوجه الثاني : (منها ما خص الله بعلم تأويله نبيه صلى الله عليه وسلم دون سائر أمته وهو ما فيه مما بعباده إلى علم تأويله الحاجة ، فلا سبيل إلى علم ذلك إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم لهم تأويله)[1] .

ونسوق فيما يلي بعض الأمثلة نوضح بها ما ذكرناه :

أ ـ عند تفسير الآية (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون)[2] .

قال : (ثم اختلف العلماء في البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، وأي عضو كان ذلك منها ، فقال بعضهم : ضرب بفخذ البقرة القتيل ، وقال آخرون : الذي ضرب به منها هو البضعة التي بين الكتفين . وقال آخرون : الذي أمروا أن يضربوه منها عظم من عظامها) وعقب ذلك بقوله : (والصواب من القول عندنا في تأويل قوله : (فقلنا اضربوه ببعضها) أن يقال : أمرهم الله جل ثناؤه ، أن يضربوا القتيل ببعض البقرة ليحيا المضروب ولا دلالة في الآية ، ولا خبر تقوم به حجة على أي أبعاضها التي أمر القوم أن يضربوا القتيل به ، وجائز أن يكون الذي أمروا أن يضربوه به هو الفخذ ، وجائز أن يكون ذلك الذنب وغضروف الكتف ، وغير ذلك من أبعاضها ولا يضر الجهل بأي ذلك ضربوا القتيل ولا ينفع العلم به ، مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها فأحياه الله)[3] .

ب ـ وعند الآية (٢٠) من سورة يوسف : (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة . . الخ الآية) . قال : (إن الله تعالى ذكره ، أخبر أنهم باعوه بدراهم

---

(١) تفسير الطبري « ١:٩٢ » .

(٢) الآية ٧٣ من سورة البقرة .

(٣) تفسير الطبري « ١:٢٢٩ ـ ٢٣١ » ط دار المعارف .

معدودة غير موزونة ، ولم يحد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد ولا وضع عليه دلالة في كتاب ، ولا خبر من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين ولا الجهل به دخول ضر فيه ، والإيمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فموضوع عنا تكلف علمه) [1] .

ج – وعند قوله تعالى : (وإذ ابتلى ابراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن) يقول : بعد أن يذكر الآثار المروية حول بيان هذه الكلمات .. وإذا كان ذلك كذلك ، فغير جائز لأحد أن يقول : عنى الله بالكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم شيئاً من ذلك بعينه دون شيء ولا عنى به كل ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إجماع من الحجة ، ولم يصح في شيء من ذلك خبر عن الرسول بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلته ، غير أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في نظير معنى ذلك خبران لو ثبتا أو أحدهما كان القول به في تأويل ذلك هو الصواب) [2] .

د – وعند الآية ٢٤ من سورة يوسف : (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) نجده يسوق الروايات الواردة في تفسير الآية ، ثم يعقب عليها بقوله : (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله جل ثناؤه أخبر عن هم يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه ، لولا أن رأى يوسف برهان ربه ، وذلك آية من آيات الله زجرته عما هم به يوسف من الفاحشة ، وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب ، وجائز أن تكون صورة الملك ، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنا ، ولا حجة للعذر قاطعة

---

(١) تفسير الطبري « ١٢ : ١٠٢ – ١٠٣ » الطبعة الأميرية .

(٢) تفسير الطبري « ١ : ٤٩٥ » ط بولاق .

بأي ذلك من أي . والصواب أن يقال في ذلك ماقاله الله تبارك وتعالى والإيمان به وترك ماعدا ذلك)[1] .

هـ – وعند الآية (٦٩) من سورة الأحزاب : (ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فـبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيهاً) . يقول : – بعد أن يفيض في بيان المرويات الإسرائيلية التي رويت حول هـذه الآية – (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن بني إسرائيل آذوا نبي الله ببعض ما كان يكره أن يؤذى به فبرأه الله مما آذوه به ، وجائز أن يكون ذلك كان قيلهم : إنه أبرص ، وجائز أن يكون كان ادعاءهم عليه قتل أخيه هارون ، وجائز أن يكون كل ذلك لأنه قد ذكر كل ذلك أنهم قد آذوه به ، ولاقول في ذلك أولى بالحق مما قال الله إنهم : آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا)[2] .

و – وكذلك يفعل الطبري في تفسير الآيات : (١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤) من سورة المائدة ، فنراه يعرض لذكر ماورد من الروايات في نوع الطعـام الذي نزلت به مائدة السماء . ثم يعقب على هذا بقوله : (وأما الصواب من القـول فيما كان على المائدة فأن يقال كان عليها مأكول ، وجـائز أن يكون سمكاً وخبزاً ، وجائز أن يكون ثمراً من ثمار الجنة ، وغير نافع العلم به ، ولا ضار الجهل به إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل)[3] .

ز – وعند الآية ١٢٧ من سورة البقرة : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) عرض إلى الروايات الواردة في البيت ، ومن أول من بناه ؟ ومن أي شيء بناه ؟ وماهي ماهيته ؟ ثم عقب عليها بقوله : (والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى ذكره ، أخبر عن إبراهيم خليله أنه وابنه إسماعيل

---

(١) تفسير ابن جرير « ١٣ : ١٦٣ » .

(٢) تفسير الطبري « ٢٢ : ٣٧ » ط بولاق .

(٣) المرجع السابق « ٧ : ٨٨ » ط بولاق .

رفعا القواعد من البيت الحرام ، وجائز أن يكون ذلك قواعد بيت كان أهبط مع آدم ، فجعله مكان البيت الحرام الذي بمكة ، وجائز أن يكون ذلك كان القبة التي ذكرها عطاء[1] مما أنشأه الله من زبد الماء ، وجائز أن يكون كان ياقوتة أو درة أهبطا من السماء ، وجائز أن يكون كان آدم بناه ثم انهدم حتى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل ، ولا علم عندنا بأي ذلك كان من أي ، لأن حقيقة ذلك لا تدرك إلا بخبر عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، بالنقل المستفيض ، ولا خبر بذلك يقوم به الحجة ، فيجب التسليم لها ، ولا هو — إذ لم يكن به خبر على ما وصفنا — مما يدل عليه بالاستدلال والمقاييس ، فيمثل بغيره ويستنبط علمه من جهة الاجتهاد)[2] .

والواقع أن الطبري ، يصب نقده كما تبين لنا على المرويات الإسرائيلية التي يحاول بعض المفسرين أن يفسروا بها ما وراء ظاهر اللفظ القرآني ، وهو بموقفه الجيد هذا يحارب المنزع القصصي الخيالي الذي استفاض في عصره ، وحاول معرفة كل شيء أبهمه القرآن الكريم مما لا فائدة في معرفته .

ويبدو أن الطبري كان يحس الصلة بين التاريخ والتفسير ، وأنه كان يرى أن التفسير إنما يعتمد على النقل والرواية ، وكذلك التاريخ يعتمد عليهما ، والقصص القرآني الذي أجمل القرآن الكريم القول فيه ، قد أكد عنده هذه الصلة ، ولعل مما يدل على ذلك أن كثيراً من المصادر التي اعتمد عليها في تاريخه قد اعتمد عليها في تفسيره أيضاً وبخاصة تاريخ الأمم السابقة على الاسلام[3] .

---

(١) قال عطاء وعمرو بن دينار : بعث الله رياحاً فصفقت الماء فأبرزت في موضع البيت عن حشفة كأنها القبة ، فهذا البيت منها « تفسير الطبري ٣ : ٦٠ » .

(٢) تفسير الطبري « ٣ : ٦٤ » .

(٣) أنظر تفسيره للآية ٧ من سورة الاسراء (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) إذ يفيض في ذكر المرويات التاريخية التي تشتمل عليها هذه الآية ويلم فيها بشيء من تاريخ الشرق القديم وما كان من أمر بختنصر ودخوله بيت المقدس وقتله بني إسرائيل ثم ما كان من رجوعه إلى أرض بابل ومعه كثير من السبايا اليهود ... الخ .

ولم يهتم الطبري كثيراً بنقد الرواية التاريخية سواء في التفسير أو التاريخ، وقد اعتذر عن ذلك في مقدمة تاريخه بقوله : (فما كان في كتابي هذا مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا ،وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا وإنما أديناه على نحو ماأدي إلينا) [1] .

ومن هنا نجـد كثيراً من مرويات أهـل الكتاب الذين كان لهم علم بالكتاب الأول كثيرة الترديد في تفسيره وتاريخه ؛ مع مافيها من غرابة وخرافة دون أن يعقب عليها ابن جرير بكلمة واحدة . ومن أمثلة ذلك.

أ — مارواه عن وهب بن منبه بصدد قصة أيوب وسبب ابتلائه ونوع ما ابتلي به من المصائب ، قال : (فوقف إبليس خازياً ذليلاً ، فقال : ياإلهي إنما هون على أيوب خطر المال والولد ، أنه يرى أنك مامتعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد ، فهل أنت مسلطي على جسده ؟ فأنا لك زعيم لئن ابتليته في جسده لينسينك وليكفرن بك ، وليجحدن نعمتك ، قال الله : انطلق فقد سلطتك على جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولاعلى قلبه ، ولا عقله، فانقض عـدو الله جواداً فوجد أيوب ساجداً ،فعجل يرفع رأسه ،فأتاه من قبل الأرض في موضع وجهه ، فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده ، فترهل ونبتت ثآليل مثل أليات الغنم ، ووقعت فيه حكة لايملكها، فحك بأظافره حتى سقطـت كلها ، ثم حك بالعظام وحك بالحجارة الخشنة وبقطع المسوح الخشنة ، فلم يزل يحكه حتى نفد لحمه وتقطع ، ولما نغل جلد أيوب وتغير وأنتن ، أخرجه أهل القرية ، فجعلوه على تل ، وجعلوا له عريشاً ، ورفضه خلق الله غير امرأته ، فكانت تختلف إليه بما يصلحه وتلزمه ،وكان ثلاثة من أصحابه تبعوه على دينه ؛فلما رأوا ماابتلاه الله به،

---

(١) تاريخ الطبري ١ : ٧-٨ .

رفضوه من غير أن يتركوا دينه واتهموه ، يقال لأحدهم : يلدد ، وللآخر : أليفر ، والثالث : صافر .. الخ) [1] .

ولم يناقش ابن جرير هـذه الرواية مع منافاتها لعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ب – وعند قوله تعالى : (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) [2] نقل ابن جرير عن وهب بن منبه أن الثعبان حمل على الناس فانهزموا منه ، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً ؛ قتل بعضهم بعضاً ، وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت) [3] .

وقد علق ابن كثير بقوله : « وفيه غرابة في سياقه » [4] .

جـ – وعند قوله تعالى : (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً)[5] روى عن السدي قال : (أمر الله بني إسرائيل بالسير إلى أريحا ... وهي أرض بيت المقدس – ، فساروا حتى إذا كانوا قريباً منهم ، بعث موسى اثني عشر نقيباً من جميع أسباط بني إسرائيل ، فساروا يريدون أن يأتوه بخبر الجبابرة ، فلقيهم رجل من الجبارين يقال له (عاج) فأخذ الاثني عشر ، فجعلهم في حجزته – موضع شد الإزار – وعلى رأسه حملة حطب ، فانطلق بهم إلى امرأته فقال : انظري إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون أن يقاتلونا !! فطرحهم بين يديها ، فقال : ألا أطحنهم برجلي ؟ فقالت امرأته : بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا .. الخ) ثم روى عن ابن إسحق أسماء النقباء فقال : (وهذه أسماء الرهط الذي بعث الله جل ثناؤه من بني إسرائيل إلى أرض الشام ، فيما يذكر أهل التوراة

---

(1) تفسير الطبري « ١٧ : ٤٥ » .

(2) الآية ١٠٧ من سورة الأعراف .

(3) جامع البيان « ١٣ : ١٦ – ١٧ » ط دار المعارف .

(4) تفسير ابن كثير « ٢ : ٢٣٦ » .

(5) الآية ١٢ من سورة المائدة .

ليجوسوها لبني إسرائيل :من سبط روبيـــل (شامون بن زكور) ومن سبط شمعون: (شافاط بن حوري) ... ثم روى عن ابن عباس قال: فانطلقوا فنظروا إلى المدينة فجاؤوا بحبة من فاكهتهم وقر رجل (حمل رجـل) فقالوا : اقدروا قوة قوم وبأسهم ، هذه فاكهتهم ! ! فعنـــد ذلك فتنوا، فقالوا : لانستطيـع القتال (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) [1] .

وقد علق ابن كثير في تاريخه على ماذكره ابن جرير وغيره في صفة الجبارين بقوله : (وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل العقل والنقل على خلافها ، من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاماً جداً ؛ حتى إنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم، تلقاهم رجل من رسل الجبارين فجعل يأخذهم واحداً واحداً ويلفهم في أكمامه وحجزة سراويله . وكل هـذه هذيانات وخرافات لاحقيقة لها ، وأن الملك بعث معهم عنباً كل عنبة تكفي الرجل وشيئاً من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم ، وهذا ليس بصحيح . . ثم قال : يروى هـذا عن نوف البكالي [2] ، ونقـله ابن جرير عن ابن عبـاس وفي إسناده إليه نظر ؛ ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات، فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم ولاتمييز لهم بين صحيحها وباطلها ، ثم لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم ، وقـد ذمهم الله على نكولهم وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم) [3] .

---

(١) الآية ٢٤ من سورة المائدة ، وانظر جامع البيان «١٠: ١١٦ — ١١٧» ط دار المعارف ونقل ابن جرير عن مجاهد في وصف هؤلاء الجبارين قوله: (فوجدوهم يدخل في كم أحدهم اثنان منهم ، ولا يحمل عنقـود عنبهم إلاخمسة أنفس منهم في خشبة، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس أو أربع) فانظر كيف كان يبالغ هؤلاء الرواة من أصحاب الاسرائيليات .

(٢) نوف البكالي هو ربيب كعب الأحبار .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير «٢٧٨:١» .

ز – وعند تفسيره لقوله تعالى : في الآية ٣٤ من سورة ص : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) روى ابن جرير جملة روايات في تفسير الآية، قال : (كان لسليمان مائة امرأة، وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة وهي آثر نسائه عنده وآمنهن عنده ، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه ولم يأتمن عليه أحداً من الناس غيرها، فجاءته يوماً من الأيام، فقالت : إن أخي بينه وبين فلان خصومة وأنا أحب أن تقضي له إذا جاءك فقال لها : نعم . فابتلي وأعطاها خاتمه ودخل المخرج ، فخرج الشيطان في صورته ، فقال لها : هات الخاتم فأعطته ، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان ، وخرج سليمان بعد فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت : ألم تأخذه قبل ؟ قال: لا ، وخرج من مكانه تائهاً ، قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً . قال : فأنكر الناس أحكامه ،فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماؤهم فجاؤوا حتى دخلوا على نسائه ، فقالوا : إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان، فقد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه، وفي رواية فسألوهن عن أحواله فقلن : إنه يأتينا ونحن حيض . قال : فبكى النساء عند ذلك . قال فأقبلوا يمشون حتى أتوه فأحدقوا به ، ثم نشروا التوراة فقرؤوا ، قال : فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة، والخاتم معه ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت من حيتان البحر ، قال : وأقبل سليمان في حاله التي كان فيها حتى انتهى إلى صياد من صيادي البحر وهو جائع وقد اشتد جوعه فاستطعمهم من صيدهم . قال : إني أنا سليمان ، فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجه ، فجعل يغسل دمه وهو على شاطىء البحر . فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه فقالوا: بئس ماصنعت حيث ضربته ، قال : إنه زعم أنه سليمان . قال : فأعطوه سمكتين مما قد مذر[1] عندهم ، ولم يشغله ما كان به من الضرر حتى قام إلى شط البحر فشق بطونهما فجعل يغسلهما ، فوجد خاتمه في بطن إحداهما ، فأخذه فلبسه فرد الله عليه بهاءه وملكه)[2] أه .

---

(١) تغيرت رائحته .

(٢) تفسير ابن جرير « ٢٣ : ١٠٠ – ١٠٢ » .

نسج القصة مهلهل ، عليه أثر الصنعة والاختلاق، وإذا كان الشيطان يتمثل برسل الله فأي ثقة بالشرع تبقى بعد ذلك ؟ وكيف يعقل أن يسلط الله الشيطان على نساء رسول من رسله ؟ وأي ملك أو نبوة يتوقف أمرهما على خاتم ، يدومان بدوامه ويزولان بزواله ؟! وإذا كان خاتم سليمان بهذه المنزلة فكيف يغفل الله شأنه ولم يذكره بكلمة؟وهل غير الله خلقة سليمان في لحظة حتى أنكروه جرادة؟. الحق أن أثر الكذب باد على كل كلمة من كلمات هـــذه القصة ، وليت ابن جرير وغيره من المفسرين والأخباريين لم ينقلوا هذا الهراء الذي لا يستسيغه عقل مسلم .

وقد نبه السيوطي في تخريج أحاديث الشفاء على أنها إسرائيليات تلقاها ابن عباس عن أهل الكتاب . وقال الحافظ ابن كثير ، بعد أن روى القصة السالفة الذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما : (.. إسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قوي . ولكن الظاهر أنه إنما تلقاها ابن عباس رضي الله عنهما — إن صح عنه — من أهل الكتاب [1] وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام فالظاهر أنهم يكذبون عليه ، ولهذا كان في هذا السياق منكرات : من أشدها ذكر النساء فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان ، بل عصمهن الله عز وجل تشريفاً وتكريماً لنبيه عليه السلام ، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضي الله عنهم ، كسعيد بن المسيب ، وزيد بن أسلم ، وجماعة آخرين ، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب) [2] .

والصحيح المتيقن في تفسير الفتنة هو ما جاء في صحيح البخاري (كتاب

---

(١) لا أعتقد صحة رواية هذه القصة عن ابن عباس ، ولو سلمنا صحة روايتها منه فلا أعتقد أنه رواها وأعتقد صحتها وإنما رواها منكراً لها . وكون سندها قوياً كما يقول ابن كثير ، لا يلزم منه صحة الخبر لما بيناه سابقاً من أن صحة السند لا يلزم منها صحة المتن .

(٢) تفسير ابن كثير « ٤ : ٣٥ — ٣٦ » .

الوصايا ، باب فضل الجهاد والسير) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قـــال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « . . قال سليمان بن داود عليهما السلام لأطوفن الليلة على مائة امرأة — أو تسع وتسعين — كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه : إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله ، نسياناً أو عرضت له مسألة شغلته ، أو رأى أن نية خير سيحققها الله ولو لم ينطق بالمشيئة، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذي نفس محمد بيده ، لو قال : إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون » أهـ قال العلماء : والشق : الجسد الذي ألقي على كرسيه ، وفتنته : نسيان المشيئة ، فامتحن بهذا وتاب . وحصل نظير هذا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد سأله أهل مكة عن قصة أهل الكهف ، فقال : « أجيبكم غداً » ولم يقل إن شاء الله ؛ فأبطـــأ عنه الوحي خمسة عشر يوماً . ثم نزل قوله تعالى : (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله)[1] الآية .

والحكمة في هذا أن الله تعالى : يحب من عباده أن يردوا المشيئة إليه في كل أمورهم ، وأن ترك المشيئة غفلة عن الله تستحق البلاء والمؤاخذة .

وهكذا يؤدب الله أصفياءه على مخالفة الأولى بالنسبة لمقام الاصطفـــاء والاجتباء ، وهـذا ما يليق بأهل القرآن الكريم أن يفهموه من كتاب ربهم وحديث نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وهو ما يتفق مع العقول السليمة ، أمـــا ما ملؤوا به كتب التفسير من إسرائيليات وخرافات حول سليمان وخاتم سليمان، فهو مما يجب أن تتنزه عنه أدمغة الناس وقلوبهم .

ويتبين لنا من الأمثلة السابقة أن ابن جرير قد وقف في نقده للمرويات الإسرائيلية موقفين متضادين :

أولهما : التساهل في نقد الأخبار التاريخية التي تتصل بالقصص العـــام ، ولذلك لا يرى حرجاً من الرواية عن ابن إسحاق ، والسدي ، والضحاك ، وغيرهم

---

(١) الآية « ٢٣ ، ٢٤ » من سورة الكهف .

ممن كانوا موضع الظن والتهمة من رجال الآثار ، كما لم يجد حرجاً في الرواية عن كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام ، وغيرهم ممن لهم صلة بالكتب السابقة .

وثانيها : التشدد في نقد المرويات التي تعرض لتفصيل جزئية لا ينفع في الدين العلم بها ولا الجهل بمضمونها ، ولم يرد فيها نص صريح من الكتاب أو نقل صحيح من السنة ، وهو بهذا الصنيع يلتزم منهجه الذي ذكره في مقدمتي تفسيره وتاريخه وأشرنا إليه من قبل .

٣ ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي :

التعريف بالمؤلف :

هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري . قال ابن خلكان : (كان أوحد زمانه في علم التفسير ، وصنف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير)[١] كما صنف كتاب العرائس في قصص الأنبياء . وكان ـ رحمه الله ـ كثير الحديث ، كثير الشيوخ ، كثير التلاميذ ، أخذ عنه أبو الحسن الواحدي وأثنى عليه ، ولكن هناك من العلماء من يرى أنه لا يوثق به ، ولا يصح نقله ، قال ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير :

(والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين ، وكان حاطب ليل ، ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع)[٢] . وقال أيضاً في فتاواه ـ وقد سئل عن بعض كتب التفسير ـ : (وأما الواحدي فإنه تلميذ الثعلبي ، وهو أخبر منه بالعربية ، لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع ، وإن ذكرها تقليداً

---

(١) وفيات الأعيان « ٢٧:١ ـ ٢٨ » .

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ١٩ .

لغيره ، وتفسيره وتفسير الواحدي (البسيط ، والوسيط ، والوجيز) فيها فوائد جليلة ، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها)[1] اهـ .

وقال الكتاني في الرسالة المستطرفة عند الكلام عن الواحدي المفسر : (ولم يكن له ولا لشيخه الثعلبي كبير بضاعة في الحديث ، بل في تفسيرهما — وخصوصاً الثعلبي — أحاديث موضوعة وقصص باطلة)[2].

ومن يقرأ تفسير الثعلبي يعلم أن وصف ابن خلكان له مجافياً للحقيقة ، وأن ابن تيمية والكتاني لم يتقولا عليه ولم يصفاه إلا بما هو فيه كما سيتضح ذلك فيما بعد .

وكانت وفاة الثعلبي سنة سبع وعشرين وأربعمائة رحمه الله .

التعريف بالتفسير .

لم يطبع هذا التفسير للآن .. ولله الحمد — وإنما يوجد نسخة غير كاملة بمكتبة الأزهر وبدار الكتب المصرية ، ولم يتحر مؤلفه الصحة في كل ما ينقل من تفاسير السلف ، بل نجده — كما لاحظنا عليه ، وكما قال السيوطي في الإتقان[3] — يكثر من الرواية عن السدي الصغير ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس وهذه هي سلسلة الكذب ، كذلك نجده قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين من الاغترار في الأحاديث الموضوعة في فضائل القرآن سورة سورة ، فروى في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها منسوباً إلى أُبي بن كعب ، كما اغتر بكثير من الأحاديث الموضوعة على ألسنة الشيعة ، فسود بها كتابه دون أن يشير إلى وضعها واختلاقها ، وفي هذا ما يدل على أن الثعلبي لم يكن له باع في معرفة صحيح الأخبار من سقيمها .

---

(١) فتاوى ابن تيمية « ٢ : ١٩٣ » .

(٢) الرسالة المستطرفة « ص ٥٩ » .

(٣) الإتقان « ٢ : ١٨٩ » .

ويمتاز هذا التفسير بالتوسع إلى حد كبير في ذكر الاسرائيليات ، ولعل ذلك يرجع إلى أن الثعلبي كان واعظاً وشأن الواعظ — في الغالب — أن يغلب عليه الجانب القصصي فيما يلقيه على الناس وفيما يكتب لهم ، وقد لمساعدته الظاهرة في الثعلبي بصورة واضحة في كتابه العرائس الذي ألفه في قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

موقفه من الاسرائيليات .

والثعلبي مكثر جداً من رواية الإسرائيليات ، بل لقد فاق في ذلك جميع المفسرين — فيما أعلم — بدون أن يتعقب شيئاً منها أو ينبه على مافيه ،رغم استبعاده وغرابته ، وقد قرأت في كتابيه : (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) ، (والعرائس) قصصاً إسرائيلياً نهاية في الغرابة .

فمن ذلك مثلاً :

أ — ماذكره عند تفسير قوله تعالى: (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) قال : فقالوا — أي إخوة يوسف — : ألم تروا إلى أبينا كيف يكذبنا في مقالتنا ، فتعالوا نصطد ذئباً ، قال : فاصطادوا ذئباً ولطخوه بالدم وأوثقوه بالحبال ، ثم جاؤوا به يعقوب وقالوا : ياأبانا إن هذا الذئب الذي يحل بأغنامنا ويفترسها ؛ ولعله الذي فجعنابأخينا، لانشك فيه ، وهذا دمه عليه ، فقال يعقوب : أطلقوه ، فأطلقوه ، فبصبص له الذئب وأقبل يدنو منه ويقول له يعقوب : ادن ادن ، حتى ألصق خده بفخذه ، فقال له يعقوب : أيها الذئب لم فجعتني في ولدي وأورثتني بعده حزناً طويلاً ؟ ثم قال : اللهم أنطقه ، فأنطقه ، فقال : والذي اصطفاك نبياً ماأكلت لحمه ، ولامزقت جلده، ولا نتفت شعرة من شعره ، ووالله مالي بولدك عهد ، وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فقدته ، فلا أدري أحي هو أم ميت ؟ فاصطادني ولدك وأوثقني ، وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش ، وبالله لاقمت في بلد يكذب فيها أولاد الأنبياء على

الوحوش ، فأطلقه يعقوب ، وقال لبنيه : والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم ، هـذا ذئب بهيمة ، خرج يتبع زمام أخيه ، وأنتم ضيعتم أخاكم ، وعلمت أن الذئب بريء مما جئتم به (بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل والله المستعان على ماتصفون) [1] .

ب – وما ذكره عند قوله تعالى : (إذ أوى الفتية إلى الكهف .. الآية) فقال فيما يرويه عن السدي ووهب وغيرهما : (وأسماؤهم – يريد الفتية –مكسلمينا – وهو كبيرهم ورئيسهم – وإيمخا – وهو أجملهم وأعبدهم وأنشطهم – ومكشلينا ، ومرطوش ، ونوانس ، وكيد ، وسططنوس . وكلبهم قطمير . . .) ثم قال : (قال كعب : مروا بكلب ، فتبعهم فطردوه مراراً ، فقام الكلب على رجليه رافعاً يديه إلى السماء كهيئة الداعي فنطق ، فقال : لاتخافوا مني أنا أحب أحباب الله فناموا حتى أحرسكم) ثم ذكر من قصتهم ماذكر إلى أن قال : (وقيل إن النبي صلى الله عليه وسلم سأل الله أن يريه إياهم ، فقـال : إنك لن تراهم في دار الدنيا ، ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل : كيف أبعثهم ، فقال : ابسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر ، وعلى الآخر عمر ، وعلى الثالث عثمان ، وعلى الرابع علي بن أبي طالب ، ثم ادع الريح الرخاء المسخرة لسليمان ؛ فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك ففعل ، فحملتهم الريح إلى باب الكهف فقلعوا منه حجراً فحمل الكلب عليهم ، فلما رآهم حرك رأسه وبصبص بعينيه وأومـأ برأسه : أن ادخلوا ، فدخلوا الكهف فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته معشر الفتية ، إن النبي محمد بن عبد الله يقرأ عليكم السلام ، فقالوا : على محمـد رسول الله السلام مادامت السموات والأرض وعليكم ما أبلغتم ، وقبلوا دينه وأسلموا ، ثم قالوا : أقرئوا محمداً رسول الله منا السلام ، وأخذوا مضاجعهم ، وصاروا إلى رقدتهم ..) [2] اهـ .

---

(١) تفسير الثعلبي (جـ ٤ ورقة ٢١) .

(٢) تفسير الثعلبي ٥ جـ ٤ ورقة ١٢١ – ١٢٥ هـ .

والعجيب أن الثعلبي يمر على هـذه الرواية وما قبلها دون أن يتعقبها بكلمة تكذيب لها أوشك فيها؛ مع أن روائح الكذب بادية عليها وبخاصة الرواية الثانية، فما محمد عليه الصلاة والسلام بالشخص الذي يعبث فيسأل ربه أن يريه أصحاب الكهف؛ ولو وقع منه سؤال لربه – كما في الرواية – فلم لايجاب إلى طلبه ؟ويؤمر بإرسال أربعة من صحابته إليهم فيروهم رأى العين ؟ هل معنى هذا أن محمداً صلى الله عليه وسلم هان على ربه فحرمه من شيء تاقت نفسه إليه ولم يحرم منه بعض أصحابه ؟ ولم كان الأربعة الذين أرسلهم هم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وهم الخلفاء الأربعة ؟ أليس في ذلك روائح الكذب وأمارات الاختلاق ؟ ثم أليس في تسخير الريح لمحمد عليه الصلاة والسلام مايتنافى مع ماجاء في القرآن من قول نبي الله سليمان عليه السلام: (رب اغفر لي وهب لي ملكاً لاينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) وماثبت في الحديث من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هم أن يربط شيطاناً بسارية المسجد؛ حتى إذا أصبح الصبح يراه أصحابه، فلما تذكر دعوة أخيه سليمان: (رب اغفر لي وهب لي ملكاً لاينبغي لأحد من بعدي) أطلقه ، أليس في كل ماذكر مايكفي لرد هـذه الرواية وأنها لا أساس لها من الصحة ؟ أعتقد بأن فيما ذكرته ما يكفي لردها وبيان بطلانها .

ج – وعند تفسير قوله تعالى :(فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً . . الآية) روى عن وهب وغيره ، قال : (وذلك أن الاخوة لما يئسوا من أن يجيبهم يوسف إلى رد أخيهم، فقال بعضهم لبعض : تعلمون أن أبانا قد أخذ علينا ميثاقاً غليظاً . . وقد عجزنا عن الإتيان به من جهة المسألة ، فلا بد أن ندخل على الملك ، فإما أن يرد علينا أخانا ، وإما أن نقاتل بالقوة التي ركبها الله فينا – وذلك أن بني يعقوب كانوا من القوة بحيث إذا غضب واحد منهم اقشعر جلده، وانتفخ جسده، وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب حتى يقطر من كل شعرة قطرة دم ، وإن ضرب الأرض برجله تزلزلت وتهدم البنيان ، وإن صاح لم تسمعه حامل من الإنس

والبهائم والطير إلا وضعت ما في بطنها . . فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دما أو تمسكه يد من نسل يعقوب ، فإذا مسته يد من نسل يعقوب سكن غضبه ، وذهبت قوته وصار كرجل من الناس — فقال (يهوذا) لهم — وهو كان أشد غضباً —: إما أن تكفوني الملك ومن معه فأكفيكم أهل مصر، وإما أن تكفوني أهل مصر فأكفيكم الملك ومن معه ، قالوا : بل اكفنا الملك ومن معه نكفك أهل مصر ، فبعث واحداً من إخوته ، فعدوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق ، فأخذ كل واحد منهم سوقاً ، ثم إن يهوذا دخل على يوسف وقال : أيها العزيز إن رددت علي أخي حمدناك وشكرناك ، وإن لم ترده بالحسنى صحت صيحة لا يبقى بحضرتك حامل إلا وضعت ما في بطنها ورأيت منا ما تكره ، فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة فظة ، فغضب يهوذا واشتد غضبه ، وانتفخت شعراته ، وصار من الحمية والانتفاخ بحيث لا يشبه الناس ، فلما علم يوسف أن غضبه قد تم ، قال : لابن له صبي : يا بني اذهب إلى ذلك الرجل القائم فأتني به ، فلما أخذ الغلام بيد يهوذا سكنت نفسه ، وذهب غضبه ، فالتفت يميناً وشمالاً لعله يرى أحداً من إخوته فلم ير ، فخرج مسرعاً إلى إخوته ، فقال لهم : هل حضرني أحد منكم ؟ قالوا : لا ، قال فأين ذهب شمعون ؟ قالوا : ذهب إلى الجبل فخرج فلقيه وقد احتمل صخرة عظيمة قال ما تصنع بهذه؟ قال : أذهب إلى السوق الذي وقع في نصيبي أشدخ بها رؤوس كل مار فيه ، قال : فارجع ، فردها أو ألقها في البحر ، فو الذي اتخذ إبراهيم خليلاً لقد مستني كف من نسل يعقوب ، ثم دخلوا على يوسف — وكان يوسف أشدهم بطشاً — فقال: يامعشر العبرانيين أتظنون أنه ليس أحد أشد منكم قوة ، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحونة فركله برجله . . . ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه ، وقال لبعض خدمه : هات الحدادين حتى أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم، ثم صعد على سريره وجلس على فراشه وأمر بصواعه ، فوضع بين يديه فنقره نقرة فخرج طنينه ، فالتفت إليهم وقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا ، قال فإنه يقول : إنه ليس على قلب أبيهم هم ولا غم ولا كرب إلا من سببهم .. الخ) [1] .

---

(١) تفسير الثعلبي « ج ٤ ورقة ٣٦ » .

٤ - وعند قوله تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .. الآية ﴾ قال : (قالت الرواة : إن الله تعالى خلق موضع البيت قبل الأرض بألفي عام ، فكانت زبدة بيضاء على الماء ، فدحيت الأرض من تحتها ، فلما أهبط الله آدم إلى الأرض كادت رأسه تمس السماء حتى صلع وأورث أولاده الصلع ، ونفرت من طوله دواب البر فصارت وحوشاً من يومئذ ، وكان يسمع كلام أهل السماء وتسبيحهم ودعاءهم فيأنس إليهم ، فهابته الملائكة واشتكت نفسه ، فنقصه الله تعالى ستين ذراعاً بذراعه ، فلما فقد آدم ما كان يسمع من أصوات الملائكة استوحش وشكا ذلك إلى الله تعالى ، فأنزل الله تعالى بيتاً ياقوتة من يواقيت الجنة ، له بابان من زمرد أخضر :

باب شرقي وباب غربي ، وفيه قناديل من الجنة ، فوضعه على موضع البيت الآن ، وقال يا آدم : إني أهبطت لك بيتاً تطوف به كما تطوف الملائكة حول عرشي ، وتصلي عنده كما تصلي الملائكة عند عرشي ، وأنزل عليه الحجر الأسود ليمسح به دموعه ، وكان أبيض ، فلما لمسه الحُيَّض في الجاهلية اسود .. الخ)[1].

فهذه المبالغات في وصف قوة يوسف عليه السلام وإخوته وفي وصف طول آدم عليه السلام ؛ حتى إن رأسه تمس السماء ولذلك صلع وأورث أولاده الصلع .. الخ !؟ أقول هذه المبالغات لم يتضمنها القرآن العظيم ولا الحديث الصحيح ، وإنما هي من أكاذيب القصاص وإسرائيليات أهل الكتاب ، فما أجدر كتاب الله أن ينقى من مثل هذه الخرافات .

قال ابن قتيبة مستنكراً أقوال القصاص في هذا الصدد : (ثم يذكر[2] آدم عليه السلام ويصفه فيقول : وكان رأسه يبلغ السحاب أو السماء ، ويحاكها ، فاعتراه لذلك الصلع ، ولما هبط إلى الأرض ، بكى على الجنة حتى بلغت دموعه

---

(١) تفسير الثعلبي « ج ١ ورقة ١٠٦ » .
(٢) أي الناس .

البحر، وجرت فيها السفن، وليس في شيء مما وصف الله تعالى به من قبلنا مايقارب هذا الإفراط) [1] .

وقد عقب صاحب المنار على القصة الأخيرة بقوله : (.. ولكن القصاص ومن تبعهم من المفسرين جاوزوا من ذلك بغير ماقصه الله تعالى علينا ، وتفننوا في رواياتهم عن قدم البيت ، وعن حج آدم ومن بعده من الأنبياء إليه .. وأن الحجر كان ياقوتة بيضاء وقيل زمردة من يواقيت الجنة أو زمردها ، وأنها كانت مودعة في باطن جبل أبي قبيس ، فتمخض الجبل فولدها ، وأن الحجر إنما اسود لملامسة النساء الحيض له .. الخ . وكل هذه الروايات خرافات إسرائيلية بثها زنادقة اليهود في المسلمين ؛ ليشوهوا عليهم دينهم وينفروا أهل الكتاب منه) .

وعلق الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أيضاً ساخراً : (لو كان أولئك القصاصون يعرفون الماس لقالوا : إن الحجر الأسود منه، لأنه أبهج الجواهر منظراً وأكثرها بهاء، وقد أراد هؤلاء أن يزينوا الدين ويرقشوه برواياتهم هذه ، ولكنها إذا راقت البله من العامة ، فإنها لاتروق لأهل العقل والعلم الذين يعلمون أن التشريف إنما هو هذا الضرب من الشرف المعنوي ، فشرف هذا البيت إنما هو بتسمية الله تعالى إياه بيته ، وجعله موضعاً لضروب من عبادته لاتكون في غيره كما تقدم ، لابكون أحجاره تفضل سائر الأحجار ، ولا بكون موقعه يفضل سائر المواقع ، ولا بكونه في السماء ، ولابأنه من عالم الضياء . وكذلك شرف الأنبياء على غيرهم من البشر ليس لمزية في أجسامهم ولافي ملابسهم، وإنما لاصطفاء الله تعالى إياهم ، وتخصيصهم بالنبوة التي هي أمر معنوي ، وقد كان أهل الدنيا أحسن زينة وأكثر نعمة منهم) [2] .

هـ — وعندما عرض لتفسير قوله تعالى : (وما أنزل على الملكين ببابل

(١) تأويل مختلف الحديث « ٢٨١ — ٢٨٢ » .

(٢) تفسير المنار « ١:٤٦٦ — ٤٦٧ » .

هاروت وماروت .. الآية) قال:(قال ابن عباس والمفسرون : لما رأت الملائكة مايصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة و كثرة ذنوبهم — وذلــك في زمن إدريس [illegible] بذلك ودعوا عليهم ، قال الله تعالى : فاختاروا ملكين من خيار[illegible] أبعثهما إلى الأرض،فاختاروا هاروت وماروت — وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم — فركب الله فيهم الشهوة وأمرهم أن يحكموا في الأرض بين الناس بالحق، قال قتادة : فما مر عليهما أشهر حتى افتتنا جميعاً ، وذلك أنها اختصم إليهما ذات يوم (الزهرة) وكانت من أجمل النساء . قال علي : وكانت من أهل فارس ، وكانت ملكة في بلدها ، فأخذت بقلوبهما ، فراوداها عن نفسها فأبت وقالت: إلا أن تعبداما أعبد ، وتصليا لهذا الصنم ، وتقتلا النفس ، وتشربا الخمر ، ففعلا ، فمسخ الله الزهرة كوكباً ، وقال علي بن أبي طالب والسدي والكلبي : إنها قالت لهما لن تدركاني حتى تخبراني بالآية التي تصعدان بها إلى السماء، فقالا: بسم الله الأكبر فعلماها ذلك ، فتكلمت به فصعدت إلى السماء ، فمسخها الله تعالى كوكباً ، يدل عليه قول علي، قال : كان النبي عليه السلام إذا رأى سهيلاً قال : « لعن الله سهيلاً كان عشاراً باليمن ، ولعن الله الزهرة فإنها فتنت ملكين »[1] أهـ .

لو أن هذه القصة الإسرائيلية المكذوبة وقف بها عند قائليها ، لكان الأمر محتملاً ، ولكن الشناعة و كبر الإثم أن ترفع إلى المعصوم صلى الله عليه وسلم بقصد تأييد هذه الفرية وتثبيتها عند السامعين، والقصة كلها مكذوبة مختلقة سواء المرفوف منها أو المرفوع ، وقد حكم بوضعها الإمام أبو الفرج بن الجوزي ونص الشهاب العراقي : على أن من اعتقد في هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما فهو كافر بالله العظيم[2] . وقال القاضي عياض في الشفاء : (وما ذكر فيها — أي قصة هاروت وماروت — أهل الأخبار ونقلة المفسرين ، وما روي عن علي وابن عباس في خبرهما وابتلائهما فاعلم — أكرمك الله — أن هذه الأخبار لم يروِ منها شيء

---

(١) تفسير الثعلبي « ج ١ ورقة ٩٠ » .

(٢) نقلاً عن روح المعاني « ١ : ٣٤١ » .

لاسقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)[1] كما زيف المرفوع من هذه القصة الحافظ ابن كثير ، وبين أن منشأ ذلك روايات إسرائيلية اخذت عن كعب الأحبار وغيره من علماء أهل الكتاب ، وألصقها الزنادقة بالنبي صلى الله عليه وسلم زوراً وبهتاناً . قال ابن كثير : (وأقرب مايكون في ذلك أنه من رواية عبدالله بن عمر عن كعب الأحبار لاعن النبي صلى الله عليه وسلم) وقال أيضاً: (وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين . . وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لاينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ماأراده الله تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال)[2] .

والثقات من المحدثين لم يرفعوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإنما وقفوها على كعب وأضرابه ، ، والملائكة معصومون عن مثل هذه الكبائر التي لاتصدر إلا من عربيد لاخلاق له ، ثم كيف ترفع الفاجرة إلى السماء وتصير كوكباً مضيئاً ؟ وما النجم المعروف بهذا الاسم إلا في مكانه من يوم أن خلق الله السموات والأرض ، وما ذكروه من هذا الخلط لايوافق سياق الآية ، ولا نزلت له ، وليس السبب في نزول الملكين ما ذكروا ؛ وإنما السبب أن السحرة كثروا في ذلك الزمان واخترعوا أبواباً من السحر ، حتى كادوا أن يفسدوا عقول الناس ويضلوهم عن الحق ، فبعث الله هذين الملكين كي يعلما الناس السحر فلا يشتبه عليهم بالمعجزة ، وبذلك يسهل عليهم التمييز بين حق الأنبياء وباطل هؤلاء ، وقد احتاط الملكان ، وبالغا في التحذير من العمل في السحر (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) وبذلك تبين الحق وظهر أن هذه الخرافة لاتمت إلى الإسلام بصلة .

---

(١) الشفاء للقاضي عياض « ٢ : ١٧٠ » ط عثمانية سنة ١٣١٢ هـ .

(٢) تفسير ابن كثير « ١ : ١٣٨ ــ ١٤١ » .

و ـ وعندقوله تعالى : {إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت .. الآية} قال: (وكانت قصة التابوت وصفته على ما ذكره أهل التفسير وأصحاب الأخبار: أن الله تعالى أنزل تابوتاً على آدم عليه السلام فيه صورة الأنبياء من أولاده ، وفيه بيوت بعدد الأنبياء كلهم عليهم السلام ، وآخر البيوت بيت محمد صلى الله عليه وسلم من ياقوتة حمراء ، وإذا هو قائم يصلي عن يمينه الكهل المطيع، مكتوب على جبينه : هذا أول من يتبعه من أمته : أبو بكر رضي الله عنه ، وعن يساره الفاروق ، مكتوب على جبينه : قرن من حديد ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، ومن ورائه ذو النورين بحجزته ، مكتوب على جبينه : بار من البررة ، ومن بين يديه علي بن أبي طالب شاهراً سيفه على عاتقه ، مكتوب على جبينه هذا أخوه وابن عمه المؤيد بالنصر من عند الله . وكان التابوت نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين ، وكان من عود الشمشاذ الذي يتخذ منه الأمشاط ، مموه بالذهب ، فكان عنـــد آدم عليه السلام إلى أن مات ، ثم شيث ، ثم توارثه أولاد آدم .. الخ) [1] .

وقد أورد صاحب المنار صفة التابوت من أول الفصل الخامس والعشرين من سفر الخروج لكي يتبين منشأ هـــذه الروايات الإسرائيلية، ثم علق بقوله : (وغرضنا منها معرفة حقيقة التابوت عندهم ، فإنك لتجد في بعض كتب التفسير وكتب القصص عندنا أقوالاً غريبة عنه ، منها : أنه نزل مع آدم من الجنـــة ، ومنشأ تلك الأقوال ما كان يتبذه الإسرائيليون من القصص بين المسلمين مخادعة لهم ، ليكثر الكذب في تفسيرهم للقرآن فيضلوا به ، ويجد اليهود مجالاً واسعـــاً للطعن في القرآن يصدون به قومهم عنه) [2] .

ز ـ وعند قوله تعالى : { قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ... الآية } قال : (قال قتادة، والحكم بن عتيبة، وابن جريج، ومحمد بن كعب: لم يكن في

(١) تفسير الثعلبي « جـ ١ ص ٢١٩ » .
(٢) تفسير المنار « ٢ : ٤٨٦ » .

السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة أولاد له : سام ، ويافث ، وحام ، ونساؤهم ، فجميع من كان في السفينة ثمانية ، فأصاب حام امرأته في السفينة ، فدعا نوح الله أن يغير نطفته فجاء بالسودان)[1] .

وهذا القول مختلق لأن فيه مخالفة لظاهر الآية، بل هي نص في أنه قد ركب معه — غير أهله — طائفة ممن آمن به كما قال : (ونجني ومن معي من المؤمنين) كما نبه عليه الحافظ ابن كثير[2] .

ح — وعند قوله تعالى : (قالوا يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة) روى عن كعب الأحبار أنه قال : (كان يوسف حسن الوجه ، جعد الشعر ، ضخم العنق ، مستوي الخلق ، أبيض اللون ، غليظ الساعدين والعضدين ، خميص البطن، صغير السرة ، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه ، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع الشمس من ثناياه ، لا يستطيع أحد وصفه ، وكان حسنه كضوء النهار عند الليل ، وكان يشبه آدم يوم خلقه الله وصوره ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية)[3] ونحن لا ننكر — بصفة عامة — جمال يوسف عليه السلام وأنه أوتي شطر الحسن ، ولكن الذي ننكره هذا التحديد الدقيق في وصف لونه وملامح جسده وشبهه بآدم ، والذي لا يتأتى إلا لمن شاهده هو وآدم عليهما السلام عياناً ، ولا دليل على ما ذكر من كتاب أو سنة وإنما هو النقل من أساطير العهد القديم التي لا تثبت عند التحقيق .

ونجد الثعلبي يروي كثيراً من الأحاديث الموضوعة دون أن ينبه على وضعها ، مما يدل على قلة بضاعته في الحديث كما قيل عنه ، ومن ذلك مثلاً :

أ — ما ذكره عند قوله تعالى: (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل

---

(١) تفسير الثعلبي « ج ٤ ورقة ٧ » .

(٢) انظر البداية والنهاية « ١ : ١١٢ » .

(٣) تفسير الثعلبي « ج ٤ ورقة ٢٩ » .

وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا)[1] فقد نقل عنه القرطبي حديثاً يرويه عن ابن عباس مرفوعا ، قال : (إن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام ، فأمر جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء ، وكان كالشمس في النور ، والسواد الذي يرى في القمر من أثر المحو)[2] .

وفي إسناد الحديث نوح بن أبي مريم وهو وضاع كبير وقد حكم ابن الجوزي على الحديث بالوضع[3] ، ومما يشهد باختلاق مثل هذه المرويات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتعرض للكونيات بهذا التفصيل ، ولما سئل عن الهلال ؛ لم يبدو صغيراً ثم يكبر ثم يصغر ؟ أجاب الله سائليه بالفائدة فقال : (هي مواقيت للناس والحج) وهو من الأسلوب الحكيم ، إذ توجيه الناس إلى الاعتبار للغاية والفائدة خير وأجدى من بيان السبب والعلة ، وليس من الحكمة التعرض لمثل هذه الكونيات بالتفصيل كما يصنع أهل الفلك والهيئة ، وترك مثل هذا للزمن كي يتوصل إليه البشر بعقولهم واجتهادهم وبحثهم أولى ، ولا سيما وأنه لا يتوقف على معرفة الناس لمثل هذه التفصيلات الفلكية فائدة دينية ، بل قد يكون في ذكرها على ما هو المعروف في علم السنن الكونية فتنة لبعض العقول الضعيفة التي لا تستسيغ مثل هذه التفصيلات في ذاك الزمن ، والإسلام في مثل هذا حكيم كل الحكمة وصدق ابن مسعود رضي الله عنه حيث يقول : (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) ويعجبني في هذا المعنى ما ذكره الآلوسي عن بعض الفضلاء حيث قال : (إنه لم يجيء في ترتيب الأجرام العلوية والسفلية وشرح أحوالها - كما فعل الفلاسفة - عن الشارع شيء ، لما أن ذلك ليس

---

(١) الآية ١٢ من سورة الإسراء .

(٢) تفسير القرطبي « ١٠ : ٢٢٧ - ٢٢٨ » .

(٣) اللآلىء المصنوعة « ١ : ٣٤ » وما بعدها .

من المسائل المهمة في نظره عليه الصلاة والسلام ، وليس المهم إلا التفكر والاستدلال بها على وحدة الله وكما له جل جلاله) [1] .

ب — ومن ذلك أيضاً ما ذكره في قوله تعالى في سورة يوسف : (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) قال : عن جابر أن رجلاً من اليهود أتى النبي صلى الله عليه وسلم يقال له قيسان ، فقال : يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآهـا يوسف ساجدة له ما اسمها ؟ فلم يجبه ، فنزل جبريل فأخبره بأسمائها ، فقال : جريان ، والطارق ، والذيال ، وذو الكنفات ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والمصبح ، والفليق ، والفروغ ، والقرع ، والشمس ، والقمر ، رآها يوسف نزلت من السماء فسجدت له ، فقال اليهودي : إي والله ، إنها لأسماؤها) [2] أهـ وقد نبه على وضعه الحافظ ابن الجوزي وأعلّه بالحكم بن ظهير الذي تفرد به ، وقد ضعف الأئمة الحكم ابن ظهير ، فقال فيه الجوزجاني : ساقط ، وهو صاحب حديث نجوم يوسف [3] ، وقال ابن معين : ليس بثقة ، وقال البخاري : منكر الحديث [4] .

٤ — معالم التنزيل للبغوي

التعريف بالمؤلف .

هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد ، المعروف بالفرّاء والبغوي ، الفقيه الشافعي ، المحدث ، المفسر ، الملقب بمحيي السنة وركن الدين .

تفقه البغوي على القاضي حسين وسمع الحديث منـه ، ونبغ في التفسير

---

(١) تفسير الآلوسي « ١٣ : ٩٩ » .

(٢) تفسير الثعلبي « جـ ٤ ورقة ١٨ » .

(٣) تفسير ابن كثير « ٢ : ٤٦٨—٤٦٩ » .

(٤) ميزان الاعتدال « ١ : ٥٧١ » .

والحديث والفقه حتى عده التاج السبكي من علماء الشافعية الأعلام ، فقال عنه : كان إماماً جليلا ، ورعاً زاهداً فقيهاً ، محدثاً مفسراً ، جامعاً بين العلم والعمل ، سالكاً سبيل السلف ، وصنف في تفسير كلام الله تعالى ، وأوضح المشكلات وقول النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى الحديث واعتنى بدراسته ، وصنف كتباً كثيرة ، فمن تصانيفه : معالم التنزيل في التفسير – وهو الذي نحن بصدده – وشرح السنة في الحديث ، والمصابيح في الحديث أيضاً ، والجمع بين الصحيحين ، والتهذيب في الفقه ، وغير ذلك . وقد بورك له في تصانيفه ورزق فيها القبول لحسن نيته[1].

توفي رحمه الله في شوال سنة عشر وخمسمائة من الهجرة .

التعريف بالتفسير .

قال ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير : (والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي ، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة)[2] .

وقال في فتاواه – وقد سئل عن أي التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة ؟ الزمخشري ؟ أم القرطبي ؟ أم البغوي ؟ أم غير هؤلاء ؟ . . : (وأما التفاسير الثلاثة المسؤول عنها ، فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة البغوي ، لكنه مختصر من تفسير الثعلبي ، وحذف منه الأحاديث الموضوعة والبدع التي فيه ، وحذف أشياء غير ذلك)[3] اهـ .

وقال الأستاذ الكتاني رحمه الله في الرسالة المستطرفة ص ٥٨ (وقد يوجد

---

(١) انظر في ترجمته : الطبقات الكبرى لابن السبكي « ٤ : ٢١٤ – ٢١٥ » وطبقات المفسرين للسيوطي ص ١٣ ، ووفيات الأعيان « ١ : ١٤٥ – ١٤٦ » والتفسير والمفسرون « ١ : ٢٣٤ – ٢٣٥ » .

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ١٩ .

(٣) فتاوى ابن تيمية « ٢ : ١٩٣ » .

فيه – يعني معالم التنزيل – من المعاني والحكايات مانحكم بضعفه أو وضعه)أهـ .

وقال البغوي في مقدمة تفسيره – مبيناً من نقل عنهم في تفسيره من أئمة الصحابة والتابعين وتابعيهم : (وما نقلت فيه من التفسير عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما حبر هذه الأمة، ومن بعده من التابعين وأئمة السلف مثل مجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، رضي الله عنهم، وقتادة، وأبي العالية، ومحمد بن كعب القرظي، وزيد بن أسلم، والكلبي ، والضحاك، ومقاتل بن حيان، ومقاتل ابن سليمان، والسدي ، وغيرهم ، فأكثرها مما أخبرني الشيخ أبو سعيد أحمد بن محمد الشريحي الخوارزمي فيما قرأته عليه عن الأستاذ أبي إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي عن شيوخه .. الخ)[1] .

ويلاحظ أن البغوي لم يكن دقيقاً فيما يأخذ به من الأسانيد؛ فهو مثلاً ينقل عن الكلبي والضحاك ومقاتل بن سليمان والسدي. وهؤلاء الأربعة موضع تهمة عند علماء الجرح والتعديل، كما يلاحظ أن البغوي تلميذ الثعلبي صاحب كتابي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) و (قصص الأنبياء) اللذين يفيضان بالاسرائيليات فلا شك أن البغوي قد تأثر بالثعلبي الذي اختصر تفسيره فنقل في تفسيره الكثير من هذه الإسرائيليات . وقد طبع هذا التفسير في نسخة واحدة مع تفسير ابن كثير القرشي الدمشقي ، كما طبع مع تفسير الخازن .

موقفه من الاسرائيليات .

كنا نتوقع أن يكون البغوي دقيقاً فيما يأخذ به من الأسانيد ، كما كنا نتوقع أن يتعقب مايرويه من الإسرائيليات ، وبخاصة أنه من رجال الحديث وله دراية واسعة بمراتب الجرح والتعديل، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك فنقل كثيراً من الإسرائيليات . ومن ذلك مثلاً :

---

(١) تفسير البغوي ﻫ ١ : ٣ ، ٦ – نسخة على هامش تفسير الخازن .

أ – قال في تفسير قوله تعالى : (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون)[1] .

(وكانت بنوا إسرائيل قد استعاروا حلياً كثيرة من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر لعمل عرس لهم ، فأهلك الله فرعون وبقيت تلك الحلي في أيدي بني إسرائيل ، فلما فصل موسى ، قال السامري لبني إسرائيل :

إن الحلي التي في أيدي بني إسرائيل والتي استعرتموها من قوم فرعون غنيمة لا تحل لكم ، فاحفروا حفرة وادفنوها فيها حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه ، وقال السدي : إن هارون عليه السلام أمرهم أن يلقوها في حفرة حتى يرجع موسى ففعلوا ، فلما اجتمعت الحلي صاغها السامري عجلاً في ثلاثة أيام ، ثم ألقى فيها القبضة التي أخذها من تراب فرس جبريل ، فخرج عجلاً من ذهب مرصعاً بالجواهر كأحسن مايكون، فخار خواره ، وقال السدي :كان يخور ويمشي)[2].

فهذه القصة من الإسرائيليات التي لايليق بالمسلمين أن يشتغلوا بها وقد آن لهم أن يطهروا كتبهم وعقولهم من هذه الخرافات .

ب – وقال عند تفسير قوله تعالى : (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون)[3] .

(روى عن علي : ليست بدابة لها ذنب ، ولكن لها لحية – كأنه يشير إلى أنه رجل – والأكثرون على أنها دابة، وروى ابن جريج عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس الثور ، وعينها عين الخنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً ، معها عصا

(١) الآية ٥١ من سورة البقرة .

(٢) تفسير البغوي « ١ : ٦١ » .

(٣) الآية ٨٢ من سورة النمل .

موسى ، وخاتم سليمان ، فلا يبقى مؤمن إلا نكتته في مَسْجَده[1] بعصا موسى نكتة بيضاء ، يضيء بها وجهه ، ولا يبقى كافر إلا نكتت وجهه بخاتم سليمان فيسود بها وجهه) [2] .

والواقع أن هذه الدابة قد قيل في شأنها أكثر من ذلك ، وعملت فيها الروايات والآثار عملها المعروف في كل غيبي مما أبهمه القرآن ، ولم يتصل به بيان قاطع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أغرب ماقيل في حقيقتها : إنها إنسان وأنه علي رضي الله عنه ، وقيل : إنها ولد ناقة صالح فر هارباً حينما عقر القوم أمه ، وانفتحت له في طريقه صخرة فدخلها ثم انطبقت عليه ، فهو في باطنها إلى أن يخرج قرب يوم القيامة ، وقيل : إنها دابة قديمة خلقت في عهد الأنبياء المتقدمين وإن موسى سأل ربه أن يريه إياها فأخرجها ثلاثة أيام ولياليها تذهب في السماء لايرى واحد من طرفيها ، فرأى عليه السلام منظراً فظيعاً ، فقال : يارب ردها ، فردها ، أو إنها هي الثعبان الذي كان في جوف الكعبة واختطفته العقاب حين أرادت قريش بناء البيت الحرام فمنعهم ، فألقته العقاب بالحجون ، فالتقمته الأرض وهو في باطنها حتى يخرج قبل يوم القيامة) [3] .

ومن أغرب ماقيل في صفة الدابة : أن طولها ستون ذراعاً بذراع آدم عليه السلام ، لايدركها طالب ولا يفوتها هارب ، وأن لها مع جميع دواب الأرض مشابهة تامة في عضو من أعضائها : فلها وجه إنسان ، ورأس ثور ، وعين خنزير ، وأذن فيل .. إلى آخر ماسودت به الصحف وضاع الوقت في نقله) [4] .

وقال الإمام الرازي : – بعد أن حكى هو أيضاً شيئاً من أخبارها .

---

(١) جبهته .

(٢) البغوي « ٥ : ١٣٠ – ١٣١ » .

(٣) انظر الفتاوى للاستاذ الشيخ محمود شلتوت رحمه الله « ص٥٤–٥٥ » .

(٤) انظر روح المعاني للآلوسي « ٢٠ : ٢٢ » .

(واعلم أنه لادلالة في الكتاب على شيء من هذه الأمور ، فإن صح الخبر فيه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل ، وإلا لم يلتفت إليه) [1] .

ج — وعند قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً ... الآية) قال : (وكان سبب قربانها على ماذكره أهل العلم : أن حواء كانت تلد لآدم عليه السلام في كل بطن غلاماً وجارية ، وكان جميع ماولدته اربعين ولداً ، أولهم (قابيل) وتوأمته (إقليما) وآخرهم عبد المغيث وتوأمته (أمة المغيث) ثم بارك الله عز وجل في نسل آدم عليه السلام ، قال ابن عباس لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً ، واختلفوا في مولد قابيل وهابيل فقال بعضهم : غشي آدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة ، فولدت له قابيل وتوأمته إقليما في بطن واحد ، ثم هابيل وتوأمته (لبودا) في بطن .

وقال محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول : آدم كان يغشى حواء بالجنة قبل أن يصيب الخطيئة ، فحملت فيها بقابيل وتوأمته (إقليما) فلم تجد عليها وحماً ولا وصباً ولا طلقاً ، حتى ولدتهما ولم تر معهما دماً ، فلما هبطا إلى الأرض تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته ، فوجدت عليها الوحم والوصب والطلق والدم ، وكان آدم إذا شب أولاده يزوج غلام هذا البطن جارية بطن أخرى فكان الرجل منهم يتزوج أية أخواته شاء ، إلا توأمته التي ولدت معه ، لأنه لم يكن يومئذ نساء إلا أخواتهم ، فلما ولد قابيل وتوأمته إقليما ، ثم هابيل وتوأمته لبودا — وكان بينهما سنتان في قول الكلبي — وأدركوا ، أمر الله تعالى آدم عليه السلام أن ينكح قابيل لبودا أخت هابيل ، وينكح هابيل إقليما أخت قابيل ، وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هابيل ، فذكر ذلك آدم لولده ، فرضي هابيل وسخط قابيل ، وقال : هي أختي أنا أحق بها ونحن من ولادة الجنة ، وهما من ولادة الأرض ، فقال له أبوه : إنها لاتحل لك فأبى أن يقبل ذلك وقال : إن

---

(١) الرازي « ٢١٨:٢٤ » .

الله لم يأمره بهذا وإنما هو من رأيه . فقال لهما آدم عليه السلام : فقربا قرباناً فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بها . .) [1] أهـ .

ونقول للبغوي :

كل ماذكره رجم بالغيب لادليل عليه من كتابنا ولا سنة رسولنا ، إنما هو جري وراء أساطير العهد القـــديم التي لا تثبت على التحقيق ، ولقد وردت آثار كثيرة مروية عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وعن غيره ولكنها كلها - إن صحت رواياتها - لا تستند إلى كتاب ولا إلى سنة ، وهـؤلاء القائلون جميعـاً لم يكونوا جميعاً حاضري القصة ، ولا سبيل لهم إلى معرفتها إلا من كتاب أو سنة ، وإلا فكل ما يسمعونه أو يقرأونه في الكتب الأخرى لايستحق الاعتماد .

والذي ورد عن هذه القصة في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم لايحدد مكانها ولازمانها ولا أشخاصها ، إنما يقول فقط : إن كل جريمة قتل تقع في هذه الأرض يرجع وزر منها على القاتل الأول [2] ولاشيء في هذا يحدد أشخاصـاً ولا أزماناً كما روى المفسرون .

د - وعند قوله تعالى : (بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ) روى عن ابن عباس أنه قال : (إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده) ودينه الاسـلام ، ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله عز وجل ، وصدق بوعده ، واتبع رسله أدخله الجنة ، قال : واللوح لوح من درة بيضاء طوله بين السماء والأرض ، وعرضـــه مابين المشرق إلى المغرب ، وحافتاه الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه

---

(١) تفسير البغوي ٢ : ٣٦ - ٢٢ هـ .

(٢) قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا : حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبدالله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه كان أول من سن القتل » أخرجه الجماعة سوى أبي داود . والكفل : النصيب .

نور وكلامه قديم ، وكل شيء فيه مستور ، وقيل أعلاه معقود بالعرش، وأصله في حجر ملك . قال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش)[1] أ هـ ونقول : ولما كان القرآن الكريم لايحتوي شيئاً عن ماهية اللوح، كما أنه ليس هناك حديث نبوي صحيح في ذلك، فالواجب أن يقف المرء فيما ورد في صدد ماهيته موقف التحفظ، وقد تتبع بعض المفسرين غرائب الأخبار التي ليس لها سند صحيح ، وأغدقوا من شرها على الناس وعلى القرآن ، وكان جديراً بهم أن يقيموا بينها وبين الناس سداً يقيهم البلبلة الفكرية فيما يتصل بالغيب الذي استأثر الله بعلمه ، ولم ير فائدة لعباده في أن يطلعهم على شيء منه .

هـ ــ وعند قوله تعالى : (إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض) .

روى عن كعب أنه قال : (هم نادرة ولد آدم ، وذلك أن آدم احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب . فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج ، فهم يتصلون بنا من جهة الأب دون الأم)[2] .

ولسنا بحاجة إلى تكرير القول بأن هذه خرافات وأباطيل لم يقم عليها دليل ومن الخير إبعادها عن القرآن ، ذلك الكتاب المطهر الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . قال ابن كثير في تاريخه ٢ : ١١٠ معقباً على هذه القصة : (هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان) .

و ــ وعند قوله تعالى : (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً .)[3] .

لم يذكر القرآن اسم هذا الملك الذي يأخذ كل سفينة غصباً، ولا كيف التقى

---

(١) تفسير البغوي « ٧ : ١٩٣ » .

(٢) تفسير البغوي « ٤ : ١٨٨ » .

(٣) انظر الآيات من ٦٥ ـ ٨٢ من سورة الكهف .

موسى وصاحبه بالغلام ، وهل كان يلعب مع الصبيان أو كان منفرداً ؟ وهل قتله بقلع رأسه أو بحزها أو بغير ذلك ؟

ولا ذكر اسم القرية التي استطعما أهلها ، ولا اسم الغلامين اليتيمين ، ولا اسم أبيهما ، وهل هو الأب المباشر ، أو بينه وبين اليتيمين عدة آباء ؟ ولا حدثنا عن الكنز الذي كان تحت الجدار ، وهل هو من مال أو من علم وحكمة ؟ كل ذلك لم يذكره القرآن . ولكن البغوي كغيره من المفسرين عني بإيراد الروايات في كل ذلك وغيره على نحو عجيب .. واسم الملك هدد بن بدد ، وهو من ذرية العيص بن إسحاق ، والفتى كان يلعب مع الصبيان ، وقيل ، بل كان منعزلا ، واسمه جيسون ، وقيل بل جنتبور ، وقد اقتلع الخضر رأسه بيده وقيل بل احتزه ، وقيل : بل رضخه بحجر وقيل : ضربه في جدار ، واسم القرية أنطاكية أو الأبلة أو برقة . وعن أبي هريرة : أنها بلد الأندلس ، واسم الغلامين : أصرم وصريم ، واسم أبيهما كاشح ، وصناعته نساج ، والكنز كان مالاً مدفونا ، أو علماً وحكمة ، أو ذهباً وفضة ، وقيل بل كان لوحاً من ذهب مسمط ، كتبت فيه عبارات اختلف فيها ، فقيل نصها : عجبت لمن أيقن بالقدر لم نصب ، وعجبت لمن ذكر النار كيف ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل ، لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وقيل كان سطرين ونصف سطر لم يتم الثالث ، ونصها : عجبت للمؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت للمؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت للمؤمن بالموت كيف يفرح .. إلى آخر ما زعموه . وهكذا تضرب هذه الروايات في هذه الأودية وتأتي بهذه الألوان من الأعاجيب [1] .

ز — ومن الإسرائيليات التي رواها البغوي في قصة أصحاب الكهف

---

(١) انظر القصص الهادف كما نراه في سورة الكهف ص ٢٠٨ — ٢٠٩ محمد محمد المدني رحمه الله .

ما يتعلق بمكان الكهف واسم الجبل الذي كان فيه أو الوادي الذي فيه الجبل ، فبعضهم يقول : إنه قريب من أيلة ، وبعضهم يقول : هو عند نينوى ، ومنهم من قال : هو في بلاد الروم ، ومنهم من يقول : بل هو في بلاد البلقاء ، وفي ذلك يقول ابن كثير : (لقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره ، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض ، إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي)[1] .

ومن ذلك ما يتعلق بأسماء هؤلاء الفتية ، واسم الملك الجبار الذين كانوا على عهده ، واسم الكلب الذي كان معهم ، وهل كان كلب صيد أو كلب طباخ وأنه - كما يرويه عن كعب الأحبار - تبعهم ، فطردوه فأبى ، ففعلوا ذلك مراراً حتى قال لهم الكلب : يا قوم ما تريدون مني ، لا تخشوا جانبي ، فأنا أحب أحباب الله ، فناموا حتى أحرسكم[2] .

وهذه كلها - كما ترى - أقوال لا حاصل لها ، ولا طائل تحتها ، ولا دليل عليها ، ولا حاجة إليها ، بل هي مما ينهى عنه ، فإن مستندها رجم بالغيب كما يقول ابن كثير ، وقد أردت أن أضعها بين يدي القراء لأعطيهم لوناً من توسع الرواية وتهجم الأخبار ، وأنصحهم أن يتلقوا مثل ذلك بكثير من الحيطة ، وأن يمروا بما يقرؤون منها مراً غير معولين عليه ولا مهتمين به ولا مناقشين فيه ، فأولى من ذلك النظر والتأمل فيما ساقه الله في كتابه من العبرة والموعظة الحسنة لمن شاء أن يتذكر ويتدبر ويتعظ ، أما الذين يتخذون من أمثال هذه الروايات مشغلة لهم ، ولهواً يعبثون به ، وعلماً يتباهون بحكايته وترديده ، وسؤال الناس عنه ؛ فهم أصحاب الأفئدة الهواء والقول الهراء .

ج - والبغوي يروي أحياناً إسرائيليات تمس عصمة الأنبياء ثم لا يعقب

---

(١) تفسير ابن كثير « ٣ : ٧٥ » بتصرف يسير .

(٢) تفسير البغوي « ٤ : ١٥٧ » وما بعدها .

عليها ؛ فمثلاً عند تفسير قوله تعالى : (ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)[1] .

قال : (روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : حل الهميان وجلس منها مجلس الخائن . وعن مجاهد قال : حل سراويله وجعل يعالج ثيابه . . وقال الضحاك : جرى الشيطان فيما بينهما فضرب بإحدى يديه إلى جيد يوسف وباليد الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما ، قال أبو عبيد القاسم بن سلام : قد أنكر قوم هذا القول وقالوا : هذا لا يليق بحال الأنبياء) وقد علق على هذا البغوي بقوله : والقول ما قال متقدمو هذه الأمة وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الأنبياء من غير علم . وقال السُّدّي وابن إسحق : لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عليه السلام عن نفسه ، جعلت تذكر له محاسن نفسه ، وتشوقه إلى نفسها . فقالت يا يوسف : ما أحسن شعرك ! قال : هو أول ماينتثر من جسدي ، قالت : ما أحسن عينيك ! قال : هو التراب يأكله وقيل إنها قالت : إن فراش الحرير مبسوط ، فقم فاقض حاجتي ، قال : إذاً يذهب نصيبي من الجنة ، فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذة ، وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل ، وهي امرأة حسناء جميلة ، حتى لان لها مما يرى من كلفها به ، وهم بها ، ثم إن الله تعالى تدارك عبده ونبيه بالبرهان الذي ذكره) .

ثم روى عن قتادة في قوله تعالى : (لولا أن رأى برهان ربه) فقال : (اختلفوا في ذلك البرهان ، قال قتادة : وأكثر المفسرين : أنه رأى صورة يعقوب وهو يقول له : يايوسف تعمل عمل السفهاء ، وأنت مكتوب في الأنبياء ، وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك : انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عليه السلام عاضاً على أصبعه ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما : مَثُل له يعقوب عليه السلام فضرب بيده في صدره ، فخرجت شهوته من أنامله .

(١) الآية ٢٤ من سورة يوسف .

وقال السدّي نودي يايوسف تواقعها ؟ إنما مثلك مالم تواقعها مثل الطير في جوف السماء لايطاق ، ومثلك إن تواقعها مثله إذا مات ووقع في الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، ومثلك مالم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لايطاق ، ومثلك إن واقعتها مثل الثور يموت فيدخل النمل في أصل قرنيه لايستطيع أن يدفعه عن نفسه[1]) .

ثم روى عن مجاهد فقال : (عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : (وهم بها) قال : حل سراويله ، وقعد منها مقعد الرجل من امرأته ، فإذا بكف قد بدت بينهما بلا معصم ولاعضد مكتوب عليها : (وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ماتفعلون)[2] فقام هارباً وقامت ، فلما ذهب عنها الرعب عادت وعاد، فظهرت تلك الكف مكتوباً عليها : (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا)[3] فقام هارباً وقامت ، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد ، فظهر ورأى تلك الكف مكتوباً عليها : (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله)[4] فقام هارباً وقامت ، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد ، فقال الله عز وجل لجبريل : أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة ، فانحط جبريل عليه السلام عاضاً على أصبعه يقول : يايوسف أتعمل عمل السفهاء ، وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء ؟! وروي أنه مسحه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله)[5] اهـ .

هذه الأساطير والإسرائيليات التي راجت على بعض المفسرين ، فسودوا صحفهم بكتابتها ، وأضاعوا الوقت بنقلها لايقبلها عقل ولا شرع ولاذوق سليم ، ولا ندري

---

(١) تفسير البغوي « ٣ : ٢٢٣ -- ٢٢٦ » .

(٢) الآيات ١٠ -- ١٢ من سورة الانفطار .

(٣) الآية ٣٢ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٢٨١ من سورة البقرة .

(٥) تفسير البغوي « ٣ : ٢٢٣ -- ٢٢٦ » .

كيف جرت أقلام أولئك الذين كتبوا أن يوسف عليه السلام جلس من امرأة العزيز مجلس الرجل من المرأة ، وكيف غفلوا عن مقصد القرآن من قصص هؤلاء الأنبياء الكرام ؟ !

أليس من مقاصد القرآن أن نعتبر ونتعظ ونتأسى بهم في الصبر والتزام جانب الحق ؟ ! وأي معنى يبقى للعصمة بعد الذي زعموه ؟ ! وما امتناعه عن الزنا — على رواياتهم المفتراة — إلا وهو مقهور مغلوب على أمره . ولو أن عربيداً رأى صورة أبيه ، وقد مدت تحذره من الإقدام على معصية لكف عنها ، ورجع عن غوايته ، فأي فضل ليوسف عليه السلام إذاً وهو نبي من سلالة الأنبياء ؟ . ! بل أي فضل له في امتناعه بعد أن خرجت شهوته من أنامل قدميه ، وما امتناعه في هذه الحالة إلا قسري جبري ، وكيف يتفق ما حيك من روايات باطلة وقول الله جل شأنه : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)[1] وكيف يستحق هذا الثناء من حل السراويل ، وجلس بين الشعب ، بل كيف يتفق ما حكوه وما حكاه الحق تبارك وتعالى عن (زليخا) حيث قالت : (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين)[2] وهو اعتراف صريح من صاحبة المراودة التي أعيتها الحيل في استمالته عن طريق الترغيب والتزين حيناً ، والإرهاب حيناً آخر ، فلم تفلح (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين)[3] .

فانظر ماذا كان جواب السيد العفيف يوسف : (قال : رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم)[4] .

---

(١) الآية ٢٤ من سورة يوسف .

(٢) الآية ٥١ من سورة يوسف .

(٣) الآية ٣٢ من سورة يوسف .

(٤) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة يوسف .

وقد شهدت النسوة اللاتي قطعن أيديهن ببراءة يوسف : (قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء) [1] .

وشهد ببراءته أيضاً شاهد من أهلها : (إن كان قميصه قُدّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قُدّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين ، فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) [2] .

وإبليس نفسه شهد ببراءته في ضمن قوله كما حكاه الله عنه : (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) [3] . ويوسف بشهادة الله من المخلصين . فكيف تتفق كل هذه الشهادات الناصعة المبرئة ، وهذه الروايات الباطلة المزورة !!

والبغوي متابع لشيخه الثعلبي في قوله عن هذه الأباطيل: إنها مذهب السلف ومن العجيب أن يضعف الثعلبي والبغوي مذهب الخلف الذين ينفون هذا الزور والبهتان ويفسرون الآيات على حسب ماتقتضيه اللغة ويحتمه الشرع بقولهما : (وزعم بعض المتأخرين أن هذا لايليق بحال الأنبياء عليهم السلام) وحجتهما في التضعيف مخالفتهم لأقوال السلف ! وهل يصح كل ماينسب إلى السلف من أقوال !؟ وقد وقع الواحدي في كتابه « البسيط » في مثل ماوقع فيه الثعلبي والبغوي ، فروى من هذه الإسرائيليات الباطلة التي دسها الزنادقة على الرواة ، ونقلها بعض المفسرين في كتبهم اغتراراً بأنها من أقوال السلف وهم منها براء ، ولم يكتف الوضاعون بأن ألصقوا أمثال هذه الروايات بالصحابة والتابعين ، بل رووا من المرفوع ما يؤيد هذه الفرية ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) ثم قال : « لما قالها يوسف ، قال له جبريل : يايوسف اذكر همك . قال ما أبرىء نفسي » ورووا في الموقوف أيضاً نحو ذلك .

---

(١) الآية ٥١ من سورة يوسف .

(٢) الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة يوسف .

(٣) الآية ٨٢ من سورة ص .

وقد فات من دس هذه الرواية الفاسدة أن قوله : (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) ليس من مقالة يوسف وإنما هو من مقالة امرأة العزيز ، وهو ما يتفق وسياق الآية والواقع ؛ ذلك أن الملك لما أحضر النسوة وسألهن وشهدن ببراءة ساحة يوسف ، لم تجد امرأة العزيز بداً من الاعتراف : (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدي كيد الخائنين) [1] .

فكل ذلك من قولها ولم يكن يوسف حاضراً ثم ، بل كان مازال في السجن ؛ فكيف يعقل أن يصدر منه هذا القول في مجلس التحقيق الذي عقده الملك؟!

ولا تلتفت إلى ماذكره بعض المفسرين من خلاف في قائل هذا القول ، فالحق ما سمعته ، ولقد انتصر لهذا الرأي الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ، وذكر العلامة ابن كثير أنه أفرده بتصنيف على حدة .

وهكذا ترى أن ماحيك من روايات في قصة يوسف مختلق ، وليس أدل على ذلك من أنه لم يخرجها أحد من أهل الصحيح ، ولا أصحاب الكتب المعتمدة عند المحدثين الذين يرجع إليهم في ذلك ، وإنما ذكرها الأخباريون ، وبعض المفسرين وديدنهم التساهل في مثل ذلك .

وإذا خلصنا إلى ما رأيت ، فالحق الصحيح في تفسير (هم يوسف) أنه لم يقع من يوسف هم بالفاحشة ، وأن الكلام من قبيل التقديم والتأخير [2] أي لولا أن رأى برهان ربه ، لكان هم بها ، ولكان رجلاً من البشر في ضعفه الطبيعي ، وهنا المعجزة الكبرى ؛ لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفي عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة ، حتى لايظن به ، ثم هي تريد من ذلك أن يتعلم الرجال ، وخاصة

---

(١) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة يوسف .

(٢) قال صاحب الكشاف : قوله : (لولا أن رأى برهان ربه) جوابه محذوف ، تقديره لولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، فحذف ؛ لأن قوله (وهم بها) يدل عليه ، كقولك : هممت بقتله لولا أني خفت الله ، معناه لولا أني خفت الله لقتلته . (الكشاف ٢ : ١٠٥)

الشبان منهم ، كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات ، حتى في الحالة التي هي نهاية قدرة الطبيعة حالة مليكة ،مطاعة ، فاتنة ، مختلية ، متعرضة ، متكشفة ، متهالكة ، هنا لا ينبغي أن ييأس الرجل ، فإن الوسيلة التي تجعله لايرى شيئاً من هذا هي أن يرى برهان ربه ، وهذا البرهان يؤوله كل إنسان بما شاء فهو كالمفتاح الذي يوضع في الأقفال كلهافيفضها كلها ، فإذا مثل الرجل لنفسه في تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتصبان أمام الله يراهما ، وأن أماني القلب التي تهجس فيه ، فيظنها خافية ؛ إنما هي صوت عال يسمعه الله ، وإذا تذكر أنه سيموت ويقبر ، وفكر فيما يصنع الثرى في جسمه هذا ، أو فكر في موقفه يوم تشهد عليه أعضاؤه بما كان يعمل ، أو فكر في أن هذا الإثم الذي يقترفه الآن سيكون مرجعه عليـــه في أختـــه أو ابنته ، إذافكر في هذا ونحوه رأى برهان ربه يطالعـــه فجأة ، كما يكون السائر في الطريق غافلاً مندفعاً إلى هاوية ، ثم ينظر فجأة فيرى برهان عينه ، أتراه يتردى في الهاوية حينئذ أم يقف دونها وينجو ؟[1] .

ورحم الله الإمام جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما حيث قال : البرهان : النبوة التي أودعها الله في صدره — عليه السلام — حالت بينه وبين ما يسخط الله .

وذهب بعض المحققين إلى أن هم يوسف عليه الســـلام كان خطـرة وحديث نفس من غير اختيار ولا عزم ، وسرعان ماذهبت الخطرة وبقي الحق واليقين ، والأنبياء ليسـوا معصومين مـن حديث النفس ومراودة الشهوة البشرية ولكنهم معصومون من طاعتها والانقياد إليها ، ولو لم توجد عندهم داعية إلى خطأ لما كانوا مأجورين على ترك المنكرات والمعاصي ، لأنهم يكونون مجبورين على تركها طبعاً ؛ فالعنين لايؤجر ولا يثاب على ترك الزنى ، لأن الأجر والثواب لايكونان إلا على عمل ، والترك بغير داعية ليس عملاً ، وأما الترك مع الداعية فهو كف النفس عما تتوق إليه ، فهو عمل نفسي ، وهذا هو الحق الذي يوافق مادل عليه العقل .

---

(١) وحي القلم للأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ١ : ١١٧ — ١١٨ .

وقد فند هذه الإسرائيليات في قصة يوسف عدد من المفسرين، منهم الحافظ ابن كثير حيث قال :

(وأكثر أقوال المفسرين هنا متلقى من كتب أهل الكتاب،فالإعراض عنه أولى بنا، والذي يجب أن يعتقد: أن الله عصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها)[1] .

ومنهم السيد محمد رشيد رضا حيث قال في تفسير سورة يوسف عندماتعرض لقوله تعالى :

(وهم بها لولا أن رأى برهان ربه)[2] قال : (ولكنه رأى من برهان ربه في سريرة نفسه ماهو مصداق قوله تعالى :(والله غالب على أمره)[3]. وهو: إما النبوة التي تلي الحكم والعلم اللذين آتاه الله إياهما بعد بلوغ الأشد وشاهده قوله تعالى : قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً)[4] ؛ وإما معجزتها كما قال الله تعالى لموسى في آيتي العصا واليد : (فذانك برهانان من ربك)[5] .

وأما مقدمتها فمن مقام الصديقية العليا وهي مراقبته لله تعالى ورؤية ربه متجلياً له ناظراً إليه ؛ وفاقاً لما قاله أخوه محمد خاتم النبيين في تفسير الاحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فيوسف قد رأى هذا البرهان في نفسه ، لاصورة متمثلة في سقف الدار ، ولا صورة سيده العزيز في الجدار ، ولا صورة ملك يعظه بآيات القرآن ، وأمثال هذه الصورة التي رسمتها أخيلة بعض رواة التفسير المأثور بما لا يدل عليه دليل من اللغة ولا العقل ، ولا

---

(١) البداية والنهاية ١ : ٢٠٤ .

(٢) الآية ٢٤ من سورة يوسف .

(٣) الآية ٢١ من سورة يوسف .

(٤) الآية ١٧٤ من سورة النساء .

(٥) الآية ٣٢ من سورة القصص .

الطبع ، ولا الشرع ، ولم يرو في خبر مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الصحاح ولا فيما دونها ، وما قلناه هو المتبادر من اللغة ووقائع القصة ومقتضى ما وصف الله به يوسف في هذا السياق وغيره من السورة) .

ثم قال: (ههنا مرتبتان: إحداهما الكف عن المعصية جهاداً للنفس وكبحاً لها خوفاً من الله تعالى ؛ وهي مرتبة الصالحين الأبرار ، ومرتبة الكراهة لها والاشمئزاز منها حياء من الله ومراقبة له واستغراقاً في شهوده . وهي مرتبة الصديقين والنبيين الأخيار ، الذين إذا عرضت لهم الشهوة المستلذة بالطبع ، بالصورة المحرمة في الشرع ، عارضها من وجدان الإيمان وتجلي الرحمن ما تغلب به روحانيتهم الملكية على طبيعتهم الحيوانية ، وهذا مما قد يحصل لمن دون الأنبياء منهم ، فكيف بمن يرون برهان ربهم بأعين قلوبهم ، وينعكس نوره عن بصائرهم فيلوح لأبصارهم كما أشرنا إليه في تفسيره آنفاً ؟

ولهذه المرتبة درجات : منها فقد الشهوة الطبيعية في هذه الحال ، أو فقد الشعور بالقدرة على وضعها في الموضع المحرم مع وجودها على أشدها ، ولا عجب فقوى النفس وانفعالاتها الوجدانية تتنازع فيغلب أقواها أضعفها ، حتى إن من الإباحيين والإباحيات من أهل الحرية الطبيعية من يملك في مثل تلك الخلوة منع نفسه أن يبيحها لمن يراوده عنها ، لا خوفاً من الله ولا حياء منه؛ لأنه غير مؤمن به أو بعقابه ، بل وفاء لزوج أو عشيق عاهده على الاختصاص به فصدقه)[1].

هذا ولعله قد ظهر لنا بكل وضوح بعد ما سقناه من روايات إسرائيلية أكثرها موضوع مختلق بأن ابن تيمية لم يكن دقيقاً في حكمه على البغوي بأنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة ، وأن الكتاني كان أدق حكماً وأصوب رأياً في حكمه على تفسير البغوي بأنه يوجد فيه من المعاني والحكايات ما يحكم بضعفه أو وضعه ، ولعل ابن تيمية — وهو من تعرف بصيرة وحذقاً — لم يطلع

---

(١) تفسير سورة يوسف للشيخ رشيد رضا « ص ٣٠ — ٣٤ » .

على تفسير البغوي، ولكنه حكم عليه بما حكم لما يعرفه عنه من أنه من رجال الحديث البارزين ؛ ومن كان هذا شأنه يستبعد عليه - عادة - أن يغتر بموضوع فيرويه على أنه صحيح لاغبار عليه .

يشهد لما قلناه أن ابن تيمية نفسه قد حكم بالوضع على سبب نزول قوله تعالى : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) من أنها نزلت في علي حين مر به سائل وهو في الصلاة فطرح له خاتمه ؛ مع أن هذا السبب مروي في تفسير البغوي نفسه[1]. قال ابن تيمية في مقدمته ص ٣٣ : (والموضوعات في كتب التفسير كثيرة ، ومنها الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة ، وحديث علي الطويل في تصدقه بخاتمه في الصلاة ، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم) .

٥ — المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية

التعريف بالمؤلف .

هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي الغرناطي ، الحافظ القاضي . ولي القضاء بمدينة المرية بالأندلس ، ولما تولى توخى الحق وعدل في الحكم ، ويقال : إنه قصد مرسية بالمغرب ليتولى قضاءها ، فصد عن دخولها وصرف منها إلى الرقة بالمغرب ، وكان مولده سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، وتوفي بالرقة سنة ست وأربعين وخمسمائة من الهجرة ، وقيل غير ذلك[2] .

نشأ ابن عطية في بيت علم وفضل وكان غاية في الذكاء ، عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير والنحو واللغة والأدب ، وصفه أبو حيان في مقدمة البحر

---

(١) تفسير البغوي « ٢ : ٥٥ » .

(٢) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون « ص ١٧٤ »

المحيط بأنه : (أجل من صنف في علم التفسير ، وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير[1]) .

التعريف بالتفسير .

تفسير ابن عطية له قيمته العلمية بين كتب التفسير عند جميع المفسرين ، ولقد لخصه مؤلفه من كتب التفسير بالمنقول ، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ، وجرّده من كثير من الإسرائيليات . يقول ابن خلدون في مقدمته — في معرض كلامه عن منشأ الإسرائيليات في كتب التفسير النقلي — : (.. فتلقيت — يعني الإسرائيليات — بالقبول من يومئذ، فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص، وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى وتبعه القرطبي[2]) .

ونجد ابن تيمية يعقد مقارنة بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري فيقول : (وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلاً وبحثاً ، وأبعد عن البدع ، وإن اشتمل على بعضها ، بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير[3]) .

والتفسير لا يزال مخطوطاً إلى اليوم ، وقد رجعت إليه في دار الكتب المصرية فوجدته يمتاز بقلة خوضه في هذه الاسرائيليات التي أسرف في نقلها كثير ممن سبقه من المفسرين ، ويتضح ذلك فيما يلي :

---

(١) البحر المحيط « ١ : ٩ » .

(٢) مقدمة ابن خلدون « ٣ : ٩٩٨ » .

(٣) فتاوى ابن تيمية « ٢ : ١٩٤ » .

موقفه من الاسرائيليات .

١ – يلاحظ من يقرأ تفسير ابن عطية صدق ما ذكره ابن خلدون في حقه ، وإن كان تفسير ابن عطية لم يسلم تماماً من التأثر بالإسرائيليات ، شأن غيره من كتب التفسير التي تتجنب ذكر بعض الإسرائيليات ، وتسوق بعضها ثم تتعقبه ويفوتها البعض الآخر .

فتلا يصرح ابن عطية حين يسوق بعضاً من هذه الروايات الإسرائيلية بقوله : أكثر بعض الناس في تفصيلها – أي الهدية التي أرسلتها الملكة بلقيس لسليمان عليه السلام – فرأيت اختصار ذلك لعدم صحته [١]، ثم ساق باختصار الرواية التي ذكرناها فيما سبق [٢] . ويقول في موضع آخر : وأكثر المؤرخون في ذلك – أي في قصص فتية أهل الكهف – ولكن نختصر من حديثهم ما لا يستغنى عنه [٣] .

ويقول في موضع ثالث : (وروي غير هذا – أي في مقدار سفينة نوح ونوع خشبها – مما لم يثبت فاختصرت ذكره [٤]).

٢ – وقلما يترك ابن عطية هذه الإسرائيليات تمر دون تعقيب ، فمن ذلك :

أ – أنه نقل عن وهب بن منبه في قوله تعالى : (.. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً [٥]) . أنه قال : (تقي : اسم فاجر معروف في ذلك الوقت) وعقب ابن عطية بقوله : (وهو ضعيف ذاهب مع التخرص [٦]).

---

(١) تفسير ابن عطية ورقة ٨٥ .

(٢) انظر ص ٨١ من هذا الكتاب .

(٣) المحرر الوجيز ورقة ٢٥٦ ج ٣ (تيمورية) .

(٤) المصدر السابق ، ورقة ٢٠٣١ ج ٥ .

(٥) الآية ١٨ من سورة مريم .

(٦) نقلاً عن تفسير القرطبي « ١١ : ٩١ » وعلق ابن كثير بقوله : (هذا قول باطل بلا دليل وهو من أسخف الأقوال) البداية والنهاية « ٢ : ٦٤ » .

ب ـ وعند قوله تعالى : (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون[1]) ، قال : (وأمره ـ أي رب موسى ـ بالسير تجاه البحر ، وأمره أن يستعير بنو إسرائيل حلي القبط وأموالهم ، وأن يكثروا من أخذ أموالهم كيفما استطاعوا[2]) وعلّق عليه بقوله : (هذا مارواه المفسرون) ، ثم قال : (روي أنه ـ أي فرعون ـ لحقه ومعه ستمائة ألف أدهم من الخيل . وأن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً ، قاله ابن عباس) . وعلق بقوله : (والذي يقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم في بني إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك العدد) اهـ .

والحق أن تعليق ابن عطية الأول بقوله : (وهذا مارواه بعض المفسرين) غير كاف وشاف ، وكان الأجدر به ألا يورد هذه القصة في تفسيره ، أو على الأقل يتعقبها ، لكونها من الإسرائيليات الباطلة ، فهذا النص : (وأمره أن يستعير بنو إسرائيل حلي القبط وأموالهم وأن يكثروا من أخذ أموالهم كيفما استطاعوا) مقتبس من التوراة ، فقد جاء في سفر الخروج ـ الاصحاحين الثالث ، والثاني عشر مانصه : (وأعطي ـ المتكلم هو الله ـ نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين ، فيكون حين تمضون أنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين ، وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى ، فطلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً ، وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين) .

وأعتقد أن هذا الكلام من عبث اليهود وتحريفهم ، وتبديلهم ، وإلا فهل يعقل أن يحض الله على السرقة وأكل مال الناس بالباطل . ! !

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الشعراء .

(٢) تفسير ابن عطية « ورقة ٦٣ جـ ٢ » .

جـ – وعند الآية ١٨٩ من سورة الشعراء : (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم .) قال : (ويوم الظلة يوم عذابهم ، وصورته . فيما روي – أن الله تعالى : امتحنهم بحر شديد ...) إلى أن قال : (فأمطرت عليهم تلك السحابة ناراً فأحرقتهم عن آخرهم ، وللناس في حديث يوم الظلة تطويلات لاتثبت ... وذكر الطبري عن ابن عباس أنه قال : من حدثك ماعذاب يوم الظلة فقد كذب [١]) .

د – وعند الآية ٧٦ من سورة القصص (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة) ، قال : (.. وأكثر المفسرون في شأن قارون ، فروي عن خيثمة أنه قال : نجد في الإنجيل مكتوباً أن مفاتيح قارون كانت من جلود الإبل ، وكان المفتاح نصف شبر ، وكانت وقرستين بغلاً أو بعيراً لكل مفتاح كنز .. إلخ) ويعقب ابن عطية على ذلك بقوله : (.. وذلك كله ضعيف والنظر يشهد بفساد هذا ، ومن الذي كان يميز بعضها عن بعض ؟ ، وما الداعي لهذا ؟ ، وفي الممكن أن ترجع كلها إلى مايحصى ويقدر على حمله بسهولة [٢]) .

هـ – وعند قوله تعالى : (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ... الآية [٣]) . قال : وروي في قصص هذه الآية أن نوحاً عليه السلام كان يأتيه أنواع من الحيوان فيضع يمينه على الذكر ويساره على الأنثى ، وروي أن أول ماأدخل في السفينة الذرة ، وآخرها الحمار ، وهمك الشيطان بذنبه فزجره نوح فلم ينبعث ، فقال له : ادخل ولو كان معك الشيطان ، قال ابن عباس : زلت هذه الكلمة على لسانه فدخل الشيطان حينئذ ... وقيل إن نوحاً عليه السلام آذاه نتن الزبل والعذرة ، فأوحى الله إليه أن امسح على ذنب الفيل فخرج من أنفه زوج خنزير .. الخ) .

---

(١) تفسير ابن عطية ورقة ٧٣ ب (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

(٢) تفسير ابن عطية ورقة ١٢٤ ب جـ ٢ .

(٣) الآية ٣٨ من سورة هود .

وعلق على هذا القصص الحرالي بقوله : (قصص لاتصح[1]) .

٣ ـ ونجد أحياناً ابن عطية يسوق روايات إسرائيلية بـدون إسناد ثم لا يتعقبها بكلمة واحدة فمن ذلك :

أ ـ ما جاء في تفسيره عند الآية ٣٥ من سورة النمل : (وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) . قال : (وروت فرقة : أن الجن أحست من سليمان أو ظنت به أنه ربما تزوج بلقيس ، فكرهوا ذلك فذموها عنده بقولهم : إنها غير عاقلة ولا مميزة ، وإن رجليها كحافر الدابة ، وطلبوا منه أن يجرب عقلها بتنكير عرشها ، ويجرب أمر رجليها ببناء الصرح لتكشف عن ساقيها عنده . قال محمد القرظي[2] وغيره: ولما وصلت بلقيس ،أمر سليمان عليه السلام الجن فصنعت له صرحاً ... فيه السمك والضفادع ، وجعل لسليمان في وسطه كرسي فلما وصلته بلقيس ، قيل لها : ادخلي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأت اللجة وفزعت وظنت أنها قصد بها الغرق ، وعجبت من كون كرسيه على الماء ورأت ماهالها ، ولم يكن لها بد من امتثال الأمر ، فلما بلغت هذا الحد قال لها سليمان : (إنه صرح ممرد من قوارير) وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت ، وروي أن سليمان عليه السلام لما أراد زوال شعر ساقيها أشفق من حمل الموسى عليها ، وقيل : إنها قالت . مامسني حديد قط ، فأمر الجن بالتلطف في زواله فصنعوا النورة ولم يكن قبل في الأمم[3]) .

وهذا الخبر الذي رواه ابن عطية ولم يعقب عليه بما يفيد بطلانه يرويه ابن كثير في تفسيره ، ثم يعلق عليه بقوله : (منكر غريب جداً ؛ والأقرب في مثل

---

(١) تفسير ابن عطية جـ٥ ورقة ٢٠٣٣ .

(٢) هو محمد بن كعب القرظي من مسلمة اليهود ، توفي سنة ١٠٨ هـ وقيل سنة ١١٧ هـ ـ شذرات الذهب « ١٣٦:١ » .

(٣) المحرر الوجيز ورقة ٩١ ـ ٩٢ بتصرف يسير .

هذه السياقات أنها ملتقاة من أهل الكتاب مما وجد في صحفهم كروايات كعب ووهب - سامحها الله تعالى - فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان ومما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ ، وقد أغنانا الله سبحانه وتعالى عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ولله الحمد والمنة [1]).

٦ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري

التعريف بالمؤلف .

هو أبو القاسم ، محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي . الإمام الحنفي، المعتزلي ، الملقب بجار الله .

ولد الزمخشري (بزمخشر) إحدى القرى الكبيرة في خوارزم يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة [2] .

نشأ الزمخشري وتتلمذ على محمود بن جرير الضبي الأصفهاني أبي مضر النحوي المتوفى سنة ٥٠٧ . وقد كان الضبي فريد عصره في علم اللغة والنحو [3] ، فانتفع الزمخشري بقدرة أستاذه في هذه الناحية، كما أن الضبي كان شديد العصبية للاعتزال. وهذه الروح المتعصبة المتحمسة بثها في نفس تلميذه الزمخشري؛ حتى ليروى عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن : قل له : أبو القاسم المعتزلي بالباب [4] .

---

(١) تفسير ابن كثير « ٣٦٦:٣ » .

(٢) وفيات الأعيان « ١١:٢ » .

(٣) معجم الأدباء لياقوت « ١٢٣:١٩ - ١٢٤ » .

(٤) وفيات الأعيان « ١٠٨:٢ » .

وكانت نفس الزمخشري طامحة طامعة تدفعه إلى التنقل في البلاد ، فترك وطنه وقدم بغداد ، ولقي الكبار وأخذ عنهم ، دخل خراسان مراراً عديدة ، ومادخل بلداً إلا واجتمع عليه أهلها وتلمذوا له وما ناظر أحداً إلا وسلم له واعترف به ، ولقد عظم صيته وطار ذكره حتى صار إمام عصره من غير مدافعة .

وليس عجباً أن يحظى الزمخشري بكل هذا وهو الإمام الكبير في التفسير والحديث[1] والنحو واللغة والأدب ، وصاحب التصانيف البديعة في شتى العلوم ، ومن أجل مصنفاته . كتابه في تفسير القرآن العزيز الذي لم يصنف قبله مثله ، وهو مانحن بصدده الآن ، والمحاجة في المسائل النحوية ، والمفرد والمركب في العربية ، والفائق في غريب الحديث ، وأساس البلاغة في اللغة ، والمفصل في النحو ، ورؤوس المسائل في الفقه . . . وغير هذا كثير من مؤلفاته .

وبعد أن طوف الزمخشري بكثير من البلاد — وكانت آخرها مكة المكرمة — عاوده الحنين إلى وطنه فاتخذ طريقه إليه إلى أن بلغه حيث وافته منيته بجرجانية خوارزم سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة ، وقد رأى قبره الرحالة ابن بطوطة [2] .

التعريف بالتفسير .

هذا التفسير — بصرف النظر عما فيه من الاعتزال — تفسير لم يسبق مؤلفه إليه ، لما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن ، ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته . وليس كالزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن ، وسحر بلاغته ، لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم ، لاسيما

---

(١) المراد : غريب الحديث .

(٢) رحلة ابن بطوطة ص ٦ الجزء الثالث ، وانظر ترجمة الزمخشري في وفيات الأعيان « ٢ : ١١٠ » وشذرات الذهب « ٤ : ١٢١ » وطبقات المفسرين للسيوطي ص ٤١

مابرز فيه من الإلمام بلغة العرب ، والمعرفة بأشعارهم ، وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان والإعراب والأدب . ولقد أضفى هذا النبوغ العلمي والأدبي على تفسير الكشاف ثوباً جميلاً لفت إليه أنظار العلماء وعلق به قلوب المفسرين[1]، فنجد أبا حيان في مقدمة تفسيره يعقد مقارنة بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري فيقول : (وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص ، وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص .. الخ[2] ، ويقول العلامة ابن خلدون — عند كلامه عن القسم الثاني من التفسير وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب —: (ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد ، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة ، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ، وتحذير للجمهور من مكامنه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة ، وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية محسناً للحجاج عنها ، فلا جرم أنه مأمون من غوائله ، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان[3]) .

موقفه من الاسرائيليات .

لقد كنا نتوقع من الزمخشري أن يقف من الإسرائيليات موقف الناقد ، ولكنا — على العكس — وجدناه متسامحاً لايرى بأساً بإيراد أسطورة أو خرافة إسرائيلية ، أو قصة غير مستقيمة مادامت لاتطعن عصمة نبي أو تخالف رأياً اعتزالياً ، وبذلك كان موقفه من الإسرائيليات متناقضاً مع منهجه العقلي الذي

---

(١) التفسير والمفسرون « ١ : ٤٣٣ » .

(٢) البحر المحيط « ١ : ١٠ » .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٦ .

اتخذه في التفسير ، ومخالفاً لمنهج بعض أسلافه من أئمة المعتزلة [1] . فمثلاً يقول في الآية : (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين [2]) روي أنه كان ثعباناً ذكراً أشعر فاغراً فاه ، بين لحييه ثمانون ذراعاً ، وضع لحيه الأسفل في الأرض ، ولحيه الأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون ليأخذه ، فوثب فرعون من سريره وهرب وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك [3]) .

ويقول عند قوله تعالى : (حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً) : (وعن بعضهم : خرجتُ حتى جاوزتُ الصين ، فسألت عن هؤلاء فقيل : بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ، فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى ، ومعي صاحب يعرف لسانهم ، فقالوا له : جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس ؟ قال : فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة ، فغشي علي ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء ، إذ هي

---

(١) كالنظام الذي نقد المفسرين القصصيين بقوله : (لاتسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم . وليكن عندكم عكرمة والكلبي والسدي والضحاك ومقاتل بن سليمان وأبو بكر الأصم في سبيل واحدة فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم . الحيوان للجاحظ « ١ : ٣٤٣ — ٣٤٦ » ، وكالجاحظ الذي سخر بالتفسير القصصي الاسطوري فيقول : وبعض أصحاب التفسير يزعم أن الله عاقب الحية حين أدخلت إبليس في جوفها حتى كلم آدم وحواء وخدعهما على لسانها بعشر خصال منها شق اللسان قالوا : فلذلك نرى الحية إذا ضربت للقتل كيف تخرج لسانها لتري الضارب عقوبة الله كأنها تسترحم . وصاحب هذا التفسير لم يقل ذلك إلا لحية كانت عنده تتكلم ولولا ذلك لأنكر آدم كلامها وأنه كان إبليس لايحتال إلا من جهة الحية ولا يحتال بشيء غير مموه ولا مشبه » الحيوان للجاحظ ٤ : ١٩٦ » .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الشعراء .

(٣) الكشاف « ١ : ٣٤٢ » .

فوق الماء كهيئة الزيت ، فأدخلوا سرباً لهم ، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ، ويطرحونه في الشمس فينضج لهم[1]) .

ويقول في الآية ٢٤٨ من سورة البقرة : (إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم) : (والسكينة : السكون والطمأنينة ، وقيل هي صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت ، لها رأس كرأس الهر ، وذنب كذنبه ، وجناحان ، فتئن ، فيزف[2] التابوت نحو العدو وهم يمضون معه ، فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ، ونزل النصر . وعن علي رضي الله عنه : كانت لها وجه كوجه الإنسان وفيها ريح هفافة[3]) .

وقد أورد الرواية الأولى الحافظ ابن كثير في تفسيره عن محمد بن إسحق عن وهب بن منبه مما يشعر أنها من الاسرائيليات[4] ، كما أوردها الآلوسي في تفسيره فقال : (وقيل — وليس بصحيح كما قاله الراغب — صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت ، لها رأس وذنب كرأس الهرة وذنبها ، فتئن فيزف التابوت ... الخ[5]) .

والرواية الثانية عن علي رضي الله عنه : (كان لها وجه كوجه الإنسان ... الخ) لم تصح عنه ، فإن قيل : فما تفعل بحديث الصحيحين : إن أُسيد بن حضير كان يقرأ في ليلة سورة البقرة فرأى مثل الظلة فيها أمثال السرج ، تغشاه في مكانه حتى أضاء المكان ونفرت الفرس ، فسكت مخافة أن تصيب الفرس ابنه الذي كان قريباً منها ، فذهبت ، فلما أصبح أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

---

(١) الكشاف « ١ : ٥٧٩ » .

(٢) يسرع .

(٣) الكشاف « ١ : ٢٧٥ » .

(٤) تفسير ابن كثير « ١ : ٣٠١ » .

(٥) روح المعاني « ٢ : ١٦٩ » .

« تلك السكينة تنزلت لقراءتك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس لاتستتر منهم » فهذا يفيد أن السكينة جسم يرى ؟ قلت : حقيقة السكينة هي سكون القلب وطمأنينته ، أما الحديث فهو من باب مجاز الحذف ، والتقدير : تلك أثر السكينة ، وبيان ذلك أن قارىء القرآن تنزل عليه السكينة كما ثبت في صحيح مسلم . فحين تلا أسيد رضي الله عنه سورة البقرة نزلت السكينة عليه في قلبه ، وكان من أثر نزولها عليه ، وتحققه بها ، إكرام الله له بهذه الكرامة التي أنارت له المكان وما فيه[1] . وفيها إشارة إلى أن القرآن يفتح الأبصار والبصائر وينور البواطن والظواهر[2] .

وعند قوله تعالى في الآية ١٦٠ من سورة الأعراف : ﴿ وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ... الآية ﴾ ، قال : (قيل إن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا — وكانوا اثني عشر سبطاً — تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا ، وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم . ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين ، وهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا ، وذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل ذهب به ليلة الإسراء نحوهم ، فكلمهم فقال لهم جبريل : هل تعرفون من تكلمون ؟ قالوا : لا ، قال : هذا محمد النبي الأمي ، فآمنوا به وقالوا : يارسول الله ، إن موسى أوصانا : من أدرك منكم أحمد ، فليقرأ عليه مني السلام ، فرد محمد على موسى — عليهما السلام — السلام ، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة ، وأمرهم أن يقيموا مكانهم ، وكانوا يسبتون ، فأمرهم أن يجمّعوا ويتركوا السبت . وعن مسروق : قرىء بين يدي عبد الله ، فقال رجل : إني منهم ، فقال عبد

---

(١) وثبت في رواية الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأسيد : « تلك الملائكة تنزلت لقراءة سورة البقرة ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ماتستتر منهم » اهـ . ولعل حمل الرواية السابقة على هذه الرواية أولى لأن خير التفسير ما كان بالوارد .

(٢) انظر بدع التفاسير لعبد الله الغماري ص ٢٨ .

الله — يعني لمن كان في مجلسه من المؤمنين — : وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئاً من يهدي بالحق وبه يعدل[1]) أه .

وهذه قصة واضحة البطلان ، وقد عقب عليها الآلوسي بقوله : (ولا أظنك تجد لها سنداً يعول عليه ، ولو ابتغيت نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء[2]) .

والعجب من الزمخشري كيف خفي عليه بطلانها !

ونجد الزمخشري يرفض الإسرائيليات التي تطعن عصمة الأنبياء ويزيفها ، فمثلاً عند قوله تعالى : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) يقول : (.. وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان ، وعبادة الوثن في بيت سليمان ، فالله أعلم بصحته . حكوا : أن سليمان قد بلغه خبر صيدون — وهي مدينة في بعض الجزائر — وأن بها ملكاً عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر ، فخرج إليه تحمله الريح حتى أناخ بها بجنوده من الجن والإنس . فقتل ملكها وأصاب بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً ، فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها ، وكانت لا يرقأ دمعها حزناً على أبيها ، فأمر الشياطين ، فمثلوا لها صورة أبيها ، فكستها مثل كسوته ، وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها ، يسجدن له كعادتهن في ملكه ، فأخبر آصف سليمان بذلك ، فكسر الصورة ، وعاقب المرأة ، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله متضرعاً ، وكانت له أم ولد يقال لها أمينة ، إذا دخل للطهارة ، أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها . وكان ملكه في خاتمه — فوضعه عندها يوماً وأتاها الشيطان صاحب البحر — وهو الذي دل سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس واسمه صخر — على صورة سليمان فقال : يا أمينة خاتمي ، فتختم به ، وجلس على كرسي سليمان ، وعكفت عليه الطير والجن والانس ، وغير سليمان عن هيئته ، فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته ، فعرف أن الخطيئة

---

(١) الكشاف « ١ : ١٣٠ » .

(٢) روح المعاني « ٩ : ٨٤ — ٨٥ » .

قد أدركته ، فكان يدور على البيوت يتكفف ، فإذا قال : أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ، ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك ، فيعطونه كل يوم سمكتين ، فمكث على ذلك أربعين صباحاً ، عدد ماعبد الوثن في بيته ، فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان ، وسأل آصف نساء سليمان، فقلن : مايدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة ، وقيل : بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن . ثم طار الشيطان ، وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة ، ووقعت السمكة في يد سليمان ، فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجداً ورجع إليه ملكه ، وجاب صخرة لصخر فجعله فيها وسد عليه بأخرى ، ثم أوثقها بالحديد والرصاص وقذفه في البحر ، وقيل : لما افتتن كان يسقط الخاتم من يده لايتماسك فيها ، فقال له آصف : إنك لمفتون بذنبك والخاتم لا يقر في يدك ، فتب إلى الله عز وجل) .

وعقب الزمخشري على هذه القصة التي تذهب بعصمة الأنبياء ولا تتفق وقواعد الشريعة بقوله : (ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله ، وقالوا : هذا من أباطيل اليهود ، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل ، وتسليط الله إياهم على عباده حتى يقعوا في تغيير الأحكام ، وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن قبيح . وأما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع . ألا ترى إلى قوله : (من محاريب وتماثيل) وأما السجود للصورة فلا يظن بنبي الله أن يأذن فيه ،وإذا كان بغير علمه فلا عليه[1]) .

ومثلاً عند قوله : (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه . . الآية) ، قال : (وقد فسرهم يوسف بأنه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع ، وبأنه حل تكة سراويله ، وقعد بين شعبها الأربع ، وهي مستلقية على قفاها . وفسر البرهان بأنه سمع صوتاً : إياك وإياها ، فلم يكترث له ، فسمعه ثانيا . فلم يعمل

---

(١) الكشاف (٣ : ١٢ - ١٣) .

به ، فسمع ثالثا : أعرضْ عنها ، فلم ينجع فيه حتى مُثّل له يعقوب عاضاً على أنملته ، وقيل ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله ، وقيل : كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولداً ؛ من أجل مانقص من شهوته حين هم . وقيل : صيح به : يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنى قعد لا ريش له . وقيل: بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم ، مكتوب فيها : (وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين) فلم ينصرف ، ثم رأى فيها :(ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) فلم ينته ، ثم رأى فيها : (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) ، فلم ينجع فيه ، فقال الله لجبريل عليه السلام: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة ، فانحط جبريل وهو يقول : يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء ؟ ، وقيل : رأى تمثال العزيز ، وقيل : قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت : أستحي منه أن يرانا ؟ فقال يوسف : أستحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ، ولا أستحي من السميع البصير العليم بذات الصدور[1] .

وهذه القصة التي اغتر البغوي بسندها وزعم أنها مما ارتضاه السلف ونعى على من أنكرها من الخلف – كما سبق أن وضحناه – ينكرها الزمخشري كل الإنكار وينقدها بأدلة في غاية القوة ، فيقول : (وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه ، وأهل العدل والتوحيد[2] ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم – بحمد الله – بسبيل ؛ ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه وذكرت توبته واستغفاره ، كما نعيت على آدم زلته وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذي النون وذكرت توبتهم واستغفارهم ، كيف وقد أثني عليه وسمي مخلصا ، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض ، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولي القوة والعزم ، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح حتى

(١) الكشاف (٢: ١٠٥) .

(٢) المراد بهم هنا المعتزلة .

استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصادق لها ، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته ، وضرب سورة كاملة عليها ليجعل له لسان صدق في الآخرين ، كما جعله لجده الخليل إبراهيم عليه السلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقف العثار ، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين؟ ليقتدى بنبي من أنبياء الله في القعود بين شعب الزانية وفي حل تكته للوقوع عليها ، وفي أن ينهاه ربه ثلاث كرات ، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن ، وبالتوبيخ العظيم ، وبالوعيد الشديد، وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاه، وهو جاثم في مربضه لا يتحلحل ولا ينتهي ولا ينتبه حتى يتداركه الله بجبريل وبإجباره ، ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم وأحدهم حدقة وأجلحهم وجهاً لقي بأدنى ما لقي به نبي الله مما ذكروا ، لمابقي له عرق ينبض ولاعضو يتحرك . فياله من مذهب ما أفحشه ومن ضلال ما أبينه [1] !! أ هـ .

وقد استغل الزمخشري رواية بعض أهل السنة لهذه الروايات للطعن عليهم جميعاً ، مع أن الكثير من أهل السنة أعرض عنها بالمرة ، وبعض من ذكرها فندها كالإمام الرازي ، ومن ذكر شيئاً مما قاله الزمخشري وسكت عنه فليس ذلك ناشئاً عن كونه سيء العقيدة ، وإنما هو الشغف برواية الغرائب وذلك مسلك شخصي . والزمخشري يروي بعض الغرائب ولا يتعقبها كما قدمنا ، ويتأول بعض ما يقدح في عصمة الأنبياء تأولاً فيه تكلف ظاهر ، ولا حاجة له إليه ما دامت القصة غير صحيحة ، ومن ذلك ما تأوله الزمخشري في قصة (داود وأوريا) التي بينا فيما سبق بطلانها بقوله : كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته ، وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها ، وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك .. فاتفق أن

---

(١) الكشاف (٢ : ١٠٦) .

عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له : أوريا ، فأحبها ، فسأله النزول عنها ، فاستحيا أن يرده ففعل فتزوجها وهي أم سليمان ... الخ [1] .

٧ — مفاتيح الغيب للفخر الرازي

التعريف بالمؤلف .

هو محمد بن عمر بن حسين بن الحسن بن علي ، ويكنى بأبي عبد الله . وقد اشتهر بلقبه « فخر الدين الرازي » وكان يعرف بابن الخطيب أو ابن خطيب الري ، لأن أباه كان خطيب الري وواعظها [2] ، ولد الرازي بمدينة الري في رمضان سنة ٥٤٤ هجرية أو سنة ٥٤٣ هـ على خلاف بين المؤرخين [3] .

ثقافته ومؤلفاته .

كان الرازي في عصره كعبة العلم ، يقصده الطلاب ، وتشد إليه الرحال من شتى الأقطار والأمصار ، أخذ عنه العلم نحو من ثلاثمائة طالب في الفلسفة وعلم الكلام والفقه والأصول والطب والكيمياء والنحو والأدب والتفسير وغير ذلك من العلوم [4] .

وقد وصفه صاحب كتاب الوافي بالوفيات بقوله : (اجتمع له خمسة أشياء ما جمعها الله لغيره فيما علمته من أمثاله ، وهي : سعة العبارة في القدرة على الكلام ،

---

(١) الكشاف (٢ : ٢٧٩ — ٢٨٠) .

(٢) وفيات الأعيان « ٣ : ٣٨١ » وانظر البداية والنهاية لابن كثير « ١٣ : ٥٥ » والوافي بالوفيات « ٤ : ٢٤٨ » .

(٣) وفيات الأعيان « ٣ : ٣٨٤ » والوافي بالوفيات « ٤ : ٢٤٨ » وشذرات الذهب « ٥ : ٢١ » .

(٤) وفيات الأعيان « ٣ : ٣٨٣ » وانظر مفتاح السعادة « ١ : ٤٤٦ » وعيون الأنباء « ٢ : ٢٣ » ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي « ٥ : ٣٥ » .

وصحة الذهن ، والاطلاع الذي لا مزيد عليه ، والحافظة المستوعبة ، والذاكرة التي تعينه على ما يريده في تقرير الأدلة والبراهين [1]) .

وقد ألف الرازي في شتى العلوم المعروفة في زمانه ، غير أن أكثر تآليفه تدور حول علم الكلام والفلسفة والتفسير، فمن تأليفه: الأربعين في أصول الدين، ومحصل أفكار المتقدمين من العلماء والحكماء والمتكلمين ، والتفسير الكبير « مفاتيح الغيب » وهو الذي نتكلم عنه ، وتفسير سورة الفاتحة ، ورسالة في التنبيه على بعض الأسرار المودعة في بعض سور القرآن العظيم ، وشرح الوجيز للغزالي ، ونهاية الايجاز في دراية الاعجاز ، وغير ذلك .

وكانت وفاته في الحادي والعشرين من المحرم سنة ٦٠٦ هـ [2] .

التعريف بالتفسير .

اشتهر الفخر الرازي بالتفسير وإن كان مقامه في كل علم من علوم الاسلام لا يقل عن مقامه في التفسير ، إلا أن كتابه في التفسير كان المظهر الأكبر لكل علومه ، إذ أنه يعتبر موسوعة علمية أودع فيها مؤلفها طائفة كبيرة من علوم الاسلام ، وجمع فيها الكثير من أقوال المتقدمين والمتأخرين من أئمة اللغة والتفسير والكلام وغيرها من المعارف والعلوم، فحيثما أردت فكرة في بحث إسلامي؛ وجدتها بالتفصيل في هذا الكتاب أو وجدت إشارة تومىء إلى تفصيلها في موضع آخر من كتبه ، فهو ينتهز ورود لفظة ليدخل في بحث منظم له تفريعات وتشقيقات كثيرة ، وهذا أثر من آثار ثقافته الواسعة التي ظهرت في فهمه للقرآن الكريم .

يقول القاضي أبو الحسن علي السبكي عن تفسير الرازي : (فيه مع التفسير

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي « ٤ : ٢٤٨ » .

(٢) الوافي بالوفيات للصفدي « ٤ : ٢٥٤ » .

كل شيء[1]) ويقول أبو حيـــان : (جمع في كتابه التفسير أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير [2]) ، ويقول صاحب الاتقان : (ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها وخروج من شيء إلى شيء ؛ حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية [3]) .

موقفه من الاسرائيليات .

١ - قلل الرازي في تفسيره من ذكر الاسرائيليات فرفض كل رواية تطعن في عصمة نبي من الأنبياء ، فمثلا يقول عند تفسير قوله تعالى : (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط . . . الآية [4]) ، للناس في هذه القصة ثلاثة أقوال . . . فأما القول الأول : فحاصل كلامهم فيها ، أن داود عشق امرأة أوريا ، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها ، فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته ، وعرضا تلك الواقعة عليه ، فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً ، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة .

ويعلق الرازي بقوله : (والذي أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل عليه وجوه :

الاول : أن هـــذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الخلق وأشدهم فجوراً لاستنكف منها .

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي « ٤ : ٢٥٠ » .

(٢) البحر المحيط لأبي حيان « ١ : ٣٤٦ » .

(٣) الاتقان « ٢ : ٢٢٦ » .

(٤) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة ص .

الثاني : أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين : إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع في زوجته ، أما الأول فأمر منكر ، قال صلى الله عليه وسلم : « من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله » ، وأما الثاني فمنكر عظيم ، قال صلى الله عليه وسلم : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) وأن أوريا لم يسلم من داود – على زعمهم – لا في روحه ولا في منكوحه .

والثالث : أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشر المذكورة ، ووصفه أيضاً بصفات كثيرة بعد ذكر القصة ، ومثل هذه الصفات تنافي كونه – عليه السلام – موصوفاً بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح[1] أ هـ .

٢ – كذلك نرى الرازي يرفض كل رواية تعرضت لتفصيلات سكت عنها القرآن ، ولم يجيء بها حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن للعلم بها فائدة؛ فمثلا يقول في تفسير قوله تعالى: (ولا تقربا هذه الشجرة[2]) اختلفوا في الشجرة ما هي : فروى مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنها البر والسنبلة ، وروى السدي عن ابن عباس وابن مسعود : أنها الكرم ، وعن مجاهد وقتادة : أنها التين ، وقال الربيع بن أنس : كانت شجرة من أكل منها أحدث ؛ ولا ينبغي أن يكون في الجنة حدث .

ويعلق الرازي على ذلك بقوله : (واعلم أنه ليس في الظاهر ما يدل على التعيين، فلا حاجة أيضاً إلى بيانه ، لأنه ليس المقصود من هذا الكلام أن

---

(١) تفسير الرازي « ج ٢٦ : ١٨٩ » .

(٢) الآية ٣٥ من سورة البقرة .

بعرفنا عن تلك الشجرة ، ومالا يكون مقصوداً في الكلام لا يجب على الحكيم أن يبينه ، بل ربما كان بيانه عبثاً [1]) .

ويقول في موضع آخر : (اختلفوا في العصا — عصا موسى — فقال الحسن: كانت عصا أخذها من بعض الأشجار ، وقيل : كانت من آس الجنة ، طولها عشرة أذرع على طول موسى ولها شعبتان تتقدان في الظلمة) .

ويعلق الرازي على ذلك بقوله : (والذي يدل عليه القرآن أن مقدارها كان مقداراً يصح أن يتوكأ عليها ، وأن تنقلب حية عظيمة ، ولا تكون كذلك إلا ولها قدر من الطول والغلظ ومازاد على ذلك فلا دلالة عليه . واعلم أن السكوت عن أمثال هذه المباحث واجب لأنه ليس فيها نص متواتر قاطع ولا يتعلق بها عمل ، حتى يكتفى فيها بالظن المستفاد من أخبار الآحاد فالأولى تركها [2]) .

ويقول في معرض الكلام عن الحجر الذي أمر الله موسى أن يضربه بعصاه : (واختلفوا في صفة الحجر [3] فقيل : كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع ، وقيل : مثل رأس الإنسان) .

ويعلق الرازي على هذا بقوله : والمختار عندنا تفويض علمه إلى الله تعالى [4] .

٣ — ويتساهل الرازي أحياناً فيروي لنا قصصاً أشبه بالأساطير دون أن يعلق عليها بشيء مادامت محتملة في رأيه ، ولا تطعن في عصمة نبي وليست مما يرجع إلى الأحكام بحيث يجب فيها تحري الصحة التي يجب بها العمل ، وفي مثل

---

(١) تفسير الرازي « ٣ : ٥—٦ » .

(٢) المرجع السابق « ٣ : ٩٥ » .

(٣) الحجر الوارد في الآية ٦٠ من سورة البقرة « فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ... الآية » .

(٤) تفسير الرازي « ٣ : ٩٥ » .

ذلك يتساهل المفسرون كما يقول ابن خلدون[1]، وهو يروي هذه القصص ـ لاسيما ـ قصص الأنبياء ـ عن مقاتل ووهب بن منبه والكلبي والسدي وغيرهم ، وأحياناً لا يذكر من نقل عنه الخبر أو القصة ويكتفي بقوله : (روي)[2]؛ فمثلاً عند تفسير قوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد[3]) يقول : روي أنه كان لعاد ابنان : شداد وشديد ، فملكا وقهرا ، ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها ، فسمع بذكر الجنة ، فقال : أبني مثلها ، فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلاثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة وهي مدينة عظيمة ، وسورها من الذهب والفضة ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الأشجار والأنهار ، فلما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا . وعن عبد الله ابن قلابة : أنه خرج في طلب إبل له ، فوصل إلى جنة شداد ، فحمل ماقدر عليه مما كان هناك ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره وقص عليه وبعث إلى كعب فسأله ، فقال : هي إرم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال ، وعلى عنقه خال ، يخرج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن أبي قلابة فقال : هذا والله هو ذلك الرجل[4] أ هـ .

وهذه القصة آثار الوضع عليها لائحة ، وقد علق ابن كثير عليها بقوله : (من زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة ، وهي تنتقل في البلاد فقد غلط وأخطأ وقال مالا دليل عليه[5]) .

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٨ .

(٢) انظر على سبيل المثال تفسير الرازي « ٢٢ : ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٣ ، ٢٦ : ١٣٣ » ويراعى أن بعض هؤلاء الذين ينقل عنهم الرازي من أقطاب الروايات الاسرائيلية كوهب بن منبه ، وبعضهم متهم بالكذب كالكلبي ومقاتل والسدي الصغير .

(٣) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الفجر .

(٤) تفسير الرازي « ٣١ : ١٦٨ » .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير « ٢ : ١٢٥ » .

وقد أثارت هذه القصة ابن خلدون فكتب في مقدمته ذاكراً أخطاء المفسرين ناقداً تهاونهم في قبول الأقاصيص الموضوعة ، فقال : (وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ، مايتناقله المفسرون في تفسير سورة « الفجر » في قوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد) ثم روى نفس القصة التي ذكرها الرازي وعلق عليها بقوله : (وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض وصحاري عدن التي زعموا أنها بنيت فيها . .) ويعلل ابن خلدون وقوع المفسرين في هذا الخطأ بقوله : (والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضه صناعة الإعراب في لفظة « ذات العماد » أنها صفة إرم وحملوا العماد على الأساطين ، فتعين أن يكون بناء ، ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير « بعاد إرم » على الإضافة من غير تنوين ، ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة والتي هي أقرب إلى الكذب ، المنقولة في عداد المضحكات . وإلا فالعماد هي عماد الخيام ، وإن أريد بها الأساطين فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم ، لا أنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها ، وإن أضيفت – كما في قراءة ابن الزبير – فعلى إضافة الفصيلة إلى القبيلة كما تقول : « قريش كنانة » و « الياس مضر » و « ربيعة نزار » من غير ضرورة إلى هذا الحمل البعيد الذي يجلب لتوجيه أمثال هذه الحكايات الواهية التي يتنزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة [1]) .

وقال الإمام الشيخ محمد عبده – رحمه الله – في هذا الصدد : (وقد يروي المفسرون هنا حكايات في تصوير إرم ذات العماد ؛ كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله ، فإذا وقع إليك شيء من كتبهم ونظرت في هذا الموضع منها فتخط ببصرك ماتجده في وصف إرم وإياك أن تنظر فيه [2]) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون – تعليق الدكتور وافي ص ٢٢٨ مطبعة لجنة البيان العربي ، سنة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م .

(٢) تفسير جزء عم ص ٦١ للشيخ محمد عبده . طبع مطابع الشعب .

والحق ماذهب إليه محققوا المفسرين من أن إرم عطف بيان لـ (عاد) وأنهم سموا بعاد إرم نسبة إلى جدهم لأن عاداً هو : ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح كما قال النسابون ، ووصف القبيلة بذات العماد : إما لأنهم كانوا أهل عمد وخيام في حلهم وترحالهم ، أو لما كانوا عليه من طول القامة وقوة البنية ، أو لكونهم ذوي شرف ورفعة . ومعنى (التي لم يخلق مثلها في البلاد) : أي في قوة البنية والضخامة ، وشدة البأس . وتفسير الآيات على هذا الوجه هو الذي يتفق وما سيقت له الآيات ؛ وهو تخويف المعاندين الموجودين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أهلك من كان قبلهم وكانوا أشد منهم بأساً ، وأعظم سلطاناً ، وأكثر أموالاً .

٨ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي

التعريف بالمؤلف .

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج، الأنصاري، الخزرجي، الأندلسي ، القرطبي ، المفسر .

كان رحمه الله من عباد الله الصالحين ، والعلماء العارفين ، والزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة وبلغ من زهده أن أطرح التكلف ، وصار يمشي بثوب واحد ، وعلى رأسه طاقية ، وكانت أوقاته كلها معمورة بالتوجه إلى الله وعبادته تارة وبالتصنيف تارة أخرى ، حتى أخرج للناس كتباً انتفعوا بها .

ومن مصنفاته : كتابه في التفسير المسمى بالجامع لأحكام القرآن ــ وهو ما نحن بصدده ــ وشرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب التذكار في أفضل الأذكار ، وغير ذلك .

وكان مستقراً بنية أبي الخصيب وتوفي ودفن بها في شوال سنة إحدى وسبعين وستمائة من الهجرة [1] .

التعريف بالتفسير .

وصف العلامة ابن فرحون هذا التفسير فقال : (وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعاً ، أسقط منه القصص والتواريخ وأثبت عوضها أحكام القرآن ، واستنباط الأدلة ، وذكر القراءات والاعراب والناسخ والمنسوخ [2]) .

وقال القرطبي في مقدمة تفسيره ، مبيناً الطريق الذي رسمه لنفسه ، ليسير عليه فيه : (.. وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها ، فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله ، وكثيراً ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهماً لايعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث ، فيبقى من لاخبرة له بذلك حائراً لايعرف الصحيح من السقيم .. ثم قال : وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين إلا ما لابد عنه ومالا غنى منه للتبيين [3]) .

موقفه من الاسرائيليات .

نجد القرطبي يروي أحياناً في تفسيره من غرائب القصص الإسرائيلي مع اعتدال في ذلك كما ذكر في مقدمة تفسيره ، غير أنه لم يسقط هذا القصص بالجملة كما ذكر ابن فرحون ، ونسوق الآن بعض الأمثلة لنبرهن على صدق ماذهبنا إليه .

---

(١) انظر الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون (ص ٣١٧ — ٣١٨). ومنية أبي الخصيب : مدينة كبيرة حسنة على شاطىء النيل في الصعيد الأدنى كما قال ياقوت الحموي .

(٢) انظر المصدر السابق(ص ٣١٧ — ٣١٨).

(٣) تفسير القرطبي « ١ : ٢ — ٣ » .

١ – أ – عند قوله تعالى : (ق . والقرآن المجيد) قال : (.. واختلف في معنى (ق) ماهو ؟ . فقال ابن زيد وعكرمة والضحاك : هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء اخضرت السماء منه ، وعليه طرفا السماء، والسماء عليه مقبية ، وما أصاب الناس من زمرد كان بما تساقط من ذلك الجبل . وقال وهب : أشرف ذو القرنين على جبل قاف ، فرأى تحته جبالاً صغاراً، فقال له : ماأنت ؟ قال : أنا قاف . قال : فما هذه الجبال حولك ؟ قال : هي عروقي، ومامن مدينة إلا وفيها عرق من عروقي، فإذا أراد الله أن يزلزل مدينة أمرني فحركت عرقي ذلك فزلزلت تلك الأرض ، فقال له : ياقاف ، أخبرني بشيء من عظمة الله . قال : إن شأن ربنا لعظيم ، وإن ورائي أرضاً مسيرة خمسمائة عام من جبال ثلج يحطم بعضها بعضاً . لولاهي لاحترقتُ من حر جهنم . قال : زدني ، قال: إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله ترعد فرائصه يخلق الله من كل رعدة مائة ألف ملك ، فأولئك الملائكة وقوف بين يدي الله تعالى ، منكسو رؤوسهم فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا : لا إله إلا الله ... [١]) .

ب – وعند قوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون[٢]) روى عن مجاهد قال : (ن : الحوت الذي تحت الأرض السابعة . . وكذا قال مقاتل، ومرة الهمداني ، وعطاء ، والسدي ، والكلبي : إن النون هو الحوت الذي عليه الأرضون . وروى أبو ظبيان عن ابن عباس قال : أول ماخلق الله القلم فجرى بما هو كائن ، ثم رفع بخار الماء فخلق منه السماء ، ثم خلق النون فبسط الأرض على ظهره فمادت الأرض ، فأثبتت بالجبال ، وإن الجبال لتفخر على الأرض ، ثم قرأ ابن عباس (ن والقلم) . وقال الكلبي ومقاتل ، اسمه البهموت ، قال الراجز :

مالي أراكم كلكم سكوتا ... والله ربي خلق البهموتا

---

(١) تفسير القرطبي « ١٧ : ٢ » .

(٢) الآية « ١ » من سورة القلم .

وقال أبو اليقظان والواقدي: ليوثا، وقال كعب: لوثوثا، وقال: بلهموثا، قال كعب: إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرضون، فوسوس في قلبه، وقال: أتدري ما على ظهرك بالوثوثا من الدواب والشجر والأرضين وغيرها، لو ألقيتهم عن ظهرك أجمع، فهم لوثوثا أن يفعل ذلك، فبعث الله إليه دابة فدخلت منخره ووصلت إلى دماغه، فضج الحوت إلى الله عز وجل منها فأذن الله لها فخرجت. قال كعب: فوالله إنه لينظر إليها وتنظر إليه، إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت[1]) أه.

ومثل هذه السخافات تؤلب على الاسلام الطاعنين، وتضحك منه الملحدين، وتزهد من الدخول فيه المرتادين، وتزيد في شكوك المرتابين.

والعجب أن القرطبي لم يعقب على ما ذكر بكلمة واحدة، وليته لم يذكر مثل هذه الخرافات التي شوهت وجه الاسلام وأساءت إلى كتاب الله الخالد.

جـ ـ وعند قوله تعالى في الآية (٢٥) من سورة الحديد: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز).

روى عن الثعلبي أنه قال: (قال ابن عباس: نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدادين: السندان، والكلبتان، والميقعة[2]، والمطرقة، والابرة[3]).

وقد علق القاسمي في تفسيره (محاسن التأويل) على هذه الرواية بقوله:

---

(١) تفسير القرطبي (١٨ : ٢٢٣ — ٢٢٤).

(٢) المسن الطويل

(٣) تفسير القرطبي (١٧ : ٢٦١).

(.. وما يذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن آدم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد: السندان ، والكلبتان ، والميقعة ، والمطرقة ، والإبرة فهو كذب لا يثبت مثله[1]) .

د ـ وعند قوله تعالى : (قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين . . . الآية[2]) ، قال : (.. وكان معهم عوج الأعنق ، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً . قال ابن عمر ، وكان يحتجن السحاب ، أي يجذبه بمحجنه ، ويشرب منه ، ويتناول الحوت من قاع البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله ، وحضر طوفان نوح عليه السلام ولم يجاوز ركبتيه ، وكان عمره ثلاثة آلاف وستمائة سنة ، وإنه قلع صخرة على قدر عسكر موسى ليرضخهم بها ، فبعث الله طائراً فنقرها ووقعت في عنقه فصرعته ، وأقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع وترقى في السماء عشرة أذرع ، فما أصاب إلا كعبه وهو مصروع فقتله . وقيل بل ضربه في العرق الذي تحت كعبه فصرعه فمات ووقع على نيل مصر فجسرهم سنة ، أي صار لهم جسراً يعبرون عليه[3]) أهـ .

وإني لأعجب للقرطبي كيف أضاع وقته في كتابة مثل هذه الخرافات التي لا تعطي الفكر إلا خيالا ، ولا تزيد الفؤاد إلا خبالا . وليته إذ سود صفحات كتابه بذكرها نبه على بطلانها ، ولكنه لم يفعل مع أن القصة مخالفة للنقل والعقل ، وقد علق عليها ابن كثير في تفسيره فقال : (.. وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج ابن عنق ، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعا وثلث

---

(١) تفسير القاسمي (١٦ : ٥٦٩٥) بتصرف يسير . ط دار إحياء الكتب العربية طبعة أولى سنة ١٣٧٩ هـ — ١٩٦٠ م .

(٢) الآية ٢٤ من سورة المائدة .

(٣) تفسير القرطبي (١٦ : ١٢٦ — ١٢٧) .

ذراع تحرير الحساب .... وهذا شيء يستحى من ذكره ، ثم هو مخالف لماثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً . ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ..) ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً وأنه كان ولدَ زنية، وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته .. وهذا كذب وافتراء ، فإن الله تعالى ذكر نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال .. (رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً)[1] وقال تعالى في الآية ١٢٠ من سورة الشعراء: (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين) وقال تعالى في الآية ٤٣ من سورة هود: (قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) .

وإذا كان ابن نوح الكافر قد غرق فكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافر وولد زنية ؟ هذا لايسوغ في عقل ولا شرع ، ثم في وجود رجل يقال له عوج بن عنق نظر والله أعلم[2]) .

وذكر ابن قتيبة في « تأويل مختلف الحديث » . قول المعتزلة في تكذيب مثل هذه الأخبار فقال : (قالوا : حديث يكذبه النظر .. قالوا : هذا كذب بين لايخفى على عاقل ولا على جاهل . وكيف صار في زمن موسى عليه السلام من خالف أهل الزمان هذه المخالفة ؟

وكيف يجوز أن يكون من ولد آدم من يكون بينه وبين آدم هذا التفاوت ؟! وكيف يطيق آدمي حمل جبل على رأسه قدره فرسخ في فرسخ ؟!!!

ونحن نقول : إن هذا حديث لم يأت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن صحابته ، وإنما هو خبر من الأخبار القديمة ، التي يرويها أهل الكتب ، سمعه قوم منهم على قديم الأيام فتحدثوا به[3]) .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة نوح .
(٢) تفسير ابن كثير (٢ : ٣٨) وانظر البداية والنهاية (١ : ١١٤ ، ٢٧٨).
(٣) تأويل مختلف الحديث ٢٧٨ - ٢٧٩ .

٥ — وعند قوله تعالى في الآية (٥٧) من سورة مريم: (ورفعناه مكاناً علياً). روي عن وهب بن منبه أنه قال : (كان يرفع لادريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل الأرض في زمانه ، فعجب منه الملائكة ، واشتاق إليه ملك الموت فاستأذن ربه في زيارته ، فأذن له ، فأتاه في صورة آدمي ، وكان إدريس يصوم النهار ، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل ، ففعل ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس . وقال له : من أنت ؟ قال : أنا ملك الموت . استأذنت ربي أن أصحبك فأذن لي ، فقال إن لي إليك حاجة ، قال : وماهي ؟ قال : أن تقبض روحي ، فأوحى الله تعالى إليه : أن اقبض روحه ، فقبضه ورده الله إليه بعد ساعة ، وقال له ملك الموت : ما الفائدة من قبض روحك ؟ قال : لأذوق كرب الموت فأكون له أشد استعداداً ، ثم قال إدريس بعد ساعة : إن لي إليك حاجة أخرى ، قال : وماهي ؟ قال : أن ترفعني إلى السماء فأنظر إلى الجنة والنار ، فأذن الله تعالى له في رفعه إلى السموات ، فرأى النار فصعق ، فلما أفاق قال أرني الجنة ، فأدخله الله الجنة ، ثم قال له ملك الموت : اخرج لتعود إلى مقرك ، فتعلق بشجرة ، وقال: لا أخرج منها ، فبعث الله تعالى بينهما ملكاً حكماً ، فقال : مالك لا تخرج؟ قال : لأن الله تعالى قال : (كل نفس ذائقة الموت) ، وأنا ذقته . وقال (وإن منكم إلا واردها) وقد وردتها . وقال (وماهم منها بمخرجين) ، فكيف أخرج؟ فقال الله سبحانه وتعالى لملك الموت : باذني دخل الجنة ، وبأمري يخرج ، فهو حي هنالك ، فذلك قوله تعالى : (ورفعناه مكاناً علياً) فإدريس تارة يرتفع إلى الجنة ، وتارة يعبد الله تعالى مع الملائكة في السماء [1] . وقد روى ابن كثير خبراً قريباً من هذا عن كعب الأحبار ، وعلق عليه بقوله : (وهذا من الاسرائيليات وفي بعضه نكارة [2]) .

---

(١) تفسير القرطبي (١١ : ١١٩) .

(٢) البداية والنهاية (١ : ١٠٠) وانظر تفسير ابن كثير .

٩ ـــ مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي

التعريف بالمؤلف .

هو أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ، الحنفي . كان ـــ رحمه الله ـــ إماماً كاملا عديم النظير في زمانه ، رأساً في الفقه والأصول ، بارعاً في الحديث ومعانيه ، بصيراً بكتاب الله تعالى ، ومن مؤلفاته : متن الوافي في الفروع ، وشرحه : الكافي ، وكنز الدقائق في الفقه أيضاً ، والمنار في أصول الفقه ، والعمدة في أصول الدين ، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل ، وهو التفسير الذي نحن بصدد الكلام عنه .

كانت وفاة النسفي سنة إحدى وسبعمائة من الهجرة ، رحمه الله [1] .

التعريف بالتفسير .

هذا التفسير اختصره مؤلفه من تفسير البيضاوي ، ومن تفسير الزمخشري غير أنه ترك ما في الكشاف من الاعتزالات ، وجرى فيه على مذهب أهل السنة والجماعة ، كما أنه لم يقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف من ذكره للأحاديث الموضوعة في فضائل السور .

قال صاحب كشف الظنون فيه : (هو كتاب وسط في التأويلات ، جامع لوجوه الاعراب والقراءات ، متضمن لدقائق علم البديع والاشارات ، موشح بأقاويل أهل السنة والجماعة ، خال من أباطيل أهل البدع والضلالة ، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل) أهـ . وهذا التفسير متداول بين أهل العلم ومطبوع ..

موقفه من الاسرائيليات .

يعتبر النسفي مقلاً في ذكر الاسرائيليات إذا قيس بغيره من المكثرين ؛

---

(١) انظر الدرر الكامنة (٢ : ٢٤٧) والفوائد البهية في تراجم الحنفية (ص١٠٢) والتفسير والمفسرون (١ : ٣٠٤) .

غير أنه يذكر أحيانا بعض هذه الاسرائيليات دون أن يتعقبها ، وذلك حيث لا يكون فيها ما يخالف العقل والنقل ، ومن أمثلة ذلك :

١ ـ أ ـ عند تفسيره لقوله تعالى في الآية ١٧ من سورة النمل : (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون) ، قال : (روي أن معسكره كان مائة فرسخ، خمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للانس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش . وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب ، فيها ثلاثمائة منكوحة ، وسبعمائة سُرّيّة ، وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ ، وكان يوضع منبره في وسطه وهو من ذهب وفضة ، فيقعد وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة ، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة ، وحولهم الناس ، وحول الناس الجن والشياطين ، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه حر الشمس ، وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر [١]) .

ب ـ وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٥) من سورة النمل : (وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) ، نراه يذكر خبر هدية بلقيس لسليمان وما كان من امتحانها له [٢] ، وهو خبر أشبه ما يكون بقصة نسجها خيال شخص مسرف في تخيله ، ومع ذلك لم يعقب عليها ، كما لم يعقب على سابقتها .

٢ ـ وإذا كان النسفي يروي بعض الاسرائيليات المحتملة ولا يتعقبها، إلا أنه في الكثير الغالب لا يدع رواية إسرائيلية تمس عصمة الأنبياء تمر دون أن ينبه على عدم صحتها ، فمثلا عندما عرض لتفسير قوله تعالى في الآيتين (٢١ ، ٢٢ من سورة ص) : (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على

---

(١) تفسير النسفي « ٣ : ٢٠٦ » .

(٢) المصدر السابق « ٣ : ٢٠٩ » .

داود ففزع منهم ، قالوا لا تخف . خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط) ، نراه بعد أن يذكر من الروايات ما يتنافى مع عصمة داود عليه السلام ، يقول ما نصه : (. . وما يحكى أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزوة البلقاء، وأحب أن يقتل ليتزوجها فلايليق من المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء ، وقال علي رضي الله عنه : من حدثكم بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين ، وهو حد الفرية على الأنبياء . وروي أنه حُدِّث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال : إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن نلتمس خلافها ، وأعظم بأن يقال غير ذلك . وإن كانت على ما ذكرت ، وكف الله عنها ستراً على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه ، فقال عمر : لسماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس [1] .

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٤ من سورة ص) : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) نراه يذكر من الروايات ما يتنافى مع عصمة سليمان عليه السلام ، ثم يقول ما نصـــه : (وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان ، وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام فمن أباطيل اليهود [2]) .

١٠ — لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن

التعريف بالمؤلف .

هو علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم، المعروف بالخازن،اشتهر

---

(١) تفسير النسفي (٣ : ١٨٨ » .

(٢) المصدر السابق « ٣ : ١٩٤ » .

بذلك لأنه كان خازن كتب خانقاه السُّمَيْساطية [1] بدمشق ، ولد ببغـــداد (سنة ٦٧٨ هـ) ثمان وسبعين وستمائة من الهجرة .

قال ابن قاضي شهبة : (كان من أهل العلم ، جمع وألف وحدث ببعض مصنفاته) . وقد خلف – رحمه الله – كتباً جمة في فنون مختلفة . فمن ذلك لباب التأويل في معاني التنزيل – وهو التفسير الذي نريد الكلام عنه – وشرح عمدة الأحكام ، ومقبول المنقول في عشر مجلدات ، جمع فيـــه بين مسندي الشافعي وأحمد والكتب الستة والموطأ وسنن الدارقطني ، ورتبه على الأبواب ، وكان – رحمه الله – صوفياً حسن السمت بشوش الوجه ، كثير التودد للناس . توفي (سنة ٧٤١ هـ) إحدى وأربعين وسبعمائة من الهجرة بمدينة حلب [2] .

التعريف بالتفسير .

هذا التفسير اختصره مؤلفه من معالم التنزيل للبغوي وضم إلى ذلك ما نقله ولخصه من تفاسير من تقدم عليه ، وليس فيه – كما يقول – سوى النقـــل والانتخاب مع حذف الأسانيد وتجنب التطويل والإسهاب .

ومؤلفه مكثر من رواية التفسير المأثور إلى حد ما ، معني بتقرير الأحكام وأدلتها ، مملوء بالأخبار التاريخيـــة والقصص الاسرائيلي الذي لا يكاد يسلم كثير منه أمام ميزان العلم الصحيح والعقل السليم [3] .

والكتاب مطبوع في سبعة أجزاء متوسطة الحجم ، وهو متداول بين الناس وبخاصة من له شغف بالقصص .

---

(١) خانقاه : منزل الصوفية ، وسميساط لبانيا وهومن مدينة سيساط في تركيا .

(٢) انظر ترجمته في الدرر الكامنة « ٣ : ٩٧ – ٩٨ » ، وطبقات المفسرين للداودي ، «ص ٢٣٨» وشذرات الذهب « ٦ : ١٣١ » والتفسير والمفسرون «١ : ٣١٠» .

(٣) التفسير والمفسرون « ١ : ٣١١ » .

موقفه من الاسرائيليات .

يتوسع الخازن في ذكر القصص الإسرائيلي وهو في الغالب لايعقب على مايذكر منها ، ولا ينظر إليها بعين الناقد البصير ، وإن كان في بعض المواضع لايترك القصة تمر دون أن يبين لنا ضعفها أو كذبها ، ولكن على ندرة . ولعل ذلك يرجع إلى أن الخازن كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق — كما ذكرنا — وقد لقب بالخازن من أجل ذلك . ومن يقوم على خزانة الكتب وله ولع بالتفسير لابد أن يقرأ كثيراً فيما تحت يديه من كتب التفسير ، ولابد أن يعجب ببعض منها ويتأثر به فيما يحاول من كتابة التفسير ، ولقد رأينا الخازن قد تأثر إلى حد كبير بالتفاسير التي لها عناية بالجانب القصصي،فأكثر عنها النقــــل في تفسيره ، وكان أكثر ماتأثر به من ذلك تفسير الثعلبي ، والخازن فوق هــذا كله كان متصرفاًواعظاً؛ ومن هنا أيضاً غلب على تفسيره اللــــون القصصي كماغلب على الثعلبي رحمه الله . وإذا ما أردنا أن نسوق أمثلة من الجانب القصصي في تفسير الخازن وجدنا أنفسنا أمام قصص كثير وأخبار طوال نختار منها مايلي :

١ — أ — فمثلاً عند تفسير قوله تعالى الآيات (٢١ — ٢٤) من سورة (ص) : (وهل أتاك نبــــأ الخصم إذ تسوروا المحراب ... الآيات) إلى قوله تعالى : (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب)، تراه يسوق قصصاً أشبه ما يكون بالخرافة : كقصة الشيطان الذي تمثل لداود في صورة حمامة من ذهب ؛ فيها من كل لون حسن، وجناحاها من الدر والزبرجــــد، فطارت ثم وقعت بين رجليه ، وألهته عن الصلاة ، وقصة المرأة التي وقع بصره عليهـا فأعجبه جمالها ، فاحتال على زوجها حتى قتل رجاء أن تسلم له هذه المرأة التي فتن بهاوشغف بحبها ، وغيرها من الروايات الغريبة ، ولكنه يأتي بعد كل هذا فيقول :

(فصل في تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عمـا لايليق به وينسب إليه) ،

ويفند في هذا الفصل كل ماذكره مما يتنافى مع عصمة نبي الله داود عليه السلام[1].

ب ـ ولكننا نرى الخازن يمر بقصص كثيرة لايعقب عليها ، مع أن بعضها في غـــاية الغرابة . ومن ذلك مثلا ما رواه عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : (وكلبهم باسط ذراعيه[2] ..) الآية قال : (كان كلبا أغر ، وعنه أنه كان فوق القلطي ، ودون الكرزي ـ والقلطي ، كلب صيني ـ وقيل كان أصفر وقيل كان شديد الصفرة ، يضرب إلى حمرة ، وقال ابن عباس، كان اسمه قطمير، وقيل : ريان ، وقيل : صهبان ، وقيل : ليس في الجنة دواب سوى كلب أصحاب الكهف ، وحمار بلعم[3]) وقد علق ابن كثير في تفسيره على اختلاف المفسرين في لون كلب أصحاب الكهف بقوله : (واختلفوا في لونه على أقوال لاحاصل منها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها، بل هي مما ينهى عنه فإن مستندها رجم بالغيب[4]) .

وما رواه عند تفسيره لقوله تعالى : (حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نمـــلة ...) الـــخ ، قال : (.. ثم مضى سليمان حتى مر بوادي السدير ـ واد من الطائف ـ فأتى على وادي النمل . كذا قال كعب الأحبار، وقيل إنه بالشام ، وقيل هو واد يسكنه الجن وذلك النمل ، وقيل : إن ذلك النمل أمثال الذئاب ، وقيل كالبخاتي ، والمشهور أنه النمل الصغير (قالت نمـــلة) قيل : كانت عرجاء وكانت ذات جناحين ، وقيـــل : اسمها طاحية ، وقيـــل جرسا .. الخ[5]) . وقد عقب ابن كثير في تاريخه بقوله : (وقد ذكر وهب أنه مر وهو على البساط

---

(١) تفسير الخازن « ٣٨:٦ – ٤٢ » .

(٢) الآية ١٨ من سورة الكهف .

(٣) الخازن « ١٦٦:٤ » .

(٤) تفسير ابن كثير « ٧٦:٣ » .

(٥) تفسير الخازن « ١٤٤:٥ » .

براد بالطائف ، وأن هذه النملة كان اسمها جرسا ، وكانت من قبيلة يقال لهم بنو الشيصان ، وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب ، وفي هذا كله نظر[1]) .

جـ ـ وعند قوله تعالى : (فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ... الآية[2]) ، قال : (قال العلماء : كان سليمان يتجرد للعبادة في بيت المقدس السنة والسنتين، والشهر والشهرين،وأقل من ذلكوأكثر، فيدخل فيه ومعه طعامه وشرابه ، فدخله المرة التي مات فيها ، وكان سبب ذلك أنه كان لايصبح يوماً إلاوقد نبت في محرابه ببيت المقدس شجرة فيسألها ما اسمك فتقول كذا ، فيقول لأي شيء خلقت ..؟ فتقول: لكذا وكذا، فيأمر بهافتقطع فإن كانت لغرس أمر بهـا فغرست ، وإن كانت لدواء كتب ذلك حتى نبتت الخرّوبة . فقال لها ما أنت ؟ قالت : أنا الخرّوبة ، قال : ولأي شيء نبت ؟ قالت : لخراب مسجدك .. قال سليمان : ما كان الله ليخربه وأنا حي ، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس ؟ ثم نزعها وغرسها في حائط له ، ثم قال اللهم عمّ على الجن موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لايعلمون الغيب ـ وكانت الجن تخبرالإنس أنهم يعلمون منالغيب شيئاًويعلمون مافي غد ـ ثم دخل المحراب وقام ليصلي على عادته متكئاً على عصاه فمات قائماً ، وكان للمحراب كوى من بين يديه ومن خلفه ، فكان الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة التي كانوا يعملون في حياة سليمان وينظرون إليه ويحسبونه حياً، ولاينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته وانقطاعه قبل ذلك ، فمكثوا يدأبون بعد موته حولاً كاملاًحتى أكلت الأرضة عصا سليمان فخر ميتاً ، فعلموا بموته . قال ابن عباس : فشكرت الجن الأرضة ، فهم يأتونها بالماء والطين في جوف الخشب[3]) اهـ .

---

(١) البداية والنهاية « ٢ : ١٩ » .

(٢) الآية ١٤ من سورة سبأ . والمنسأة : العصا .

(٣) تفسير الخازن « ٥ : ٢٣٤ ـ ٢٣٥ » .

وهذه من الإسرائيليات التي لاتصدق ولاتكذب كما يقول ابن كثير[1] .

٣ – ونجد الخازن ينقل أحياناً قصصاً إسرائيلياً يخل بمقام النبوة ، ولا يتعقبه بتصحيح أو تكذيب ؛ غير أنه في الكثير الغالب يسوق معه الروايات الصحيحة الواردة في تلك القصة تاركاً الحكم فيها للقارىء ، كما يسوق أحياناً ردود العلماء ومناقشاتهم إذا كانت القصة موضع خلاف ، وقد يرجح أحد هذه الأقوال ، فمن الإسرائيليات التي لم يتعقبها مع منافاتها لعصمة الأنبياء مارواه عن وهب بن منبه عن تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٨٣ – ٨٤) من سورة الأنبياء : (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ، فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعالمين) وهي قصة غريبة منكورة لايكاد يقرها الشرع ولا يصدقها العقل، لما ذكر فيها من الأمراض المنفرة التي أصابت أيوب عليه السلام ، وأنه ألقي على مزبلة تختلف الدواب عليها .. الخ. وقد فندنا هذه القصة فيما سبق ؛ فارجع إليها إن شئت .

ب – وعند قوله تعالى : (فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق[2]) ، قال(حتى توارت) أي استترت الشمس (بالحجاب) أي ما يحجبها عن الأبصار ، يقال إن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه (ردوها عليّ) أي ردوا الخيل عليّ (فطفق مسحاً بالسوق) جمع ساق (والأعناق) أي جعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف . هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين، وكان ذلك مباحاً لأن نبي الله سليمان لم يكن ليقدم على محرم ولم يكن ليتوب عن ذنب ، وهو ترك الصلاة بذنب آخر ، وهو عقر الخيل . وقال محمد بن إسحق : لم يعنفه الله تعالى على عقر الخيل ، إذ كان ذلك أسفاً على ما فاته من فريضة ربه عز وجل ، وقيل إنه ذبحها

---

(١) البداية والنهاية « ٢ : ٣١ » .

(٢) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة (ص) .

وتصدق بلحومها، وقيل معناه أنه حبسها في سبيل الله تعالى وكوى سوقها وأعناقها بكيّ الصدقة ، وحكي عن علي رضي الله عنه أنه قال : (معنى — (ردوها عليّ) يقول بأمر الله تعالى الملائكة الموكلين بالشمس ردوها عليّ ، فردوها عليه فصلى العصر في وقتها) ، قال الإمام فخر الدين : بل التفسير الحق المطابق لألفاظ القرآن أن تقول : إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما أنه كذلك في ديننا . ثم إن سليمان عليه الصلاة والسلام احتاج إلى الغزو فجلس ، وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله تعالى وتقوية دينه ، وهو المراد بقوله : (عن ذكر ربي) ثم إنه عليه الصلاة والسلام أمر بإعادتها وإرجائها حتى توارت بالحجاب ، أي غابت عن بصره ، ثم أمر برد الخيل إليه وهو قوله تعالى : (ردوها عليّ) فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور :

الأول : التشريف لها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو .

الثاني : أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والمملكة يبلغ إلى أنه يباشر الأمور بنفسه .

الثالث : أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها من غيره ، فكان يمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن ولا يلزمنا شيء من تلك المنكرات والمحذورات. والعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة . فإن قيل : فالجمهور قد فسروا الآية بتلك الوجوه فما قولك فيه ؟ فنقول : لنا ها هنا مقامان :

المقام الأول : أن ندعي أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي ذكروها ، وقد ظهر — والحمد لله — أن الأمر كما ذكرنا ظهوراً لا يرتاب عاقل فيه .

المقام الثاني : أن يقال: هب أن لفظ الآية لا يدل عليه ، إلا أنه كلام

ذكره الناس فما قولك فيه ؟ وجوابنا : إن الدلائل الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات[1] أهـ .

ولم يرجح الخازن أيا من هذه الأقوال ، وقد أيد صاحب المنار رأي الرازي المتقدم ، فقال : (حسب الله القصاص ، فلقد شوهوا كتب التفسير بقصصهم ، استعرض سليمان نبي الله وملك بني إسرائيل الخيل ، فقال : « إني أحببت حب الخير » المعقود بنواصي الخيل لا عن هوى نفسي والكبر « عن ذكر ربي » ووحيه الذي أمر برباط الخيل للدفاع عن الحق فما زالت تعرض ، حتى توارت بالحجاب ، فقال « ردوها علي » لأراها مقبلة ومدبرة لأختبر حالها فقد قيل إنه كان عالما بها وبأمراضها،أو لأتمتع بمسح سوقها وأعناقها فردوها عليه ، فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ، كما هو شأن محبي الخيل في كل جيل وزمان . فأي دليل أم أية شبهة في هذه الآيات على أن سليمان عليه السلام ترك صلاة العصر شغلا بالخيل حتى غربت الشمس ، وأنه انتقم منها بقطع سوقها وأعناقها ، ولو كان المسح هو القطع لكان قوله تعالى : (وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم) يعني اقطعوها وأن قوله : (ردوها إلي) خطاب للملائكة الموكلين بالشمس يأمرهم بردها بعد غروبها ليصلي العصر ؟! ، وأي حاجة لتطويل الفقهاء البحث في هذه : هل هي أداء أو قضاء[2] ؟؟!!) .

ويبدو لي أن الحق مع صاحب المنار وأن الضمير في قوله : (ردوها) يعود على الصافنات . والمعنى – كما قال – إن سليمان أمر أتباعه برد الخيل عليه ليمسحها ويختبر عيوبها . أما من قال بأن الخطاب للملائكة الموكلين بالشمس فردوها فصلى العصر في وقته ، فمستبعد لأنه لم تكن لسليمان عليه السلام سلطة على الملائكة يأمرهم برد الشمس فيردوها ، وهي لم ترد على أحد قبله منذ خلق الله الدنيا ، ثم

---

(١) تفسير الخازن « ٦ : ٦٠ » وانظر الرازي « ٢٦ : ٢٠٦ – ٢٠٧ » .

(٢) مجلة المنار ج٣ م٥ صفر سنة ١٣٢٠ هـ .

لو صح هذا التفسير لوجب أن يكون نظم الآية : ردوها عليّ فصلى ، ولكن نظمها الحالي يؤكد أن المردود عليه الخيل الذي طفق يمسح سوقها وأعناقها .

جـ ــ ومن هذا القبيل ــ أي سوقه للروايات الصحيحة والباطلة الواردة في في الآية دون ترجيح لإحداها على الأخرى ــ ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب [١]) ، فقد ذكر أولاً رواية وهب بن منبه في القصة ــ وقد تقدمت [٢] ــ ولم يعقب عليها ، ولكنه ذكر بجوارها أقوال المحققين فقال : (قال القاضي عياض وغيره من المحققين : لا يصح ما نقله الأخباريون من تشبيه الشيطان به ، وتسليطه على ملكه ، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه ، وإن الشياطين لا يسلطون على مثله ، وقد عصم الله تعالى الأنبياء من مثل هذا ، والذي ذهب إليه المحققون أن سبب فتنة سليمان ما أخرجه الشيخان في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال سليمان : لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى ، فقال له صاحبه ــ إن شاء الله ــ فلم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل . وايم الله الذي نفسي بيده لو قال : إن شاء الله ، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون [٣] » .

د ــ وكذلك فعل في قصة (هم يوسف) فقد نقل الأقوال المنسوبة إلى السلف في (الهم القبيح) ثم نقل قول المحققين ، كالفخر الرازي وغيره الذين نزهوا سيدنا يوسف عليه السلام عما لا يليق به وينسب إليه [٤] .

---

(١) الآية ٣٤ من سورة (ص) .

(٢) انظر ص ٢٤٦ من هذا الكتاب .

(٣) تفسير الخازن (٦ : ٥٠ ــ ٥١) .

(٤) المرجع السابق (٣ : ٢٢٤ ــ ٢٢٦) .

هـ — وعند قوله تعالى في الآية (٤٤) من سورة النمل : (قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)قال : (واختلفوا في أمر بلقيس بعد إسلامها، فقيل انتهى أمرها إلى قولها: أسلمت لله رب العالمين، ولا علم لأحد وراء ذلك لأنه لم يذكر في الكتاب ولا في خبر صحيح . وقال بعضهم تزوجها سليمان، وكره ما رأى من كثرة شعر ساقيها فسأل الانس عما يذهب ذلك فقالوا الموسى، فقالت المرأة إني لم يمسني حديد قط، فكره سليمان الموسى، وقال: إنها تقطع ساقيها، فسأل الجن فقالوا: لا ندري، فسأل الشياطين فقالوا: نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء، فاتخذ النورة والحمام، فكانت النورة والحمامات من يومئذ، فلما تزوجها سليمان أحبها حباً شديداً وأقرها على ملكها [١]) .

وهذه الفرية تدل على خبث واضعها وقد زيفناها فيما سبق فارجع إليها إن شئت [٢] .

و — وفي قصة الغرانيق ذكر أقوال المثبتين لها والنافين، وحجج كلا الفريقين وعقب بقوله : (والله تعالى أعلم [٣]) .

وعلى كل حال فموقف الخازن هذا خير من موقف غيره من المفسرين الذين ينقلون سقيم الروايات ويذرون صحيحها، فيظن بعض من يقرؤها في كتبهم على أنها صحيحة .

١١ — تفسير القرآن العظيم لابن كثير

التعريف بالمؤلف .

هو الإمام الحافظ ، الحجة ، المحدث ، المؤرخ ، الثقة، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير ، القرشي ، الدمشقي ، الشافعي .

---

(١) تفسير الخازن « ٥ : ١٢٥ » .

(٢) انظر ص ٢٨٥ من هذا الكتاب

(٣) تفسير الخازن « ٥ : ١٨ — ٢٠ »

بدأ الاشتغال بالعلم على يدي أخيه عبد الوهاب ، ثم اجتهد في تحصيل العلوم على العلماء الكبار في عصره ؛ فسمع من ابن الشحنة ، والآمدي ، وابن عساكر ، وغيرهم ، كما لازم المزي ، وقرأ عليه تهذيب الكمال ، وصاهره على ابنته ، وأخذ عن ابن تيمية وفتن بحبه ، وامتحن بسببه .

وكان من أفذاذ العلماء في عصره .. أثنى عليه معاصروه ، وتلاميذه ومن بعدهم الثناء الجم . فقال الذهبي عنه في المعجم المختص : (الامام المفتي المحدث البارع ، فقيه متفنن ، محدث متقن ، مفسر نقال) .

وقال تلميذه شهاب الدين بن حجي : (كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ، وأعرفهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه وشيوخه يقرون له بذلك) .

وقال العلامة العيني : (.. كان قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ . وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير ، وله مصنفات عديدة مفيدة) .

وكان — رحمه الله — من أوسع العلماء اطلاعاً على أقوال أهل الملل والنحل وخاصة مذاهب المسيحيين ، كما يدل عليه كلامه في مواضع كثيرة في التفسير والتاريخ اللذين يعتبران أم مؤلفاته ، بل يكفي في الدلالة على سعة اطلاعه في ذلك أن يكون تلميذ شيخ الاسلام ابن تيمية ، الذي ألف موسوعته النفيسة في ذلك « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » وهو مطبوع معروف .

وكان مولده سنة سبعمائة أو بعدها بقليل ، وتوفي في شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة من الهجرة ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر من دمشق ،

عند شيخه ابن تيمية ، وكان قد كف بصره في آخر عمره ، رحمه الله رحمة واسعة [1] .

التعريف بالتفسير .

تفسير الحافظ ابن كثير من أجود كتب التفسير المأثور ، بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري، وقد حرص مؤلفه على أن يفسر القرآن بالقرآن أولاً ، ما وجد إلى ذلك سبيلا ، ثم بالسنة الصحيحة التي هي بيان لكتاب الله ، ثم يذكر كثيراً من أقوال السلف في تفسير الآي ، وهو يذكر الأحاديث في أكثر المواضع بأسانيدها من دواوين السنة ومصادرها، وكثيراً ما يذكر تعليل الضعيف منها ، ولكنه يحرص أشد الحرص على أن يذكر الأحاديث الصحاح وإن ذكر منها الضعاف .

فكتابه بجانب أنه تفسير للقرآن ، معلم ومرشد لطالب الحديث ،يعرف به كيف ينقد الأسانيد والمتون ، وكيف يميز الصحيح من غيره ، فهو كتاب في هذا المعنى تعليمي عظيم ، ونفعه جليل كثير .

ويمتاز ابن كثير في تفسيره وتاريخه بالتنبيه على بطلان كثير من منكرات الاسرائيليات وكيف تسربت إلى الإسلام ، ومن أين أتت ، ولا عجب ؛ فهو حافظ ، وله بصر بالنقد ومعرفة بفنون الحديث وأحوال الرجال، بالإضافة إلى اطلاعه الواسع على أقوال أهل الملل والنحل . وقد طبع هذا التفسير الطبعة الأولى بمطبعة بولاق من سنة ١٣٠٠ — ١٣٠٢ هـ ، ثم طبعه السيد رشيد رضا رحمه الله، ومعه تفسير البغوي في تسع مجلدات من سنة ١٣٤٣ — ١٣٤٧ هـ ، ثم تداولته المطابع في مصر بعد ذلك .

---

(١) انظر طبقات المفسرين للداودي «ص ٢٢٧» والدرر الكامنة « ١ : ٣٧٣ — ٣٧٤ » وشذرات الذهب « ٦ : ٢٣١ — ٢٣٢ » وانظر التفسير والمفسرون « ١ : ٢٤٢ — ٢٤٣ » وعمدة التفسير « ١ : ٢٢ — ٣٦ » .

وقد قام أخيراً الشيخ أحمد شاكر رحمه الله بتحقيقه واختصاره بعد أن جرده من الأسانيد والإسرائيليات وسمى هذا المختصر (عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير) ، وقد توفي رحمه الله قبل اتمامه .

موقفه من الاسرائيليات .

للحافظ ابن كثير كلمات قوية في شأن الاسرائيليات ورواياتها ، وقد رسم في بعضها خطته نحوها ، وذلك بقوله : (والذي نسلكه في هذا التفسير الاعراض عن كثير من الأحاديث الاسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة .. الخ[1]) .

ونحن إذا تتبعنا كتابه في التفسير نجده أحياناً يحكي بعض الاسرائيليات ثم يعقب عليها بما يفيد بطلانها .

فمثلا ، عند تفسيره لأول سورة (ق) نراه يعرض لمعنى هذا الحرف في أول السورة (ق) فيقول : (وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا : (ق) جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف ، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب ، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افتري في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وما بالعهد من قدم ، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ والنقاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : « وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » فيما قد يجوزه العقل ، فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من

---

(١) تفسير ابن كثير « ٣ : ١٨١ - ١٨٢ » .

هذا القبيل والله أعلم . وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ولله الحمد والمنة [1]) .

ومثلا عند قوله تعالى في الآية ٥٠ من سورة الكهف : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه . . . الآية) ذكر أقوالا في « إبليس » واسمه ، ومن أي قبيل هو ؟ ثم عقب على ذلك بقوله : (وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف غالبها من الاسرائيليات التي تنقل لينظر فيها — والله أعلم — بحال كثير منها ، ومنها ماقديقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا ، وفي القرآن غنية عن كل ماعداه من الأخبار المتقدمة ، لأنها لاتكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان [2] .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . . .) الآيات ٥١ - ٥٦ من سورة الأنبياء . أشار إلى حال إبراهيم عليه السلام مع أبيه ، ونظره إلى الكواكب ثم قال : (وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم فعامتها أحاديث بني إسرائيل ، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح ، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة ، لا نصدقه ولا نكذبه ، بل نجعله وقفاً . وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته ، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين ، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة [3]) .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى : (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك

---

(١) تفسير ابن كثير « ٤ : ٣٢١ ».

(٢) تفسير ابن كثير « ٣ : ٨٩ ».

(٣) تفسير ابن كثير « ٣ : ١٨١ — ١٨٢ ».

سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . . الآية) . أورد الحافظ ابن كثير قصة هاروت وماروت ثم عقب عليها بقوله : (وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد ، والسدي ، والحسن البصري ، وقتادة ، وأبي العالية والزهري ، والربيع بن أنس ، ومقاتل بن حيان وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن ، إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن الكريم على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال[1]) .

وعند قوله تعالى : (. . . وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً . .) الآية ٤٠ من سورة طه ، ساق حديث الفتون بطوله ثم علق عليه بقوله : (وهو موقوف من كلام ابن عباس ، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه ، وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيح نقله من الاسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره والله أعلم . وسمعت شيخنا أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضاً[2]) .

وأحياناً نجد الحافظ ابن كثير يسوق بعض الاسرائيليات التي تحتمل الصدق والكذب ، ثم لا يتعقبها ومن ذلك : أنه روى عن وهب بن منبه في قوله تعالى : (فألقاها فإذا هي حية تسعى[3]) قوله : (. . فألقاها على وجه الأرض ثم حانت منه نظرة ؛ فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون يدب يلتمس ؛ كأنه يبتغي شيئاً يريد أخذه ، يمر بالصخرة مثل الخلفة[4] من الإبل فيلتقمها ، ويطعن

---

(١) تفسير ابن كثير « ١ : ١٤٩ » .

(٢) المرجع السابق « ٣ : ١٤٨ - ١٥٣ » .

(٣) الآية ٢٠ من سورة طه .

(٤) الخلفة من الابل : الحامل .

بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها ، وعيناه تتقدان ناراً وقد عاد المحجن منها عرفاً ، قيل شعره مثل النيازك [1] ، وعاد الشعبتان منها مثل القليب الواسع ، فيه أضراس وأنياب لها صريف [2] ، فلما عاين ذلك موسى ولى مدبراً ولم يعقب ، فذهب حتى أمعن ورأى أنه قد أعجز الحية ، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ، ثم نودي : يا موسى أن ارجع حيث كنت ، فرجع موسى وهو شديد الخوف ، فقال : (خذها) بيمينك (ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) وعلى موسى حينئذ مدرعة [3] من صوف . فلما أمره بأخذها لف طرف المدرعة على يده، فقال له ملك: أرأيت يا موسى لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً ؟ قال : لا ولكني ضعيف ومن ضعف خلقت ، فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الأضراس والأنياب ، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها ، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين [4]) .

ومن هذا القبيل ما جاء في صفة ضر أيوب من الأمراض المنفرة [5] .

١٢ ــ الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي

التعريف بالمؤلف .

هو الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الشافعي ، ولد في رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، وتوفي والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر ، وأسند وصايته إلى جماعة منهم الكمال بن الهمام ،

---

(١) النيازك : جمع نيزك : وهو الرمح القصير .

(٢) الصريف : الصوت .

(٣) المدرعة : قميص كالدرع .

(٤) تفسير ابن كثير « ٣ : ١٤٥ » .

(٥) انظر « إسرائيليات لم يتعقبها تفسير ابن كثير » « ١ : ١٧٩ » .

فأولاه عنايتــه ، وختم القرآن وله من العمر ثماني سنين ، وحفظ كثيراً من المتون . وأخذ عن شيوخ كثيرين ؛ وعدهم تلميذه الداودي فبلغ بهم واحداً وخمسين ، كما عد مؤلفاته فبلغ بها ما يزيد على الخمسمائة مؤلف ، وشهرة مؤلفاته تغني عن ذكرها . وكان السيوطي ـ رحمه الله ـ آية في سرعة التأليف ، حتى قال تلميذه الداودي : عاينت الشيخ وقــد كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً .

وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه، ولقد أخبر عن نفسه أنه يحفظ مائتي ألف حديث ، قال : ولو وجدت أكثر لحفظت . وتوفي ليلة الجمعة تاسع عشر من جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة هـ في منزله بروضة المقياس ، فرضي الله عنه وأرضاه [1] .

التعريف بالتفسير .

عرف الجلال السيوطي نفسه هذا التفسير ، وبين لنا الحامل له على تأليفه ، وذلك بمجموع ما ذكره في آخر كتاب الاتقان له ، وما ذكره في مقدمة الدر المنثور نفسه ، فقال في آخر الإتقان : (وقد جمعت كتاباً مسنداً فيه تفاسير النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف، وقد تم في أربع مجلدات ، وسميته (ترجمان القرآن) أ هـ [2] .

وقال في مقدمة الدر المنثور : (. . وبعد ، فلما ألفت كتاب ترجمان القرآن — وهو التفسير المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — وتم بحمد الله في مجلدات ، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرجة منها واردات [3] ، رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله ، ورغبتهم في الاقتصار على

---

(١) انظر شذرات الذهب «٨ : ٥١ – ٥٥» والتفسير والمفسرون «١ : ٢٥١-٢٥٢»

(٢) الإتقان « ٢ : ١٨٣ »

(٣) أي طرقاً كثيرة .

متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله ، فلخصت منه هذا المختصر ، مقتصراً فيه على متن الأثر ، مصدراً بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر ، وسميته بالدر المنثور في التفسير المأثور) أ هـ .

ومن هاتين العبارتين يتبين لنا أن السيوطي اختصر كتابه الدر المنثور من كتابه ترجمان القرآن ، وحذف الأسانيد مخافة الملل ، مع عزوه كل رواية إلى الكتاب الذي أخذها منه .

والسيوطي رجل مغرم بالجمع وكثرة الرواية . وهو - مع جلالة قدره ومعرفته بالحديث وعلله - لم يتحر الصحة فيما جمع ، فقد وجدنا في تفسيره (الدر المنثور) من الروايات ما لم أعلم بصحته . وفيها من الموضوعات ماحكم جمع من الحفاظ ببطلانه ، بل في كتابه هذا ماوافق هو على وضعه في كتبه الأخرى كاللآلىء المصنوعة ، ولعله اكتفى بذكر السند والتخريج عن التنصيص على الوضع ، فالكتاب يحتاج إلى تصفية حتى يتميز لنا غثه من سمينه ، وهو مطبوع في ست مجلدات ومتداول بين أهل العلم ، وقد اقتصر مؤلفه على سرد الروايات عن السلف في التفسير بدون أن يعقب عليها . فهو كتاب جامع فقط يروي عن السلف في التفسير، أخذه السيوطي من البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأحمد وأبي داود، وابن جرير وابن أبي حاتم وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا ، وغيرهم ممن تقدمه ودوّن التفسير [1] .

موقفه من الإسرائيليات .

يذكر السيوطي في كل آية ماورد فيها من الأحاديث والآثار والأخبار الاسرائيلية مستوعباً في ذلك غاية الاستيعاب ، غير أنه - كما قلنا - لايبين رتبة الأحاديث إلا قليلاً ، ولا يتعقب المدسوس من هذه الإسرائيليات وإن كان يروي بجانب

---

(١) انظر التفسير والمفسرون « ٢٥٢:١ - ٢٥٤ » .

الباطل منها الصحيح ؛ غير أنه لايميز بين هذا وذاك إلا بعزوها إلى مصادرها .

فمثلا عند الآية ٣٠ من سورة المائدة : (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) قال : وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن سالم بن أبي الجعد قال : إن آدم لما قتل أحد ابنيه الآخر ، مكث مائة عام لايضحك حزناً عليه ، فأتي على رأس المائة ، فقيل له : حياك الله وبياك ، وبشر بغلام ، فعند ذلك ضحك . وأخرج ابن جرير ، عن غياث بن إبراهيم ، عن أبي إسحاق الهمداني ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : لما قتل ابن آدم أخاه بكى آدم فقال :

تغيرت البلاد ومن عليها ... فلون الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي لون وطعم ... وقل بشاشة الوجه المليح

فأجيب آدم عليه السلام :

أبا هابيل قد قتلا جميعاً ... وصار الحي كالميت الذبيح

وجاء بشرة قد كان منها ... على خوف فجاء بها يصيح[1] اه

وقد نقد الأئمة سند الرواية ، قال الإمام أحمد في غياث بن إبراهيم النخعي: ترك الناس حديثه ، وروى عباس عن يحيى : ليس بثقة . وقال الجوزجاني : كان - فيما سمعت غير واحد يقول - يضع الحديث ، وقال البخاري : تركوه[2] .

وقد طعن في نسبة الشعر إلى آدم كل من الزمخشري ، وابن كثير ، والقرطبي ، والآلوسي ، ورشيد رضا : فقال الزمخشري في تفسيره : (وروي أن آدم مكث بعد قتله مائة سنة لايضحك ، وأنه رثاه بشعر ؛ وهو كذب بحت

---

(١) الدر المنثور « ٢: ٢٧٦ - ٢٧٧ » .

(٢) ميزان الاعتدال « ٣: ٣٣٧ » .

وما الشعر إلا منحول ملحون ، وقد صح أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر)[1] .

وقال ابن كثير : (وهذا الشعر فيه نظر ، وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاماً يتحزن به بلغته ، فألفه بعضهم إلى هذا)[2] .

وقال القرطبي : (قال ابن عباس : ما قال آدم الشعر ، وإن محمداً والأنبياء كلهم في النهي عن الشعر سواء)[3] .

وقال الآلوسي في تفسيره : (عن ابن عباس أنه قال : من قال إن آدم عليه السلام قد قال شعراً فقد كذب ، إن محمداً صلى الله عليه وسلم والأنبياء كلهم في النهي عن الشعر سواء ، كما جاء أن آدم قال شعراً في رثاء هابيل بالسريانية ،فلم يزل ينتقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان . وكان يتكلم العربية والسريانية ، فنظر فيه ، فقدم وأخر ، وجعله شعراً عربياً ، وذكر بعض علماء العربية أن في ذلك الشعر لحناً أو إقواءً وارتكاب ضرورة ، والأولى ألا ينسب إلى يعرب؛لما فيه من الركاكة الظاهرة)[4] .

وقال رشيد رضا : (وقد ذكروا في ذلك روايات غريبة لا يمكن أن يعرف مثلها إلا بوحي من الله ، وهي لم ترو عن أحد من رسل الله . ومنها أن آدم رثى هابيل بشعر عربي، فنعرض عن هذه الروايات التي لاتصح ولاتفيد)[5] .

وعند قوله تعالى : (وهل آتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . .) الآية .

ذكر السيوطي في الدر في قصـــة سيدنا داود عليه السلام من الرواياتما

---

(١) الكشاف « ١ : ١٣ ٤ » .

(٢) البداية والنهاية « ٦ : ١١٥ » .

(٣) تفسير القرطبي « ٦ : ١٤٠ » .

(٤) تفسير الآلوسي « ٦ : ١١٥ » .

(٥) تفسير المنار « ٦ : ٣٤١ » .

تقشعر منه الأبدان ، ولا يوافق عقلاً ولا نقلاً ، ولم يتعقب ما ذكر بشيء[1] ، وقد زيفنا هذه الروايات فيما سبق عند الكلام عما أورده مقاتل بن سليمان من روايات باطلة في تفسيره .

ومن هذا القبيل ما ذكره السيوطي في الدر عند قوله تعالى : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) من روايات إسرائيلية باطلة في قصة سليمان بن داود عليهما السلام وخاتمه[2] ، وقد نبه السيوطي في تخريج أحاديث الشفاء إلى أنها إسرائيليات تلقاها ابن عباس عن أهل الكتاب .

د — وعند قوله تعالى : (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنُصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) روى السيوطي عن قتادة قال : (ابتلي سبع سنين وأشهراً ، فألقي على كناسة بني إسرائيل ، تختلف الدواب في جسده) وروي عن ابن عباس قال : (إن الشيطان عرج إلى السماء قال : يا رب سلطني على أيوب ، قال الله : قد سلطتك على ماله وولده ، ولم أسلطك على جسده ، فنزل فجمع جنوده ، فقال لهم : قد سلطت على أيوب فأروني سلطانكم ، فصاروا نيراناً ، ثم صاروا ماء ، فبينا هم بالمشرق إذا هم بالمغرب ، وبينا هم بالمغرب إذا هم بالمشرق ، فأرسل طائفة منهم إلى زرعه ، وطائفة إلى أهله ، وطائفة إلى بقره ، وطائفة إلى غنمه ، وقال : إنه لا يعتصم منكم إلا بالمعروف ، فأتوه بالمصائب بعضها على بعض ، فجاء صاحب الزرع ، فقال : يا أيوب ألم تر إلى ربك ؟ أرسل على زرعك عدواً ، فذهب به ، وجاء صاحب الإبل ، فقال : يا أيوب ألم تر إلى ربك ؟ أرسل على إبلك عدواً فذهب بها ، ثم جاء صاحب البقر ، فقال : ألم تر إلى ربك أرسل على بقرك عدواً فذهب بها . وتفرد هو ببنيه فجمعهم في بيت أكبرهم ، فبينا هم يأكلون ويشربون ، إذ هبت ريح ، فأخذت أركان البيت ، فألقته

(١) الدر المنثور « ٥ : ٣٠٠ — ٣٠٤ » .

(٢) انظر هذه القصة وتفنيدها في ص ٢٤٦ — ٢٤٨ من هذا الكتاب.

عليهم ، فجاء الشيطان إلى أيوب بصورة غلام ، فقال : يا أيوب ألم تر إلى ربك ، جمع بنيك في بيت أكبرهم ، فبينما هم يأكلون ويشربون إذ هبت ريح فأخذت بأركان البيت فألقته عليهم ، فلو رأيتهم حين اختلطت دماؤهم ولحومهم بطعامهم وشرابهم ! !

فقال له أيوب : أنت الشيطان ، ثم قال له : أنا اليوم كيوم ولدتني أمي ، فقام فحلق رأسه ، وقام يصلي ، فرن إبليس رنة سمع بها أهل السماء وأهل الأرض ثم خرج إلى السماء ، فقال : أي رب ، إنه قد اعتصم فسلطني عليه ، فإني لا أستطيعه إلا بسلطانك . قال : قد سلطتك على جسده ، ولم أسلطك على قلبه ، فنزل فنفخ تحت قدمه نفخة قرّح مابين قدميه إلى قرنه ، فصار قرحة واحدة ، وألقي على الرماد ، حتى بدا حجاب قلبه .. الخ)[1] .

هذا التزيد المنفر في تصوير ضر أيوب ليس له سند صحيح في الإسلام ، ويتنافى مع منصب النبوة ومع ماقرره علماء التوحيد : من أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون عن كل ماينفر الناس منهم : كالجذام ، والجدري ، وسائر الأمراض المنفرة ، وإلا أقعدهم المرض المنفر للناس عن قربانهم والدنو منهم ، ومن ثم لم تحصل الفائدة المرجوة من بعثتهم .

وأصحاب كتب الحديث المعتمدة لم يذكروا شيئاً مما أشرنا إليه ، قال ابن حجر في الفتح : (وأصح ماورد في قصته ما أخرجه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وصححه ابن حبان ، والحاكم عن أنس : أن أيوب عليه السلام ابتلي فلبث في بلائه ثلاث عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه ، فكانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما للآخر : لقد أذنب أيوب ذنباً عظيماً ، وإلا لكشف عنه هذا البلاء ، فذكره الآخر لأيوب ، فحزن ودعا الله حينئذ فخرج لحاجة وأمسكت امرأته بيده فلما فرغ أبطأت عليه ، فأوحى الله إليه : أن

---

(١) الدر المنثور « ٥ : ٣١٥ » .

اركض[1] برجلك ، فضرب برجله الأرض ، فنبعت عين فاغتسل منهـــا فرجع صحيحاً) [2] وقد رويت القصة مطولة جداً عن وهب بن منبه ومحمد بن إسحق ؛ مما يدل على أصل هذه القصة ، وأنها مما حمله أهل الكتاب ، ثم جاء القصاص والمولعون بالغرائب فزادوا فيها وأذاعوها .. فقد ذكر بعض الباحثين أن المبالغين في ضر أيوب إنما اعتمدوا على ما جاء عند أهل الكتاب في السفر المسمى بـ (سفر أيوب) [3] .

وقد دل القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ على أن أيوب ابتلي في نفسه ، وأنه صبر حتى صار مضرب الأمثال ، قال تعالى : (إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) . فالبلاء مما لاشك فيه ، والذي ينبغي أن نعتقده أن بلاءه لم يصل إلى هذا الحد من أن جسمه أصبح قرحة ، وأنه ألقي على كناسة بني إسرائيل ، وأيوب عليه السلام أكرم على الله من أن يلقى على كناسة تختلف في جسمه الدواب ، وأن يصير قرحة ينفر الناس منها ، والأنبياء إنما يبعثون من أوساط قومهم ، فأين كانت عشيرته فتواريه وتعمل على رعايته وحفظه ، بل أين كان اتباعه والمخلصون له ؟ اللهم إن هذا لايقره عقل ولانقل يعتمد عليه .

وقد طعن في القصة السيد رشيد رضا ، فقال : (والذي عليه المسلمون ولاسيما أهـــل السنة منهم ؛ أن الله تعالى حفظ الأنبياء من العاهات المنفرة للطباع لأنها منافية لحكمة التبليغ ، وقالوا : إن هذا من أصول الايمان الواجب اعتقادها وتكذيب من خالفها [4]

---

(١) اركض : اضرب .

(٢) فتح الباري ٦ : ٤٢٢ ، وقد رواه أيضاً ابن كثير في تفسيره ٤ : ٣٩ .

(٣) انظر قصص الأنبياء : لعبد الوهاب النجــار (ص ٣٥١) ، وانظر سفر أيوب (ص ٢) .

(٤) مجلة المنار السنة الثانية العدد ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٣١٧ هـ ص ٤١١ - ٤١٢ .

ويعجبني ماقاله القاضي أبو بكر بن العربي رضي الله عنه : (ولم يصح عن أيوب في أمره الا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين : الأولى قوله تعالى : (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر) والثانية : (أني مسني الشيطان بنصب وعذاب) .

وأما النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد ، إلا قوله : (بينا أيوب يغتسل ، إذ خر عليه جراد من ذهب .. الحديث) [1] وإذا لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه . فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره ، أم على أي لسان سمعه ؟ والاسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات ، فاعرض عن سطورها بصرك ، واصمم عن سماعها أذنيك ، فإنها لاتعطي فكرك إلا خيالا ولاتزيد فؤادك إلا خبالا) [2] أ هـ

والظاهر أن مرض أيوب كان من النوع الذي يشتد ألمه ، ولا يظهر أثره على ظاهر الجلد ؛ كأمراض العظام والمفاصل ونحوها من الامراض الباطنية ، ولا يزال الناس يستشفون بمياه العيون الكبريتية من أمثال هذه الأمراض إلى يومنا هذا .

ومن ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى : (إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ..) الآية .

قال : (وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه وابن عدي ، وابن عساكر ، وابن النجار ، عن حذيفة قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج ، فقال :

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء وانظر تفسير ابن كثير (٤ : ٤٠)

(٢) تفسير القرطبي (١٥ : ٢١٠) . ليست الاسرائيليات كلها مرفوضة رفضاً باتاً كما يقول ابن العربي ، بل منها ما يقبل على البتات كالمرويات التي وافقت ما في شرعنا . ومنها ما يتوقف فيه وتجوز روايته ، ولا يرفض منها على البتات إلا ما خالف الشرع أو العقل كما بيناه سابقاً ، وقد يحمل كلام ابن العربي على خصوص ما كان من قبيل قصة أيوب المذكورة .

« يأجوج أمة ، ومأجوج أمة ، كل أمة بأربعمائة ألف أمة ، لايموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف رجل من صلبه ، كل قد حمل السلاح » قلت : يارسول الله صفهم لنا . قال : « هم ثلاثة أصناف : صنف منهم أمثال الأرز » قلت : وما الأرز ؟ قال : « شجر بالشام ، طول الشجرة عشرون ومائة ذراع في السماء» وصنف منهم عرضه وطوله سواء ، عشرون ومائة ذراع قال رسول الله ﷺ : « وهؤلاء الذين لايقوم لهم جبل ولاحديد ، وصنف منهم يفترش إحـــدى أذنيه ويلتحف بالأخرى ، لايرون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير إلا أكلوه ، ومن مات منهم أكلوه ، مقدمتهم بالشام وساقتهم بخرسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية)[1] .

وقد ذكر هذا أيضا القرطبي في تفسيره ، وهو موضوع كما قال الحافظ ابن الجوزي[2] وغيره .

١٣ ـــ السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني

التعريف بالمؤلف .

هو الامام شمس الدين محمد بن محمد الشربيني ، القاهري ، تلقى العلم عن كثير من مشايخ عصره[3] ، وكان رحمه الله على جانب عظيم من الصلاح والورع ، توفي في عصر يوم الخميس ثاني شعبان سنة سبع وسبعين وتسعمائة من الهجرة . ومن أهم مؤلفاته شرحه لكتاب المنهاج ، وكتاب التنبيه ، وهما شرحان عظيمان ، أقبل

---

(١) الدر المنثور « ٤ : ٢٥٠ »

(٢) اللآلئ المصنوعة « ١ : ٩٠ » .

(٣) منهم الشيخ أحمد البرلسي ، والنور المحلي ، والبدر المشهدي ، والشهاب الرملي ، وغيرهم .

الناس على قراءتها ، وكتابتها في حياته ، وتفسيره لكتاب الله تعالى وهو الذي نحن بصدده الآن[1] .

التعريف بالتفسير .

هذا التفسير مطبوع في أربعة أجزاء كبار ، وقد قرأت فيه فوجدته تفسيراً سهل المأخذ ، ممتع العبارة ، ليس بالطويل الممل ، ولا بالقصير المخل ، نقل فيه صاحبه بعض تفسيرات مأثورة عن بعض السلف ، كما أنه يذكر أحياناً أقوال من سبقه من المفسرين كالزمخشري ، والبيضاوي ، والبغوي ، والفخر الرازي ، حتى ليكاد يعتبر خلاصة للتفاسير التي سبقته مع الدقة والإيجاز ، ويغلب على هذا التفسير الجانب القصصي بالنسبة لغيره من بقية جوانب التفسير[2] .

موقفه من الاسرائيليات .

يذكر الخطيب الشربيني في تفسيره بعض القصص الاسرائيلي الغريب ، وذلك بدون أن يتعقب ما يذكره منه .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية ٦ من سورة النمل : (وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير . .) ألخ الآية .

نراه يروي خبراً طويلا عن كعب الأحبار فيه : أنه صاح ورشان[3] عند سليمان عليه السلام ، فقال ، أتدرون مايقول ؟ قالوا : لا . قال : إنه يقول : لدوا للموت وابنوا للخراب . وصاحت فاختة[4] . فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال : فإنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا . وصاح طاووس ،

---

(١) انظر التفسير والمفسرون « ١ : ٣٢٨ - ٣٢٩ »

(٢) التفسير والمفسرون « ١ : ٣٣٩ » وما بعدها .

(٣) نوع من الطيور يشبه الحمام .

(٤) طير يشبه الحمام أيضاً .

فقال : أتدرون ما يقول ؟ : قالوا : لا . فقال : فإنه يقول : كما تدين تدان . . إلى آخر ما ذكره من صيحات حيوانات متعددة ، ومعاني هذه الصيحات ، ثم يروي ما يشبه هذا عن مكحول وعن فرقد السبخي ، كما يروي بعد ذلك أن جماعة من اليهود ، سألوا ابن عباس عن معاني ما تقوله بعض الطيور وما كان من جواب ابن عباس عن ذلك ؛ وهو شبيه بما تقدم أيضاً ، ومع كون القصة في نهاية الغرابة والبعد ؛ فإن الخطيب يمر عليها مر الكرام ولا يعقب عليها بكلمة واحدة [1] .

— ومثلاً — عند تفسيره لقوله تعالى في الآية — ٣٤ — من سورة النمل أيضاً : (وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) .

نراه يقص لنا عن وهب بن منبه وغيره قصة غريبة ، فيها بيان نوع هدية بلقيس لسليمان ، وما كان من اختبارها له ، وما كان من سليمان عليه السلام من إجابته على ما اختبرته به ، وإظهاره لعظمة ملكه وقوة سلطانه ، بما يبعث الدهشة ويثير العجب ، ومع ذلك لا يعقب على ما رواه بكلمة واحدة [2] . وقد علقنا على هذه التزيدات فيما سبق .

ومثلاً عند تفسيره للآية ١٢٣ من سورة الصافات وهي قوله تعالى : (وإن إلياس لمن المرسلين) نراه يقول : (تنبيه) أذكر فيه شيئاً من قصته عليه السلام ، ثم يروي لنا قصة طويلة وعجيبة عن علماء السير والأخبار ، وبعد الفراغ منها لا يتعقبها بتصحيح أو تضعيف [3] .

ولكن الخطيب إن مر على مثل هذه القصص بدون أن يعقب عليها ، لا يرضى لنفسه أن يمر على قصة فيها ما يخل بمقام النبوة ، إلا بعد أن يعقب عليها بما يظهر بطلانها وعدم صحتها .

---

(١) السراج المنير « ٣ : ٤٣ — ٤٤ » .

(٢) السراج المنير « ٣ : ٥٤ — ٥٥ » .

(٣) المرجع السابق « ٣ : ٣٦٦ — ٣٦٩ » .

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى : في الآيات (٢١–٢٤) من سورة (ص) (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . .) الآيات ، نراه يذكر لنا عبارة الفخر الرازي التي ذكرها في تفسيره (١) ، لتفنيد الروايات الباطلة في هذه القصة وتقرير ماهو لائق في حق نبي الله داود عليه السلام (٢) .

١٤ — روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي

التعريف بالمؤلف .

مؤلف هذا التفسير هو العلامة ، المحقق ، شهاب الدين ، السيد محمود الآلوسي ، البغدادي ، مفتي بغداد .

ولد في سنة سبع عشرة ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية ، في جانب الكرخ من بغداد ، وقد توفي رحمه الله في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين بعد الألف من الهجرة ودفن مع أهله في مقبرة الشيخ معروف الكرخي في الكرخ .

كان رحمه الله شيخ العلماء في العراق ، جمع كثيراً من العلوم حتى أصبح علامة في المنقول والمعقول ، واشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وتخرج عليه جماعات من الفضلاء من بلاد مختلفة كثيرة .

وكان رحمه الله عالماً باختلاف المذاهب ، مطلعاً على الملل والنحل ، سلفي الاعتقاد ، شافعي المذهب ، إلا أنه في كثير من المسائل ، يقلد الإمام الأعظم ، أبا حنيفة النعمان رضي الله عنه ، وكان في آخر عمره يميل إلى الاجتهاد .

ولقد خلف — رحمه الله — للناس ثروة علمية كبيرة ، ونافعة ، فمن ذلك

---

(١) انظر صفحة ٢٩٨ – ٢٩٩ من هذا الكتاب .

(٢) السراج المنير « ٣٨٤:٣ – ٣٨٦ » .

تفسيره لكتاب الله وهو الذي نحن بصدده الآن ، وحاشيته على القطر ، وشرح السلم في المنطق ، وقد فقد . ومنها الأجوبة العراقية على الأسئلة اللاهورية ، ودرة الغواص في أوهام الناس ، والنفحات القدسية في المباحث الإمامية [1] .

التعريف بالتفسير :

هذا التفسير من أجل التفاسير وأوسعها ، وأجمعها ، نظم فيه روايات السلف بجانب آراء الخلف المقبولة ، وألف فيه بين مايفهم بطريق العبارة ، وما يفهم بطريق الإشارة .

وقد أحسن تلخيص مافي البيضاوي ، وحواشيه ، وأبي السعود من نكات وفوائد ، والآلوسي سلفي المذهب ، سني العقيدة كما قلنا . ولهذا نراه كثيراً ما ينقد آراء المعتزلة والشيعة ، وغيرهم من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهبه .

ولو أننا جمعنا ردود الآلوسي على الشيعة ، لحصلنا على مجلد كبير من ردوده العلمية المركزة ، البعيدة عن الإسراف والتعصب [2] .

وردود الآلوسي على النصارى في غاية الروعة ، فهو في محاججته لهم لايستند إلا على كتبهم وأقوالهم ، ويرتكز عليها في تفنيد عقائدهم [3] .

وتفسير الآلوسي جامع لخلاصة ماسبقه من التفاسير ، فتراه ينقل عن تفسير ابن عطية ، وتفسير أبي حيان ، وتفسير الكشاف ، وتفسير أبي السعود ، وتفسير البيضاوي ، وتفسير الفخر الرازي ، وغيرها من كتب التفسير .

ومن ميزات هذا التفسير ، أن صاحبه يمحص فيه الروايات ، ويدقق فيه

---

(١) انظر التفسير والمفسرون » ١ : ٣٥٢ – ٣٥٤ « .

(٢) انظر على سبيل المثال روح المعاني » ١ : ٣٠٧ « و » ٤ : ٣١٧ – ٣٢١ « و » ٦ : ١٩٢ – ١٩٦ « و » ١٣ : ١٠٨ « .

(٣) انظر روح المعاني » ٣ : ١٧٩ — ١٨٠ « و » ٦ : ٣٠ — ٣١ « و » ٢٢ : ١٤ «

الأخبار ، فيرفض الإسرائيليات رفضاً باتاً ، يقول الشيخ قاسم القيسي مفتي بغداد (المتوفى سنة ١٩٥٥ م) في كتابه تاريخ التفسير ما نصه : وأما تفسير العلامة الآلوسي المسمى بروح المعاني ، فليس له في الجمع والتحقيق ثاني ، اشتمل على تسع مجلدات ضخام ، حوت من الدقائق والحقائق ما لا يسع شرحه كلام . وهو خال من الأباطيل والإسرائيليات والروايات الواهية والخرافات ، وجامع للمعقول والمنقول .

موقفه من الاسرائيليات .

١ - يسمي الآلوسي أصحاب الإسرائيليات بـ (أرباب الأخبار) ولا يثق بهؤلاء الأخباريين ، ويرفض قبول رواياتهم ، ويتمنى لو لم ترد في كتب الإسلاميين ، حيث يقول في معرض تفنيده لقصة من هذه القصص التي أوردها : (ويا ليت كتب الإسلام لم تشتمل على هذه الخرافات التي لا يصدقها العاقل ، لأنها أضغاث أحلام) [١] .

ومن أمثلة ما أورده في تفسيره :

إنه عند تفسيره لقوله تعالى : (.. وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) [٢] يقول : (.. واختلف في كيفية تلقي ذلك العلم منهما ، فقال مجاهد : إنهما لا يصل إليهما أحد من الناس ، وإنما يختلف إليهما شيطانان في كل سنة اختلافة واحدة ، فيتعلمان منهما . وقيل - وهو الظاهر - أنهما كانا يباشران التعليم بأنفسهما في وقت من الأوقات ، والأقرب أنهما ليسا إذ ذاك على الصورة الملكية . وأما ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم - وصححه - والبيهقي في سننه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : قدمت عليّ امرأة من أهل دومة الجندل تبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته ،

---

(١) روح المعاني ١ : ٣٤٣ هـ .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة البقرة .

تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به . قالت : كان لي زوج غاب عني ، فدخلت على عجوز فشكوت إليها فقالت : إن فعلت ما آمرك أجعله يأتيك . فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين ، فركبت أحدهما ، وركبت هي الآخر ، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل ، فإذا أنا برجلين معلقين بأرجلهما ، فقالا : ما جاء بك ؟ فقلت : أتعلم السحر فقالا : إنما نحن فتنة فلا تكفري وارجعي ، فأبيت ، وقلت : لا . قالا : فاذهبي إلى ذلك التنور فبولي به ... إلى أن قالت : فذهبت فبلت فيه : فرأيت فارساً مقنعاً بحديد خرج مني حتى ذهب إلى السماء ، وغاب عني حتى ما أراه ، فجئتهما وذكرت لهما فقالا : صدقت ، ذلك إيمانك خرج منك) .

ويقول الآلوسي معقباً على هذه القصة : (إن اتهام هذه المرأة أولى من اتهام العقل في قبول هذه الحكاية التي لم يصح منها شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]) .

٢ – وينكر الآلوسي في موضع آخر من تفسيره الروايات التي ذكرها بعض أهل الأخبار عن ماهية البيت الحرام وقدمه ؛ فيقول عند قوله تعالى : (.. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل)[2] ما نصه : (وقد ذكر أهل الأخبار في ماهية البيت وقدمه وحدوثه ، ومن أي شيء كان باباه ؟ وكم مرة حج آدم ؟ ومن أي شيء بناه إبراهيم ؟ ومن ساعده على بنائه ؟ ومن أين جاء بالحجر الأسود ؟!!) ويعقب الآلوسي بقوله : (.. أشياء لم يتضمنها القرآن العظيم ، ولا الحديث الصحيح ، وبعضها يناقض بعضاً ، وذلك على عادتهم في نقل ما دب ودرج ، ومن مشهور ذلك : أن الكعبة أنزلت من السماء في زمان آدم ، ولها بابان إلى المشرق والمغرب ، فحج آدم من أرض الهند ، واستقبلته الملائكة أربعين

---

(١) روح المعاني « ٣٤٤:١ » .

(٢) الآية ١٢٧ من سورة البقرة .

فرسخاً ، فطاف بالبيت ودخله ، ثم رفعت في زمن طوفان نوح عليه السلام ، ثم نزلت مرة أخرى في زمن إبراهيم فزارها ، ورفع قواعدها وجعل بابها باباً واحداً ، ثم تمخض أبو قبيس فانشق عن الحجر الأسود ، وكان ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة ، نزل بها جبريل في زمان الطوفان إلى زمن إبراهيم ، فوضعه إبراهيم مكانه ، ثم اسود بملامسة النساء الحيّض .. الخ[1]) .

٣ – ويلاحظ أن الآلوسي شديد النقد للإسرائيليات التي حشا بها كثير من المفسرين تفاسيرهم وظنوها صحيحة ، مع سخرية منه أحياناً . فمثلاً عند قوله تعالى : (قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً)[2] يقول : (ونقل بعض القصاصين أن الملائكة كانت تمر عليه – أي على موسى عليه السلام – حينئذ فيلكزونه بأرجلهم ، ويقولون يابن النساء الحيض ، أطمعت في رؤية رب العزة !) ويعلق على هذا فيقول : (وهو كلام ساقط لا يعول عليه بوجه ، فإن الملائكة عليهم السلام مما يجب تبرئتهم من إهانة الكليم بالوكز بالرجل والفحش في الخطاب)[3] ويمضي الآلوسي في تفنيد مثل هذه الإسرائيليات ، فعند تفسيره لقوله تعالى في الآية ١٢ من سورة المائدة : (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ، وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً) نجده يقص علينا قصة عجيبة عن عوج بن عنق ، يرويها عن البغوي ، ولكنه بعد الفراغ منها يقول ما نصه : (وأقول : قد شاع أمر عوج عن العامة ، ونقلوا فيه حكايات شنيعة ، وفي فتاوى العلامة ابن حجر ، قال الحافظ العماد بن كثير : قصة عوج وجميع ما يحكون عنه هذيان لا أصل له ، وهو من مختلقات أهل الكتاب ، ولم يكن قط على عهد نوح عليه السلام ، ولم يسلم من الكفار أحد ، وقال ابن القيم : من الأمور التي يعرف بها كون الحديث موضوعاً أن

---

(١) روح المعاني « ١ : ٣٨٠ » .

(٢) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .

(٣) روح المعاني « ٩ : ٤٦ »

يكون مما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه كحديث عوج بن عنق . وليس العجب من جرأة من وضع هذا الحديث ، وكذب على الله تعالى ، إنما العجب ممن يدخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير ، وغيره ولا يبين أمره . ثم قال : ولا ريب أن هذا وأمثاله من صنع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء والسخرية بالرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم) [1] اهـ .

وعند تفسير قوله تعالى في الآية ٣٨ من سورة هود : (.. ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ..) الآية . نجده يروي أخباراً كثيرة في نوع الخشب الذي صنعت منه السفينة ، وفي مقدار طولها وعرضها وارتفاعها ، وفي المكان الذي صنعت فيه ، ثم يعقب على ذلك بقوله : (وسفينة الأخبار في تحقيق الحال فيما أرى — لا تصلح للركوب فيها ، إذ هي غير سالمة من عيب ، فالحري بحال من يميل إلى الفضول أن يؤمن بأنه عليه السلام ، صنع الفلك حسبما قص الله تعالى في كتابه ، ولا نخوض في مقدار طولها وعرضها وارتفاعها ، ومن أي خشب صنعها ، وبكم مدة أتم عملها ؟ إلى غير ذلك ، مما لم يشرحه الكتاب ، ولم تبينه السنة الصحيحة) [2] .

ومن هذا الباب أيضاً . رفضه لمن تكلم بالأرقام عن عمر الكون والأرض ، وما مضى منها وما بقي ، ومبدأ النشأة الإنسانية ، ومدة بقائها في هذا العالم ، وقدر زمان لبثها في هذا البرزخ يقول : (كل ذلك من المغيبات التي لا يعلمها إلا الله ، وإن جميع ما ورد فيها أمور ظنية لا سند يعول عليه لأكثرها) [3] ومنه أيضاً ، رفضه لكثير من الروايات المروية عن كيفية موت سليمان ، فقد ذكر أنها غير صحيحة وحديث خرافة) [4] .

---

(١) روح المعاني « ٦ : ٨٦ — ٨٧ » .

(٢) روح المعاني « ١٢ : ٤٥ » .

(٣) روح المعاني « ٧ : ١٣٥ » .

(٤) المرجع السابق « ٢٧ : ١٢٣ ، ١٣٤ » .

ونجد الآلوسي يشدد النكير على من يمس عصمة الأنبياء عليهم السلام فعند قوله تعالى : (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) [1] يذكر رواية الواحدي التي ذهب فيها إلى تحقيق الهم القبيح منه عليه السلام ، فيقول : معقباً عليه : (ومن أمعن النظر في الحجج وأنصف ، جزم أنه لم يبق في يد الواحدي ومن وافقه إلا مجرد التصلف وتعديد أسمــاء المفسرين ، ولم يجد معهم شبهة في دعواهم المخالفة لما شهدت له الآيات البينـات ، سوى روايات واهيات ، وبراءة المعصوم عن تلك الرذيلة ، وإحالة التقصير على الرواة أولى بالمصير إليه ، على أن أساطين النقل المتقنين لم يرووا في ذلك شيئاً مرفوعاً في كتبهم ، وجل تلك الروايات بل كلها مأخوذ من مسألة أهل الكتاب) [2] .

وعند قوله تعالى : (إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت) [3] قال : (والمراد به صندوق كان يتبرك به بنو إسرائيل فذهب منهم ، واختلف في تحقيق ذلك ، فقال أرباب الأخبار : هو صندوق أنزله الله تعالى على آدم عليه السلام ، فيه تماثيل الأنبيــاء جميعهم ، وكان من عود الشمشاذ نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين ، ولم يزل ينتقل من كريم إلى كريم ؛ حتى وصل إلى يعقوب ثم إلى بنيه ، ثم ، وثم إلى أن فسد بنو إسرائيل وعصوا بعد موسى عليه السلام ، فسلط الله تعالى عليهم العمالقة ، فأخذوه منهم ، فجعلوه في موضع البول والغائط ، فلما أراد الله تعالى أن يبعث طالوت سلط عليهم البلاء ؛ حتى إن كل من أحدث عنده ابتلي بالبواسير ، وهلكت من بلادهم خمس مدائن ، فعلموا أن ذلك بسبب استهانتهم به ، فأخرجوه وجعلوه على ثورين ، فأقبلا يسيران ، وقد وكل الله تعالى بهما أربعــة من الملائكة يسوقونها حتى أتوا طالوت . . الخ) وعلق الآلوسي

---

(١) الآية ٢٤ من سورة يوسف .

(٢) روح المعاني « ١٢ : ٢٢٥ » .

(٣) الآية ٢٤٨ من سورة البقرة .

ساخراً . . (ولم أر حديثاً صحيحاً مرفوعاً يعول عليه بفتح قفل هذا الصندوق ، ولا فكراً كذلك)[1] .

٤ — وقد تتبع الآلوسي الروايات الضعيفة والمنكرة والموضوعة ، ونبه على وضعها ، فلقد أورد مثلاً أحاديث في فضل بلاد الشام ، ثم شك فيها ، وعلق عليها بقوله : (والأحاديث في فضل الشام كثيرة ، وقد جمعها غير واحد إلا أن في الكثير منها مقالاً وسبب الوضع كان قوياً)[2] .

ومثلاً عند قوله تعـــالى : (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحيـاة الدنيا ومتعناهم إلى حين)[3] فقد روى بأنهم إلى اليوم أحياء ، سترهم الله عن أعين الناس ، وسيظهرون مع المهدي ، ويكونون من جملة أنصاره ثم يموتون . ويقول الآلوسي منتقداً ، والكل ممـا لا صحة له[4] وروي عن ابن عباس قال : كان لصاحبة سليمان — أي بلقيس — اثنا عشر ألف قيل . . وقيل كان تحت يدها أربعمائة ملك . كل ملك على كورة ، تحت كل ملك أربعمائة ألف مقاتل ، ولها ثلاثمائة وزير يدبرون ملكها ، ولهـا اثنا عشر ألف قائد كل قائد تحت يده اثنـــا عشر ألف مقاتل) ويقول الآلوسي : (وهـذه الأخبار إلى الكذب أقرب منها إلى الصدق ، ولعمري إن أرض اليمن لتكاد تضيق عن العدد الذي تضمنه الخبران الأخيران ، وليت شعري ما مقدار عدد رعيتها الباقين الذين تحتاج إلى هؤلاء العسكر والقواد والوزراء لسياستهم وضبط أمورهم وتنظيم أحوالهم)[5] .

---

(١) روح المعاني « ٢ : ١٦٨ — ١٦٩ » .

(٢) المرجع السابق « ٢ : ١٩٥ » .

(٣) الآية ٩٨ من سورة يونس .

(٤) روح المعاني « ١١ : ١٩٢ » .

(٥) روح المعاني «١٩ : ١٩٧ — ١٩٨» وانظر « ١٢ : ٥٣ — ٥٥ و ١٩٣ : ٩٧ — ٢٤٠ » .

ونجد الآلوسي أحيانا يأتي إلى بعض القصص الاسرائيلية وينكر ظاهرها ، ثم يفسرها تفسيراً إشارياً بعيداً كل البعد عن الحق وروح الاسلام ، ففي الآية الكريمة ١٠٢ من سورة البقرة : (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) الآية .. نقل قصة إسرائيلية أنكرها .. وخلاصتها : أن الملائكة تعجبت من مخالفة بني آدم وقالوا لربهم لو كنا مكانهم ماعصيناك فقال لهم : اختاروا ملكين فاختاروهما ، فهبطا إلى الأرض ،فحكما بين الناس ، فافتتنا بامرأة يقال لها زهرة ، فطلباها ، فامتنعت ؛ إلا أن يعبدا صنماً ،أو يشربا خمراً ، أو يقتلا نفساً ، ففعلا ، ثم تعلمت منهما ماصعدت به إلى السماء ، فصعدت ومسخت هذا النجم ، فأرادا العروج فلم يمكنهما ، فخيرا بين عذاب الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا ، فهما الآن يعذبان فيها !! وعلى الرغم من إنكار الآلوسي على بعض العلماء لأخذهم بظاهر القصة ، اعتبرها من الرموز والاشارات ، فقال : (يراد من الملكين العقل العملي والعقل النظري ، اللذان هما من عالم القدس ، ومن المرأة المسماة بالزهرة النفس الناطقة .. ألخ) [1]

ولا أدري — سامحه الله — كيف أعطى هذه القصة مدلولاً رمزياً وهي خرافة وهو نفسه أنكرها ظاهراً . !! عجباً للآلوسي إذا كانت القصة موجودة فكيف ينكر ظاهرها ، وإن لم تكن موجودة ، فكيف أعطاها ذلك المدلول !. والحق أن نزعة التصوف عند الآلوسي أوقعته في مثل هذه الشطحة البعيدة [2].

---

(١) روح المعاني (١ : ٣٤٠ ، ٣٤١) .

(٢) كان الآلوسي — رحمه الله — متصلا بالنقشبندية ، ودرس التصوف على شيخها خالد النقشبندي ولذلك نراه في تفسيره يتطرق في مناسبات كثيرة إلى التصوف وينقل عن كبار المتصوفين آراءهم في مختلف نواحي الحياة الروحية وغيرها كالشيخ عبد القادر الجيلاني ،والشيخ ابن عربي ، والشيخ عبدالكريم الجيلي ،والامام الغزالي ،والجنيد البغدادي ، رحمهم الله أجمعين .

(انظر روح المعاني ١/٨١ ، ١٧٠ ، ٤/١٥٥ — ١٥٦ — ٧/١٠٧ ، ١٠٨ — ١١٣ ، ٢٢ / ١٠١) .

وقريب من هذا الباب ماذكره الآلوسي في موضـــع من تفسيره قال : (اصطحب قيس بن خرشة ، وكعب الأحبار حتى إذا بلغا صفين ، وقف كعب ثم نظر ساعة ، ثم قال : ليهراقن بهذه البقعة من دماء المسلمين شيء لا يهراق ببقعة من الأرض مثله .. فقال قيس : مايدريك فإن هذا من الغيب الذي استأثر الله تعالى به ؟ فقال كعب : مامن الأرض شبراً إلامكتوب في التوراة الذي أنزل الله تعالى على موسى ، مايكون عليه ، ومايخرج منه إلى يوم القيامة) وعلـــق عليه الآلوسي بقوله : (ولعل ذكر ذلك من باب الرمز كما ندعيه في القرآن)[1] .

وقد أثار هذا التأويل الصوفي الذي ذكره الآلوسي ثائرة السيد رشيد رضا، فقال في تفسيره منددآ : (وأنا أظن أن هذا القول موضوع على كعب ، وتأول الآلوسي له هذا القول الظاهر بطلانه بالبداهة بقوله : ولعل ذلك من باب الرمز كما ندعيه في القرآن أ هـ . وماذكرت هذا إلا للتعجيب من فتنة هذه الروايات الباطلة إلى أي حد ، أو أي زمن وصل تأثيرها السيء ، حتى إن هذا النقادة قد اغتر بمثل هذا منها وتأوله . بما هو باطل مثله ، فإنه لم يصح عن أحد من أئمة المسلمين الذين يعتد بعلمهم بكتاب الله تعالى أنه ليس في العالم أوفي الأرض شبر إلا وقد كتب فيه (أي القرآن) مايقع فيه وما يخرج منه ، وإنما قال مثل هذا بعض المجازفين ، والخياليين من الصوفية على أنه من الكشف الذي يدعونه)[2] .

٥ ـ والعجيب أن الآلوسي مع رفضه الشديد للاسرائيليات يفوته أحيانا بعضها ، وينساق في تيارها ، فمثلاً عند قوله تعالى : (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ..)[3] قال : (واختلف في عدد الألواح وفي جوهرها ومقدارها ، وكاتبها ، فقيل كانت عشرة ألواح ، وقيل كانت سبعة وقيل

(١) روح المعاني (٩ : ٥٦) .

(٢) تفسير المنار (٩ : ١٩٠ ـ ١٩١)

(٣) الآية ١٤٥ من سورة الأعراف

لوحين ، وأنها كانت من زمرد أخضر ، أمر الرب تعالى جبريل عليه السلام فجاء بها من عدن ، وروى ذلك عن مجاهد ، وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج قال : أخبرت أن الألواح كانت من زبرجد ، وعن سعيد بن جبير قال : كانوا يقولون : إنها كانت من ياقوتة . وأنا أقول : إنها كانت زمرد ، وأخرج ابن أبي حاتم وغيره عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة ، كان طول اللوح اثني عشر ذراعاً » وعن الحسن أنها كانت من خشب ، نزلت من السماء ، وأن طول كل عشرة أذرع . وقيل أمر الله موسى عليه السلام بقطعها من صخرة صماء لينها له ، فقطعها بيده وشقها بأصابعه . ثم قال : والمختار عندي أنها من خشب السدر)[1] .

وقد علق السيد رشيد رضا على هذه الروايات ، فقال : (وأما تلك الروايات الكثيرة في جوهرها ، ومقدارها وطولها ، وعرضها ، وكتابتها ، وما كتب فيها فكلها من الإسرائيليات الباطلة ، التي نقلها إلى المسلمين أمثال كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، فاغتر بها بعض الصحابة والتابعين — إن صحت الروايات عنهم — وقد لخص السيوطي منها في الدر المنثور ثلاث ورقات — أي ست صفحات واسعات من القطع الكبير — وليس منها شيء يصح أن يسمى درة ، وإن كان منها أن الألواح من الياقوت أو من الزمرد أو من الزبرجد كما أن منها أنها من الحجر أو من الخشب . وقد أعجبني من الحافظ ابن كثير أنه لم يذكر من تلك الروايات على سعة اطلاعه ، وقد تبع في هذا عمدته في التفسير ابن جرير رحمهما الله تعالى ، ولكن ذكر بعضها الآلوسي من المتأخرين تبعاً لغيره)[2] .

ومثلاً عند قوله تعالى : (فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً)[3] يقول : (والمشهور أنها — أي العصا — آس من الجنة ، طولها عشرة

---

(١) روح المعاني » ٩ : ٥٧ » .

(٢) تفسير المنار » ٩ : ١٨٤ » .

(٣) الآية ٦٠ من سورة البقرة .

أذرع ، طول موسى عليه السلام ، ولها شعبتان تتقدان في الظلمة توارثها صاغراً عن كابر ، حتى وصلت إلى شعيب ، ومنه إلى موسى عليه السلام) ونقل أيضاً أن عدد بني إسرائيل أثناء التيه كان ستمائة ألف ، ماعدا دوابهم وسعة المعسكر اثني عشر ميلا) [1] أهـ والذي يدل عليه القرآن الكريم أن مقدارها كان مقداراً يصح أن يتوكأ عليها ، وأن تنقلب حية عظيمة ، ولا تكون كذلك إلا ولها قدر من الطول والغلظ ، وما زاد على ذلك فلا دلالة عليه[2] .

وإيراد الألوسي لمثل هذه الأخبار الواهية دون أن يعقب عليها ، يؤيد ما ذكرناه من قبل ، من أنه يندر أن تجد كتاباً من كتب التفسير القديمة والحديثة من الإسرائيليات .

ولقد كان أولى بالألوسي - وهو النقادة البصير - أن يتجنب الخوض في رواية الإسرائيليات إلا بمقدار مايحتاج إليه في ردها وإبطالها . ولكنا رأيناه أحياناً يروي بعض القصص الإسرائيلي ثم يعتذر عن روايته له بأنه قصد من وراء روايته لها إشباع شهوة المولعين بالأخبار وذلك حيث يقول عند تفسيره قوله تعالى : (وإذا وقع القول عليهم . . .) بعد أن ذكر روايات كثيرة في صفة الدابة ، وبعد أن أتبعها بما ذكره صاحب البحر في شأنها قال : (وإنما نقلت بعض ذلك دفعاً لشهوة من يحب الاطلاع على شيء من أخبارها صدقاً كان أو كذباً) [3] .

١٥ — تفسير المنار لرشيد رضا

التعريف بالمؤلف .

هو السيد محمد رشيد بن السيد علي رضا ، ولد في **٢٧** من جمادى الأولى سنة

---

(١) روح المعاني « ١ : ٢٧٠ » .
(٢) انظر تفسير الرازي « ٤ : ٩٥ » .
(٣) روح المعاني « ٢ : ٢٢ » .

١٢٨٢ هـ في قرية تسمى القلمون على شاطيء البحر المتوسط من جبل لبنان ، تبعد عن مدينة طرابلس الشام زهاء ثلاثة أميال [١] .

نشأ السيد محمد رشيد رضا في طرابلس الشام، وفيها تلقى العلم عن شيوخها، وأهمهم الشيخ حسين الجسر عليه رحمة الله . وقد وسع ثقافته بمطالعاته الخاصة ، فقد انتفع بكتب شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله ، وذكر أنه لا يعرف في كتب علماء السنة أنفع في الجمع بين النقل والعقل من كتبهما ، وأنه لم يطمئن قلبه بمذهب السلف تفصيلاً إلا بواسطة هذه الكتب . وقد ظل الشيخ رشيد إلى أواخر حياته يعتز بآراء هذين الإمامين ويستشهد بها ، وينقل عنها ، وطبع بعض كتبهما [٢] ، كما أنه وسع ثقافته باطلاعه على الأناجيل ، والنقل عنها والنقد لها ، ومذاكرته لأدباء النصارى ولدعاة الدين والمبشرين التابعين لجمعية الولايات المتحدة الأميركية في لبنان ، والاطلاع على كتبهم وجرائدهم [٣] .

ولقد بزغ نجم الشيخ رشيد رضا بعد هجرته إلى مصر واتصاله بالشيخ محمد عبده في رجب سنة ١٣١٥ هـ ، وكان أول اقتراح عرضه عليه أن يكتب تفسيراً للقرآن على نهج ما كان يكتب في جريدة العروة الوثقى ، وبعد أخذ ورد بين الشيخين اقتنع الأستاذ الامام بأن يقرأ دروساً في التفسير بالجامع الأزهر .

ولم يلبث إلا قليلاً حتى قام بإلقاء دروسه في التفسير على طلابه ومريديه .

---

(١) معجم المؤلفين « ٩ : ٣١٠ » ورشيد رضا الامام المجاهد ص ١٩ ، وكتاب رشيد رضا لشكيب أرسلان ص ٨١١ .

(٢) « مثل الصوفيـة والفقراء » و « قاعدة جديدة في التوسل والوسيلة » و « الاجتماع والافتراق في الحلف بالطلاق » و « خلاف الأمة في العبادات » وهـذه الكتب لابن تيمية .

(٣) انظر مجلة المنار م ١٤ ص ٤٢ وتفسير المنار « ١ : ٨٢ » وانظر : السيد رشيد رضا .. عصره وحياته وجهوده الأدبية واللغوية . رسالة دكتوراة مخطوطة في كلية الدراسات العربية في جامعة الأزهر للشيخ أحمد الشرباصي ص ٢٠٩ .

وكان الشيخ رشيد - رحمه الله - ألزم الناس لهذه الدروس ، وأحرصهم على تلقيها وضبطها ، فكان يكتب بعض ما يسمع ثم يزيد عليه بما يذكره من دروس الشيخ بعد ذلك [1] . ثم قام بنشر ما كتب على الناس في مجلة المنار .

ولهذا كله نستطيع أن نقول: إن الشيخ رشيد رضا هو الوارث الأول لعلم الأستاذ الامام ، إذ أنه أخذ عنه فوعى ما أخذ ، وألف في حياته وبعد وفاته ؛ فكان لا يحيد عن منهجه ، أو ينحرف عن أفكاره سواء في النواحي الفكرية أو السياسية أو الاجتماعية .

وكانت وفاة السيد رشيد رضا يوم الخميس ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ ،

---

(١) يحسن بنا أن نوضح طريقته في النقل عن الأستاذ الامام : فقد أخذ رشيد يكتب تفسير الأستاذ الإمام وينشره في مجلة (المنار) ابتداء من الجزء السادس من المجلد الثالث من المنار ، فنشر أولاً مقدمة التفسير وهي ما ألقاه الشيخ وأملاه في الدرس الأول ليلة الخميس غرة المحرم سنة ١٣١٧ هـ .

ويقول رشيد في تصوير طريقته في النقل عن الاستاذ الإمام :

(كنت في البداية لا أكاد أزيد على خلاصة ما يقرره في الدرس إلا قليلا ، إذ لم يكن في نيتي تجريد ما يكتب منه في المنار وجعله كتابا مستقلا ، ثم رأيت من الواجب بسط القول فيه وطبع التفسير على حدته عند سنوح الفرصة ، ففعلت بإجازته رحمه الله تعالى واستحسانه ، فكان المختصر نصف الجزء الأول من سورة البقرة ، عرضته عليه بعد ذلك فقرأه وزاد الكلام في الملائكة ، وأجاز باقي ما كتبناه كما هو ، فكأنه الذي كتبه) « تفسير المنار » ١ : ١٠ » .

ولم يتبع الشيخ رشيد طريقة واحدة في النقل عن الأستاذ الإمام ، بل اضطرب بين جملة طرق: فهو أحياناً يلخص ، وقد يفصل ويوضح ، وقد يعلق ويوثق ، وقد يزيد ويضيف ، وقد يستدرك ويعقب ، وقد ينقد ويعارض . وهو قد تنقل بين الطرق كل هذا التنقل دون علامات مميزة واضحة بين كلامه وكلام الأستاذ الإمام وكلام غيرهما ، ومن هنا ضاع بعض المعالم في تفسير الأستاذ الإمام وأصبح من العسير تجريده ، على أن الأستاذ الإمام ، كتب بعض السور بنفسه .

ودفن في قرافة المجاورين بالقاهرة بجوار ضريح الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمهما الله تعالى [1] .

التعريف بالتفسير .

تفسير المنار من أضخم آثار السيد رشيد رضا ، فقد شهر به ، وكان موضع العناية والتقدير من كثيرين [2] .

ولقد نشر الشيخ رشيد (تفسير المنار) فصولاً ومقالات في مجلة المنار . ثم عاد فطبع هذا التفسير المسمى بتفسير القرآن الحكيم والمشهور بتفسير المنار في اثني عشر جزءاً ، ابتدأ بأول القرآن ، وانتهى عند قوله تعالى في الآية (١٠١) من سورة يوسف : (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) .

---

(١) رشيد رضا الإمام المجاهد للدكتور إبراهيم العدوي ص ٢٨٢ .

(٢) فقد ألقى المستشرق الألماني (هاني لاوست) محاضرات استغرقت أربعة أشهر عن تفسير المنار في جامعة « الكولج دي فرانس » في باريس خلال العام الدراسي ١٩٥٧ - ١٩٥٨ ، كما عني به « جولد زيهر » في كتابه (مذاهب التفسير الاسلامي) .

وعني به (تشارلز آدمز) في كتابه « الإسلام والتجديد في مصر » ، التي ترجمه الأستاذ عباس محمود العقاد .

وكتب جومييه الفرنسي « دراسة بالفرنسية عن مدرسة المنار » .

أما بالنسبة إلى المؤلفين العرب : فقد كتب حول هذا التفسير فضيلة أستاذنا الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه « التفسير والمفسرون » كما كتب الدكتور عبد الله محمود شحاتة رسالة ماجستير عن منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم ، وكتب الدكتور أحمد الشرباصي رسالة دكتوراة عن (السيد رشيد رضا – صاحب المنار – عصره وحياته وجهوده الأدبية واللغوية) . وذكر الأمير شكيب أرسلان « تفسير المنار » أكثر من مرة في كتابه الذي جمع فيه رسائل رشيد رضا إليه . وكتب الدكتور إبراهيم أحمد العدوي صفحات عن هذا التفسير في كتابه (رشيد رضا الامام المجاهد) .

ثم عاجلته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن كله [1] .

منهجه .

أما منهجه فيه فهو عين ما نهجه الأستاذ الامام ، فلا تقيد بأقوال المفسرين، ولا تحكم للعقيدة في نص القرآن ، ولا خوض في إسرائيليات [2] ولا تعيين لمبهات ، بل شرح للآيات ، بأسلوب رائع ، ودفاع عن القرآن برد أكثر ما أثير حوله من شبهات ، وعناية بجوانبه اللغوية والبلاغية ، ومعالجة لأمراض المجتمع بناجع دوائه ، وبيان لسنن الله في خليقته [3] .

موقفه من الاسرائيليات .

لم يكن الشيخ رشيد رضا –كما ينم على ذلك حديثه عن تفاسير الأقدمين– كغيره من المفسرين الذين عنوا بالاسرائيليات ، فجعلوا منها شروحاً لمبهات

---

(١) كان من أصدقاء رشيد رضا العالم السوري الشيخ محمد بهجة البيطار فواصل الأستاذ البيطار تفسير سورة يوسف حتى نهايتها وقد نشر تفسير هذه السورة مستقلاً في كتاب يحمل اسم السيد رشيد رضا رحمه الله .

ولقد كتب الأستاذ البيطار مقدمته كما نشر في الجزء الثاني من المجلد الخامس والثلاثين من مجلة المنار .

ثم توقف صدور المنار وانقطع التفسير ، ثم حاول الأستاذ الشهيد حسن البنا أن يواصل التفسير ، فبدأ من حيث انتهى السيد رشيد رضا رحمه الله والأستاذ البيطار ، وكتب فصلاً تفسيرياً لجانب من سورة الرعد ، نشر في الأعداد الستة التي أصدرها من المنار ، ثم وقف المنار نهائياً عن الصدور ، فانقطع بذلك التفسير . (انظر السيد رشيد رضا « صاحب المنار ») رسالة دكتوراة مخطوطة بكلية الدراسات العربية ص ٤٤٩ ، للشيخ الشرباصي .

(٢) هكذا يزعم الشيخ رشيد ، وسنبين فيما يأتي أنه خاض – كغيره – في رواية الاسرائيليات ولكن بلون آخر .

(٣) التفسير والمفسرون (٣ : ٢٤٥) .

القرآن ؛ بل وجدناه على العكس من ذلك ينفر منهـــا ، وينعى على المفسرين التفاتهم إليها واشتغالهم بها .

يقول في مقدمة المنار :

(كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العاليـــة والهداية السامية ، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الاعراب . . وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت به من خرافات الاسرائيليات) . . إلى أن قال : (وغرضنا من هذا كله أن أكثر ما روي في التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن ، وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية ، المزكية للأنفس المنورة للعقول ، فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التي لا قيمة لها سنداً ولا موضوعاً)[1] .

وإذا نحن تتبعنا أقواله في الاسرائيليـــات ، وجدناه ينقدها نقداً مراً ، ويقسو أحياناً في حكمه على رواتها ، الذين ربما يكونون قد رووها بحسن نية أو ربما تكون موضوعة عليهم[2] .

فمثلا عند قوله تعـــالى : (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء . .) قال : (وأما تلك الروايات الكثيرة ، في جوهرها ومقدارها وطولها وعرضها وكتابتها وما كتب فيها ، كلها من الاسرائيليات الباطلة التي بثها في المسلمين أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه ، فاغتر بها بعض الصحابة والتابعين – إن صحت الروايات عنهم – وقد خص منها السيوطي في الدر المنثور ثلاث ورقات . . أي ست صفحات واسعات من القطع الكبير – وليس منها شيء يصح أن يسمى دررة[3]) .

---

(١) تفسير المنار « ١ : ٧ – ١٠ » .

(٢) اعترف رشيد رضا بالوضع على كعب الأحبار ، فقال في موضع من تفسيره : (وأنا أظن أن هذا القول موضوع على كعب) تفسير المنار « ٩ : ١٨٥ » .

(٣) تفسير المنار « ٩ : ١٨٤ » .

ومثلاً عند قوله تعالى: (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم ... الآية [1]) .

قال (.. إن ما في كتب التفسير عندنا من صفة ذلك الحجر وحجمه وشكله؛ ككونه كرأس الشاة أو أكبر، وكونه يوضع في الجوالق، أو يحمل على ثور أو حمار ، كل ذلك من الخرافات الاسرائيلية التي كانوا يتلقونها بالقبول .. وقد نقل ابن كثير مع احترامه كثيراً منها . وفي عرائس المجالس عن وهب بن منبه أن موسى كان يقرع لهم أقرب حجر فتنفجر منه عيون . فقالوا: إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً ، فأوحى الله إليه بأن يكلم الحجارة فتطيعه ، فقالوا : كيف بنا إذا مضينا إلى الأرض التي ليس فيها حجارة ؟ ، فأمر الله موسى أن يحمل معه حجراً فحيثما نزل ألقاه ... الخ ، وهذا من الخرافات التي اختلقها وهب ، وليس لها أصل عند اليهود ولا عند المسلمين، ولولا جنون الرواة بكل ما يقال عن بني إسرائيل لما قبلوا من مثله أن يشرب مئات الألوف أو الملايين من حجر صغير يحمل ، كما قبلوا من مزاعمه أن رأس الرجل من قوم هود عليه السلام كان كالقبة العظيمة !!، وقد عدوه مع أمثال هذه الخرافات ثقة في الرواية [2]) .

ونجد صاحب المنار حينما يعرض لمبهمات القرآن لا يجاوز في شرحه لهـــا ما يحتمله مضمون النص ، وهو ينعى على المفسرين الذين أفاضوا في تفاصيل قصة أو حادثة وردت في القرآن بصورة مبهمة ، لأن غالب هذه الإفاضة لا تعتمد على طريق موثوق به ، بل تعتمد غالباً على النقل من الإسرائيليات .

مثال ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى : (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) حيث قال :

---

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأعراف .

(٢) تفسير المنار « ٩ : ٣٤٣ » .

(والمراد منها هنا مضمونها من أمر ونهي . روى عكرمة عن ابن عباس ، قال : لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا إبراهيم ، ابتلاه الله بثلاثين خصلة من خصال الاسلام ، واستنبطها ابن عباس بالعدد من أربع سور ليس فيها خطاب له عليه السلام . هذا هو المتبادر ، ولكن المفسرين لم يألوا في تفسير الكلمات والخبط في تعيينها : فقال بعضهم : إنها مناسك الحج .. وزعم آخرون أن الكلمات هي الخصال العشر التي تسمى خصال الفطرة، وهي: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك ، وفرق الرأس، وتقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، والاستنجاء ، وقيل غير ذلك .

قال الأستاذ الامام عند إيراد قول المفسر (الجلال) في تفسير الكلمات أنها الخصال العشر : إن هذا من الجراءة الغريبة على القرآن ، ولا شك عندي أن هذا مما أدخله اليهود على المسلمين ليتخذوا دينهم هزوا ، وأي سخافة أشد من سخافة من يقول : إن الله تعالى ابتلى نبياً من أجل الأنبياء بمثل هذه الأمور وأثنى عليه بإتمامها ، وجعل ذلك كالتمهيد لجعله إماما للناس وأصلا لشجرة النبوة ، وإن هذه الخصال لو كلف بها صبي مميز لسهل عليه إتمامها ولم يعد ذلك منه أمراً عظيماً ..

والحق أن مثل هذا يؤخذ كما أخبر الله تعالى ولا ينبغي تعيين المراد به إلا بنص عن المعصوم [1]) .

وإذا كان الشيخ رشيد قد قاوم طوفان الخرافات والاسرائيليات والأساطير التي تسربت إلى رحاب التفسير، فإننا نراه يتجاوز الحد في ذلك حتى إنه لينكر بعض الأخبار الصحيحة ، ويزعم أنها من قبيل الاسرائيليات لمجرد غرابتها ، فمثلا طعن في قصة الجساسة والدجال ونزول عيسى وغير ذلك من أحاديث الفتن وأشراط الساعة .

---

(١) تفسير المنار « ١ : ٤٥٣ — ٤٥٤ » .

فقال : (وجملة الأقوال في حديث الجساسة أن مافيه من العلل والاختلاف والإشكال من عدة وجوه يدل على أنه مصنوع، وأنه -على تقدير صحته- ليس له كله حكم المرفوع، وكذا يقال في سائر أحاديث الدجال المشكلة [1]) وقال: (ومنه يعلم أيضا أن يد بطل هذه الاسرائيليات الأكبر كعب الأحبار قد لعبت لعبها في مسألة الدجال « في كل واد أثر من ثعلبة [2] »).

وقال أيضاً – بعد أن شكك في أحاديث الفتن وأشراط الساعة –: (فكل حديث مشكل المتن ، أو مضطرب الرواية أو مخالف لسنن الله تعالى أو لأصول الدين أو نصوصه القطعية أو للحسيات وأمثالها من القضايا اليقينية ، فهو مظنة لما ذكرنا ، فمن صدق رواية مما ذكر ولم يجد فيها إشكالا فالأصل فيها الصدق ، ومن ارتاب في شيء منها ، أو أورد عليه بعض المرتابين أو المشككين إشكالا في متونها ، فليحمله على ماذكرنا من عدم الثقة بالرواية لاحتمال كونها من دسائس الاسرائيليات أو خطأ الرواية بالمعنى ، أو غير ذلك مما أشرنا إليه [3] أهـ .

ونقول في الرد عليه :

أما حديث الجساسة فقد سبق الجواب عنه عند الكلام عن أقسام الإسرائيليات .

وأما أحاديث الدجال ونزول المسيح في آخر الزمان فهي صحيحة ، فقد أخبر النبي صلوات الله وسلامه عليه في غير ما حديث بالدجال ونزول عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان حكماً عدلاً بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، وعلى يديه يكون قتل الدجال ، وكل هذا

---

(١) تفسير المنار « ٩ : ٤٥٧ » .

(٢) المرجع السابق « ٩ : ٤٥٨ » .

(٣) المرجع السابق « ٩ : ٤٦٦ – ٤٦٧ » .

مروي من طرق متكاثرة في الصحيحين[1] وغيرهما من كتب السنة المعتمدة .

وأما قوله : (فكل حديث مشكل المتن أو مضطرب الرواية أو مخالف لسنن الله ... الخ) فهو كلام حق في ذاته ، وقد قاله المحققون في الأمارات التي تعرف بها الأحاديث الموضوعة ، ولكن الخطأ إنما يعرض في التطبيق ، فما يكون مشكلاً عنده لا يكون مشكلاً عند آخر ، وما يتراءى لبعض الناس أنه مخالف للسنن الكونية ، قد لا يكون مخالفاً عند التحقيق والتدقيق ، وما يعتبره البعض مخالفاً للقطعي أو للحس قد لا يعتبره الآخر كذلك ، وكثيراً ما تستبعد بعض العقول أموراً ليست من إلفها وتراها من قبيل المستحيلات ، ثم لا تلبث أن تتحقق هذه الأمور المستبعدة وتصبح من الأمور المألوفة ، ولو أنكرها أو استبعدها أحد اليوم لعد في زمرة المجانين كما أشرنا إلى ذلك من قبل . ومن ثمَّ دخلت المغاليط الكثيرة على السيد رشيد رضا وغيره ممن عرضوا لنقد الحديث ، وذلك لأنهم جعلوا جل غايتهم التزييف والهدم ، فمن ثمَّ تلمسوا أوهى الأسباب وركبوا كل صعب في سبيل إظهار بعض الأحاديث بمظهر المخالف لما ذكر ، أما العلماء المحققون المتثبتون فقد احتاطوا غاية الاحتياط في التطبيق وتأنوا في الحكم بالمخالفة ، فمن ثمَّ جاءت أحكامهم على الأحاديث ورواتها صائبة ، والعجيب أن السيد محمد رشيد رضا يناقض نفسه بطعنه في مثل هذه الأحاديث الصحيحة ، فقد أشار إلى خطأ من يقول : إن الدليل العقلي هو الأصل فيرد إليه الدليل السمعي؛ ويجب تأويله لأجل موافقته له مطلقاً ، ويعلق على هذا بقوله : (والحق كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية : أن كلاً من الدليلين إما قطعي وإما غير قطعي ، فالقطعيان لا يمكن أن يتعارضا ، حتى نرجح أحدهما على الآخر ، وإذا تعارض ظني من كل منهما مع قطعي وجب ترجيح القطعي مطلقاً ، وإذا تعارض ظني مع ظني من كل منهما رجحنا المنقول على المعقول ، لأن ما ندركه بغلبة الظن من

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي « ١٦ : ٥٨ — ٧٨ » وانظر صحيح البخاري كتاب الفتن — باب ذكر الدجال « ٩ : ٧٤ — ٧٦ »

كلام الله ورسوله أولى بالاتباع مما ندركه بغلبة الظن من نظرياتنا العقلية التي يكثر فيها الخطأ جداً[1]) .

ومثلاً عند قوله تعالى : (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ، فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون[2]) .

أورد تفسير الجلال للآية ما رواه الإمام البخاري في (كتاب التفسير) في معنى الآية ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا : حطة . حبة في شعرة) أهـ . ولكن الشيخ رشيد لم يرتض هذا القول المروي في أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى ، فعلق عليه بقوله : (ومنشأ هذه الأقوال الروايات الإسرائيلية ، ولليهود في هذا المقام كلام كثير ، وتأويلات خدع بها المفسرون ولا نجيز حشوها في تفسير كلام الله تعالى . وأقول : إن ما اختاره الجلال مروي في الصحيح ولكنه لا يخلو من علة إسرائيلية[3]) .

وصاحب المنار كان مع شدة لومه على المفسرين الذين يزجون بالإسرائيليات في تفاسيرهم ويتخذون منها شروحاً لكتاب الله ؛ نجده أحياناً ينقل عن الكتاب المقدس أخباراً يفسر بها بعض مجملات القرآن ومبهماته ، أو يرد بها على أقوال بعض المفسرين ، ولو كان تفسيرهم للآية بما هو مروي في الصحيح ، أو يستدل

---

(١) تفسير المنار « ١ : ٢٥٣ » وانظر دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين ص ٢٣٣ .

(٢) الآية ٥٨ من سورة البقرة .

(٣) تفسير المنار « ١ : ٣١٤ » وانظر تفسير الجلالين ص٩ طبعة المطبعة السعيدية سنة ١٩٣٨ .

بمخالفة نصوص التوراة المتداولة لما رواه كعب ووهب أو خلوها مما قالاه على كذبهما واختلاقهما ، بالرغم من أنه يعترف بأن التحريف والتبديل في كتب أهل الكتاب قد استمر حتى عصرنا هذا ، وأن بعض الأقوال موضوع على كعب !.

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ... الآية) ذكر بعض الأقوال في تفسير الطوفان ولكنه لم يرتضها ، وإنما ارتضى ما جاء في سفر الخروج الذي فسّر الطوفان بالمطر والبرد . قال: (جاء في الفصل التاسع من سفر الخروج ؛ ثم قال الرب لموسى بكّر في الغداة ، وقف بين يدي فرعون وقل له : كذا قال الرب إله العبرانيين ، أطلق شعبي ليعبدوني ، فإني في هذه المرة منزّل جميع ضرباتي على قلبك وعلى عبيدك وشعبك لكي تعلم أنه ليس مثلي في جميع الأرض ، وأنا الآن أمد يدي وأضربك أنت وشعبك بالوباء ، فتضمحل من الأرض ، غير أني لهذا أبقيك لكي أريك قوتي ، ولكي يخبروا باسمي في جميع الأرض وأنت لم تزل مقاوماً لشعبي ، ها أنا ممطر في هذا الوقت من غد برداً عظيماً جداً لم يكن مثله في مصر منذ يوم أسست إلى الآن) .

ثم ذكر وقوع البرد من نار من السماء ، ووصف عظمته وشموله لجميع بلاد مصر ، وأن فرعون طلب موسى وهارون واعترف لها بخطئه ، وطلب منهما أن يشفعا إلى الرب ليكف هذه النكبة عن مصر ، ووعدهما بإطلاق بني إسرائيل ، وقال في ختام ذلك : فخرج موسى من المدينة من لدن فرعون وبسط يديه إلى الرب ، فكفت الرعود والبرق ولم يعد المطر يهطل على الأرض[1] .

ثم عاد السيد رشيد عند قوله تعالى : (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا . ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على

---

(١) تفسير المنار ٩ : ٨٨ – ٨٩ .

أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم[1]) فقال :

هذا وإن في قصة موسى وهارون في سفر الخروج مايفسر استجابة هـــذا الدعاء بما يوافق ماقلناه هنا من إرسال الله النوازل على مصر وأهلها ولجوء فرعون إلى موسى عند كل نازلة منها ؛ ليدعو ربه فيكشفها عنهم حتى إذا ما كشفها قسّى الرب قلب فرعون ، فأصر على كفره ، وقد فصلنا هذا في تفسير قوله : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ... الآية) . . ومنه نعلم أن كل ماخالفها من أقوال المفسرين في معنى الطمس على أموالهم فهو من أباطيل الروايات الإسرائيلية التي كان من مقاصد كعب الأحبار وأمثاله منها — كما نرى — صد اليهود عن الإسلام بما يرويه في تفسير المسلمين للقرآن مخالفاً لما هو متفق عليه عندهم[2] .

ولا أدري كيف ساغ للشيخ رشيد أن يقول : (ومنه نعلم أن كل ماخالفها — أي التوراة — من أقوال المفسرين فهو من أباطيل الروايات الإسرائيلية التي كان من مقاصد كعب ... الخ) وهو الذي أطال القول في بيان تحريف التوراة والإنجيل ، فكيف جعل الآية[3] معصومة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؟ وأن كل ماخالفها من أقوال المفسرين فهو باطل ! ألا يجوز أن يكون كعب قد اطلع على غير التوراة من كتب اليهود عما لم يطلع عليه السيد رشيد رضا فرواه لنا كما قرأه ؟

وهل التوراة المتداولة اليوم هي نفس التوراة التي كانت بيد كعب ؟! .

ومثلاً عند تفسير قوله تعالى : (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) . قال : (وفي سفر الخروج من تاريخ التوراة أن

---

(١) الآية ٨٨ من سورة يونس .

(٢) تفسير المنار « ١١ : ٤٧٤ » .

(٣) أي آية التوراة المتداولة اليوم .

الله تعالى أنبأ موسى بأنه يقسي قلب فرعون ، فلا يخفف العذاب عن بني إسرائيل ، ولا يرسلهم مع موسى ، حتى يريه آياته وأنه بعد الدعوة زاد ظلماً وعتواً ، فأمر الذين يسخرون بني إسرائيل في الأعمال الشاقة بأن يزيدوا في القسوة عليهم ، وأن يمنعوهم من التبن الذي كانوا يعطونهم إياه لعمل اللبن — الطوب — ويكلفوهم أن يجمعوا التبن ويعملوا كل ما كانوا يعملون من اللبن ، لا يخفف عنهم منه شيء فأعطى الله تعالى موسى وأخاه هارون من الآيات البينات ، فحاول فرعون معارضتها بسحر السحرة ، فلما آمن السحرة برب العالمين — رب موسى وهارون لعلمهم أن ما جاءا به ليس من السحر ، وإنما هو تأييد من الله تعالى ، ورأى ما رأى بعد ذلك من آيات الله لموسى ، سمح بخروج بني إسرائيل ، بل طردهم طرداً ، وفي سفر الخروج أنهم خرجوا في شهر أبيب ، وكانت إقامتهم في مصر ٤٣٠ سنة [١] .

ومثلا عند تفسير قوله تعالى : (وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا : أتتخذنا هزوا ؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) قال :

(وإن ما أشار إليه الأستاذ من حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة هو في أول الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ، ونصه :

١ — إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعاً في الحقل لا يعلم من قتله .

٢ — يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التي حول القتيل .

٣ — فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها ولم تجر بالنير .

٤ — وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة في الوادي .

---

(١) تفسير المنار ج ١ : ٣٢٤ — ٣٢٥ .

٥ – ثم يتقدم الكهنة – بنو لاوي – لأنه إياهم اختار الرب إلهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة .

٦ – ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبون من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادي .

٧ – ويصرخون ويقولون : أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر .

٨ – اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يارب ، ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك إسرائيل ؛ فيغفر لهم . أهـ .

فعلم من هذا أن الأمر بذبح البقرة كان لفصل النزاع في واقعة قتل . . . وأما قوله : (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) . . فهو بيان لإخراج ماكنتم تكتمون ، ويروون في هذا الضرب روايات كثيرة ، قيل إن المراد اضربوا المقتول بلسانها ، وقيل بذنبها ، وقالوا إنهم ضربوه فعادت إليه الحياة ، وقال : قتلني أخي أو ابن أخي فلان إلى آخـــر ماقالوه . والآية ليست نصاً في مجمله فكيف بتفصيله ؛ والظاهر مما قدمنا : (يقصد عبارة التوراة التي ذكرها) أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل ، إذا وجد القتيل قرب بلد ، ولم يعرف قاتله ؛ ليعرف الجاني من غيره فمن غسل يده وفعل مارسم لذلك في الشريعة برىء من الدم ، ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية ، ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس ، أي يحييها بمثل هـــذه الأحكام وهذا الإحيـــاء على حـــد قوله تعالى : (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) . وقوله : (ولكم في القصاص حيـــاة) فالإحيـــاء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين . ثم قال (ويريكم آياته) بما يفصل بها في الخصومات ، ويزيل

من أسباب الفتن والعداوات فهو كقوله : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله [1]) .

وأكثر مايستعمل مثل هذا التفسير في آيات الله في خلقه الدالة على صدق رسله [2]) .

ونحن — والحق يقال — في حيرة شديدة من تصرف الأستاذ رشيد ، ذلك أنه اعتبر ماجاء في التوراة ثابتاً صحيحاً معتمداً يجوز صرف القرآن عن ظاهره وتأويله على مقتضاه ؛ مع الإعراض عما أجمع عليه المفسرون !

فقد نقل ابن جرير الطبري التفسير المشهور لهذه القصة بأسانيده عن أرباب التأويل ومنهم حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٥ ٧ : ٢٥١ ، أن قصة البقرة أوردها آدم ابن أبي إياس في تفسيره قال : حدثنا أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قال : كان رجل من بني إسرائيل غنياً ، ولم يكن له ولد ، وكان له قريب وارث ، فقتله ليرثه ، ثم ألقاه على مجمع الطريق ، وأتى موسى فقال : إن قريبي قتل وأتى إليّ أمر عظيم ، وإني لا أجد أحداً يبين لي قاتله غيرك يا نبي الله ، فنادى موسى في الناس : من كان عنده علم من هذا فليبينه ، فلم يكن عندهم علم ، فأوحى الله إليه قل لهم : فليذبحوا بقرة فعجبوا وقالوا : كيف نطلب معرفة من قتل هذا القتيل فنؤمر بذبح بقرة؟ وكان ما قصه الله تعالى : (قال : إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر) يعني لا هرمة ولا صغيرة (عوان بين ذلك) أي نصف بين البكر والهرمة (قالوا ادع لنا ربك يبين ما هي . . . الآية) (قال : إنه يقول : إنها بقرة لا ذلول) أي لم يذلها العمل (تثير الأرض) يعني ليست بذلول فتثير الأرض (ولا تسقي

---

(١) الآية ١٠٥ من سورة النساء .

(٢) تفسير المنار ١ : ٣٤٦ – ٣٥٩ .

الحوت) يقول : ولاتعمل في الحرث (مُسَلَّمة) أي من العيوب (لاشِيَة فيها) أي لا بياض ، (قالوا الآن جئت بالحق) قال : ولو أن القوم حين أُمروا بذبح بقرة اشتروا أي بقرة كانت لأجزأت عنهم ؛ ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم ، ولولا أنهم استثنوا ، فقالوا : (وإنا إن شاء الله لمهتدون) لما اهتدوا إليها أبداً ، فبلغنا أنهم لم يجدوها إلاعند عجوز ، فأغلت عليهم في الثمن ، فقال لهم موسى : أنتم شددتم على أنفسكم ، فأعطوها ما سألت ، فذبحوها ، وأخذوا عظماً منها ، فضربوا به القتيل ، فعاش فسمّى لهم قاتله ، ثم مات مكانه ، فأخذ قاتله وهو قريبه الذي كان يريد أن يرثه ، فقتله الله على أسوأ عمله. ثم قال الحافظ ابن حجر : وأخرج ابن جرير هذه القصة مطولة من طريق العوفي ، عن ابن عباس ، ومن طريق السُّدّي ، كذلك وأخرجها هو وابن أبي حاتم ، وعبد بن حميد بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين عن عَبيدة بن عمرو السلماني أحد كبار التابعين [1] .

ونقول أخيراً للسيد رشيد :

إن مبالغته في تحكيم العقل جعله يستبعد حصول مثل هذه المعجزة لسيدنا موسى عليه السلام؛ فمن ثَمّ أول الآية لصالح التوراة! ولا أدري كيف خفي عنه — وهو المدافع عن الإسلام — أنه يوجد في هذا الزمن نوع من الإلحاد خفي المدى، وهو تأويل كل آية أو حديث صحيح يدل على معجزة رسول من الرسل ، حتى يكون مفادها أمراً غير خارق للعادة . وهذا النوع أخطر أنواع الإلحاد ؛ لأنه سبيل إلى إنكار الأديان السماوية ، وإلى هدمها من أساسها ، لأن أساس إثباتها المعجزات التي أجراها الله تعالى على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام .

ويعجبني ما قاله الشيخ محمود شلتوت رحمه الله في كتابه تفسير القرآن الكريم رداً على الشيخ رشيد رضا وأستاذه الإمام : (. . هذا صنيعها ؛ وبذلك يتبين أنها توافقا على أن الآيات مسوقة لبيان حكم تشريعي لا لبيان حادث

---

(١) فتح الباري « ٧ : ٢٥١ » .

تاريخي ، ولكننا إذا نظرنا إلى النص في هـذه الآيات وما ذيل الكلام به من قوله تعالى : (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة [1]) . وجدنا هذا النص إن لم يمنع من الحمل على إرادة الحكم التشريعي ، فلا أقل من أن يبعده إبعاداً ، وذلك بأن كلمة (اضربوه) واضحة في أن يضرب المقتول ببعض البقرة المذبوحة ، وليس في الكلام إشارة تتعلق بالقاتل الخفي ولا إشارة إلى غسل أيدي أهل الحي من دماء البقرة ، وقوله تعالى : (كذلك يحيي الله الموتى) يدل على أن الإحياء المشبه به — وهو الإحياء في هذا المقام — إحياء حقيقي بعد موت تسلب فيه الروح ، وليس إحياء حكمياً يحصل بمعرفة القاتل والاقتصاص منه حتى يكون بمثابة : (ولكم في القصاص حياة) كما يريد الشيخان . ولو كان الأمر كما يقرران لما صح تقرير إحياء الموتى للبعث والجزاء ، بهذا النوع من الإحيـــاء الحكمي المجازي ، ولو أن قائلا قال : إن الله يحيي النفوس الجاهلة بالعلم وكذلك يحيي الموتى من قبورهم ؛ لما كان مثل هذا التشبيه والقياس سائغاً ، وإن قوله تعالى : (ويريكم آياته) لواضح في الإراءة البصرية للآيات الكونيـة ، لا في الإراءة العقلية للأحكام الشرعية ، حتى يكون من قبيل (لتحكم بين الناس بما أراك الله) وإن قوله بعد ذلك : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) ليدل على أنهم رأوا حالة مادية من شأنها أن تؤثر في النفوس ومن شأن القلوب أن ترق لها ، وأن تتجرد من القسوة والعناد عنها ، ومع ذلك لقد قسوا واشتدت قسوتهم ، وكانت قلوبهم كالحجارة أو أشد ، وكل هـذا لا يتفق وما يريده الشيخان من حمل الآية على المعنى التشريعي ، فهذا الحمل تأويل منهما ؛ لكنه تأويل لا تساعد عليه اللغة وما هو المعهود من كلام العرب [2]) .

---

(١) الآيتان ٧٣ — ٧٤ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت رحمه الله » ص ٤٤ — ٤٥ .

الباب الرابع

الفصل الأول

موازنة بين الإسرائيليات في كتب التفسير
وبين مصادرها في أسفار أهل الكتاب

يجدر بنا بعد أن أوردنا نماذج من الاسرائيليات في كتب التفسير أن نعقد موازنة بينها وبين ماوقع تحت أيدينا من أسفار أهل الكتاب ؛ ليتبين لنامصدرها فلا نغتر بها وإن ذكرت في كتب التفسير المعتبرة .

١ – **ففي قصة داودمع زوجة أوريا:** جاء في الإصحاحين الحادي عشر والثاني عشر من سفر صموئيل الثاني : (وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك ، فرأى من على السطح امرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة المنظرجداً ، فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد : أليست هذه « بتشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي » فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثهـــا ، ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة ، فأرسلت وأخبرت داود وقالت : إني حبلى ، فأرسل داود إلى يؤاب يقول : أرسل إلي أوريا الحثي ، فأرسل يؤاب أوريا إلى داود ، فأتى أوريا إليه ، قـال

داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب ، وقال داود لأوريا : انزل إلى بيتك واغسل رجليك ، فخرج أوريا من بيت الملك ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته ، فأخبروا داود قائلين : لم ينزل أوريا إلى بيته ، فقال داود لأوريا : لماذا لم تنزل إلى بيتك ؟ فقال أوريا لداود : إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام ، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي ؟ وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر ، فقال داود لأوريا : أقم هنا اليوم أيضاً وغداً أتركك ، فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره ، وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده وإلى بيته لم ينزل ، وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا وكتب في المكتوب يقول : اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت . وكان يوآب محاصر المدينة فجعل أوريا في الموقع الذي علم أن رجال البأس فيه ، فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب ، وسقط بعض الشعب من عبيد داود ، ومات أوريا الحثي أيضاً ، فلما سمعت امرأة أوريا أنه مات أوريا رجلها ، ندبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً .

ويختم الإصحاح بقوله: (وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب[1]) .

---

(١) هنالك نصوص أخرى في التوراة تناقض ما جاء في هذه القصة ، فمثلاً جاء في سفر صموئيل الثاني في الإصحاح الثاني والعشرين على لسان داود قوله : (يكافئني الرب حسب بري ، حسب طهارة يدي ، يرد علي لأني حفظت طرق الرب ولم أعص إلهي لأن جميع أحكامه أمامي ، فرائضه لا أحيد عنها) . وهذا السفر يقول عنه اليهود إنه كتب بالإلهام وهو واجب التسليم وكل ما فيه صدق عندهم ومحال أن يكون الزنا من البر واتباع وصايا الله والمحافظة على شريعته . ووردت نصوص أخرى في هذا المعنى في الإصحاح الثالث من الملوك الأول وفي الإصحاح السادس من أخبار الأيام الثاني .

وقد نقل مقاتل بن سليمان وغيره من المفسرين هذه الفرية على سيدنا داود عليه السلام من كتب أهل الكتاب فقال : (مكث داود عليه السلام ما شاء الله عز وجل يصوم نصف الدهر ويقوم نصف الليل ، إذ صلى في المحراب فجاء طير حسن ملون فوقع إليه ، فتناوله فصار إلى الكوة ، فقام ليأخذه فوقع الطير في بستان فأشرف داود فرأى امرأة تغتسل ، فتعجب من حسنها ، وأبصرت المرأة ظله فنفضت شعرها فغطت جسمها فزاده ذلك بها عجباً ودخلت المرأة منزلها ، وبعث داود غلاماً في أثرها ، فإذا بتسامع امرأة أوريا بن حنان ، وزوجها في الغزو في بعث البلقاء الذي بالشام مع ثواب بن صوريا ابن أخت داود عليه السلام، فكتب داود عليه السلام إلى ابن أخته بعزيمة ، أن يقدم أوريا فيقاتل أهل البلقاء ولا يرجع حتى يفتحها أو يقتل، فقدمه فقتل رحمه الله. فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود فولدت له سليمان بن داود [1]) أهـ .

وأظنك ترى الشبه واضحاً بين ما ورد في كتب العهد القديم في سفر صموئيل وما ورد في تفسير مقاتل ، فليس هنالك اختلاف بين القصتين سوى أن سفر صموئيل اتهم داود بالزنا مع امرأة أوريا، وأن مقاتلاً جعله يحتال على قتل زوجها ليظفر بها . وكلاهما افتراء على نبي من أنبياء الله الذين وصمتهم كتب اليهود بالنقائص واتهمتهم بالزنى وشرب الخمر وارتكاب الكبائر .

ويمكن إرجاع هذا الاختلاف في هذه القصة وفي غيرها مما سنعرض له إلى أمور منها :

أ — تعدد ترجمة التوراة على مر العصور ، فمثلاً نجد ابن قتيبة في كتابه « المعارف » يقارن بين ما يرويه وهب بن منبه من التوراة وبين التوراة المترجمة الموجودة بين يديه ويبين أحياناً ما بينهما من خلاف [2] .

---

(١) تفسير مقاتل « ج ٢ : ١٢٦٦ — ١٢٦٨ » .

(٢) انظر المعارف لابن قتيبة « ص ٩ — ١٠ — ١٢ — ١٥ — ١٦ » .

وقد لمسنا مثل هـــذا الاختلاف عندما قارنا بين ما نقله ابن إسحق من نصوص التوراة ، وبين ما يقابلها من نصوص التوراة المتداولة اليوم [1] .

ب - ومنها أن هذه الإسرائيليـــات المبثوثة في كتب التفسير ليس مصدرهـــا التوراة فقط ؛ بـل إن كثيراً منها روي ونقل عن شـروح التوراة وغيرها من كتب اليهود .

ج - ومنها تصرف رواة الإسرائيليات من المسلمين فيها : إما بتلطيف بعض عباراتها ، وتغيير ما جاء فيها مما يتنافى مع الأصول الشرعية ، فمثلاً قصة أوريا اتهم سفر صموئيل داود فيها بالزنا ؛ بينما جاءت هـذه القصة في بعض كتب التفسير ملطفة ، فصاحب الكشاف يقول فيها : كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته ، وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها ، وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك ، فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقـــال له أوريا فأحبها ، فسأله النزول عنها ، فاستحيا أن يرده فتزوجها وهي أم سليمان . . . وقيل خطبها أوريا ثم خطبها داود فآثره أهلها . . . الخ [2]) .

فأنت ترى أن الزمخشري يرتضي قصة النزول عن الزوجة ، وقصة الخطبة على الخطبة ، ولا يرى ذلك إخلالاً بعصمة داود ولا مساساً بمقام النبوة ، ويستشهد على ذلك بما كان من تنازل الأنصار للمهاجرين عن أزواجهم في مبـــدأ الهجرة ، ويرى أن الآية تـدل على ذلك [3] ، وقد سبق أن عقبنا على هـــذا التكلف من الكشاف بما يناسبه .

---

(١) انظر تفسير الطـــبري « ١٠ : ١٨٢ - ١٨٣ » وقارن بسفر العـــدد الإصحاح الرابع عشر .

(٢) الكشاف « ٢ : ٢٧٩ - ٢٨٠ » .

(٣) التفسير والمفسرون « ١ : ٤٨٠ » .

وإما أن يأتي الاختلاف في الروايات الإسرائيلية من تزيدات القصاص ، ومجيئهم بالغرائب ، وإكثارهم من الرقائق بقصد استمالة وجوه العامة استدراراً لما في أيديهم . ومن ذلك ما رواه ابن جرير عن السُّدي وغيره في صفة الجبارين . فقد ذكر أن أحدهم أخذ اثني عشر من بني إسرائيل ، فجعلهم في حجزته — موضع الإزار — وكان يدخل في كم الواحد منهم اثنان . وذكر في صفة فاكهتهم : أن عنقود العنب الواحد لا يستطيع حمله أقل من خمسة أنفس ، وأن الرمانة كانت من سعة الحجم بحيث يستطيع خمسة أنفس أو أربعة أن يدخلوا في شطرها إذا نزع حبها[1] .

وقد جاء في الإصحاح الثالث عشر من سفر العدد صفة هؤلاء الجبارين ، وصفة فاكهتهم ولكن بدون هذه المبالغة ، فقد جاء في السفر المذكور ما نصه : (وقد رأينا هناك الجبابرة — بني عناق — فكنا في أعينهم كالجراد ... إلى أن قال : وأتوا — أي النقباء الاثنا عشر الذين أرسلهم موسى إلى أرض الجبابرة ليتجسسوا أخبارهم — إلى وادي أشكول وقطفوا من هناك زرجونة[2] بعنقود واحد من العنب وحملوه بالدقرانة[3] بين اثنين مع شيء من الرمان والتين .. وبمقارنة النصين يتبين كيف كان يبالغ هؤلاء القصاص .

٢ — وفي قصة ابتلاء الله لأيوب عليه السلام : جاء في الإصحاح الثاني من سفر أيوب ما نصه : وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب ، وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم ليمثل أمام الرب . فقال الرب للشيطان : هل جعلت قلبك على عبدي أيوب ، لأنه ليس مثله في الأرض رجل كامل ومستقيم ، ويتقي الله ويحيد عن الشر ، وإلى الآن هو متمسك بكماله . ها هو في يدك ولكن احفظ

---

(١) جامع البيان « ١١١:١٠ — ١١٧ » .

(٢) الزرجونة : القضيب من شجر الكرم .

(٣) الدقرانة : خشبة يعرش بها الكرم .

نفسه . فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح رديء من قدميه إلى هامته ، فأخذ لنفسه شقفة[1] ليحتك بها وهو جالس في وسط الرماد ... الخ .

وقد أورد السيوطي في تفسيره الدر المنثور رواية في تصوير ضر أيوب مقاربة لما ورد في سفر أيوب فقال : (إن الشيطان عرج إلى السماء ، قال : يارب سلطني على أيوب عليه السلام ، قال الله : قد سلطتك على ماله وولده ولم أسلطك على جسده .. ثم خرج – أي الشيطان – إلى السماء فقال : أي رب إنه قد اعتصم ، فسلطني عليه ، فإني لا أستطيعه إلا بسلطانك . قال : قد سلطتك على جسده ولم أسلطك على قلبه ، فنزل فنفخ تحت قدمه نفخة قرّح ما بين قدميه إلى قرنه ، فصار قرحة واحدة ، وأُلقي على الرماد حتى بدا حجاب قلبه ...[2]) .

وروى ابن جرير عن وهب بن منبه ، قال : (.. فوجد – أي إبليس لعنه الله – أيوب ساجداً .. فأتاه من قبل الأرض في موضع وجهه ، فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده ، فترهل ، ونبتت ثآليل مثل أليات الغنم . ووقعت فيه حكة لا يملكها ، فحك بأظافره حتى سقطت كلها ، ثم حك بالعظام ، وحك بالحجارة الخشنة وبقطع المسوح الخشنة ، فلم يزل يحكه حتى نقد لحمه وتقطع ، ولما نغل جلد أيوب وتغير وأنتن أخرجه أهل القرية فجعلوه على تل وقيل على مزبلة – وجعلوا له عريشاً ورفضه خلق الله غير امرأته .. الخ[3])

ويلاحظ أن الروايتين قد اتفقتا فيما أصاب أيوب عليه السلام من مرض منفر مخل بعصمة الأنبياء ، وزادت روايات التفسير على رواية التوراة في مبالغتها في تصوير ضر أيوب .

---

(١) شقفة : فخارة .

(٢) الدر المنثور « ٥ : ٣١٦ » . وجاء في دائرة المعارف الإسلامية م٣ تحت مادة أيوب : (وحكى كتاب المسلمين عن أيوب حكايات كثيرة أخذوا مادتها من سفر أيوب ، ومن تفسير اليهود للتوراة المسمى (هجاده) ووصف كعب الأحبار حتى شكل أيوب .

(٣) تفسير الطبري « ١٧ : ٤٥ » .

٣ - وفي صفة آدم وعوج بن عنق ذكر في التلمود بعض المبالغات المكذوبة والخرافات، فعن آدم ذكر أنه كان طويلاً جداً فكانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء [١]، وعن عوج بن عنق ذكر أنه نجا من الطوفان لأنه سار بجانب سفينة نوح. وكان يتغذى كل يوم بألفي ثور ومثلها من الطيور، ويشرب ألف صاع من الماء تقريباً.

ومن أخباره أنه لما اقترب من عاصمة جيش بني إسرائيل الجوار، اقتلع جبلاً مساحته ثلاثة فراسخ، وحمله على رأسه، وذهب لمقابلة الجيش، فسلط الله على الجبل نملاً كانت تقرضه بأسنانها، حتى حفر فيه حفراً موصلاً لرأس الملك، فسقط الجبل حول عنقه على هيئة طوق، فانتهز موسى الفرصة وحضر ومعه بلطة طولها عشرة أذرع، وقفز في الهواء بعلو عشرة أذرع، وضرب رأس الملك، فقضى عليه .... الخ [٢].

وقد ذكر مثل هذه الأقوال بعض المفسرين، فقد ذكر الثعلبي أن آدم لما أهبطه الله إلى الأرض، كادت رأسه تمس السماء لطوله حتى صلع ... الخ [٣].

وذكر القرطبي: أن عوج بن عنق نجا من الغرق لأن طوفان نوح عليه السلام لم يجاوز ركبتيه .. وأنه قلع صخرة على قدر عسكر موسى ليرضخهم بها، فبعث الله طائراً فنقرها، ووقعت في عنقه فصرعته. وأقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع، وترقى في السماء عشرة أذرع فما أصاب إلا كعبه وهو مصروع، فقتله [٤].

---

(١) من التلمود « ص ٣٥ ».

(٢) المرجع السابق « ص ٣٦ ».

(٣) تفسير الثعلبي « ١ ورقة ١٠٦ ».

(٤) تفسير القرطبي « ١٦ : ١٢٦ - ١٢٧ ».

وقد اتفقت رواية القرطبي مع رواية التوراة في بيان كيفية مصرع عوج على يد موسى عليه السلام ، وزادت رواية التلمود بمبالغتها في صفة آدم وعوج .

ه وفي قصة سفينة نوح جاء في سفر التكوين ذكر حجم السفينة ، ومن ركب فيها ، وكيفية جريانها بعد حدوث الطوفان ، فقال السفر مانصه : (اصنع لنفسك فلكاً من خشب جُفْر [1] تجعل الفلك مساكن ، وتطليه من داخل وخارج بالقار ، وهكذا تصنعه ثلثمائة ذراع يكون طول الفلك ، وخمسين ذراعاً عرضه ، وثلاثين ذراعاً ارتفاعه ، وتصنع كوى للفلك ، وتصنع باب الفلك في جانبه مساكن سفلية ، ومتوسطة ، وعلوية ، تجعله .... ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله [2]) ثم قال : (وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة ، في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك ... وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء خمس عشرة ذراعا في الارتفاع [3]) .

وقد روى مثل هذا القول الثعلبي في تفسيره ، فذكر نوع خشب السفينة ومقدار طولها وعرضها وارتفاعها قال : (كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات : طبقة فيها الدواب والوحوش ، وطبقة فيها الطير ، وطبقة فيها الانس [4]) ثم روى عن قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب عدد من ركب في السفينة فقال : (لم يكن في السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة أولاد له : سام ويافث وحام ونساؤهم ، فجميع من كان في السفينة ثمانية [5]) .

ونلاحظ أن هــــذه الرواية مع مطابقتها لنص سفر التكوين إلا أن قوله

---

(١) هو خشب الساج « نوع من أنواع الخشب » .

(٢) ، (٣) سفر التكوين الاصحاح السادس وما بعده .

(٤) ، (٥) تفسير الثعلبي « ٤ : ورقة ٥٠ » .

تعالى : (ونجني ومن معي من المؤمنين) يدل على أن من ركب معه غير أهله طائفة ممن آمن به .

وكذلك روى مثل ذلك القرطبي في تفسيره وزاد على الثعلبي بيان مقدار ارتفاع الماء عند الطوفان ، فقال : (وجاء في التفسير أن الماء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعاً [1] ، وهذا موافق لنص التوراة .

ثم نقل الثعلبي عن التوراة فقال : (ويزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج وأن يصنعه أزور [2] ، وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه ، وأن يجعله كهيئة الديك ، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً ، وعرضه خمسين ذراعاً ، وبابه في عرضه ، وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً ، والذراع إلى المنكب ، وأن يجعله ثلاث طبقات : سفلى ووسطى وعليا ، وأن يجعل فيها كوى ، ففعل نوح كما أمره الله [3] .

ويلاحظ أن مانقله الثعلبي من التوراة يخالف ما نقلناه منها ؛ وهذا يدل على مانبهنا إليه من قبل من أن التوراة تختلف من عصر إلى عصر بفعل الترجمة وغيرها.

ه — وفي قصة خلق آدم وزوجه وخروجهما من الجنة ، جاء في سفر التكوين في الإصحاحين الثاني والثالث ما نصه : (وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية ، وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً ، ووضع هناك آدم الذي جبله ، وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر ، وجيدة للأكل ، وشجرة الحياة في وسط الجنة ، وشجرة معرفة الخير والشر ... وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ... وأوصى الرب الإله آدم قائلاً : من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً ، وأما شجرة معرفة الخير والشر

---

(١) تفسير القرطبي « ٩ : ٣٨ » وانظر « ٩ : ٣٦ — ٣٧ » .

(٢) أزور : له زور كزور الطير . والزور الصدر .

(٣) تفسير الثعلبي « ٤ : ورقة ٦ » .

فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت ، وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فأصنع له معيناً نظيره .. فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام ، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً . وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة ، وأحضرها إلى آدم ، فقال آدم : هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأنها من امرىء أخذت . وكانت الحية أحيل حيوانات البرية التي عملها الرب الإله ، فقالت للمرأة : أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ فقالت المرأة للحية : من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا ، فقالت الحية للمرأة : لن تموتا ، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما ، وتكونان كالله عارفين الخير والشر . فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ، وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً منها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر ، وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة ، فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت ، فقال من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها ؟ فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت ، فقال الرب الإله للمرأة : ما هذا الذي فعلت ؟ فقالت المرأة : الحية أغوتني فأكلت ، فقال الرب الإله للحية : لأنك فعلت هذا ملعونة من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين ، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها ، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه . وقال : للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حياتك ، بالوجع تلدين أولاداً .. وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ؛ ملعونة الأرض بسببك ، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ، وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل ... الخ) .

ونقرأ في تفسير الطبري ، فنراه يروي لنا عن وهب بن منبه وابن إسحاق وغيرهما بعض ماورد في سفر التكوين ، فيقول : (فبعث ملك الموت .. فأخذ من وجه الأرض وخلط ، فلم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ؛ فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ... إلى أن قال : ثم ألقى السنة على آدم — فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة — ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحماً ، وآدم نائم لم يهب من نومته ،حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء ، فسواها امرأة ليسكن إليها . فلما كشف عنه السنة وهب من نومه ، رآها إلى جنبه فقال .. فيما يزعمون والله أعلم — لحمي ودمي وزوجتي فسكن إليها [1] . وعن وهب بن منبه قال : (لما أسكن الله آدم وذريته ونهاه عن الشجرة ، وكانت غصونها متشعب بعضها في بعض وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم ، وهي الثمرة التي نهى الله آدم عنها وزوجته ، فلما أراد إبليس أن يستزلهما ، دخل في جوف الحية ، وكانت للحية أربع قوائم كأنها بختية ، من أحسن دابة خلقها الله — فلما دخلت الحية الجنة ، خرج من جوفها إبليس ، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته ، فجاء بها إلى حواء ، فقال : انظري إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها ، وأحسن لونها . فأخذت حواء فأكلت منها ثم ذهبت إلى آدم ، فأكل منها فبدت لهما سوآتهما ، فدخل آدم في جوف الشجرة ، فناداه ربه : يا آدم أين أنت ؟ قال: أنا هنا يارب ، قال : ألا تخرج ؟ قال : أستحي منك يارب ، قال : ملعونة الأرض التي خلقت منها لعنة يتحول ثمرها شوكاً .. ثم قال : ياحواء أنت التي غررت عبدي فإنك لا تحملين حملاً إلا حملته كرهاً ، فإذا أردت أن تضعي مافي بطنك أشرفت على الموت مراراً . وقال للحية : أنت التي دخل الملعون في جوفك حتى غر عبدي ، ملعونة أنت لعنة تتحول قوائمك في بطنك ، ولا يكون لك رزق إلا التراب . أنت عدوة بني آدم وهم أعداؤك ، حيث لقيت أحداً منهم أخذت بعقبه ، وحيث لقيك شدخ رأسك [2]) .

---

(١) تفسير الطبري « ١ : ٤٥٩ ، ٤٥٩ » .
(٢) تفسير الطبري « ١ : ٥٢٥ — ٥٢٦ » .

ويلاحظ أن رواية الطبري وافقت نص التوراة في كيفية خلق حواء وتعبها بنسلها وعداوة الحية لنسل آدم . . الخ وخالفته بزيادة أن إبليس دخل الجنة بواسطة الحية لإغواء حواء ؛ بينما جعلت التوراة الحية هي التي أغوت حواء . وقد ورد عن النصارى ما يوافق رواية الطبري : أي أن إبليس دخل في الحية وتوسل بها إلى إغواء حواء [١] . كما يلاحظ في نص التوراة أيضاً أن الذي دل حواء على الأكل من الشجرة هي الحية ، وليس فيها ذكر لإبليس . قال الحافظ ابن كثير معقباً على ذلك : (وهذا الذي في التوراة التي بأيديهم غلط منهم وتحريف وخطأ في التعريب ، فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يكاد يتيسر لكل أحد ؛ ولا سيما ممن لا يعرف كلام العرب جيداً ، ولا يحيط علماً بفهم كتابه أيضاً ، فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظاً ومعنى [٢]) .

٦ – وفي قصة الذبيح يذكر لنا الإصحاح الثاني والعشرون من سفر التكوين أنه كان إسحق لا إسماعيل ، فيقول ما نصه : (. . وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم ، فقال له يا إبراهيم . قال ها أنذا ، فقال : خذ ابنك وحيدك الذي تحبه ، إسحق ، . . إلخ) .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الذبيح هو إسحاق ، فقد روى القرطبي في تفسيره عن سعيد بن جبير ، قال : (أُري إبراهيم ذبح إسحق في المنام ، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة حتى أتى به المنحر من منى . فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن يذبح الكبش ، فذبحه وسار به مسيرة شهر في روحة واحدة طويت له الأودية والجبال [٣]) .

قال الحافظ ابن كثير معقباً : (الظاهر من القرآن بل كأنه نص على أن

---

(١) تفسير المنار « ٨ : ٣٥٦ » .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير « ١ : ٧٨ » .

(٣) تفسير القرطبي « ١٥ : ١٠٠ » .

الذبيح هو إسماعيل ؛ لأنه ذكر قصة الذبيح ، ثم قال بعده : «وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين[1]» ومن جعله حالاً فقد تكلف . ومستنده أنه إسحق إنما هو من الإسرائيليات وكتابهم فيه تحريف ، ولا سيما ههنا قطعاً لا محيد عنه . فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه «وحيده» وفي نسخة من المعربة «بكره» إسحاق . فلفظة إسحاق ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة ؛ لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر ؛ ذاك إسماعيل. وإنما حملهم على هذا حسد العرب ، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإسحاق والد يعقوب وهو إسرائيل الذين ينتسبون إليه ، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم، فحرفوا كلام الله ، وزادوا فيه وهم قوم بُهْت . ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . وممن قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم ، وإنما أخذوه — والله أعلم — من كعب الأحبار أو صحف أهل الكتاب ، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ، ولا يفهم هـــذا من القرآن بل المفهوم ، بل المنطوق ، بل النص على التأمل ، على أنه إسماعيل . وما أحسن ما استدل محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيـــل وليس بإسحاق من قوله : « فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب» قال : فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له . هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة والله أعلم[2]) .

٧ — وفي خرافة مصارعة يعقوب للإله ، نصت التوراة على أن يعقوب التقى في بعض أسفاره بالرب في الطريق فتصارعا إلى الصباح، وكاد يعقوب يغلبه، ولكن اعتراه عرق النسا ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُقَّ فخذه ، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه وقال : (أطلقني لأنه قد طلع الفجر ، فقال : لا أطلقك إن لم تباركني فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب ، فقال ، لا يدعى

(١) الآية ١١٢ من سورة الصافات .

(٢) البداية والنهاية « ١ : ١٥٩ » .

اسمك فيما بعد يعقوب، بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال : أخبرني باسمك . فقال : لماذا تسأل عن اسمي ؟ وباركه هناك فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً : لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يخمع على فخذه ، لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا على حق الفخذ إلى هذا اليوم، لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا[1] أهـ) .

وقد روى السيوطي في الدر المنثور عدة روايات مستقاة من الاسرائيليات فقال: (وأخرج عبد بن حميد عن أبي مجلز في قوله: « إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » قال : إن إسرائيل هو يعقوب ، وكان رجلاً بطيشاً ، فلقي ملكاً فعالجه ، فصرعه الملك ، ثم ضرب على فخذه فلما رأى يعقوب ما صنع به ، بطش به ، فقال : ما أنا بتاركك حتى تسميني اسماً ، فسماه إسرائيل ، فلم يزل يوجعه ذلك العرق حتى حرمه من كل دابة[2]) . .

وقد عقب الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله : (أما قول الجلال وغيره : إن يعقوب كان به عرق النسا فنذر إن شفي لا يأكل لحم الإبل؛ فهو دسيسة من اليهود، وقيل إنه نذر أنه لا يأكل هذا العرق) ، ثم أورد نص عبارة التوراة السابقة .

وقال صاحب المنار معلقاً : (وكل ذلك من الإسرائيليات وصحة السند في بعضها عن ابن عباس أو غيره — كما زعم الحاكم — لا يمنع أن يكون مصدرها إسرائيلياً . والأقرب ما قاله الأستاذ الإمام ، لأنه هو الذي تقوم به الحجة لا سيما عند المطلع على التوراة . ولو أريد بإسرائيل يعقوب نفسه ، لما كان هناك حاجة إلى قوله : (من قبل أن تنزل التوراة) لأن زمن يعقوب سابق على نزول التوراة سبقاً لا يشتبه فيه، فيحترس عنه . . والمتبادر عندي : أن المراد بما حرمه إسرائيل

---

(١) سفر التكوين الاصحاح الثاني والثلاثون .

(٢) الدر المنثور « ٢ : ٥٢ »

على نفسه ما امتنعوا عن أكله ، وحرموه على أنفسهم بحكم العادة والتقليد ؛ لا بحكم من الله كما يعهد مثل ذلك في جميع الأمم . ومنه تحريم العرب البحائر والسوائب وغير ذلك مما حكاه القرآن عنهم في سورتي المائدة والأنعام [1] .

٨ – وفي العهد الجديد يقول يوحنا اللاهوتي في الاصحاح الرابع من رؤياه : (... وحول العرش أربعة حيوانات ... والحيوان الأول شبه أسد ، والحيوان الثاني شبه عجل ، والحيوان الثالث له وجه مثل وجه الإنسان ، والحيوان الرابع شبه نسر طائر) .

وجاء في تفسير مقاتل لآية الكرسي ما يأتي : (يحمل الكرسي أربعة أملاك : ملك وجهه على صورة الإنسان وهو سيد الصور ، وملك وجهه على صورة سيد الأنعام وهو الثور ، وملك وجهه على صورة سيد الطير وهو النسر ، وملك على صورة سيد السباع وهو الأسد [2]) .

وهكذا يتضح لنا من هذه الموازنة أن كثيراً من الإسرائيليات المبثوثة في كتب التفسير منقولة بنصها من أسفار أهل الكتاب ، مع وجود اختلاف يسير بين النصين أحيانا مرجعه إلى تعدد ترجمة التوراة وتزيدات القصاص والوضاعين ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

* * *

(١) تفسير المنار « ٩ : ٤٠ » .

(٢) تفسير مقاتل « ١ : ١٢١ - ١٢٢ » .

الفصل الثاني

المستشرقون والإسرائيليات

لما هاجمت الجيوش الصليبية بلاد الإسلام كانت مدفوعة إلى ذلك بدافعين :

الأول : دافع الدين والعصبية العمياء التي أثارها رجال الكنيسة في شعوب أوربا مفترين على المسلمين أبشع المفتريات ، محرضين النصارى أشد تحريض على تخليص مهد المسيح من أيدي الكفار (أي المسلمين) ؛ فكان جمهرة المقاتلين من جيوش الصليبين من هؤلاء الذين أخرجتهم العصبية الدينية من ديارهم عن حسن نية ، وقوة عقيدة ، إلى حيث يلاقون الموت والقتل والتشريد حملة بعد حملة ، وجيشاً بعد جيش .

الثاني : دافع سياسي استعماري ، فلقد سمع ملوك أوربا بما تتمتع به بلاد الاسلام ، وخاصة بلاد الشام وما حولها من طمأنينة ومدنية وحضارة لا عهد لهم بمثلها ، كما سمعوا الشيء الكثير عن ثرواتها ومصانعها وأراضيها الخصبة الجميلة ، فجاؤوا يقودون جيوشهم باسم المسيح ، وما في نفوسهم — في الحق — إلا الرغبة في الاستعمار والفتح والاستئثار بخيرات المسلمين وثرواتهم .

وشاء الله أن ترتد الحملات الصليبية كلها مدحورة بعد حروب دامت مائتي سنة ، وأن يقضى على الإمارات التي استولوا عليها ، وأن ترجع هذه الحملات إلى ديارها تحمل في قلوبها الحسرة ، وفي جباههـا الهزيمة . ولكنها في الواقع كانت

تحمل في عقولها شيئاً من نور الإسلام ، وفي أيديها ثمار الحضارة التي كانت بلادهم محرومة منها .

وإذا كانت الشعوب الأوربية قد رضيت من الغنيمة بالإياب ، فإن ملوكها وأمراءها رجعوا مصممين على الاستيلاء على هذه البلاد مهما طال الزمن وكثرت التكاليف ، ورأوا بعد الإخفاق في الاستيلاء عليها عسكرياً ؛ أن يتجهوا إلى دراسة شئونها وعقائدها تمهيداً لغزوها ثقافياً وفكرياً ، ومن هنا كانت النواة الأولى لجمعيات المستشرقين التي مازالت تواصل عملها حتى اليوم ، والتي كانت في عهد قريب تتألف من رجال الدين المسيحي أو اليهودي الذين هم — ولا شك — أشد الناس كرهاً للإسلام ، وتعصباً عليه .

ولئن كان فريق من العلماء المنصفين قد غزا هذا الوسط التبشيري المتعصب فعني بالدراسات العربية والإسلامية في جو يتسم أكثره بالإنصاف ؛ إلا أنه لايزال — حتى اليوم — أكثر الذين يشتغلون منهم بهذه الدراسات من رجال الدين الذين يعنون بتحريف الإسلام ، وتشويه جماله ، أو من رجال الاستعمار الذين يعنون ببلبلة أفكار الأمة الإسلامية في ثقافتها ، وتشويه حضارتها في أذهان المسلمين . وتتسم بحوث هؤلاء بالظواهر الآتية :

١ — سوء الظن بكل مايتصل بالاسلام في أهدافه ومقاصده .

٢ — سوء الظن برجال المسلمين وعلمائهم وعظمائهم .

٣ — تصوير المجتمع الإسلامي في مختلف العصور — وخاصة في العصر الأول — بمجتمع متفكك تقتل الأنانية رجاله وعظماءه .

٤ — تصوير الحضارة الإسلامية تصويراً دون الواقع بكثير ، تهويناً لشأنها واحتقاراً لآثارها .

٥ – الجهل بطبيعة المجتمع الإسلامي على حقيقته ؛ والحكم عليه من خلال مايعرفه هؤلاء المستشرقون من أخلاق شعوبهم وعادات بلادهم .

٦ – إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم ، والتحكم فيما يرفضونه ويقبلونه من النصوص .

٧ – تحريفهم للنصوص في كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً ، وإساءتهم فهم العبارات حين لا يجدون مجالاً للتحريف .

٨ – تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها، فهم ينقلون مثلاً من كتب الأدب مايحكمون به في تاريخ الحديث ، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه ، ويصححون ماينقله (الدميري) في كتاب (حياة الحيوان) ويكذبون مايرويه (مالك) في (الموطأ) .. كل ذلك انسياقاً مع الهوى ، وانحرافاً عن الحق .

بهذه الروح التي أوضحنا خصائصها بحثوا في كل مايتصل بالاسلام والمسلمين من تاريخ ، وفقه ، وحديث ، وتفسير ، وأدب ، وحضارة . وقد أتاح لهم تشجيع حكوماتهم، ووفرة المصادر بين أيديهم، وتفرغهم للدراسة، واختصاص كل واحد منهم بفن أو ناحية من نواحي ذلك الفن، يفرغ له جهده في حياته كلها، ساعدهم ذلك كله على أن يصبغوا بحوثهم بصبغة علمية ، وأن يحيطوا بثروة من الكتب والنصوص مالم يحط به كثير من علمائنا اليوم الذين يعيشون في مجتمع مضطرب في سياسته وثروته وأوضاعه ، فلا يجدون متسعاً للتفرغ لما يتفرغ له أولئك المستشرقون . وكان من أثر ذلك أن أصبحت كتبهم وبحوثهم مرجعاً للمثقفين منا ثقافة غربية ، والملمين بلغات أجنبية . وقد خدع أكثر هؤلاء المثقفين ببحوثهم واعتقدوا بقدرتهم العلمية ، وإخلاصهم للحق . . ! وجروا وراء آرائهم ينقلونها كما هي ، ومنهم من يفاخر بأخذها عنهم، ومنهم من يلبسها ثوباً إسلامياً جديداً [١] !

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي للأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله ص ٣٦٤ – ٣٦٦ .

ننتقل من هذه المقدمة الضرورية إلى بيان موقف المستشرقين من الإسرائيليات .

لقد نظر هؤلاء المستشرقون في كتب الحديث ، والتفسير ، والتاريخ ، وراحوا يتصيدون ما فيها من روايات واهية ، وإسرائيليات مدسوسة ، بقصد تشويه الاسلام ، متظاهرين بمظهر البحث العلمي البريء ، ولم يكلفوا أنفسهم مؤونة البحث عن مدى قربها أو بعدها عن الصواب ، فوجدناهم يحيطون القرآن الكريم بإرجاف هائل يستمد عناصره من الإسرائيليات القديمة ، وتزيدوا فيها ما شاء لهم هواهم ؛ حتى رأينا منهم لوناً جديداً من الاسرائيليات في هذه التآليف التي يصورونها عن الاسلام ونبي الاسلام وأحكام الاسلام [1] .

---

(١) يهدف المستشرقون من وراء ذلك إلى خلق التخاذل الروحي ، وإيجاد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة ، وحملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للتوجيهات الغربية ..

والمستشرقين نشاط غريب في إصدار المجلات والنشرات والكتب ، ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار « دائرة المعارف الاسلامية » بعدة لغات ، وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التي صدرت بها الدائرة وقد بدؤوا في الوقت الحاضر في إصدار طبعة جديدة تظهر في أجزاء . ومصدر الخطورة في هذا العمل هو أن المستشرقين عبأوا كل قواهم وأقلامهم لاصدار هذه الدائرة وهي مرجع لكثير من المسلمين في دراساتهم على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الاسلام والمسلمين .

وليس نشاط المستشرقين موجهاً فقط إلى المسلمين ، إنهم يفتحون عيونهم لكل الاتجاهات ، وهم يقظون لكل حركة قد تعوق سيرهم أو تفسد خططهم ، فإن حاول أحدهم أن يبدو محايداً ، أو يتخفف من أثقال التعصب تجد بقية المستشرقين يهبون في وجهه يطالبونه بأن يكون (موضوعياً) ، وأن يستخدم الطريقة العلمية ويلجأ إلى النقد ذي المستوى العالي وهكذا .. ولا يعرف العقل ولا المنطق حداً لما يقوم به المستشرقون من تحريف التاريخ الاسلامي وتشويه لمبادىء الاسلام وثقافته ، وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله ، وكذلك يجاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذي لعبه الاسلام في تاريخ الثقافة الانسانية . إن المستشرقين جميعاً فيهم قدر مشترك في هذا الجانب ، والتفاوت — إن وجد بينهم — إنما هو في الدرجة فقط فبعضهم أكثر تعصباً ضد الاسلام ، وعداوة له من البعض الآخر ، ولكن يصدق عليهم جميعاً أنهم أعداؤه . وإذا كان الاستشراق قام على =

وساورد فيما يلي أمثلة من مفتريات المستشرقين وتلاميذهم ، ثم أرد عليها .

١ ـ قصة الغرانيق :

قال المستشرق (يوسف شاخت) في دائرة المعارف الاسلامية تحت مادة « أصول » مانصه :

(إن أول مصادر الشرع في الاسلام وأكثرها قيمة هو الكتاب ، وليس هناك من شك في قطعية ثبوته وتنزهه عن الخطأ على الرغم من إمكان سعي الشيطان لتخليطه) ، ثم استشهد بقوله تعالى في الآية ٥١ من سورة الحج :(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله مايلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) أهـ .

ونرد هذا الزعم الباطل ، فنقول :

إن كلامه متناقض ، فبينما يعترف بقطعية ثبوت القرآن الكريم ، وتنزهه عن الخطأ ، إذ به يقول : (على الرغم من إمكان سعي الشيطان لتخليطه) ، واستشهاده بالآية لإثبات تخليط الشيطان يدل على عدم فهمه لمعناها الصحيح ، واعتماده هو وغيره [1] على ماجاء في بعض كتب التفسير من روايات في سبب

= أكتاف الرهبان والمبشرين أول الأمر ثم اتصل من بعدهم بالمستعمرين، فإنه مازال حتى اليوم يعتمد على هؤلاء وأولئك ولو أن أكثرهم يكرهون أن تتكشف حقيقتهم ويؤثرون أن يختفوا وراء مختلف العناوين والأسماء .

(انظر كتاب « المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الاسلام » للدكتور محمد البهي ص ١٢ وما بعدها) .

(١) انظر كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية للمستشرق بروكلمان ص ٣٧ ، وكتاب الاسلام لألفريد جيوم ص ٣٥ ـ ٣٦ حيث صرح هذان المستشرقان باعتمادهما على ماجاء في كتب التفسير من روايات لا أساس لها من الصحة ، وقد ذكرا هذه الروايات لإثبات زعمهما .

نزول الآية : فقد روى السيوطي في الدر ، قال : أخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة (النجم) فلما بلغ هذا الموضع : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى . قالوا ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا ، ثم جاء جبريل بعد ذلك قال : اعرض علي ما جئتك به ، فلما بلغ تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ، قال جبريل : لم آتك بهذا ، هذا من الشيطان ، فأنزل الله (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ... الآية [١]) .

وأخرج البزار ، والطبراني ، وابن مردويه بسند رجاله ثقات من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) . تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ففرح المشركون بذلك وقالوا : قد ذكر آلهتنا ، فجاء جبريل فقال : اقرأ علي ما جئتك به ، فقرأ أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ، فقال : ما آتيتك بهذا ، هذا من الشيطان . فأنزل الله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى .. إلى آخر الآية [٢] اهـ .

وهذا الطريق وطريقان آخران مرسلان عند ابن جرير هما معتمد المثبتين للقصة كابن جرير والسيوطي .

هذه هي قصة الغرانيق التي تصيدها المستشرقون ووقفوا يؤيدونها طويلاً لأنهم وجدوا فيها بغيتهم في الطعن في الإسلام . والقصة ظاهرة التهافت ينقضها قليل من التمحيص ، وقد تولاها العلماء بالنقد والهدم منذ عهد محمد بن إسحق في

---

(١) الدر المنثور « ٣٦٦:٤ » .
(٢) نفس المصدر « ٣٦٦:٤ » .

القرن الثاني الهجري إلى عهد الأستاذ الإمام محمد عبده في القرن الرابع عشر ، وقالوها بصنوف مختلفة من التوهين الحاطم .

أ ـ **نقدوا سندها نقداً مراً** ، إذ سئل عنها محمد بن إسحق (المتوفى سنة ١٥٠ هـ) فقال : هذا من وضع الزنادقة ، وصنف في نقضها كتاباً [١] . وقال البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل . ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم .

وقال أبو حيان في تفسيره : (وليس في الصحاح ولا في التصانيف الحديثة شيء مما ذكروه . فيجب اطراحه ولذلك نزهت كتابي عن ذكره فيه [٢] ، وقال القاضي عياض في الشفاء : (إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ؛ وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب والمتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال : لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير ، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته ، واضطراب رواياته ، وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته فقائل يقول : إنه في الصلاة ، وآخر يقول : قالها في نادي قومه ، حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول : قالها وقد أصابته سنة ، وآخر يقول : بل حدث نفسه فسها ، وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه وإن النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا قرأت . . . إلى غير ذلك من اختلاف الرواة ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين ، ولم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب . وأكثر الطرق عنها فيهم ضعيفة واهية [٣]) .

---

(١) انظر البحر المحيط لأبي حيان « ٦ : ٣٨١ » .

(٢) البحر المحيط « ٦ : ٣٨١ » .

(٣) الشفاء للقاضي عياض « ٢ : ١١٧ » وما بعدها طبعة عثمانية .

ومع ما سمعنا من قول المحققين في القصة ؛ فقد حكمت الصنعة والقواعد على الحافظ ابن حجر فصحح القصة ، وجعل لها أصلاً ، قال في الفتح [1] في تفسير سورة الحج بعد ما ساق الطرق الكثيرة : (وكلها — سوى طريق سعيد بن جبير — إما ضعيف وإما منقطع ؛ لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً مع أن لها طريقين آخرين مرسلين رجالها على شرط الصحيحين؛ أحدهما : ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب : حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فذكر نحوه . والثاني : ما أخرجه أيضاً من طريق المعتمر بن سليمان وحماد بن سلمة فرقهما عن داود بن أبي هند عن أبي العالية) .

ثم قال الإمام ابن حجر : (وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر وهي قوله : ألقى الشيطان على لسانه ، تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ، فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره لأنه يستحيل عليه صلى الله عليه وسلم أن يزيد في القرآن عمداً ما ليس منه ، وكذا سهواً إذا كان مغايراً لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته . وقد سلك العلماء في ذلك مسالك . . وبعد أن ذكرها رجح منها هذا المسلك : (وقيل كان صلى الله عليه وسلم يرتل القرآن فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ، ونطق بتلك الكلمة محاكياً نغمته بحيث سمعه من دنا ، فظنها من قوله وأشاعها ، قال : وهذا أحسن الوجوه [2]) .

والذي أجيب به على الحافظ من جعله لهذه القصة أصلا والاحتجاج بالمرسل فيها وتأويله لها ما يلي :

١ — إن جمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل وجعلوه من قسم الضعيف لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابي ، وحينئذ يحتمل أن يكون ثقة ، وغير ثقة فلا يؤمن أن يكون كذاباً . والإمام مسلم قال في مقدمة صحيحه : (والمرسل

(١) فتح الباري « ١٠ : ٥٤ » طبعة الحلبي .

(٢) فتح الباري « ١٠ : ٥٥ » طبعة الحلبي .

في أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجة) وذكر نحواً من ذلك ابن الصلاح في مقدمته [١]) .

٢ – الاحتجاج بالمرسل – عند من يحتج به – إنما هو في الفرعيات التي يكفي فيها الظن ، أما الاحتجاج به على إثبات شيء يصـــادم العقيدة ، وينافي دليل العصمة فغير مُسَلَّم .

٣ – ضعف هذا التأويل الذي ارتضاه الحافظ عند النظر والتأمل ، فهو يوقع متأوله فيما فر منه ، وفتح هذا الباب خطر على الرسالات .

والحق أن نسج القصة مهما تأول فيها المتأولون مهلهل متداع لا يثبت أمام البحث ، وأن أغلب البلاء دخل على الاسلام من المراسيل والمنقطعات . قال الشيخ محمد عبده رحمه الله : (إن العصمة من العقائد التي يطلب فيها اليقين ، فالحديث الذي يفيد خرقها ونقضها لايقبل على أي وجه جاء ، وقد عد الأصوليون الخبر الذي يدل على تلك الصفة من الأخبار التي يجب القطع بكذبها . هذا لو فرض اتصال الحديث فما ظنك بالمراسيل ، وإنما الخلاف في الاحتجاج بالمرسل ، وعدم الاحتجاج به فيما هو من قبيل الأعمال وفروع الأحكام لا في أصول العقائد ومعاقد الإيمان بالرسل وماجاؤوا به ، فهي هفوة من ابن حجر يغفرها الله له [٢]) .

ب – كذلك نقدوا متن القصة في نواح مختلفة منها :

١ – مصادمة القصة للقرآن : فإن ما أفادته هذه الروايات المرسلة المهلهلة مخالف لقوله تعالى : { إن عبادي ليس لك عليهم سلطان } ، وقوله : { إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون } ، وقوله : { ولو تقوّل علينـــا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين } ، وقوله : { وما ينطق

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ٥٨ .

(٢) تفسير الفاتحة مع ثلاث مقالات تفسيرية للشيخ محمد عبده (المقالة الثالثة : مسألة الغرانيق ص ٨٥ – ٨٦) .

عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى) ، وقوله : (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ) ، (وقوله إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

٢ — سياق سورة النجم يأبى القصة : فالسياق يجري بقوله تعالى : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى . أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) ، وهذا السياق صريح في أن اللات والعزى أسماء سماها المشركون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان ، فكيف يحتمل أن يجري السياق بما يأتي : (أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى — تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قسمة ضيزى إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) ، إن هذا السياق المشتمل على الدس والتزيد فيه من الفساد والاضطراب والتناقض ، ومن مدح اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وذمها في أربع آيات متعاقبة ، ما لا يلتئم به عقل ولا يقول به إنسان ولا تبقى معه شبهة في أن حديث الغرانيق مفترى وضعه الزنادقة لغاياتهم ، وصدقه من يستسيغون كل غريب ، ولو كان بعيداً عن العقل والمنطق .

وحجة أخرى ساقها الشيخ محمد عبده رحمه الله حيث كتب بفند قصة الغرانيق فقال : (وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق لم يرد في نظمهم ولا في خطبهم ، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم ، وإنما ورد (الغرنوق) و (الغرنيق) على أنه اسم لطائر مائي أسود وأبيض ، والشاب الأبيض الجميل . ولا شيء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب[١]) .

---

(١) مجلة المنار العدد الثالث ، السنة الرابعة ، وانظر تفسير الفاتحة مع ثلاث مقالات تفسيرية للشيخ محمد عبده (المقالة الثانية : مسألة الغرانيق ص ٩٩) طبعة مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣١٩ هـ .

٣ — مناقضتها للعصمة : فقد قام الدليل القطعي وأجمعت الأمة على عصمته عليه الصلاة والسلام . وكل ما جاءت به الروايات الباطلة يمتنع في حقه أن يقوله من قبل نفسه عمداً أو سهواً لمكان العصمة . قال القاضي عياض : (وقد قررنا بالبراهين والإجماع على عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على قلبه أو لسانه ، لا عمداً ولا سهواً . وأن يتشبه عليه ما يلقيه الملك بما يلقيه الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقوّل على الله — لاعمداً ولاسهواً — ما لم ينزل عليه ، وقد قال الله تعالى : (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ... الآية)، وقال تعالى : (إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ... الآية[1]) أهـ . ولو جاز شيء من ذلك لذهبت الثقة بالأنبياء ، ووجد المارقون سبيلاً للتشكيك في الأديان .

٤ — بعض الروايات ذكرت أن فيها نزل قوله تعالى : (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً) .

فهاتان الآيتان تردان القصة ، لأن الله ذكر أنهم كادوا يفتنونه ولولا أنه ثبته لكاد يركن إليهم ، ومعنى ذلك : أن الله عصمه وثبته حتى لم يكد يركن إليهم . وقد انتفى قرب الركون فضلاً عن الركون ، فالأسلوب القرآني جاء على أبلغ ما يكون في تنزيه ساحته صلى الله عليه وسلم عن ذلك[2] . وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون . بل افترى بمدح آلهتهم ، وهذا ضد مفهوم الآية ، وهو توهين للخبر لو صح فكيف ولا صحة له . ولقد طالبته ثقيف وقريش إذا مرّ بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ، ووعدوه بالإيمان به إن فعل فما فعل ، وما كان ليفعل .

---

(١) الشفاء « ١١٩:٢ » .

(٢) انظر شرح القاري على الشفاء « ١٧٦:١ » .

وإذا كانت القصة غير ثابتة من جهة النقل والعقل ، فما معنى الآية إذن ؟ والإجابة على ذلك أقول :

إن التمني في الآية معناه : تشهي حصول الأمر المرغوب فيه [1] ، والأمنية من هذا المعنى : أي ما من نبي أو رسول إلا وغاية مقصوده ، وجلّ أمانيه ، أن يؤمن قومه ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم من ذلك في المقام الأعلى . قال تعالى : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) وقال : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) . وعلى ذلك يكون معنى الآية : وما أرسلنا من قبلك رسولاً بشرع جديد كإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، أو نبيـــاً مجدداً لشرع جاء به رسول قبله كأنبياء بني إسرائيل ، إلا إذا تمنى هداية قومه وإيمانهم ، ألقى الشيطان في سبيل أمنيته هذه العقبات ، ووسوس في صدور النــــاس ، فثاروا في وجهه ، وجادلوه حيناً ، وحاربوه حيناً آخر ، حتى إذا أراد الله هدايتهم أزال تلك الوساوس التي ألقاها الشيطان في نفوسهم ، ووفقهم لإدراك الحق وإجابة داعي الله .

وبذلك ينسخ الله ما ألقى الشيطان من الشبهات ، ويحكم آياته بنصر الحق وأهله على الباطل وحزبه ، وينشيء من ضعف أنصاره قوة ، ومن ذلهم عزة ، وتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ليجعل ما يلقي الشيطان في سبيل دعوات الأنبياء فتنة للضعفاء ، وليعلم الذين أوتوا العلم أن ما جاء بـــه الرسل هو الحق ، فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم [2] .

---

(١) قال أبو العباس أحمد بن يحيى : التمني حديث النفس بما يكون وبمـــا لا يكون . وقال : والتمني سؤال الرب . وفي الحديث « إذا تمنى أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه » وقال ابن الأثير : التمني تشهي حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون . وكل ما قيل في معنى التمني على هذا الوجـــه (مسألة الغرانيق) للشيخ محمد عبده ص ٩٣ .

(٢) المقالة الثانية : مسألة الغرانيق للشيخ محمد عبده ص ٩٤ وما بعدها .

٢ ـ قصة زينب وزيد بن حارثة .

يتعمد المستشرقون عند البحث في كل مايختص بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يتشبثوا ببعض النصوص الواردة في كتب التفسير أو التاريخ، ويفترضوها صحيحة رغم بطلانها ويستغلوها في ترويج مفترياتهم على نبي الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم .

فالمستشرق لايكتب عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا ليتحدث عن أسطورة الغرانيق ، وزواج محمد بزينب ، وتعــدد زوجات نبي الاسلام ، وما شابه ذلك .

وما اتفق خصوم الاسلام عن سوء نية على شيء كما اتفقوا على خطة التشهير في موضوع الزواج على الخصوص .

وقصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب هي تكأتهم في الطعن على نبي المسلمين والاستدلال بذلك على عدم صحة نبوته ، وللأسف الشديــد إن هؤلاء المستشرقين والمبشرين قد اعتمدوا في افتراءاتهم على ماورد في بعض كتب التفسير من روايات إسرائيلية دسها أسلافهم [١] ، فمن ذلك ماذكر الزمخشري في سبب نزول قوله تعالى : (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك ... الآية [٢]) قال : (أمسك عليك زوجك) يعني زينب بنت جحش رضي الله عنها ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصرها بعدما أنكحها زيداً ، فوقعت في نفسه ، فقال : سبحان الله مقلب القلوب ، وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لاتريدها ، ولو أرادتها لاختطبها ، وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ، ففطن وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها ، والرغبة عنها لرسول

(١) هذه الفرية دسها يوحنا الدمشقي في العهد الأموي .

(٢) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

الله صلى الله عليه وسلم ... إلخ [١]) . وقد ذكر مثل هذا السبب الثعلبي والنسفي في تفسيره والجلال المحلي وغيره [٢] .

وروى القرطبي في تفسيره عن مقاتل أنه قال : (زوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش من زيد ، فمكثت عنده حيناً ، ثم إنه عليه السلام أتى زيداً يوماً يطلبه فأبصر زينب قائمة ، كانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش فهويها ، وقال : سبحان الله مقلب القلوب ! فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ، ففطن زيد فقال : يارسول الله ائذن لي في طلاقها ، فإن فيها كِبْراً ، تعظَّم علي ، وتؤذيني بلسانها ، فقال صلى الله عليه وسلم : (أمسك عليك زوجك واتق الله) وقيل : إن الله بعث ريحاً فرفعت الستر وزينب متفضلة [٣] في منزلها ، فرأى زينب فوقعت في نفسه ، ووقع في نفس زينب أنها وقعت في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لما جاء يطلب زيداً ، فجاء زيد فأخبرته بذلك ، فوقع في نفس زيد أن يطلقها . وقال ابن عباس : (وتخفي في نفسك الحب لها [٤]) أهـ .

الرواية الصحيحة في سبب النزول :

هذه الرواية الباطلة التي دسها أعداء الاسلام واغتر بها بعض المفسرين ، ولطخوا بها صفحات تفاسيرهم ، ولم ينظروا في إخلالها بمقام الرسالة ، ومايليق بتلك الأخلاق النبوية التي شهد الله لها بالعظمة ، لايؤيدها نقل صحيح ولا عقل سليم . ولم نجد شيئاً منها في كتب الحديث المعتمدة ، والذي جاء في الصحيح يخالف هذا :

---

(١) الكشاف « ٣ : ٤٣١ » وقد ذكر الزمخشري هذا السبب ولم يتعقبه بتصحيح أو تضعيف .

(٢) تفسير النسفي « ٣ : ٦٧ » وانظر تفسير الجلالين ص ٣٥٤ ، ولم يتعقبا ماذكراه أيضا .

(٣) تفضلت المرأة : لبست ثياب مهنتها . أو كانت في ثوب واحد .

(٤) تفسير القرطبي « ١٤ : ١٩٠ » .

روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك ، أن هذه الآية : (وتخفي في نفسك ماالله مبديه) ، نزلت في شأن زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة [1] . واقتصر على هذا القدر ، ولم يذكر شيئاً من هذا الخلط . وذكر الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث : أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه ، فكرهت ذلك ، ثم رضيت بما صنع رسول الله ، فزوجها إياه ، ثم أعلم الله عز وجل نبيه – بعد – أنها من أزواجه ، فكان يستحي أن يأمر زيداً بطلاقها ، وكان بين زيد وزينب مايكون بين الناس ، فأمره رسول الله أن يمسك عليه زوجه ، وأن يتقي الله ، وكان يخشى أن يعيب عليه الناس ، ويقولوا : تزوج امرأة ابنه ، وكان قد تبنى زيدا [2] .

وعن علي بن الحسين ، قال : كان الله تبارك وتعالى أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم أن زينب ستكون من أزواجه ، فلما أتاه زيد يشكوها ، قال : اتق الله وأمسك عليك زوجك . قال الله : (وتخفي في نفسك ماالله مبديه[3]) .

هذا هو السبب الصحيح المعتمد ، وما ينبغي أن تفسر به الآية ، أما تلك الروايات الباطلة فقد طعن فيها المحققون من المفسرين . قال الإمام أبو بكر بن العربي : (.. قد بينا في السالف من كتابنا هذا ، وفي غير موضع عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم من الذنوب ، وحققنا القول فيما ينسب إليهم من ذلك ، وعهدنا إليكم عهداً لن تجدوا له رداً : أن أحداً لاينبغي أن يذكر نبياً إلا بما ذكره الله ولا يزيد عليه ، فإن أخبارهم مروية ، وأحاديثهم منقولة بزيادات تولاها أحد

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير « ٦ : ١٤٧ » .

(٢) فتح الباري « ٨ : ٤٢٥ » .

(٣) تفسير الطبري « ٢١ : ١١ » .

رجلين : إما غبي عن مقدارهم ، وإما بدعي لا رأي له في برهم ووقارهم ، فيدس تحت المقال المطلق الدواهي ، ولا يراعي الأدلة ولا النواهي ...) إلى أن قال: (وهذه الروايات كلها ساقطة الأسانيد ، إنما الصحيح منها ماروي عن عائشة أنها قالت : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً من الوحي شيئاً لكتم هذه الآية: (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه) يعني بالاسلام ، (وأنعمت عليه) يعني بالعتق فأعتقته ، (أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه .. إلى قوله : وكان أمر الله مفعولاً) . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوجها ، قالوا : تزوج حليلة ابنه ، فأنزل الله تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير ، ولبث حتى صار رجلاً ، يقال له: زيد بن محمد ، فأنزل الله تعالى : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ..) وماوراء هذه الرواية غير معتبر . فأما قولهم : إن النبي صلى الله عليه وسلم ، رآها فوقعت في قلبه فباطل ، فإنه كان معها في كل وقت وموضع ، ولم يكن حينئذ حجاب فكيف تنشأ معه ، وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ، ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج ، وقد وهبته نفسها ، وكرهت غيره ، فلم تخطر بباله ، فكيف يتجدد له هوى لم يكن ؟ ! حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة . وقد قال الله له : (ولا تمدن عينيك إلى مامتعنابه أزواجاًمنهم زهرة الحياة الدنيالنفتنهم فيه)والنساءأفتن الزهرات ،وأنشر الرياحين ، فيخالف هذا في المطلقات فكيف في المنكوحات المحبوسات .

وإنما كان الحديث أنها لما استقرت عند زيد جاءه جبريل : إن زينب زوجك، ولم يكن بأسرع أن جاءه زيد يتبرأ منها ، فقال له : اتق الله ، وأمسك عليك زوجك . فأبى زيد إلا الفراق ، وطلقها ، وانقضت عدتها ، وخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم على يدي مولاه زوجها ، وأنزل الله القرآن المذكور فيه خبرهما هذه الآيات التي تلوناها وفسرناها ، فقال : واذكر يامحمد إذ تقول للذي أنعم الله

عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك ، واتق الله في فراقها ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه: يعني من نكاحك لها ، وهو الذي أبداه لا سواه .

وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى إذ أوحى إليه أنها زوجته لابد من وجود هذا الخبر وظهوره ، لأن الذي يخبر الله عنه أنه كائن لابد أن يكون لوجوب صدقه في خبره ، هذا يدلك على براءته من كل ماذكره متسور من المفسرين [1])

وقال الامام الخازن في تفسيره : (فإن قلت ماذكروه في تفسير هذه الآية وسبب نزولها من وقوع محبتها في قلب النبي صلى الله عليه وسلم عندما رآها ، وإرادته طلاق زيد لها ، فيه أعظم الحرج ، ومالا يليق بمنصبه صلى الله عليه وسلم من مدّ عينيه لما نهي عنه من زهرة الحياة الدنيا ؟ قلت : هذا إقدام عظيم من قائله ، وقلة معرفة بحق النبي صلى الله عليه وسلم وبفضله . وكيف يقال رآها فأعجبته وهي بنت عمته ، ولم يزل يراها منذ ولدت ، ولا كان النساء يحتجبن منه صلى الله عليه وسلم ، وهو زوجها زيداً ، فلاشك في تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يأمر زيداً بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها كما ذكر عن جماعة من المفسرين . وأصح ما في هذا الباب ماروي عن سفيان بن عيينة ، عن علي بن زيد بن جدعان ، قال : سألني زين العابدين علي بن الحسين ، قال : مايقول أبو الحسن في قوله تعالى : (وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ، قلت : يقول : لما جاء زيد إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، إني أريد أن أطلق زينب ، أعجبه ذلك وقال : أمسك عليك زوجك واتق الله . فقال علي بن الحسين : ليس كذلك فإن الله عز وجل قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيداً سيطلقها ، فلما جاء زيد وقال : إني أريد أن أطلقها ، فقال له أمسك عليك زوجك : فعاتبه الله ، وقال : لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك ؟

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي « ٣ : ١٥٣١ – ١٥٣٢ » .

وهذا هو الاولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة لأن الله تعالى أعلم أنه يبدي ويظهر ما أخفاه ، ولم يظهر غير تزويجها منه ، فقال تعالى : (زوجناكها) ، فلو كان الذي أضمره النبي صلى الله عليه وسلم محبتها وإرادة طلاقها ، لكان يظهر ذلك ؛ لأنه لايجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه ولا يظهره ، فدل على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجته ، وإنما أخفى ذلك استحياء أن يخبر زيداً أن التي تحتك وفي نكاحك ستكون زوجتي ، وهذا قول حسن مرضي وكم من شيء يتحفظ منه الانسان ويستحيي من اطلاع الناس عليه ، وهو في نفسه مباح متسع ، وحلال لامقال فيه ، ولاعيب عند الله ، وربما كان الدخول في ذلك المباح سبباً إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين ، وإنما جعل الله طلاق زيد لها ، وتزويج النبي صلى الله عليه وسلم إياها ، لإزالة حرمة التبني ، وإبطال سنته كما قال الله تعالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) وقال : (لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم [1]) . وقال الامام القرطبي : (فأما ماروي أن النبي صلى الله عليه وسلم هوي زينب امرأة زيد — وربما أطلق بعض المجان لفظ : عشق ، فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا أو مستخف بحرمته [2]) .

وقال الحافظ ابن كثير : (ذكر ابن أبي حاتم ، وابن جرير هاهنا آثارا عن بعض السلف رضي الله عنهم ، أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها [3]) .

---

(١) تفسير الخازن « ٥ : ٢١٦ » .

(٢) تفسير القرطبي « ١٤ : ١٩١ » .

(٣) تفسير ابن كثير « ٣ : ٤٩١ » .

إسرائيليات حول القرآن الكريم

وإذا كنا قد تكلمنا عن المستشرقين ، واعتمادهم على الإسرائيليات التي في كتب التفسير للطعن على الإسلام ، فإن هـــذا يجعلنا نستطرد إلى الكلام عن إسرائيليات المستشرقين ؛ التي أثاروها حول القرآن نفسه بصفته كتاب المسلمين المقدس ، ودستورهم الخالد ، أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ليبين للناس كل ما يحتاجون إليه في صلاح معاشهم ومعادهم .

ولما كان للقرآن الكريم هـــذه الدرجة في الأهمية والخطورة ؛ وجه المستشرقون — كما وجه أهل الإلحاد من قبل — كل همهم إلى الطعن عليه وإثارة الشبهات من حوله،ليزعزعوا ثقة المسلمين في كتاب ربهم ؛ يقول العلامة الكوثري :

(ونرى في المدة الأخيرة اهتماماً خاصاً من مستشرقي الغرب بنشر مؤلفات علماء الإسلام الأقدمين ؛ مما يتعلق بالقرآن الكريم وعلومه من كتب القراءة وكتب الرسم وشواذ القراءات ، وكتب الطبقات ، بل يواصلون سعيهم في ذلك، وفي نشر ما للأقدمين من المؤلفات في الحديث والفقه واللغـــة إلى غير ذلك من المشـــرقيات، ومسعى أغلبيتهم ينم عن قصدهم لإحياء عهد الصليبيين بطريقة أخرى في الحملات الممتلئة تعصباً وجهلاً نحو النور الوضاء الذي أشرق من القرآن الكريم على هذه الكرة المظلمة ، حتى استنارت البصائر بذلك النور الوهاج ، فدخل الناس في دين الله أفواجاً ، فتبدلت الأرض غير الأرض ، وغاية هـذا الفريق مكشوفة جداً مهما تظاهروا بمظهر البحث العلمي البريء كذباً وزوراً وخداعاً)[1] .

---

(١) مقالات الكوثري ص ١٧ .

وقد عُني أعداء الإسلام قديماً وحديثاً بإثارة الشبه حول القرآن الكريم ليفتنوا المسلمين عن دينهم ، ويصدوا غير المسلمين عن الدخول في الإسلام، أما أعداؤه قديماً ؛ فمنهم فريق من اليهود والمجوس والزنادقة دخلوا في الإسلام ظاهراً ليكيدوا له في الخفاء : فمنهم من أولوا القرآن ، وحملوا آياته على معان باطنية تقلب العقائد والتكاليف الإسلامية رأساً على عقب ، ومنهم من أظهر التشيع لأهل البيت ، ووضعوا أحاديث مكذوبة في فضل علي والنيل من أبي بكر وعمر ، وزعموا أن عثمان والصحابة حرفوا القرآن ، وحذفوا منه كلمات وسوراً في فضل علي حسداً وبغياً، وذكروا من هذه الكلمات والسور ما يضحك منه أقل عارف باللغة العربية وأسرارها . وقد قام علماء الأمة ببيان زيفهم ، ورد كيدهم في نحرهم ، وماذوا الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الموضوعة ، فأناروا للناس سبيل الهدى ، والصراط المستقيم .

وأما أعداء الإسلام حديثاً ، فمنهم جماعات تألفت في أوربا وأمريكا للدعاية المسيحية ، وأرسلت رسلها إلى أقطار المعمورة ، ودعتهم بالمبشرين ، وأغدقت عليهم الأموال الطائلة ، وقد جعلت حكومات الاستعمار من هؤلاء المبشرين مطايا لأغراضها ؛ إذ عرفت أنه لا يمكن أن تثبت أقدامها في أمة إلا بتفريق كلمة أبنائها ، وعرفت أن هذا التفريق لن يكون إلا بانحطاط الأخلاق ، وتزلزل العقيدة الصحيحة، وعرفت أن المبشرين ، وإن لم ينجحوا في نشر المسيحية ــ ولا سيما بين الأمم الإسلامية لأن عظمة الإسلام وبساطته ، وأخذه بحكم العقل والعلم لا تجعل لأية دعاية دينية أملاً في النجاح بين أبنائه ــ فقد ينجحون بعض النجاح في إفساد العقيدة الاسلامية من طريق التشكيك في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي أن القرآن من عند الله؛ بما يثيرونه من مطاعن حوله سنذكر أمثلة منها بعد قليل .

وقد أخلص هؤلاء المبشرون للكنائس والجماعات التي استخدمتهم وحكومات الاستعمار التي شجعتهم ، وأتقنوا فن الدعاية الكاذبة ، وقالوا : إن

الغاية تبرر الواسطة . ولذا تراهم تارة يكشفون القناع ، وطوراً يستترون بحجاب الخداع فيبثون سمومهم باسم البحث العلمي الخالص ، والتحليل التاريخي الصادق ، ودعوى أنهم مستشرقون لا مآرب لهم إلا حب الشرق وأهله والدفاع عن تاريخه المجيد دون تجن وانحراف .

ومن أخطر هذا الفريق المموه (جولد زيهر) المجري الدم، اليهودي النحلة، العريق في عداء الاسلام ، الماضي في هذا السبيل طول حياته . يقول الشيخ محمد زاهد الكوثري عنه ـ في معرض حديثه عن كتابات المستشرقين ضد الاسلام ـ : (محتال ماهر في توليد مايشاء من نصوص يتصيدها من مصادر تعجبه باعتبار غايته، مغالطاً في تحميلها مالا تحتمله من المعاني عند أهل البصيرة ، ومتجاهلاً اختلاف منازل تلك المصادر في الثقة والتعويل) [1] .

وأهم مؤلفات هذا المستشرق التي ترجمت إلى العربيـــة كتاب (العقيدة والشريعة في الاسلام) ، وكتاب (مذاهب التفسير الاسلامي) . وسنكتفي باختيار ثلاث شبه أثارها هذا المستشرق اليهودي في كتابيه المذكورين وتزيفها .

الشبهة الاولى .

يقول جولد زيهر في كتابه (مذاهب التفسير ص ٤ ــ ٥) :

(.. فلايوجد في كتاب تشريعي ـ اعترفت به طائفة دينية اعترافاً عقدياً على أنه نص منزل أو موحى به ــ من الاضطراب وعدم الثبات كما نجد في نص القرآن ، وفي جميع الشوط القديم لتاريخ الاسلامي لم يحرز الميـل إلى التوحيد العقدي للنص إلا انتصارات طفيفة) وقال أيضاً: وتقرر الخليفة عمر: أن القرآن صواب كله ، وفي رواية : كاف شاف ، ما لم تجعل آية رحمة عـذاباً وآية عذاب

---

(١) من عبر التاريخ للكوثري ص ٢٦ .

رحمة) (الطبري ج ١ ص ١٠) [١] أي ما دام لم يحصل اختلاف أساسي في معنى الألفاظ فالمعول إذن في المرتبة الأولى على المعنى الذي يستنبط من النص لا على الاحتفاظ المتناهي بقراءة معينة [٢] .

(ويمكننا أن نستخلص من التجارب في هذه المرحلة ، أنه فيما يتعلق بإقامة النص المقدس في الإسلام الأول ، كانت تسود حرية مطردة إلى حد الحرية الفردية ؛ كأنما سواء لدى الناس أن يرووا النص على وجه لا يتفق بالكلية مع صورته الأصلية) [٣] .

وقال : (ليس هناك نص موحد للقرآن ، ومن هنا نستطيع أن نلمح في صياغته المختلفة أولى مراحل التفسير . والنص المتلقى بالقبول (القراءة المشهورة) الذي هو لذاته غير موحد في جزئياته ، يرجع إلى الكتابة التي تمت بعناية الخليفة الثالث عثمان ، دفعاً لخطر الماثل من رواية كلام الله في مختلف الدوائر على صور متغايرة وتداوله في فروض العبادة على نسق غير متفق ، فهي إذن رغبة في التوحيد ذات حظ من القبول) [٤] .

الشبهة الثانية .

ويقول في كتابه (العقيدة والشريعة في الإسلام) مانصه : (..ومن العسير أن نستخلص من القرآن نفسه منهجاً عقدياً موحداً متجانساً ، وخالياً من المتناقضات) ثم يعرض لمسألة الجبر والاختيار فيتساءل : (وهل يصح أن يحرم

---

(١) نسب جولد زيهر إلى الطبري قوله : (إن الخليفة عمر قد قرر ... الخ علماً بأن الطبري قد روى هذه الرواية مرفوعة ، ولم يقف بها عند عمر رضي الله عنه (انظر تفسير الطبري ١ : ٢٥ - ٢٧ الحديث ١٦ ، ١٧ طبعة دار المعارف) .

(٢) مذاهب التفسير الاسلامي ص ٤٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٨ .

(٤) مذاهب التفسير الاسلامي ص ٦ .

الله الناس من كل حرية واستقلال في أعمالهم ، وأن يجرد سلوكهم حتى في أدنى التفاصيل ، وأن يحرم الخاطىء أو الآثم من إمكان فعل الخير ، وأنه كما يقول : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) [1] وأنه مع هذا كله يعاقبهم إذا ما عصوا ، ويقذف بهم إلى العذاب الخالد ! ؟) إلى أن يقول : (وليس في الاسلام على ما نرجح مسألة مذهبية يمكن أن نستخلص بشأنها من القرآن تعاليماً متناقضة كتلك التي نبحثها الآن)[2] .

الشبهة الثالثة :

قال جولد زيهر : (أخذ محمد في إحدى السور المكية [3] قصة التوراة دون تسمية الابن المعين للتضحية) [4] . وقال أيضاً : (ولقد أفاد من تاريخ العهد القديم وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء [5]) وقال : (فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية ؛ عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها) [6] وقال : (وقد كانوا - يقصد أحبار اليهود ورهبان النصارى - أساتذة له) [7] وقال : (أما المذاهب والقواعد الوضعية فكانت ذات طابع انتخابي وقد أسهم في تكوين عناصر هذه المذاهب والقواعد الدين اليهودي والدين المسيحي . . وكذلك بعض عناصر القرآن المسيحية نعرف أنها وصلت إلى محمد عن طريق التقاليد أو

---

(١) من الآية ٧ من سورة البقرة .

(٢) العقيدة والشريعة في الاسلام ص ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٩ - ٩٠ .

(٣) الآيات ١٠٠ - ١١٠ من سورة الصافات .

(٤) مذاهب التفسير الاسلامي جولد زيهر ص ٩٩ .

(٥) العقيدة والشريعة في الاسلام ص ١٤ .

(٦) العقيدة والشريعة في الاسلام لجولد زيهر ص ١٢ .

(٧) المرجع السابق ص ٢٠ .

الروايات المتواترة المحرفة ؛ وعن ابتداعات المسيحية الشرقية القديمة) [1] .

ونقول في الجواب عن الشبهة الأولى :

إن الجهود العظيمة التي قام بها الصحابة في جمع القرآن واستنساخه – كما بينتها كتب السنة – لم ير فيها هذا المستشرق جمعاً للقرآن واستنساخاً يكفل نشر القرآن الثابت بيقين ، وإهمال ما سواه مما لم يثبت قرآنيته يقيناً ، بل رأى فيها – بعد إنكاره الأحرف السبعة – مجرد محاولة ذات حظ من القبول لتوحيد نص القرآن الذي بات مضطرباً لكثرة قراءات الصحابة واختياراتهم الشخصية !! ولم يكن هذا الاضطراب في نص القرآن – حسب زعمه – إلا نتيجة للحرية الفردية التي كانت سائدة في تلاوة القرآن .

ويكرر (جولد زيهر) هذه الفكرة بأنه لم يكن هناك نص موحد للقرآن ، ثم جرى توحيد النص القرآني في عهد عثمان للخلاص من قراءة القرآن في صور لفظية متغايرة . وسيكون جوابنا عليه ذا شقين : نتكلم في الشق الأول : حول جمع القرآن ، ونتكلم في الشق الثاني : حول توقيفية القراءة .

١ – جمع القرآن .

كتب القرآن كله في حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وحفظه أصحابه رضي الله عنهم سوراً وآيات ، وكلمات وحروفاً مع الضبط والإتقان ، ولم ينتقل الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى ، إلا والقرآن محفوظ في الصدور ، مكتوب في السطور ، وتركهم أمة واحدة على دين واحد وكتاب واحد .

ولما بويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة ، صادفه في أول عهده صعاب شديدة أثارت مخاوف المسلمين جميعاً ، فإن الوحدة الاسلامية التي تمت في

---

(١) العقيدة والشريعة ص ٢٤ – ٢٥ .

عهد رسـول الله ﷺ كادت تضطرب حين وفاتـه ، وذلك أنه ارتد قوم عن دين الله ، ومنع قوم الزكاة ، فرأى أبو بكر رضي الله عنه أنه لابد من القضاء على هذه الثورة الطاغيـة في مهدها بقتال هؤلاء وأولئك ، حتى يذعنوا للطاعة . ومن أعظم المواقع التي اشتبك فيها المؤمنون والمرتدون موقعة اليامـة في أواخر سنة إحدى عشرة للهجرة ، وقد استشهد في هذه الموقعة عدد من القراء ؛ قال القرطبي في مقدمة تفسيره : كان القتلى من القراء في هذه الغزوة سبعمائة، وكان ذلك سبب جمع القرآن في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، واختار أبو بكر زيداً لهـذه المهمة الجليلة ، ولذا قال له حين كلفه بالجمع : إنك شاب عاقل ، لانتهمك ، وقـد كنت تكتب الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فشرع زيد بجمع القرآن من كل ما كتب فيه مما عنده ، وعند غـيره من الرقاع ، وقطع الأديم ، والعسب ، والأكتاف ، وغيرها ، مع موازنة ذلك بعضه ببعض ، وموازنته بما في صدره وصدر غيره من الحفاظ ، يراقبه ويعاونه في ذلك كله أبو بكر وعمر وغيرهما من كبار الصحابة ، حتى وصل إلى الغاية التي ابتغاها منـه أبو بكر ، والتي ترضي الله ورسوله؛ فكتب القرآن المتواتر المتلو [1] كله في صحف من الورق، مرتباً الآيات في سورها على ما وقف عليه الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه الكرام .

ومما يدل على أن هذا الجمع كان بغاية الدقة عناية الخلفاء به ، وإجماع الأمة عليه حتى إن أبا بكر حفظ هذه الصحف في حياته ، ثم حفظها بعـده عمر ، ثم حفظتها بعده حفصة أم المؤمنين ، ثم طلبها عثمان لنسخ المصاحف بحضر من جمهور الصحابة ، وأقروا جميع مافيها مع أنهم كانوا في غاية الحرص على كتاب الله لايقبلون فيه شيئاً لم يقطعوا بسماعه من النبي صلى الله عليه وسلم ، لايخشون في ذلك أميراً ولا كبيراً . يقول الدكتور هيكل في كتابه (الصديق أبو بكر ص ٣٤٣) : (وقد كانت هذه الدقـة في جمع القرآن متصلة بإيمان زيد بالله ، فالقـرآن كلام الله

---

(١) فلم يجمع منسوخ التلاوة يؤيد هذا خلو ماجمعـه من آية الرضاع ، وآية الرجم وغيرها مما ورد في الأخبار أنه كان قرآناً ونسخت تلاوته .

جل شأنه ، فكل تهاون في أمره ، أو إغفال الدقة في جمعه ، وزر ما كان أحرص زيداً في حسن إسلامه ، وجميل صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتنزه عنه ، ولقد شهد المنصفون من المستشرقين بهذه الدقة حتى ليقول (سير وليم موير) : والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثني عشر قرناً بنص هذا مبلغ صفائه ودقته) .

ولما تولى الخلافة عثمان رضي الله عنه ، وفي عهـده اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في الأمصار ، فأخذ كل مصر عن رجل من القراء ، وكانت وجوه القراءة التي يقرأون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي أُنزل عليها القرآن ، فكان بعضهم يرد على بعض فيقول أحدهم : قراءتي هي الصواب ، ويقول الآخر بل قراءتي أنا وما أخذت به ، وليس من وراء هذا إلا اللجاج والتكفير والتأثيم ، وشيوع الفتنة الهوجاء . وقد نجمت بوادر هذه الفتنة في غزوة أرمينية ، وكان حذيفة بن اليمان من جملة من غزا معهم ، ورأى تشاحنهم ؛ فسار إلى عثمان وأخبره بما رأى وقال : إن الناس قد اختلفوا في القرآن ، حتى إني والله لأخشى أن يصيبهم مثل ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف اهـ [١] .

ففزع عثمان لذلك فزعاً شديداً ، فأرسل إلى حفصة : أن أرسلي إلينا بالصحف فننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فنسخ منها مصاحف ، فبعث بها إلى الآفاق [٢] .

وقد كتبت مصاحف عثمان بإشراف حفظة القرآن ، وعلية الصحابة ، وولاية زيد بن ثابت الذي تلقى العرضة الأخيرة ، وعمل على جمع صحف أبي بكر

---

(١) تفسير الطبري « ١ : ٦٢ » .

(٢) المرجع السابق في نفس الموضع ، وانظر صحيح البخاري كتاب التفسير باب جمع القرآن .

كما سبق أن قلنا ، فعلى الرغم من اعتمادهم على صحف أبي بكر رضي الله عنه وعلى الرغم من حفظهم للقرآن فقد كانوا يستوثقون فيما يختلفون فيه من الآيات، فيسألون عنها من تلقاها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد اختط عثمان رضي الله عنه بموافقة الصحابة رضي الله عنهم منهجاً حكيماً لكتابة المصاحف ، يجعله كفيلاً بما هيء له من كونه إماماً يرجع إليه عند الاختلاف، ومصباحاً يهتدى به عند النزاع ، وذلك المنهج يتضمن النقاط السبع الآتية :

١ ـ ألا يكتب فيه إلا ما يتيقن كونه قرآناً بنقل عـــدد التواتر له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم دون ما نقله الآحاد مهما كانوا ثقات حفاظاً .

٢ ـ ألا يكتب إلا ما استمر متلواً طوال حياة الرسول صلى الله عليه وسلم دون ما نسخت تلاوته لأن منسوخ التلاوة ليس بقرآن وإن بقي حكمه .

٣ ـ أن يجرد من كل ما ليس قرآناً كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرحاً لمعنى ، أو بياناً لناسخ أو منسوخ ، أو نحو ذلك .

٤ ـ أن يكتب القرآن كله في ذلك المصحف مرتب الآيات في سورها على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم .

٥ ـ أن يكتب مرتب السور على ما نشاهده اليوم في المصاحف .

٦ ـ أن تكتب منه مصاحف متعددة ليرسل إلى كل مصر واحد منها للرجوع إليه .

٧ ـ أن يكتبوه بلسان قريش عند اختلافهم كما قال عثمان : (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء ، فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم) [١] .

فهل هذا الجمع الذي تم بأقصى عناية ودقة غير موحد في جزئياته ـــ كما

---

(١) انظر رسالة في جمع القرآن والرد على ما يثار حوله من مطاعن ص ١١٣ وما بعدها لمحمد فريد العبادي (رسالة دكتوراة مخطوطة في مكتبة كلية أصول الدين).

يقول جولد زيهر – وأنه ليس إلا مجرد رغبة في التوحيد ، ذات حظ من القبول !؟ وهل يقول منصف اطلع على أدوار جمع القرآن بأن هذا الجمع لم يحرز في جميع الشوط القديم للتاريخ الإسلامي إلا انتصارات طفيفة على حد زعم هذا المستشرق !؟

٢ – توقيفية القراءة :

روى البخاري في صحيحه : « انزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف فاقرأوا كيف شئتم »[١] ، وكلمة (أُنزل) تفيد أن الأحرف وحي من الله تعالى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام ، وأن القراءات توقيفية ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتلقى الأحرف من الوحي إذ كان جبريل يتنزل بها .

والصحابة رضوان الله عليهم كانوا واقفين عند اللفظ المنزل لا يتجاوزونه إلى ما سواه ، ولو كانت لكل واحد الحرية في قراءة القرآن – كما يزعم جولد زيهر أكان ينكر على الآخرين استعمال تلك الحرية ؟ بل أكان أحدهم يأخذ غيره من تلابيبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يترافعان إليه ..!؟

وإليك حديث عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم حين اختلفا في القراءة فتحاكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما أن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره في الصلاة ، فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : كذبت ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما أقرأك ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله : إني سمعت هذا يقرأ بسورة

---

(١) صحيح البخاري . كتاب التفسير . باب أنزل القرآن على سبعة أحرف « ٦ : ٢٢٧ » .

الفرقان على حرف لم تقرئنيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أرسله ، اقرأ يا هشام » فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرؤها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « كذلك أنزلت » ، ثم قال لي : « اقرأ ياعمر » فقرأت القراءة التي أقرأني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ماتيسر منه [1] » . وفي رواية : « فأي ذلك – الأحرف السبعة المنزلة – قرأتم أصبتم » وفي رواية : « كلها – أي الأحرف السبعة – كاف شاف » وفي حديث ابن عباس عند البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أقرأني جبريل على حرف ، فراجعته فلم أزل استزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف) وفي رواية : (الله يأمرك أن تقرأ أمتك على سبعة أحرف ، فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا) وهذا واضح جداً في أن المسامحة بإباحة الاختلاف في أحرف القراءات ليست بالتشهي والهوى حتى يجوز لكل أحد أن يغير الكلمة بمرادفها في لغته ، أو اللفظة بلفظة أخرى لأنها أكثر شيوعاً عند القوم ، أو لأنها تفهم الفكرة أكثر ، أو لأنها أكثر بلاغة ، بل العمدة في اختلاف القراءات السماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تلقى هذه الأحرف التي يقع الاختلاف في دائرتها من جبريل عن الله تعالى ، وفي هذه الروايات كلها وغيرها مايقطع بنظر العقل وصحة النقل أن القرآن جميعه بأحرفه السبعة التي وقع فيها الاختلاف منزل من عند الله على رسوله عليه السلام . وهذا ما اتفق عليه المسلمون وأجمعت عليه الأمة .

وبذلك يتبين زيف ما ادعاه هذا المستشرق من أن المعول عليه في المرتبة الأولى هو الحرص على المعنى والفكرة دون الاحتفاظ باللفظ وبقراءة معينة .

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير – باب إنزال القرآن على سبعة أحرف ٦ : ٢٢٧ – ٢٢٨ .

ونقول في الجواب عن الشبهة الثانية :

إن هذه المسألة (الجبر والاختيار) التي عرض لها جولد زيهر ، أمر خاض فيه علماء الأديان والأخلاق من زمن بعيد ، وافترقوا فيه على مذاهب شتى ، وقد تكون القضية قضية اختلاف بين علماء المسلمين على فهم النصوص والآيات حول موضوع معين ، أما تصويرها بتهمة وجود التناقض في القرآن ، فذلك عمل لا يصدر عن منصف ، وقد حلها المؤمنون بما هو هدى وحق ، ووفقوا بين النصوص،وفهموا الفهم الصحيح ، فالثواب والعقاب منوطان بإرادة الانسان واختياره ، واختيار الانسان من البديهيات التي لاينكرها عاقل . وقد منح الله الانسان وسائل الفعل وآلاته ، وركب فيه العقل الذي يدبر ويختارمصيره، وطالبه بإيثار الخير والرغبة عن الشر ، والانسان لايحس بقاسر ولامكره له في هذه الحياة .

وقد جاء مع هذا في الدين – وثبت عقلاً – أن أعمال الناس معلومة لله في الأزل ، وأن إرادة الله تعلقت بما يوجد من هذه الأعمال ، وأن الله يوجدهـا على أيدي العباد ، وذلك هو القضاء والقدر ، ولكن الله أراد للناس أعمالهم على حسب استعدادهم وإرادتهم التي لايشعرون بأي دافع يدفعهم إليها . والقدر محجوب عن الإنسان ، ولو أن أحداً علم ماقضى الله به عليه ثم فعله امتثالاً ؛ لـكان له الحجة على الله . وبذلك نفهم نحو قوله تعالى في الكفار :(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم)[1] فإن مفاده أن هؤلاء آثروا الكفر اختياراً منهم ، فأراد الله لهم ما اختاروا . والكلام في مثل هذا على التمثيل وليس بصحيح أن إرادة العبد تحدد بإرادة الله ، فكثيراً مايريد العبد الشيء ولا يقع ، وذلك دليل على أن الله لم يرده . وليعلم في هذا المقام أن إرادة الله ليست من صفات التأثير حتى تدفع العبد إلى إرادة الأشياء ، وكان حرياً بالباحث أن يراجع جيداً قول علماء الكلام في هذا المبحث [2] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٧ .

(٢) أنظر تعليق الأستاذ محمد يوسف موسى على هامش كتاب العقيدة والشريعة ص ٨٩ .

ونقول في الجواب عن الشبهة الثالثة :

إذا كان بعض المسلمين قد تأثروا بالإسرائيليات التي تناقلها بعض المفسرين عن أهل الكتاب وأفلح المصلحون – أو كادوا – في تطهير المنقول منها، والرجوع بها إلى الجادة الإسلامية ، فإن بعض المستشرقين وعلى رأسهم جولد زيهر – يتخذ من ذلك أو من وجود تشابه بين بعض قصص القرآن الكريم والتوراة ذريعة إلى الزعم بأن محمداً اقتبس قصص القرآن وتعاليمه من التوراة والانجيل ، والمستشرقين عامة ولع خاص بموضوع اليهودية والنصرانية عند الجاهليين، وولعهم بذلك مبعثه في الغالب حرصهم على إراءة أن الإسلام دين مسروق من إحدى هاتين الديانتين أو من الديانتين معاً، وأن ماورد فيه هو: إما نقل بتفهم من الكتب المقدسة وشروحها ، وإما مسخ وتشويه لنقل وقع بغير فهم ولا علم . ثم هم في ذلك طوائف : طائفة تزعم أن أكثر ماتراه في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي هو من يهود ؛ لذلك تجهد نفسها لتجد سبباً قريباً أو بعيداً تستند إليه فيما تدعيه ، وهذه الطائفة أكثرها من المستشرقين اليهود ، وهم في أحكامهم هذه مندفعون بدافع العصبية والعاطفة ، وطائفة أخرى تزعم أن ماتراه في الإسلام هو من النصرانية [1] ، وأن أثر النصرانية في الجاهليين كان كبيراً ، وأن الرسول تعلم من النصارى كما زعمت قريش من قبل وأشير إلى ذلك في القرآن الكريم ، وهذه الطائفة تقول قولها هذا عن عاطفة وعصبية أيضاً ؛ لأن أغلب أفرادها من المستشرقين النصارى ، على أن هناك فريقاً آخر يتوسط بين الطائفتين فيقدم اليهودية أحياناً ، ويقدم النصرانية حيناً آخر ، وقد يذهب في بعض الأحيان إلى إشراكهما معاً .

---

(١) قال المستشرق (كرادة فو) في دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة (إنجيل): وكان محمد أكثر معرفة بالأناجيل المنحولة منه بالأناجيل الصحيحة ، ولم تصل إليه تلك المعرفة من مصادر مسيحية خالصة . وإنما نقلت إليه على يد يهود اعتنقوا النصرانية ويستدل على هذا بنوع القصص الذي ورد في القرآن .

وإذاً فقول جولد تسيهر : أخذ محمد في إحدى السور المكية قصة التوراة .. الخ ، وقوله : إن بعض عناصر القرآن المسيحية وصلت إلى محمد عن طريق التقاليد ، أو الروايات المحرفة ، وعن ابتداعات المسيحية الشرقية .. الخ قول خاطىء ، وفرية روجها هو وغيره من المستشرقين . والحقيقة المجردة هي : أن اليهودية دين سماوي والإسلام دين سماوي ، ومصدر الوحي في القرآن وغيره من الكتب السماوية واحد وهو الله جل وعلا ، وقد كان القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية ، فمن الطبيعي أن يكون في القرآن بعض ما في هذه الكتب والرسالات السماوية من أنباء وقصص وإن كان بعضها على نحو أبسط وأوجز — هذا لا عجب فيه ولو كان الأمر غير هذا لكان هو العجب . ومن هنا كان خطأ بعض المستشرقين خطأ كبيراً في المنهج حين يتعرضون لشيء مما حوى القرآن من تلك الأنباء ، وذلك القصص ، متخذين التوراة وحدها المقياس للحقيقة والمصدر لكل شيء من أخبار الماضين ، متناسين أن كلا من التوراة والقرآن من عند الله الذي أودع في كل من الكتابين ماشاء الله من العقائد وقصص الماضين .

لا معنى إذاً للقول بأن القرآن أخذ هذه القصة أو تلك عن التوراة أو الادعاء بأن الرسول كان يعرف التوراة وأخذ عنها هذا وذاك ، لا محل لاعتراضه ما دام كل من الكتابين من عند الله . ثم كيف يفسر هؤلاء المتعنتون اشتمال القرآن على قصص وأنباء لم تجيء في التوراة بل لم تشر إليها ، إن كانت هي المصدر الذي أخذ منه الرسول ما أخذ في هذه الناحية !؟

كذلك لا معنى للقول بأن رهبان النصارى كانوا أساتذة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه اقتبس القرآن عن الروايات المسيحية المحرفة . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب كما ثبت بالتواتر الصحيح في التاريخ، وكما نص الله عليه في القرآن الكريم بقوله : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) ثم أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة،وبعثه إلى الناس كافة بهذا القرآن الكريم ، وجعله مصدقاً لما بين يديه من التوراة

والإنجيل ، وكتب الأنبياء السابقين إجمالاً لها من غير تفصيل ، وجعل كتابه (مهيمناً) على هذه الكتب أي رقيباً عليها كما قال تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) وهذا الرجل الأمي لم يقرأ شيئاً من كتبهم ، ولم يبلغه من الكتب التي في أيدي النصارى — مع ما فيها من الاختلاق — قليل ولا كثير ، ومع ذلك فإنه لا يذكر إنجيل عيسى عليه السلام في القرآن إلا باللفظ المفرد (إنجيل) فلو كان هذا القرآن من عند غير الله ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم عرف هذه الروايات ، لجاء التعبير عنها في القرآن — ولو مرة واحدة بلفظ الجمع (أناجيل) .

نعم إن بعض المشركين زعم أنه تعلم بعض الشيء من غيره ، وقد قال الله ذلك في القرآن عنهم ، ثم رد عليهم قولهم بأقوى رد ، فخرست ألسنتهم وألسنة غيرهم ، فلم يدع أحد منهم ولا من أهل الكتاب بعد ذلك مع كفرهم به ، وعداوتهم له ، وتربصهم به وبالمسلمين ، أن يجدوا حجة تنصرهم عليه ، إذ علموا أنهم لو عادوا إلى هذه الدعوى لكانت حجتهم داحضة ، ودعواهم كاذبة ، فإنه نشأ بينهم وعرفوا تاريخ حياته وأحواله تفصيلاً وإجمالاً ، ولم يجدوا من يصدقهم من أهل عصرهم المشاهدين الحاضرين في أنه تعلم كل هذه العلوم والشرائع من بعض القارئين والكاتبين في مكة ، وقد اتصل المسلمون بالنصارى واليهود بعد الفتح الإسلامي للبلاد اتصالاً وثيقاً ، وقامت في بعض الأوقات حرب الجدال الديني بين الفريقين واحتدمت ، ومع ذلك فإنه لم يزعم أحد — فيما نعلم — من أعداء المسلمين أن القرآن مقتبس كله أو بعضه من التوراة أو الأناجيل أو الآراء المسيحية ، إلا في هذه العصور المتأخرة حينما ضعف شأن الدول الإسلامية مادياً ، وقام المستشرقون وفي أعقابهم المبشرون بالهجوم العلني على المسلمين ، بعد أن وضعوا أيديهم على أكثر بلاد الإسلام (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

إن الذي يأتي بهذا القرآن ، وبما فيه من تشريع تقطعت دونه أعناق الأمم ، وبما فيه من توحيد وتمجيد لله ، وبما فيه من القصص والأخبار الصادقة ، وبما فيه من المواعظ والحكم ، وبما فيه من مكارم الأخلاق ، هذا القرآن الذي أعجز الانس والجن أن يأتوا بسورة من مثله ، وهو الهدى ، ودين الحق . أقول : إن الذي أتى بكل هذا في كتاب واحد لن يعقل أن يكون تعلمه من كتب يحكم عليها هو بأنها محرفة مبدلة ، أو كلمات يسمعها عرضاً على ألسنة بعض أهل الكتاب في جزيرة العرب .

المستغربون

وكما وجد هؤلاء المستشرقون في حياة الأمــــة الإسلامية ، ووجدت لهم دسائس ذكرنا بعضها ، وجد لهم تلاميذ من أبناء المسلمين ؛ تعلم بعضهم في أوربا، واستهوى البعض الآخر مناهج المستشرقين وبحوثهم ومعارفهم ، فصاروا منجذبين إليها أشد الانجذاب ، متأثرين بها أعمق التأثر ، لا يكادون يحيدون عنهـــا ، أو يرضون بــواها ، أو يحسون بأي التواء أو زيغ فيها . ومــن الممكن أن نسمي هذا الفريق (المستغربين) دلالة على نزوعهم هذا المنزع الغربي في أسلوبه المنهجي ولونه الدراسي ، ومعارفه المتصيدة من أي مصدر كان ، والتي تسيطر على إنشائها وافتعالها أهواء العداوة للإسلام .

هؤلاء (المستغربون) قد غلب عليهم الوهم بأنهم غرباء عن ماضي الإسلام ، وأن موقفهم من رجاله كموقف وكلاء النيابة من المتهمين ، بل لقد أوغـل بعضهم في الحرص على الظهور أمام الأغيار بمظهر المتجرد عن كل آصـرة له بماضي العروبة والاسلام؛ائتلا يتهم — في زعمه — بالعصبية لها ، فوضع نفسه موضع التهمة بالتحامل عليهـــا ، جرياً وراء بعض المستشرقين في ارتيابهم حيث تجب الطمأنينة ، وفي ميلهم مع الهوى عندما يدعوهم الحق إلى التثبت ، وفي إنشائهم الحكم وارتياحهم إليه قبل أن تكون في أيديهم أشباه الدلائل عليه . ومن الملاحظ أن هؤلاء الذين ينخدعون من المسلمين بالمستشرقين من أعداء الإسلام لايوقعهم في الفخ الذي نصبه لهم هؤلاء إلا أحد أربعة أمور غالباً :

١ — إما جهلهم بحقائق التراث الإسلامي ، وعـــدم اطلاعهم عليه وعلى ينابيعه الصافية .

٢ – وإما انخداعهم بالأسلوب العلمي (المزعوم) الذي يدعيه أولئك الخصوم.

٣ – وإما رغبتهم في الشهرة والتظاهر بالتحرر الفكري من ربقة التقليد كما يدعون.

٤ – وإما وقوعهم تحت تأثير (أهواء) و (انحرافات) فكرية لا يجدون مجالاً للتعبير عنها إلا بالتستر وراء المستشرقين والكاتبين. تقع أنظار الواحد من هؤلاء المستغربين على بحث فج لمستشرق ناشىء، فينتحل ذلك البحث من غير تعب، ويزعمه لقرائنا مبتكراً من عنده، وينقله لنا محرف الأعلام، متضارب الأحكام، ملتهب الحماسة في التحامل؛ حتى على الفضائل عندما ينظر إليها بعينه أو بعين من ترجم عنه ومن وراء منظار أسود.

وكلا الفريقين – فيما نرى – يستحق منا الدراسة كما يستحق الحذر والحيطة في كل ما يصدر عنه من كتابات، سواء في الدين، أو اللغة أو التاريخ، لأن المستغربين يعاونون المستشرقين – من حيث يدرون أحياناً ومن حيث لا يدرون في أكثر الأحيان – في إشاعة الشك والريبة في الإسلام وحملته، وبعبارة أخرى إن هؤلاء المستشرقين يصدرون لنا بضائعهم بما فيها من دس وتحريف، فيأتي المستغربون فيروجون هذه البضائع ويبذلون جهودهم الخائنة، أو الخاطئة، في الدعوة إليها والإغراء بها. وبذلك يتبين لنا أن كلا من المستشرقين والمستغربين خطر يهدد أمتنا وبلادنا وثقافتنا.

ويعجبني ما قاله بعض الباحثين في التحذير من خطر هؤلاء المستغربين:

(هناك مستشرقون مصريون ولدوا في بلادنا هذه، ولكن عقولهم وقلوبهم تربت في الغرب، وغدت أهواؤهم مائلة إليه، فهم أبداً تبع لما جاء به .. إنهم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، بيد أنهم خطر على كياننا؛ لأنهم كفار بالعروبة والإسلام، أعوان – عن اقتناع أو مصلحة – للحرب الباردة التي يشنها الاستعمار علينا بعد الحروب التي مزق بها أمتنا الكبيرة خلال قرن مضى ... وهم سفراء فوق

العادة لإنجلترا وفرنسا وأمريكا (دون التصريح الثلاثي) الذي خلق إسرائيل وحماها ، والفرق بينهم وبين السفراء الرسميين أن هؤلاء لهم تقاليد تفرض عليهم الصمت ، وتطبع حركاتهم بالأدب . أما أولئك المستشرقون السفراء فوظيفتهم الأولى أن يثرثروا في الصحف وفي المجالس ، وأن يختلقوا كل يوم مشكلة موهومة ليسقطوا من بناء الإسلام لبنة ، وليذهبوا بجزء من مهابته في النفوس ، وبذلك يحققون الغاية الكبرى من الزحف المشترك الذي تكاتفت فيه الصهيونية والصليبية في العصر الحديث .

إن هذا النفر من حملة الأقلام الملوثة أخطر على مستقبلنا من الأعداء السافرين ، فإن النفاق الذي برعوا فيه يخدع الأغرار بالأخذ عنهم ، وقد يقولون كلمات من حق تمهيداً لألف كلمة من الباطل تجيء عقبها[1]) أهـ .

وكما ذكرنا طرفاً من مفتريات المستشرقين ، نذكر فيما يلي طرفاً آخر من مفتريات تلاميذهم من المستغربين ، فنقول :

زعم بعض المؤلفين من هؤلاء المستغربين أن قصص القرآن الكريم — وهو كلام الله سبحانه — يستوي وما كتبه ويكتبه القصاص والرواة فيما يجوز عليه من خيال وشعر وفن وأباطيل وأساطير ، ومجاراة المخاطبين ، ومجاملة مشاعرهم ، وموافقة معارفهم ، وأن القرآن الكريم في سبيل البلاغة الأدبية ، والفن القصصي لم يلتزم الصدق والحق في رواية أخباره ، وإنما قصد إلى التأثير البلاغي فقط ، ومن ثمّ فالمؤلف ينفي عن القصص القرآني إعجازه التاريخي لأنه — في زعمه — غير واقعي ، وقد اعتذر عن ارتكابه إثم دعواه فنية القصص القرآني ؛ بأنه إنما يفعل ذلك انقاذاً للقرآن من طعن كتاب الغرب بأن أخباره تتناقض مع أخبار كتبهم المقدسة ، ويستشهد على صدق دعواه بما قاله الشيخ محمد عبده في تفسير المنار : (إن القصص

---

(١) عن مقدمة كتاب (ظلام من الغرب) للأستاذ الشيخ محمد الغزالي .

جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ[1]) ، وقد سبقه إلى هذا الزعم - أي إلى أسطورية القصة في القرآن الكريم – مؤلف آخر فقال : (للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي ، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة[2]) .

ونقول في الجواب :

١ – يتناول القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين ويذكر طرفاً من معجزاتهم ، ومن المقرر أنه ليس الغرض من ذلك استقراء الوقائع ، ولا تحديد الأزمان ، ولا تناول الظروف والملابسات ، ولا تسجيل مجرد الحوادث والأشخاص ، ولا البحث التاريخي الاصطلاحي والفني ، وإنما الغرض من ذلك الهداية والعظة والعبرة ، وتقرير قواعد هذه الهداية في النفوس بذكر هذه القصص وعرض وقائعها أمام السامعين والقارئين .

والقرآن الكريم يصرح بهذا في وضوح فيقول : في الآية ١١١ من سورة يوسف : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) ، ومن المقطوع به كذلك عند كل مسلم أن كل ماذكره القرآن في هذه الناحية حق لاشك فيه ، وأن علم التاريخ الاصطلاحي لايمكن أن يأتي بحقيقة تخالف ماجاء في قصة من القصص التي ذكرها القرآن الكريم ، نعم إنه قد يعجز عن أن يصل بوسائله الفنية المجردة إلى بعض ماذكره القرآن الكريم فيكون ماذكره القرآن زائداً

---

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم للدكتور محمد أحمد خلف الله ص ٥٤ ، وانظر ص ٢٧ – ٢٨ ، ١٨٢ .

(٢) في الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين « نقلاً عن كتاب « تحت راية القرآن » للرافعي ص ٥٤١ وما بعدها .

عن علم التاريخ المجرد ، وقد يعجز التاريخ المجرد عن أن يجد الدليل بأسلوبه الخاص على ماورد في القرآن الكريم ، ولكن يجب أن يلاحظ أن عجز علم التاريخ عن المعرفة أو الاستدلال ، ليس معناه عدم صحة ماجاء في القرآن ، فليس انتفاء العلم بالشيء دليلاً على عدم وجوده .

وهنا المزلق ؛ فالمؤرخون قسمان :

قسم لايؤمن بالقرآن الكريم ولا يتخذ وحيه ديناً – ومن هذا القسم المستشرقون – وهؤلاء يقولون : إن القرآن لا يصح أن يكون كتاباً تاريخياً يعتمد عليه في بحوثه الفنية المجردة عن أي اعتبار آخر ، وهم مدفوعون إلى هذا القول بحكم عقيدتهم ولا ينتظر منهم غير ذلك ، لأنهم لم يلتزموا التصديق والإيمان بالقرآن من قبل .

وقسم آمن بالقرآن وقام عنده الدليل على صدقه ، وعلى هؤلاء حينئذ واجبان :

أولهما : أن يكون أصدق الأدلة التاريخية عندهم وأثبتها ماجاء في هذا القرآن عن الأمم والعصور التي أرخ لها أو تناولتها آياته .

وثانيهما : أن يردوا عنه تكذيب الصنف الأول إن حاولوا ذلك أو أرادوه، وأن يقيموا لهم الدليل على خطئهم بالأسلوب التاريخي الفني ولن يعجزهم ذلك متى أرادوه .

ولكن بعض الباحثين من هذا القسم يحلو له أن يتشبه بأولئك ، فيجرد من شخصيته المؤمنة بالقرآن شخصية أخرى يدعي أنها تاريخية بحتة لا تهتم بأي اعتبار آخر ، ثم يمضي في بحثه متقمصاً هذه الشخصية الجديدة ، وينسى شخصيته الأولى فيزل ويهوي . والمؤلفان اللذان ذكرنا أقوالهما سابقاً – وهما صاحب (الفن القصصي في القرآن الكريم) وصاحب كتاب (في الشعر الجاهلي) متأثران في

دعواها بالخيالية الفنية في الأدب الأوروبي الحديث ، وبآراء أساتذتها من المستشرقين ، فقد قال بعضهم : إن بعض القصص القرآني كقصة أصحاب الكهف ، وقصة موسى في سورة الكهف قد بنيت على بعض الأساطير[1] ، وقال أحد المبشرين بأن قصة اسماعيل ملفقة[2] .

٢ — وهذه الفرية — أسطورة القصة القرآنية — قد سبق إليها المبطلون والمشركون في عهد نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ، فقد حكى الله مقالتهم بقوله : (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) ثم دحض زعمهم الباطل بقوله : (قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض) ، وجاء في القرآن الكريم أيضاً قوله : (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) .

٣ — والقرآن نفسه يقرر إعجازه التاريخي بأسلوب قطعي لا مجال فيه للشبهة أو الظن أو الاجتهاد ، يقرر ذلك حين يقص على نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ، قصص الأمم الغابرة ، وقصص إخوانه الأنبياء السابقين ، ثم يختم هذه القصص بالمن عليه بأنه لولا إخبار القرآن له بها ما كان يعلمها ، قاصداً بذلك أنه الوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقاصداً في الوقت نفسه تقرير الإعجاز بهذا العلم التاريخي الذي سماه المبطلون : (أساطير الأولين)

---

(١) راجع مادة (أصحاب الكهف) ومادة (اليـاس) من دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) هو صاحب كتاب (ذيل مقالة في الإسلام) وقد سمى نفسه : هاشم العربي ، انظر كتاب (نقض مطاعن في القرآن للشيخ محمد أحمد عرفة ص ١٠٢ — ١٠٤) وقد رد على كتاب (في الشعر الجاهلي) فريق من العلماء والأدباء منهم الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله في كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) والأستاذ محمد فريد وجدي رحمه الله في كتاب (نقد كتاب الشعر الجاهلي) والأديب مصطفى صادق الرافعي رحمه الله في كتابه (تحت راية القرآن) .

وجاراهم على زعمهم من أشرنا إليهما فقالا ما قالاه عن قصص القرآن . ولنستمع الآن إلى تقرير الإعجاز التاريخي في بعض نصوص القرآن ، ولنتأمل في هـذا التأكيد الإلهي بأن قصصه قد رويت بالحق .

قال تعالى – وهو أصدق القائلين – (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) .

وقال أيضاً : (وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) ، (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمـر وما كنت من الشاهدين) ، وقال : (وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا) ، وقـال : (ذلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) ، وقال : (إن هذا لهو القصص الحق) ، وقال : (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق) وقال : (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) .

٤ – ونحن كمسلمين يجب أن نسلم برواية القرآن إذا ناقضت رواية التوراة ، لأن القرآن الكريم آخر كتاب سماوي ، وهو إلى جانب ذلك بريء من التحريف ؛ كما يقرر الله سبحانه ذلك مراراً في مواضع متعددة من القرآن الكريم عندما يندد بمواقف اليهود في توراتهم التي ملأوها تحريفاً ودساً ، وقد اعترف مؤرخوهم أنفسهم قبل القرآن بتناقضها وتحريفها – كما فصلنا ذلك في مبحث التحريف والتبديل – وعلى ذلك يزول عجبنا من التناقض الذي نجده بين قصص القرآن الكريم وقصص التوراة ، ومع ذلك فالتوراة لم تستوف تاريخ كثير من الأنبياء : فهي مثلاً لم ترو حادثة إلقاء النمرود لإبراهيم في النار ، وموقفه مع أبيه وقومه ، ولا رحلته إلى الحجاز ، ولم تتحدث المراجع اليهودية عن أخبار عاد وثـمود ، ولا عن تسخير الجبال والطير لداود ، وتسخير الجن والريح لسليمان ، وغير ذلك من الأخبار التي انفرد بها القرآن الكريم . وبناء على ذلك فليس بنا حاجة إلى هذا التمحل البعيد الذي طالعنا به المؤلف بزعمـه أن قصص القرآن أسطوري ، ليرد بذلك

طعون المستشرقين و كتاب الفرنجة بزعمهم وجود مخالفات تاريخية في القرآن الكريم ، جاعلين توراتهم المحرفة مقياساً لهذا الزعم الباطل

٥ - إن ماقصده الشيخ محمد عبده ، وغيره من المفسرين القدامى والمحدثين من قولهم : إن القصص القرآني جاء للموعظة والعبرة لا لبيان التاريخ : هو أن لا ينصرف المسلمون عن هذه الغاية السامية إلى البحث عن تفاصيل هذا القصص ؛ كلون كلب أهل الكهف وعددهم ، وأوصاف ذي القرنين ... الخ ، ولم يقصدوا بحال من الأحوال أن المعاني التاريخية لهذا القصص قابلة للنقد، وللخلاف والإنكار كما زعم صاحب « القصص الفني في القرآن الكريم » .

ثم كيف تحدث العبرة والموعظة الحقة في قصة أسطورية مفتراة ؟!

٦ - أما الإنكار التاريخي لوجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهجرتهما إلى مكة – بالرغم من اعتراف المؤلف أن القرآن أكد وجودهما – فهو تكذيب صريح لقوله تعالى في سورة إبراهيم حكاية عنه عليه الصلاة والسلام : (وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ، ربّ إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم . ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) وقوله تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ، ولا أظن مؤمناً بالله و كتابه ورسوله يقول ذلك .

وقد أسرف بعض هؤلاء المستغربين في الطعن على القرآن العظيم ، وعلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فقال : (لا شك أن الباحث الناقد ، والمفكر الحر الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أي كتاب أدبي آخر ، يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين ، لا تربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة أو تأثر ببيئات

متباينة ، فمثلاً نرى القسم المدني أو (اليثربي) تلوح عليه أمارة الثقافة والاستنارة، ويمتاز القسم المكي بالهروب من المناقشة وبالخلو من المنطق ، فيقول : (قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون) إلى قوله (لكم دينكم ولي دين) ، ويمتاز كذلك بتقطع الفكرة ، واقتضاب المعاني ، وقصر الآيات ، والخلو التام من التشريع والقوانين ، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم .. أما القسم المدني فأفكاره منسجمة متسلسلة ترمي أحياناً إلى غايات اجتماعية وأخلاقية ، ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين ؟ فيقول : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ، كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث والوصايا ، والزواج ، والطلاق ، والبيوع ، وسائر المعاملات ، ولا شك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة ، والبيئة اليهودية التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائي الذي ظهر على أسلوب القرآن[1] .

ثم قال : مخاطباً طلابه (وهناك موضوع آخر يجب أن أنبهكم إليه ، وهو مسألة هذه الحروف العربية غير المفهومة التي تبتدىء بها بعض السور مثل : (الم) و (الر) و(طس) و(كهيعص) و (حم عسق) ... الخ ، فهذه كلمات ربما قصد منها التعمية أو التهويل ، أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف ، أو هي رموز وضعت لتميز بين المصاحف المختلفة ، ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً[2]) . أهـ .

---

(١) وهذا يتضمن أن النبي صلى الله عليه وسلم تعلم من اليهود حسب زعمه ، وأن القرآن من عمله ، فلما اكتسب ثقافة من اليهود ظهر ذلك في أسلوب القرآن المدني،وهـذا الزعم هو عين ما يردده المستشرقون ، وقد زيفناه فيما سبق (انظر ص ١٣ ؛ وما بعدها من هذا الكتاب) .

(٢) نقد القرآن الكريم : أملاه الدكتور طه حسين على طلبة كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٧ ، وانظر كتاب (نقض مطاعن في القرآن الكريم) للشيخ محمد أحمد عرفة ص ٤ وما بعدها .

وقد رد على هذه المفتريات عدد من العلماء الأفاضل منهم صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد أحمد عرفة في كتابه (نقض مطاعن في القرآن الكريم) والشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني رحمه الله في كتابه (مناهل العرفان في علوم القرآن)[1] وغيرهما . والرجوع إلى هذين الكتابين سهل ميسور .

... وهكذا لم يترك علماء الشريعة الأجلاء منفذاً لأي مستشرق موتور أو مستغرب مأجور ، فأتوا على شبه القوم من القواعد ، وكشفوا عن جهلهم الفاضح ، وكذبهم الآثم ، وضلالهم المبين ، وجاهدوا هذه الحملات الظالمة المتلاحقة بأقلامهم حتى ردوا كيد أصحابها إلى نحورهم ، وسهامهم إلى صدورهم ؛ فجزاهم الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) .

(١) انظر (١٩٩:١) من كتاب مناهل العرفان .

الخاتمة

وتشتمل على أربع نقاط :

١ ـــ آثار الإسرائيليات .

٢ ـــ مسؤولية المفسرين الذين رووها في كتبهم .

٣ ـــ واجب المفسرين إزاءها .

٤ ـــ مقترحات .

١ – آثار الإسرائيليات

لا شك أن لرواية الإسرائيليات أثراً سيئاً على الاسلام وعقائد المسلمين ، فمن ذلك :

أ – أنها فتحت لأعداء الله من المبشرين والمستشرقين منفذاً ينفذون منه إلى الطعن في الشريعة الغراء ، وفي الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وذلك لأنا وجدنا أن هؤلاء المستشرقين اتخذوا من هذه الإسرائيليات الباطلة المبثوثة في كتب التفسير ، وفي غيرها من الكتب دعامة من دعائم منهجهم في البحث لتشويه سمعة الإسلام عن قصد ، ووسمه – وهو دين الحق والعقل والفطرة – بميسم الجهل والخرافات حتى يجعلوا منها حجاباً بين الإسلام ومن يريد أن يعتنقه ، وحتى ينفروا أبناءه منه .

ب – استهوت بحوث هؤلاء المستشرقين – المبنية على الروايات الباطلة التي رواها المفسرون والأخباريون ومن على شاكلتهم ممن لا يميزون بين الغث والسمين – بعض الكتاب المسلمين المعاصرين الذين لم يتسلحوا بمعرفة حقيقة الدين ، وحقيقة هذه الروايات الدخيلة على الإسلام ، فساروا على نهجهم في الاستخفاف بالدين ، والغض من شأنه . ورددت هذه المفتريات باسم العلم حيناً ، وحرية البحث حيناً آخر ؛ وقد قام بعض الأجلة من علماء الأزهر بالجهاد في هذا الميدان فلهم من الله الجزاء ، ومن المسلم الغيور كل تقدير وإجلال .

جـ – إن كثيرين ممن ليسوا من أهل الحديث والمتفرغين له ؛ لم ينتبهوا إلى هذه الإسرائيليات واغتروا بها ، وأوردوها في احتجاجاتهم ومناظراتهم ، وتآليفهم ، وهذا أمر بالغ الخطورة على الدين وأهله ؛ لأن جمهور النـاس وعامتهم تقبلوا هذه

الإسرائيليات على أنها صحيحة لا غبار عليها ، وأذاعوها بين الناس مع أن بعضها مدسوس على الإسلام مشوّه له ، وقد ساعد على ذلك وجودها في كتب مشهورة، مؤلفوها أجلاء ، كما ساعد على انتشارها ضعف دراسة السنة ، والجهل بأحوال الرواة ، فبقيت راسخة في النفوس ، وقد عز على الهداة والمصلحين انتزاع هذه الأباطيل من عقول العامة وأشباههم .

د – اعتبرت هذه الإسرائيليات عقبات وأشواكاً في طريق التقدم الفكري الإسلامي ، لأنها كانت بعض ما شغل علماء المسلمين بتخلية الطريق منها ، فكان همّ جهابذتهم أن يقفوا منبهين إلى خطئها ومحذرين من خطرها ، وكانت لهم في بيان الأحاديث الموضوعة مؤلفات قيمة ، وكان لهم بجوار ذلك مؤلفات أخرى في قواعد القبول والرد للمرويات وقواعد الجرح والتعديل للرواة وغير ذلك مما يرجع إلى علم الحديث دراية .

هـ – ألحقت هذه الإسرائيليات بالتفسير الصحيح لآي الكتاب الكريم زعزعة واضطراباً ، وشغلت أذهان المسلمين بحيث صار جلّ أسئلتهم لمن يشتغل بالقرآن من العلماء عنها ، وكادت تغطي على ما في القرآن من مبادىء وأحكام ، ووصايا هي جوهر القرآن الذي فيه الهدى والذكرى والموعظة .

و – مزقت المسلمين شيعاً وأحزاباً ، فقد بث اليهود عقائد مختلفة ، ودسوا أحاديث موضوعة ، مما أثار موجة من الجدل العنيف ، والتعصب الذميم بين المسلمين [1] .

---

(١) كان لليهود أثر غير قليل في بعض المذاهب الإسلامية ، فمثلاً فكرة القدر والاختيار التي كانت مدار جدل حاد ، ونشأت في الأوساط الإسلامية هي الموضع الذي أصلها أهل الكتاب . وقد قيل إن أول من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانياً فأسلم ، ثم تنصر وأخذ عنه معبد الجهني ، وغيلان الدمشقي . (انظر تراث الإسلام ١ : ٢٧٥) .

وكان البطريق يوحنا الدمشقي يحمل لواء خصومة المسلمين وبث السموم بينهم ، وقد عاش وأبوه في قصر عبد الملك بن مروان ، وألف كتاباً للنصارى يدفع فيه دعوة المسلمين لدينهم (المرجع السابق ١ : ٢٤٧ – ٢٤٨) .

٢ - مسؤولية المفسرين الذين رووها في كتبهم

اغتر كثير من المفسرين بوجود هذه القصص المروية عن أهل الكتاب والمبثوثة في كتبهم ، فنقلوها في تفاسيرهم بكل ما فيها من حق وباطل . ومع ورود النهي الشديد عن تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم فيما لا نعرف صحته أو بطلانه ، ووجوب تكذيبهم فيما نعرف كذبه ، وتصديقهم فيما نعرف صدقه ، رأينا بعض المفسرين يصدقونهم فيما صح عندنا كذبه ، وما ثبت لنا عن المعصوم صلى الله عليه وسلم أنه باطل وافتراء .

ورغم تحذير بعض هؤلاء المفسرين من هذه الإسرائيليات ونقدهم لبعضها في كتبهم ، نراهم عند التطبيق قد ساقوا كثيراً منها وبخاصة عند توضيح جزئيات قصص القرآن ، وتعيين مبهماتها ، وتفصيل كيفياتها ووقائعها وظروفها .

والحق أن هذه الروايات التي امتلأت بها كتب التفسير قد استغرقت حيزاً كبيراً من هذه الكتب ، وكانت تشغل المفسرين وتستغرق جل تفكيرهم ، وأعتقد أن المسؤولية الأولى عن هذه الإسرائيليات التي امتلأت بها كتب التفسير لا تقع على عاتق أهل الكتاب - كما هو قائم في الأذهان - وإنما تقع على عاتق الرواة والمدونين القدماء ، سواء في ذلك الذين رووا ودونوا أجوبة أهل الكتاب وشروحهم لأول مرة في كتب لم تصل إلينا ، والذين دونوها في الكتب التي وصلت إلينا نقلاً عن الكتب المتقدمة . وكلهم مفروض فيه القدرة على تمييز الغث من السمين ، والباطل من الحق ، والكذب من الصدق ، وعلى إدراك ما في هذه

الروايات من غلو ومبالغات لا يصح كثير منها في عقل أو منطق أو واقع ، ولا يؤيدها أثر صحيح . ولا شك أن هناك مفسرين وقفوا من بعض هذه الروايات موقف المنكر الناقد — كما مر بنا — غير أن الحق يقتضي أن نقول : إن هذا لم يكن شاملاً ولا عاماً ، وإن الناقدين والمنكرين أنفسهم رووا كثيراً منها في مناسبات كثيرة بدون نقد أو إنكار كما أوضحنا ذلك في مناسبات عديدة .

وقد اعتذر بعض العلماء عن المفسرين في ملء تفاسيرهم بالإسرائيليات :

قال العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري رحمه الله في مقالاته ص ٣٤ : (إن كثيراً من المفسرين دونوا ما يظنون به أن له نفعاً لتبين بعض النواحي في أنباء القرآن الحكيم من معروف عصرهم المتوارثة من اليهود وغيرهم ، تاركين أمر غربلتها لمن بعدهم من النقاد ؛ حرصاً على إيصال تلك المعارف إلى من بعدهم ؛ لاحتمال أن يكون فيها بعض فائدة في إيضاح بعض ما أجمل من الأنباء في الكتاب الكريم ، لا لتكون تلك الروايات حقائق في نظر المسلمين يراد اعتقاد صحتها والأخذ بها على علاتها بدون تمحيص ، فلا تثريب على من دون الإسرائيليات ما دام قصده هكذا .

وقد اعتذر سليمان بن عبد القوي الطوفي عن المفسرين في ملء تفاسيرهم بالإسرائيليات بحمل قصدهم على ذلك ، في كتابه (الإكسير في قواعد التفسير) وضرب لذلك مثلاً صنيع رواة الحديث حيث عنوا بادىء ذي بدء بجمع الروايات كلها تاركين أمر التمييز بين صحاحها وضعافها لمن بعدهم من النقاد . وهذا اعتذار وجيه) .

وإذا كان بعض المفسرين الذين وقفوا من رواية الإسرائيليات موقفاً متشدداً ، كابن كثير ، قد استباح لنفسه أن يروي عند تفسيره لبعض الآيات بعض ما يحتمل الصدق والكذب من الإسرائيليات اعتماداً على قول رسول الله

صلى الله عليه وسلم : (. . وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) . . إذا كان بعض المفسرين يستبيح ذلك عند تفسيره لبعض الآيات ؛ فإن هذا المسلك لم يلق لدى بعض العلماء قبولاً . فالعلامة الشيخ أحمد شاكر رحمه الله يقول ناقداً لمسلك ابن كثير في روايته لهـــذا النوع من الإسرائيليات في تفسيره : (إن إباحة التحدث عن بني إسرائيل شيء ، وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات أو في تعيين ما لم يعين فيها أو تفصيل ما أجمل فيها شيء آخر ، لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه ، ومفصل لما أجمل فيه ، وحاشا لله ولكتابه من ذلك . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إذ أذن بالتحدث عنهم ـ أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم . فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله ، ونضعها منه موضع التفسير والبيان . اللهم غفراً[1]) .

والحـــق أن الكلام الذي قاله الشيخ أحمـــد شاكر منطقي معقول ، وأن اعتذار الطوفي وغيره من المفسرين لا يعفيهم أبداً من المسؤولية ، ولا يعفي من نقل عنهم جيلاً بعد جيل تلك الروايات الغريبـــة العجيبة التي شغلت الحيّز الكبير من كتب التفسير ، وأدت إلى تشويش الأذهان ، فوجود هـــذه الإسرائيليـات في أسفار اليهود وكتبهم لا يسوغ إيرادها في كتب التفسير على علاتها؛ حيث توهم من يقرؤها أنها بيان للقرآن وتوضيح لأهدافه ، مع أنها صارفة للذهن عما اقتضت حكمة التنزيل إيراده ، وبعضها من عمل القصاص ، ووضاع الحديث ، وأهل الدس والكيد من اليهود .

وقد عاب صاحب البحر المحيط على المفسرين الذين يضمنون تفاسيرهم مثل هذه الموضوعات والإسرائيليـات فقال : (. . . وكذلك ذكروا ما لا يصح

---

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ص ١٥/١ ، تحقيق أحمد محمد شاكر .

من أسباب النزول ، وأحاديث في الفضائل ، وحكايات لا تناسب ، وتواريخ إسرائيلية ، ولا ينبغي ذكر هذا في علم التفسير[1]) .

هذا وإن على عاتق علمائنا واجباً كبيراً نحو التفسير بالرواية ، ألا وهو نقد هذه المجموعة المركومة من التفسير النقلي متناً وسنداً ؛ لنستبعد منها كثيراً مما لا يستحق البقاء ، ونريح الناظرين في كتاب الله من الاتصال به إذا ما حاولوا تفهم الآية ، فلا يقفون عند شيء لا أساس له ، وذلك ما سنفصله فيما يلي :

* * *

(١) البحر المحيط ، المقدمة « ١ : ٥ » .

٣ ــ واجب المفسرين إزاء هذه الإسرائيليات

أ ــ علمنا أن كثرة النقل عن أهل الكتاب بدون تفرقة بين الصحيح والعليل دسيسة دخلت في ديننا ، واستفحل خطرها ، وقد نحا هذا النحو عدة من المفسرين زادوا في قصص القرآن ماشاؤوا من كتب التاريخ والإسرائيليات، وليتهم اقتصروا على النقل من التوراة والإنجيل والكتب المعتمدة لدى أهل الكتاب ، ولكنهم أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين ، ولا تمييز بين حق وباطل ، ولقد ظلت هذه الأكاذيب في كتبنا يتشبث بها الكائدون للإسلام والمسلمين .

ب ــ كما علمنا أن قوله صلى الله عليه وسلم : (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم) قاعدة تقضي بتصديق ما صدقه الشرع الإسلامي ، وتكذيب ما كذبه ، والتوقف فيما سوى ذلك ، وهذه القاعدة ينبغي على المفسر أن يتقيد بها ، ولا يجوز أن يعدل عنها بأي حال من الأحوال .

جـ ــ وبعد هذا وذاك نقول :

إنه يجب على المفسر أن يكون يقظاً إلى أبعد حدود اليقظة ، ناقداً إلى نهاية ما يصل إليه النقاد من دقة وروية ؛ حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات ما يناسب روح القرآن ، ويتفق مع العقل والنقل ، كما يجب عليه أن لا يرتكب النقل عن أهل الكتاب إذا كان في سنة نبينا صلى الله عليه وسلم بيان لمجمل القرآن[1] .

---

(١) فمثلا حيث وجد لقوله تعالى : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه =

كذلك يجب على المفسر أن يلحظ أن الضروري يتقدر بقدر الحاجة ، فلا يذكر في تفسيره شيئاً من ذلك إلا بقدر مايقتضيه بيان الإجمال ؛ ليحصل التصديق بشهادة القرآن فيكف اللسان عن الزيادة . قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : (وقد قلت لكم غير مرة : إنه يجب الاحتراس في قصص بني إسرائيل وغيرهم من الأنبياء ، وعدم الثقة بما زاد على القرآن من أقوال المؤرخين والمفسرين ، فالمشتغلون بتحرير التاريخ والعلم اليوم يقولون معنا : إنه لا يوثق بشيء من تاريخ تلك الأزمنة التي يسمونها أزمنة الظلمات إلا بعد التحري ، والبحث واستخراج الآثار ، فنحن نعذر المفسرين الذين حشوا كتب التفسير بالقصص التي لايوثق بها لحسن قصدهم ، ولكننا لانعول على ذلك ، بل ننهى عنه ونقف عند نصوص القرآن لا نتعداها ، وإنما نوضحها بما يوافقها ، إذا صحت روايته [1]) .

ويجب على المفسر أيضاً أن ينهج منهجاً معتدلاً ليس فيه إفراط أو تفريط في موقفه من القصص القرآني ، وذلك بالوقوف عند ما ورد في القرآن الكريم مع الاحتفاظ بدلالة الألفاظ اللغوية على معانيها وإفادتها لواقع هي تعبير صحيح عنه ، دون تزيد عليه بما لم يرد فيه ، اعتماداً على روايات لا سند لها كما صنع المفرطون [2] . ودون تحيف لمعانيها باعتبار أن الكلام تخييل لا يعبر عن واقع كما فعل المفرطون [3] ، ودون صرف للألفاظ عن معانيها الوضعية إلى معان

= جسداً ثم أناب » محل في السنة النبوية الصحيحة ، وهو قصة ترد «إن شاء الله» والمؤاخذة عليه ؛ فلا تركب قصة صخر المارد « انظر التفسير والمفسرون ١ : ١٨٦ وانظر ص ٢٤٦ وما بعدها من هذا الكتاب » .

(١) تفسير المنار « ١ : ٣٤٧ » .

(٢) وهو منهج جمهور المفسرين ويلوم على الإفراط في تحكيم الروايات الواردة من طرق مختلفة في فهم القصة القرآنية ، واعتبار كل ما ورد متصلاً بالقصة بياناً وتفصيلاً لما جاء في القرآن وذلك يتمثل في كثير من كتب التفسير حينما تصل إلى قصص الأنبياء مع أممهم كما نراه في حالة بني إسرائيل في التيه ؛ وكما نراه في وصف المائدة التي أنزلها الله .

(٣) انظر ردنا على صاحب كتاب الفن القصصي في القرآن الكريم ص ٤٢٠ وما بعدها من هذا الكتاب .

أخرى ، من غير صارف يمنع إجراء الكلام على ظاهره كما فعل أهل التأويل الذين حرفوا كثيراً من القرآن عن مواضعه ، وتنكبوا قانون العربية التي نزل بها [1].

وعلى المفسر أن لا يكتفي بالاعتماد على ذكر السند في كتاب كبير كتفسير ابن جرير ، فقد يذكر ابن جرير أو غيره أشياء غير صحيحة ، ويسوق أسانيدها ثم لا يبين المجروح من رجال السند ولا المعدَّل منهم ، وعذره في ذلك أن أحوال الرجال كانت معروفة لأهل ذلك الزمان فيستطيعون أن يحكموا في ضوء هذه المعرفة بقبول الخبر أو برده [2] . أما نحن في هذا الزمان المتأخر فقد أهملنا هذا الميزان ولم نعن بمعرفة حال الأسانيد والرجال ، لذا فلا معدى للمفسر – في عصر هذا شأن علمائه – عن الاسترشاد بكتب الجرح والتعديل قبل أن يقدم على نقل رواية من الروايات الموجودة في كتب التفسير .

وإذا لاحظ المفسر أن المتقدمين اختلفوا في تعيين مبهم من مبهمات القرآن الكريم ، وتوضيح جزئية من قصصه ، وكثرت أقوالهم وتقولهم فيها ، فلا مانع من نقل المفسر لهـذه الأقوال جميعاً ، على أن ينبه على الصحيح منها ، ويبطل الباطل ، وليس له أن يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ، لأن مثل هـذا العمل يعد ناقصاً لا فائدة فيه ما دام قد خلط الصحيح بالعليل ، وجرَّد الأقوال من الأسانيد ، ووضع أمام القارىء من الأقوال المختلفة ما يسبب

---

(١) وكثيراً ما يقصده بعض الباحثين دفعاً لما يثيره خصوم القرآن على القرآن ، ويدخل في هذا القسم تأويل إحياء الموتى المنسوب لعيسى عليه السلام بالاحياء الروحي ، وحمل النمل في قصة سليمان على أنه قبيلة ضعيفة ، وتأويل الكواكب في قصة إبراهيم بأنها جواهر نورانية نورها عقلي لا حسي ، وما نقله بعض الصوفية بأن المائدة التي أنزلها الله عبارة عن حقائق المعارف فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن . . الخ (انظر تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت رحمه الله ص ٥٠ وما بعدها) .

(٢) وهذه طريقة لبعض المؤلفين القدامى . ولعل هذه الطريقة كانت مستساغة في أيامهم لظهور المقصود ، ولكن تبين لنا الآن أنها جرت مشاكل وطعوناً عدة أتعبت العلماء بعدهم ، فليتهم لم يسلكوها .

له الحيرة والاضطراب . يشير إلى ما قلناه من جواز نقل الخلاف عن المتقدمين شريطة استيفاء الأقوال وتزييف الزائف منها ، وتصحيح الصحيح ، وأن من الخير أن يمسك الإنسان عن الخوض فيما لا طائل تحته ، ما جاء في الآية (٢٢) من سورة الكهف :(سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب . ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم مايعلمهم إلاقليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً) فقد اشتملت هذه الآية الكريمة –كما يقول ابن تيمية – على الأدب في هذا المقام ، وتعليم ماينبغي في مثل هذا ، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ، ضعّف القولين الأولين ، وسكت عن الثالث ، فدل على صحته ، إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما ، ثم أرشد أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته ، فقال في مثل هذا :(قل ربي أعلم بعدتهم) فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه ، فلهذا قال : (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً) أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب [1] .

على أن من الخير للمفسر أن يعرض كل الإعراض عن هذه الإسرائيليات ، وأن يمسك عما لا طائل تحته مما يعد صارفاً عن القرآن وشاغلاً عن التدبر في حكمه وأحكامه ؛ وبدهي أن هذا أحكم وأسلم . قال ابن العربي منفراً من الإسرائيليات : (فأعرض عن سطورها بصرك ، واصمم عن سماعها أذنيك ، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً ، ولا تزيد فؤادك إلا خبالاً [2]) . وقال ابن كثير : (وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة ، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذي ينفون عنها تحريف الضالين ، وانتحال المبطلين كما لهذه الأمة

---

(١) مقدمة ابن تيمية ص ٢٧ ، وانظر التفسير والمفسرون ﺟ ١ : ١٨٣ .

(٢) تفسير القرطبي ﺟ ١٥ : ٢١٠ .

من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء من الجهابذة النقاد ، والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث وحرروه ، وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره ، وموضوعه ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين ، وغير ذلك من أصناف الرجال ، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي ، خاتم الرسل سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، أن ينسب إليه كذب ، أو يحدث عنه بما ليس منه ، فرضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم[1]) .

وقال الشيخ محمود شلتوت رحمه الله : (وقد تتبع بعض المفسرين غرائب الأخبار التي ليس لها سند صحيح ، وأغدقوا من شرها على الناس وعلى القرآن ، وكان جديراً بهم أن يقيموا بينها وبين الناس سداً يقيهم البلبلة الفكرية فيما يتصل بالغيب الذي استأثر الله بعلمه ، ولم ير فائدة لعباده في أن يطلعهم على شيء منه . وإذا كان للناس بطبيعتهم ولع بسماع الغرائب وقراءتها ، فما أشد أثرها في إلهائهم عن التفكير النافع فيما تضمنه القرآن من آيات العقائد والأخلاق وصالح الأعمال[2] .

* * *

---

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ، تحقيق أحمد شاكر « ١ : ١٥ - ١٦ » .

(٢) الفتاوى ص ٤٦ .

٤ – مقترحات

من أجل ما تقدم أقترح على العلماء وبخاصة علماء الأزهر الشريف ما يلي:

١ – نقد هذه المجموعة المركومة من التفسير النقلي على هدي قواعد القوم في نقد الرواية متناً وسنداً ، ثم يستبعد منها الكثير الذي لا يستحق البقاء ، ولست أظن أن هذا العمل الشاق المضني يستطيع أن يقوم به فرد وحده، بل لابد من جماعة كبيرة تتفرغ له ويتسع أمامها الزمن ، وتتوفر لديها جميع المصادر والمراجع التي تتعلق بالموضوع وتتصل به .

٢ – تخريج الأحاديث الواردة في كتب التفسير كما فعل الحافظ الزيلعي في كتابه (نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية) ، وكما فعل ابن حجر في كتابه (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) ، وبذلك نميز الخبيث من الطيب ، ولا يؤخذ الكل بعيار واحد .

٣ – إلقاء المحاضرات التي تنبه الأذهان إلى خطر هذه الإسرائيليات ، والرقابة على الأئمة والخطباء والمتصوفة والقصاص وأضرابهم ممن تشيع على ألسنتهم الإسرائيليات ويذكرونها لاستمالة العامة ، كما يجب أن تفرض رقابة دقيقة على الكتب التي تدرس في دور العلم ومعاهده ، وبخاصة كتب التفسير والوعظ والتصوف ونحوها . ولكي يخرج هذا العمل الجليل كاملاً يجب أن يتولاه عدد من كبار العلماء ذوي الاختصاص .

٤ – بذل الجهود لإعادة طبع كتب السنة المعتمدة وبخاصة تلك التي

نبهت على الموضوعات والإسرائيليات وأن يحقق وينشــر القسم الذي ما زال مخطوطاً منها ومجهولاً لكثير من الباحثين حتى تتم الفائدة المرجوة منه .

٥ — أن تؤلف كتب أو رسائل خاصة تجمع فيها الإسرائيليات الموجودة في كتب التفسير — كل على حدة — ثم ينبه على زيفها ، فمثلاً تؤلف رسالة خاصة تستقصى فيها الإسرائيليات الموجودة في تفسير الثعلبي ، وأخرى يستقصى فيها ما في تفسير الخازن . . . وهكذا . . وبهذه الطريقة نجمع جميع الإسرائيليات الموجودة في كتب التفسير ليتحاشى الناس سمومها .

. . وبعد : فلما كان القرآن الكريم هو عمـــاد الإسلام فإن واجب علماء المسلمين نحوه واجب جد جسيم وعظيم . . واجبهم أن ينتبهوا لكل ما ألصق به من مفتريات وأباطيل ، وما يثار حوله من شكوك وأوهام ، وما يوجه إليه من طعون تستهدف الإساءة إليه ، بل القضـــاء عليه . . لذلك أقترح على طلاب الدراسات العليا في كلية أصول الدين أن تعالج رسائلهم التي يتقدمون بها للحصول على مؤهل علمي عال هذا الجانب الذي يمس كتابهم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . . وبهذا يكون الأزهر الشريف قد أسدى للاسلام والمسلمين أجل خدمة ، وقام بأقدس واجب عليه نحو دينه ، وليس سوى الأزهر من نعلق عليه آمالنـــا ورجاءنا . . والله نسأل أن يوفقنا لخدمة كتابه ، وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقرير عن هذا الكتاب

تقرير عن الرسالة المقدمة من السيد رمزي محمد كمال نعناعة للحصول على درجة العالمية « الدكتوراه » وموضوعها الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، والتي تمت مناقشتها يوم الإثنين ١٦ من ذي القعدة سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ٣/٢/١٩٦٩ م .

احتوت هذه الرسالة على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة .

أما المقدمة : فقد تكلم فيها عن مراحـــل التفسير منذ نشأته إلى أن تم تدوينه ، فتكلم عن التفسير أولاً في عهد الرسول عليه الصـــلاة والسلام وعهد الصحابة ، وثانياً عن التفسير في عهد التابعين ، وتكلم ثالثاً عن التفسير في عصور التدوين ، موضحاً سمات كل مرحلة ومميزاتها ومركزاً الحديث على منهج التفسير بالمأثور وما تطرق إليه من عوامل الضعف وذلك لصلته بموضوع الرسالة .

ثم تكلم عن علاقة القرآن الكريم بالكتب السماوية الأخرى ومنزلته منها، وبين بالدليل أن الإسلام في لغـــة القرآن ليس اسماً لدين خاص ؛ وإنما هو اسم لجميع الأديان (إن الدين عند الله الإسلام) فالإسلام هو الذي نادى به كل الأنبياء وانتسب إليه أتباعهم ، ثم عرض لبيان علاقة القرآن الكريم بغيره من الكتب السماوية وهي على حالتها الأولى قبل التحريف والتبديل ، ثم علاقته بها بعد أن طال عليها الأمد وتناولها التحريف والتبديل . ونظراً لأن التوراة والإنجيـــل

من أهم المصادر التي يستقى منها القصص الإسرائيلي ؛ فقد استطرد صاحب الرسالة إلى الكلام عن تحريفها وتبديلها مبتدئاً بالتوراة ، فتكلم عنها وعن محتوياتها ومصادرها وما نالها من التحريف ، مدللاً على ذلك بأدلة من واقع ماورد بها . ثم تحدث عن الإنجيل ، فعرف بالأناجيل الأربعة ومحتوياتها ومصادرها وما نالها من التحريف مدللاً على ذلك بأدلة من واقع هذه الأناجيل .

وتناول في الباب الأول من الرسالة : معنى كلمة « الإسرائيليات » فبين مفهومها وأنها تشمل عند إطلاقها كل دخيل على التفسير حتى ولو كان مصدره غير إسرائيلي ، وذلك من باب التغليب ، ثم فصّل القول في أقسام الإسرائيليات ؛ فبين أنها تنقسم إلى أقسام متعددة باعتبارات مختلفة موضحاً ذلك بالأمثلة ، ثم تحدث عن حكم رواية الإسرائيليات مستعرضاً أدلة المنع وأدلة الجواز ، وانتهى إلى التوفيق بينها ، ورجح جواز روايتها مشروطاً بقيود استنبطها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسلك صحابته رضوان الله عليهم .

ثم عرض صاحب الرسالة لبيان كيف امتزجت الثقافة الإسرائيلية بالثقافة الإسلامية وكيف تسربت الإسرائيليات إلى تفسير القرآن الكريم ، فذكر أولاً لمحة تاريخية عن هجرة اليهود إلى جزيرة العرب ، وبين دورهم الذي لعبوه بعد استقرارهم فيها وأثر ثقافتهم في جيرانهم من العرب قبل الإسلام وبعده ، ثم بين طرق تسرب هذه الثقافة الإسرائيلية إلى الثقافة الإسلامية ، وأن هذا التسرب لم يقتصر على كتب التفسير وحدها وإنما تعداها إلى غيرها من كتب التاريخ والمذاهب الكلامية وغيرها .

وأما الباب الثاني : فقد تناول فيه الحديث عن الإسرائيليات في دور الرواية مبيناً بالأدلة موقف الصحابة من روايتها وأنهم كانوا مقلين ومحتاطين في ذلك ، ثم دفع عنهم تهم الطاعنين عليهم بالتوسع في رواية الإسرائيليات والانخداع بروايتها من مسلمي أهل الكتاب . وقد اقتضى ذلك التعرض لموقف من اشتهر برواية الإسرائيليات من الصحابة ، مبيناً مسلكهم في روايتها ، مفنداً كل ماقيل فيهم

من تهم ، كابن عباس ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سلام ، وتميم الداري .

ثم عرض لموقف التابعين من الإسرائيليات وركز على اثنين من رواتها وهما : كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وأورد مطاعن بعض المعاصرين عليهما وفند هذه المطاعن . ثم عرض بعد ذلك لموقف تابع التابعين من الإسرائيليات ، وترجم لثلاثة من الذين اشتهروا برواياتها وهم : ابن جريج ، والكلبي ، وابن إسحق ، وأوضح حقيقة موقفهم من رواية الإسرائيليات .

ثم تكلم صاحب الرسالة عن الإسرائيليات في دور التدوين ؛ فأوضح أن الإسرائيليات قد استفحل خطرها بعد عصر تابع التابعين ، وأرجع ذلك إلى وجود طائفة من القصاص الذين لهم شغف برواية الإسرائيليات ، وإلى ترجمة التوراة وشروحها إلى اللغة العربية الأمر الذي يسر للمفسرين رجوعهم إليها واستمدادهم منها . وختم صاحب الرسالة هذا الباب بكلمة عن الإسرائيليات في كتب الحديث وكتب التاريخ موضحاً دور القصاص والزنادقة في ذلك .

وأما الباب الثالث : فقد عنون له بعنوان « الإسرائيليات في كتب التفسير » وهو أهم مباحث الرسالة . وفيه بين موقف المفسرين من الإسرائيليات بإيجاز ، وأنهم جميعاً من عهد ابن جرير الطبري إلى عهد السيد محمد رشيد رضا قد وقعوا في روايتها ؛ ولكن على تفاوت بينهم في ذلك قلة وكثرة ، وسكوتاً عنها وتعقيباً عليها ، وذلك بالرغم من تحذير بعضهم من روايتها وحملاته الشديدة على من رواها في تفسيره .

ثم بين موقف عدد من المفسرين من رواية الإسرائيليات في تفاسيرهم عارضاً نماذج مما أوردوه منها في كتبهم ، ناقداً لها متناً وسنداً .

وأما الباب الرابع : وهو آخر أبواب الرسالة فقد عقد فيه موازنة بين الإسرائيليات في كتب التفسير وبين مصادرها في أسفار أهل الكتاب ؛ مستخلصاً

من هذه الموازنة أن كثيراً من الإسرائيليات المبثوثة في كتب التفسير منقولة بنصها أو قريب منها من أسفار أهل الكتاب وأرجع ما يكون بين النصين من خلاف إلى اختلاف الترجمة وتزيدات القصاص والوضاعين .

ثم تحدث عن المستشرقين والإسرائيليات ، فمهد لحديثه بمقدمة تاريخية عن نشأة الاستشراق ؛ مبيناً خططه وأهدافه التي ترمي إلى تشويه جمـــال الإسلام وإثارة الشكوك من حوله . مستطرداً إلى انخداع بعض المثقفين من المسلمين ثقافة غربية بما يكتبه هؤلاء المستشرقون ، مبيناً خطر هؤلاء وهؤلاء على الإسلام وعقائد المسلمين ، مع إيراده لبعض شبه المستشرقين ومن حطب في حبلهم من المسلمين وتفنيده لهذه الشبه بالحجة الواضحة .

وأما الخاتمة : فقد حمّـــل صاحب الرسالة المفسرين مسؤولية روايتهم للإسرائيليات ونقلهم لها في تفاسيرهم ، ورفض اعتذار بعض العلماء عنهم؛مبيناً أن هذا الاعتذار لا يعفيهم أبداً من المسؤولية لأنهم جميعاً مفروض فيهم القدرة على تمييز الغث من السمين والباطل من الحق .

ثم بين واجب المفسرين إزاء هذه الإسرائيليات ، وأن على المفسر أن يكون يقظاً إلى أبعد حدود اليقظة ، ناقداً إلى نهاية ما يصل إليه النقاد من دقة وروية ؛ حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات ما يناسب روح القرآن ويتفق مع العقل والنقل .

وختم صاحب الرسالة رسالته بذكر مقترحات اقترحها لتنقية كتب التفسير من الإسرائيليات ونفي خبثها عن كتاب رب العالمين .

وقد تناول صاحب الرسالة كل ما تقدم من أبحاث بعبارة علمية سليمة ، وعالجها ببصيرة مدركة لدقائقها ، ملمة بكل جوانبها ، مع إبداء رأيه عند اختلاف الرأي في دقة وبراعة ، تكشف عن شخصيته كباحث قرأ من المراجع المختلفة ما شاء الله أن يقرأ ، ونقد منها ما يستحق النقد ، وتوصل إلى نتائج علمية قيمة ،

فبين موقف العلمـــاء وواجبهم نحو الدفاع عن الاسلام ومحاربة الإسرائيليات ، ورسم لذلك منهجاً قيماً بين فيـه كيف يجب أن تكون الجهود المبذولة لمكافحة هذه الإسرائيليات ، وشرح الوسائل العلميـة التي يكون بها الكفاح ، وعدَّد لذلك طرقاً اقترحها وهي طرق ناجحة متى التزمت ، سواء ما كانت منها بتنقيح الكتب المحتوية على الإسرائيليات أو التعليق عليها أو إرشاد الطلاب إلى سلوك هذا الميدان في رسائلهم ومحاضراتهم ، وكيف يجب أن تستغل وسائل النشر من صحافة وإذاعة في الكشف عن خطر هذه الإسرائيليات ، وتنبيه الجماهير إلى أثرها السيء على العقيدة . وهي مقترحات عملية إن اتبعت . وبالجملة فقد ناقشته اللجنة مناقشة علمية في كل آرائه المبتكرة وتعليقاته على آراء العلمـــاء السابقين ، ورأت منه اطلاعاً واسعاً وعلماً نافعاً .

لذلك رأت اللجنة منحه درجة العالميـــة « الدكتوراة » مع مرتبة الشرف الثانية .

أعضاء اللجنة : ١ ـ محمد علي أبو الروس ٢ ـ محمد محمد أبو زهرة ٣ ـ أحمد السيد الكومي .

إمضاء

مراقب الكلية

الفهرس

الموضوع	الصحيفة

الموضوع	الصحيفة

الموضوع	الصحيفة
الباب الثاني :	
الفصل الاول : الاسرائيليات في دور الرواية	١١٧ — ١٩٧
١ — موقف الصحابة من الاسرائيليات	١١٧ — ١٢٢
٢ — من اشهر برواية الاسرائيليات من الصحابة	
أ — ابن عباس	١٢٣ — ١٣٢
أشهر الطرق عن ابن عباس	١٢٤ — ١٢٥
رجوع ابن عباس إلى أهل الكتاب	١٢٦
اتهام ابن عباس بالتوسع في الأخذ عن أهل الكتاب	١٢٦ — ١٢٨
الوضع على ابن عباس وأسبابه	١٢٨
نقد بعض الروايات التي رويت عن ابن عباس في كتب التفسير	١٢٨ — ١٣٢
ب — أبو هريرة	١٣٢ — ١٤٣
عدة ما روي عنه من الحديث	١٣٣
أصح الطرق عن أبي هريرة	١٣٣ — ١٣٤
هل كان أبو هريرة تلميذاً لكعب الأحبار؟	١٣٤ — ١٤٣
جـ — عبد الله بن عمرو بن العاص	١٤٣ — ١٥٩
منبع ثقافته	١٤٤ — ١٤٧
عبدالله بن عمرو وروايته عن رسول الله ﷺ	١٤٧ — ١٥١
عبد الله بن عمرو ورواية الإسرائيليات	١٥٢ — ١٥٣
عبد الله بن عمرو ليس تلميذاً لكعب الأحبار	١٥٣ — ١٥٩
د — عبد الله بن سلام	١٥٩ — ١٦١
هـ — تميم الداري	١٦١ — ١٦٤

الموضوع	الصحيفة

الموضوع	الصحيفة

الموضوع	الصحيفة

فهرس الأعلام (٠)

---

(٠) لم أذكر في هــذا الفهرس أسماء رجال السند إلا الصحابة ، ولا أسماء أصحاب الكتب المخرجة للأحاديث والآثار ، ولا أسماء مؤلفي الكتب حين ترد أسماؤهم إلى جانب كتبهم في الحواشي ، والسبب في إهمالي هذه الأسماء هو عــدم الفائدة من ذكرها . وألفت نظر القارىء الكريم إلى أن يسقط في بحثه في هذا الفهرس مايلي : (ال ، أبو ، ابن ، ابن أبي .) وكذلك ألفت النظر الى أنه الاسم قد يتكرر في الصحيفة الواحدة أكثر من مرة في المتن أو الحاشية .

ب

ج

ح

س

ش

ن

فهرس الآيات القرآنية (*)

(*) اتبعت في هذا الفهرس ترتيب سور القرآن الكريم ، وجعلت رقم الآية في سورتها المذكورة بين قوسين ، بينما جعلت الرقم الأخير للصحيفة التي وردت فيها الآية .

وليعلم القارىء الكريم أني أوردت في هذا الفهرس الآيات التي روي في تفسيرها آثار إسرائيلية فقط، لأن هذا الأمر هو الذي يهم القارىء . ومعظم هذه الآيات وردت في الباب الثالث من هذا الكتاب .

سورة الرعد

سورة الإسراء

سورة الكهف

سورة مريم

سورة طه

سورة الأنبياء

سورة الشعراء

فهرس الأحاديث الشريفة

همزة الوصل

همزة القطع

حرف الباء

حرف التاء

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

ملاحظة : قام بوضع فهارس الأعلام والآيات والأحاديث

محمد علي دولة

المراجع

١ — القرآن الكريم .

٢ — أبو حنيفة : لفضيلة الأستاذ محمد أبو زهرة ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ط ٣ ، سنة ١٩٦٠ م .

٣ — الاتقان في علوم القرآن للسيوطي : الطبعة الثالثة سنة ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م ، طبع مصطفى البابي الحلبي .

٤ — الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة : للقرافي (بهامش كتاب « الفارق بين المخلوق والخالق ») ، مطبعة الموسوعات بمصر .

٥ — أحكام القرآن : لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي ، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨م ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية

٦ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : لأبي السعود ، المطبعة المصرية ، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٧ هـ .

٧ — إرشاد الساري شرح البخاري : القسطلاني ، المطبعة الأميرية ، سنة ١٣٢٥ هـ .

٨ — الاساطير العربية قبل الاسلام : لمحمد عبد المعيد خان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ م .

٩ — الاستيعاب في معرفة الأصحاب : لابن عبد البر ، مطبعة نهضة مصر .

١٠ — أسد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير الجزري ، المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٠ هـ .

١١ — الاسرائيليات في التفسير والحديث : لفضيلة الأستاذ محمد حسين الذهبي مطبعة الأزهر سنة ١٩٦٨ م .

١٢ — الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للاسلام : لعلي عبد الواحد وافي ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م ، مطبعة لجنة البيان العربي .

١٣ — الاسلام : لألفريد جيوم ، ترجمة محمد عمارة وشوقي الهاني السكري ، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨ م ، مكتبة النهضة المصرية .

١٤ — أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد من العدد : لابن حزم الأندلسي (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

١٥ — الاصابة في تمييز الصحابة : لابن حجر ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٣ هـ والمطبعة الشرقية سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م .

١٦ — أضواء على السنة المحمدية : لمحمود أبو رية ، الطبعة الأولى ، مطبعة دار التأليف بمصر سنة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م .

١٧ — إظهار الحق : لرحمة الله الهندي، ط المطبعة العامية سنة ١٣١٥ هـ بمصر .

١٨ — الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : للسخاوي ، مطبعة الترقي بدمشق ، سنة ١٣٤٩ هـ .

١٩ — الأقوال القوية في حكم النقل من الكتب القديمة : للبقاعي (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

٢٠ — الاكسير في قواعد علم التفسير : لنجم الدين سليمان بن عبد القوي الطوفي (مخطوطة مصورة بالمكتبة الأزهرية) .

٢١ — الله : لعباس محمود العقـــاد ، الطبعة الخامسة ، مطبعـــة دار المعارف بمصر .

٢٢ — الآلوسي مفسراً : لمحسن عبد الحميد (رسالة مخطوطة بجامعة القاهرة)

٢٣ — أنوار التنزيل وأسرار التأويل : للبيضاوي ، الطبعة الأولى ، مطبعة البابي الحلبي سنة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م .

٢٤ – الأنوار الكاشفة لما في كتاب (أضواء على السنة) من الزلل والتضليل والمجازفة : لعبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، المطبعة السلفيـــة بالقاهرة ، سنة ١٣٧٨ هـ .

٢٥ – البداية والنهاية : لابن كثير ، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٨ هـ ، مطبعة كردستان العلمية ، وطبعة مطبعة السعادة طبعة أولى سنة ١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م .

٢٦ – البارع الفصيح في شرح الجامع الصحيح : لأبي البقاء محمد بن خلف الأحمدي (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

٢٧ – الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث (للحافظ ابن كثير) : لأحمد محمد شاكر ، طبع صبيح بالقاهرة سنة ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م .

٢٨ – البحر المحيط : لأبي حيان ، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٨ هـ ، مطبعة السعادة

٢٩ – بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب : لعبد العزيز الدوري ، المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٦٠ .

٣٠ – بدع التفاسير : لعبد الله محمد الصديق الغماري ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م ، دار الطباعة المحمدية .

٣١ – البرهان في علوم القرآن : للزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة أولى سنة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م ، دار إحياء الكتب العربية .

٣٢ – تاريخ العرب قبل الاسلام : لجواد علي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م .

٣٣ – تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام : لاسرائيـل ولفنسون ، مطبعة الاعتماد سنة ١٩٢٧ .

٣٤ – تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم : لمحمد عزة دروزة ، مطابع شركة الاعلانات الشرقية .

٣٥ – تاريخ عمرو بن العاص : لحسن إبراهيم حسن ، طبعة أولى ، مطبعة السعادة سنة ١٣٤٠ هـ ١٩٢٢ م .

٣٦ – تاريخ الاسلام : للذهبي ، طبع المقدسي بالقاهرة ، سنة ١٣٦٧ هـ – ١٩٤٧ م .

٣٧ – تأويل مختلف الحديث : لابن قتيبة ، الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م .

٣٨ – تاريخ الرسل والملوك : للطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية ، مطبعة دار المعارف سنة ١٩٦٧ م .

٣٩ – تدريب الراوي : للسيوطي ، تحقيق فضيلة الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف الطبعة الأولى سنة ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م .

٤٠ – تذكرة الحفاظ : للذهبي ، طبع الهند .

٤١ – التفسير والمفسرون : لفضيلة الأستاذ محمد حسين الذهبي ، طبع دار الكتب الحديثة سنة ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م .

٤٢ – تفسير المراغي : لأحمد مصطفى المراغي ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م ، طبع مصطفى البابي الحلبي .

٤٣ – تحت راية القرآن : لمصطفى صادق الرافعي ، الطبعة الخامسة ، سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

٤٤ – تراث الاسلام : لألفرد جيوم ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٣٦ .

٤٥ – تفسير الجلالين : للجلال المحلي والجلال السيوطي ، المطبعة السعيدية .

٤٦ – تفسير سورة الفاتحة مع ثلاث مقالات تفسيرية : للشيخ محمد عبده ، مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣١٩ هـ .

٤٧ – تفسير القرآن الكريم : لمحمود شلتوت ، الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦ م ، طبع دار القلم بالقاهرة .

٤٨ – التفسير ـ معالم حياته ، منهجه اليوم : لأمين الخولي ، مطبعـة دار المعلمين للطبع والنشر سنه ١٩٤٤ .

٤٩ – تفسير جزء عم : للأستاذ الامام محمد عبده ، الطبعة السادسة ، طبع مطابع الشعب .

٥٠ – تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار : لمحمد رشيد رضا ، الطبعة الرابعة ، سنة ١٣٧٩ هـ ١٩٦٠ م .

٥١ – تفسير القرآن العظيم : لابن كثير ، طبع دار إحياء الكتب العربية .

٥٢ – التفسير الكبير : لمقاتل بن سليمان ، تحقيق الدكتور عبـد الله محمود شحاتة (مخطوطة بمكتبة كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة) .

٥٣ – تفسير سورة يوسف : للشيخ رشيد رضا ، الطبعة الأولى ، سنة١٣٥٥هـ ١٩٣٦ م ، مطبعة المنار بمصر .

٥٤ – التلمود شريعة إسرائيل : تأليف لجنة من الأساتذة ، طبع دار القاهرة للطباعة ، سنة ١٩٥٧ م .

٥٥ – تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة : لابن عراق ، تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ، طبع مكتبة القاهرة سنة ١٣٧٨ هـ .

٥٦ – تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : على هامش تفسير الدر المنثور للسيوطي .

٥٧ – التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع : للملطي ، تحقيق محمد زاهـد الكوثري ، نشر الثقافة الاسلامية سنة ١٣٦٩ هـ ١٩٤٩ م .

٥٨ – تهذيب الكمال في أسماء الرجال : لأبي الحجاج يوسف المزي (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

٥٩ – تقريب التهذيب : لابن حجر ، تحقيق وتعليق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٣٨٠ هـ .

٦٠ – تهذيب التهذيب : لابن حجر ، مطبعة دائرة المعارف النظامية بالهند ، سنة ١٣٢٧ هـ .

٦١ – التوراة ـ عرض وتحليل : لفؤاد حسنين علي ، مطبعة دار المستقبل سنة ١٩٤٦ .

٦٢ – الجامع الصحيح : للبخاري ، طبع مطابع الشعب ، سنة ١٣٧٨هـ .

٦٣ – الجامع الصحيح : لمسلم ، بشرح النووي ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ .

٦٤ – الجامع لأحكام القرآن : للقرطبي ، الطبعة الأولى والطبعة الثانية سنة ١٣٥١ هـ ، ١٣٨٠ هـ ، مطبعة دار الكتب المصرية .

٦٥ – الجامع الصحيح (سنن الترمذي) تحقيق أحمد محمد شاكر ، ومحمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ، مطبعة البابي الحلبي ، سنة ١٩٣٧ م .

٦٦ – جامع البيان في تفسير القرآن : لمحمد بن جرير الطبري ، طبعة دار المعارف سنة ١٩٥٧ ، والمطبعة الأميرية سنة ١٣٢٨ هـ .

٦٧ – الحديث والمحدثون : لفضيلة الأستاذ محمد أبو زهو ، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٨ هـ – سنة ١٩٥٨ م ، مطبعة مصر .

٦٨ – حلية الأولياء : لأبي نعيم ، مطبعة السعادة سنة ١٣٥١ هـ .

٦٩ – حياة محمد : لمحمد حسين هيكل ، الطبعة التاسعة ، طبع مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٦٥ م .

٧٠ – الحيوان ، للجاحظ ، بتحقيق عبد السلام هارون ، طبع مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠ م .

٧١ – خطط المقريزي « المواعظ والاعتبار » : لأحمد بن علي المقريزي ، طبع مصر ، سنة ١٢٧٠ هـ.

٧٢ ـ خلاصة تاريخ المسيحية في مصر (تاريخ الأمة القبطية) : تأليف لجنة التاريخ القبطي ، مطبعة التوفيق ، سنة ١٩٢٢ م .

٧٣ ـ دائرة معارف القرن العشرين : لمحمد فريد وجدي، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين ، سنة ١٣٤١ هـ ـ ١٩٢٣ م .

٧٤ ـ دائرة المعارف الاسلامية : ترجمة أحمد الشنتناوي وآخرون .

٧٥ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور : للسيوطي ، المطبعة الاسلامية بطهران ، سنة ١٣٧٧ هـ .

٧٦ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : لابن حجر ، طبع الهند سنة ١٣٤٨ هـ .

٧٧ ـ دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين : لفضيلة الأستاذ محمد محمد أبو شهبة ، مطبعة الأزهر ، سنة ١٩٦٧ م .

٧٨ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب : لابن فرحون ، مطبعة السعادة سنة ١٣٢٩ هـ .

٧٩ ـ رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار) : طبع المطبعة الأهلية بباريس .

٨٠ ـ الرد على الجهمية (رد الدارمي على بشر المريسي) : لعثمان بن سعيد الدارمي ، مطبعة أنصار السنة المحمدية بالقاهرة ، سنة ١٣٥٨ هـ .

٨١ ـ رشيد رضا الامام المجاهد : لابراهيم أحمد العدوي ، مطبعة مصر .

٨٢ ـ رشيد رضا ـ صاحب المنار ـ عصره ، وحياته ، وجهوده الأدبية واللغوية : للشيخ أحمد الشرباصي (رسالة دكتوراة مخطوطة بكلية الدراسات العربية ـ بجامعة الأزهر) .

٨٣ ـ رسالة في جمع القرآن والرد على ما يثار حوله من مطاعن : لمحمد فريد العبادي (رسالة دكتوراة مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين) .

٨٤ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : للآلوسي ، طبعة إدارة الطباعة المنيرية .

٨٥ – زاد المعاد في هدي خير العباد : لابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر) : طبع الحلبي .

٨٦ - السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير : للخطيب الشربيني ، المطبعة الأميرية ، سنة ١٢٩٩ هـ .

٨٧ – السنة قبل التدوين : للدكتور محمد عجاج الخطيب ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م ، مطبعة أحمد مخيمر بالقاهرة .

٨٨ سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي : المطبعة المصرية بالأزهر ، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م .

٨٩ – السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : للأستاذ الدكتور مصطفى السباعي ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٠ هـ ١٩٦١م ، مطبعة المدني .

٩٠ - سير أعلام النبلاء : للذهبي ، طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٥ م ، (الأجزاء ١، ٢، ٣) ، وبقية الأجزاء مخطوطة بدار الكتب المصرية .

٩١ – سيرة النبي ﷺ : لعبد الملك بن هشام ، بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م .

٩٢ – سنن الدارمي : لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، شركة الطباعة الفنية المتحدة سنة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م .

٩٣ – السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية : لفان فلوتن ، ترجمة وتعليق حسن ابراهيم حسن ، ومحمد زكي ابراهيم ، الطبعة الثانية ، مطبعة السنة المحمدية .

٩٤ – شرح القاري على شفاء القاضي عياض (مع نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض للشهاب الخفاجي) .

٩٥ – الشفاء بتعريف حقوق المصطفى : للقاضي عياض ، طبع الأستانة سنة ١٣١٢ هـ .
٩٦ – شذرات الذهب في أخبار من ذهب : لابن العماد الحنبلي ، مطبعة الصدق الخيرية ، نشر المقدسي سنة ١٣٥٠ هـ .
٩٧ – الصديق أبو بكر : لمحمد حسين هيكل ، الطبعة الرابعة سنة ١٣٧٧ هـ ، ١٩٥٨ م ، مطبعة مصر .
٩٨ – ضحى الاسلام : لأحمد أمين ، الطبعة السابعة سنة ١٩٦٤ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٩٩ – طبقات الحفاظ : للذهبي ، طبع الهند سنة ١٣١٥ هـ .
١٠٠ – طبقات ابن سعد : طبع بيروت سنة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٧ م ، وطبع مطبعة بريل بليدن سنة ١٣٢٢ هـ .
١٠١ – طبقات المفسرين للسيوطي : طبع ليدن سنة ١٨٣٩ م .
١٠٢ – طبقات الشافعية الكبرى : للسبكي ، المطبعة المصرية ، الطبعة الأولى .
١٠٣ – طبقات المفسرين : للداودي ، مخطوطة بدار الكتب المصرية .
١٠٤ – ظلام من الغرب : لفضيلة الأستاذ محمد الغزالي ، نشر دار الكتب الحديثة ، مطبعة السعادة .
١٠٥ – عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : اختصار وتحقيق الشيخ أحمد شاكر ، طبع دار المعارف سنة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٦ م .
١٠٦ – العقيدة والشريعة في الاسلام : لأجناس جولد تسيهر : ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون ، طبعة ثانية ، مطبعة دار الكتاب العربي .
١٠٧ – عيون الأنباء في طبقات الأطباء : لابن أبي أصيبعة ، المطبعة الوهبية ، سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨٢ م ، الطبعة الأولى .
١٠٨ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري : لابن حجر ، طبعة الحلبي سنة ١٣٧٨ هـ وطبعة المطبعة البهية المصرية .

١٠٩ – الفارق بين المخلوق والخالق : لعبد الرحمن باجـه جي زادة ، مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣٢٢ هـ .

١١٠ – الفتاوى : للشيخ محمود شلتوت ، الطبعة الثالثة ، مطبعة دار القلم .

١١١ – فتاوى ابن تيمية : مطبعة كردستان العلمية سنة ١٣٢٩ هـ .

١١٢ – فجر الاسلام : لأحمد أمين ، الطبعة التاسعة سنة ١٩٦٤ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

١١٣ – الفصل في الملل والأهواء والنحل : لابن حزم ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأدبية ، سنة ١٣١٧ هـ .

١١٤ – الفوز الكبير في أصول التفسير : لولي الله الدهلوي ، طبع إدارة الطباعة المنيرية ، سنة ١٣٤٦ هـ .

١١٥ – الفوائد البهية في تراجم الحنفية : لمحمد اللكنوي ، مطبعة السعادة ، سنة ١٣٢٤ هـ .

١١٦ – الفن القصصي في القرآن الكريم : لمحمد أحمد خلف الله،الطبعة السادسة الناشر مكتبة الأنجلو المصرية .

١١٧ – قاموس الكتاب المقدس : لجورج بوست ، طبع بيروت ، المطبعة الأمريكانية ، سنة ١٨٩٤ م .

١١٨ – قصة الحضارة : لول ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٦١ م ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

١١٩ – قصص الأنبياء : لعبد الوهاب النجار ، مطبعة المدني سنة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م بالقاهرة .

١٢٠ – القصص الهادف كما نراه في سورة الكهف : للشيخ محمد محمد المدني ، مطابع شركة الاعلانات الشرقية ، سنة ١٣٨٤ هـ .

١٢١ – الكامل في التاريخ : لابن الأثير ، إدارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٨ هـ

١٢٢ – الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) : طبع القاهرة .

١٢٣ – كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : لحاجي خليفة ، طبعة وكالة المعارف الجليلة بإستنبول سنة ١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م .

١٢٤ – الكشاف : للزمخشري ، الطبعة الثانية ، المطبعة الأميرية سنة ١٣١٨هـ

١٢٥ – الكشف والبيان عن تفسير القرآن : للثعلبي (مخطوطة بمكتبة الأزهر)

١٢٦ – الكفاية في علم الرواية : للخطيب البغدادي ، طبع الهند سنة ١٣٥٧ هـ

١٢٧ – الكنز المرصود في قواعد التلمود : للدكتور روهلنج ، ترجمة يوسف نصر الله .

١٢٨ – لباب التأويل في معاني التنزيل : للخازن ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٨١ هـ .

١٢٩ – اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة : للسيوطي ، طبع مصر .

١٣٠ – لسان الميزان : لابن حجر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٢٩ هـ ، طبع الهند

١٣١ – لسان العرب : لابن منظور ، الطبعة الأولى سنة ١٣٠٠ هـ ، المطبعة الأميرية .

١٣٢ – محاضرات في النصرانية : للأستاذ محمد أبو زهرة ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ ، مطبعة دار الكتاب العربي .

١٣٣ – محاسن التأويل : للقاسمي ، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م طبع دار إحياء الكتب العربية .

١٣٤ – المفسرون والمستشرقون في موقفهم من الاسلام : لمحمد البهي ، مطبعة الأزهر .

١٣٥ – مدارك التنزيل وحقائق التأويل : للنسفي ، طبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية بالقاهرة ، سنة ١٣٨١ هـ ١٩٦٢ م .

١٣٦ ــ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : لابن عطية (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .
١٣٧ ــ مرآة الجنان ، وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان : لليافعي ، طبع الهند ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٣٩ هـ .
١٣٨ ــ مذاهب التفسير الاسلامي : لجولد تسيهر ، ترجمة عبد الحليم النجار ، مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٧٤ هـ ، وترجمة علي حسن عبد القادر ، مطبعة العلوم ، سنة ١٩٤٤ م .
١٣٩ ــ مروج الذهب : للمسعودي ، المطبعة البهية . سنة ١٣٤٦ هـ .
١٤٠ ــ المصباح على مقدمة ابن الصلاح : لمحمد راغب الطباخ ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م ، المطبعة العلمية بحلب .
١٤١ ــ المسند : للامام أحمد بن حنبل ، بشرح أحمد شاكر ، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .
١٤٢ ــ المسيحية : لأحمد شلبي ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥ م ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
١٤٣ ــ معالم التنزيل : للبغوي (على هامش تفسير الخازن) ، مطبعة الاستقامة بمصر ، سنة ١٣٨١ هـ .
١٤٤ ــ معجم الأدباء : لياقوت ، مطبعة عيسى الحلبي سنة ١٩٣٦ م .
١٤٥ ــ مفتاح السعادة ومصباح السيادة : لطاش كبرى زادة ، طبع الهند ، الطبعة الأولى .
١٤٦ ــ مفاتيح الغيب : للفخر الرازي ، طبع عبد الرحمن محمد ، المطبعة البهية المصرية ، سنة ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م .
١٤٧ : مقاتل بن سليمان ومنهجه في التفسير مع تحقيق تفسيره الكبير : للدكتور عبد الله محمود شحاتة (رسالة دكتوراة مخطوطة بمكتبة كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة) .

١٤٨ – مقدمة ابن الصلاح : طبع الهند سنة ١٣٥٧ هـ .

١٤٩ – مقدمة التمهيد : لابن عبد البر (مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات في الجامعة العربية) .

١٥٠ – مقالات الكوثري : لمحمد زاهد الكوثري ، مطبعة الأنوار بالقاهرة .

١٥١ – مقدمة ابن خلدون ، تحقيق وتعليق الدكتور وافي : طبع لجنة البيان العربي ، طبعة أولى سنة ١٣٧٩ هـ ، وطبعة المطبعة الأزهرية ، ١٩٣٠ .

١٥٢ – مقدمة في أصول التفسير : لابن تيمية ، المطبعة السلفية ، سنة ١٣٧٠ هـ وطبعة مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٩٣٦ م .

١٥٣ – المعارف : لابن قتيبة ، الطبعة الأولى ، المطبعة الاسلامية بمصر ، سنة ١٣٥٣ هـ ١٩٣٥ م .

١٥٤ – المنتخب الجليل من تخجيل من حرف الإنجيل : لأبي الفضل المالكي ، طبع مطبعة التمدن بالقاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

١٥٥ – من التلمود : طبع مطابع شركة الاعلانات الشرقية سنة ١٣٨٧ هـ .

١٥٦ – مناهل العرفان في علوم القرآن : للزرقاني ، الطبعة الثالثة ، طبع دار إحياء الكتب العربية .

١٥٧ – الموافقات : للشاطبي ، طبع تونس سنة ١٣٠٢ هـ .

١٥٨ – نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن : للسيد أحمد خليل ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م .

١٥٩ – نظم الدرر في تناسب الآي والسور : للبقاعي (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

١٦٠ – نقض مطاعن في القرآن الكريم : للشيخ محمد أحمد عرفة ، الطبعة الأولى ، مطبعة المنار سنة ١٣٥٠ هـ .

١٦١ – النجوم الزاهرة : لابن تغري بردي ، مطبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٣٤٨ هـ ١٩٢٩ م .

١٦٢ – وفيات الأعيان : لابن خلكان ، المطبعة الأميرية سنة ١٢٩٩ هـ ، ومطبعة السعادة سنة ١٩٤٨ م .
١٦٣ – الوافي بالوفيات : للصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) المطبعة الهاشمية في دمشق ، سنة ١٩٥٩ م .
١٦٤ – وحي القلم : لمصطفى صادق الرافعي ، مطبعة دار الاتحاد العربي للطباعة ، نشر المكتبة التجارية .
١٦٥ – هداية الحيارى من اليهود والنصارى : لابن القيم (بهامش كتاب « الفارق بين المخلوق والخالق ») ، مطبعة الموسوعات بمصر .
١٦٦ – اليهودية : لأحمد شلبي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٦م.

دوريات

١٦٧ – مجلة الأزهر (القاهرة)
١٦٨ – مجلة الرسالة (القاهرة)
١٦٩ – مجلة المنار (القاهرة)
١٧٠ – مجلة لواء الإسلام (القاهرة)
١٧١ – مجلة المجمع العلمي العراقي (بغداد)
١٧٢ - مجلة الوعي الإسلامي (الكويت)

* * *

أخطاء نرجو تصحيحها

الصحيفة	السطر	الخطــأ	الصواب
٥٤	١	الم	الم
١٠١	١٣	وحاشا الله	وحاشا لله
١٣٤	٢٤	محمد محمد السماحي	محمد السماحي
٢٢٦	١٧	تجلي	تجلى
٣٠٧	٢٢	الآية ٢٤	الآية ٢٢
٣٣٦	٨	خرسان	خراسان
٣٤١	١٤	يعمشان	يعلشان
٣٧٨	٢٤	٤٥١	٥١٤
٣٩٩	١٥	زيد العابدين	زين العابدين

كما نرجو القارئ الكريم أن يضع في أعلى الصحيفة ١٢٣ كلمة « ثانياً » إلى جانب العنوان ، فيصبح العنوان :

ثانياً : من اشتهر برواية الاسرائيليات من الصحابة

ونرجو أن توضع في أعلى الصحيفة ١٩٨ كلمة « الفصل الثاني »